فلسطين في عهد العثمانيين (٢)

من مطلع القرن الثالث عشر الهجري / التاسع عشر الميلادي

إلى العام ١٣٣٦هـ / ١٩١٨م

الدكتور عبدالكريم رافق

فلسطين في عهد العثمانيين (٢)

من مطلع القرن الثالث عشر الهجري / التاسع عشر الميلادي

إلى العام ١٣٣٦هـ / ١٩١٨م

الدكتور عبدالكريم رافق

المحتويات

المقـدمــة

يُعنى هذا البحث بدراسة جوانب متنوعة من تاريخ فلسطين بين مطلع القرن التاسع عشر والربع الأول من القرن العشرين. وقد شهدت بداية هذه الفترة محاولة أوروبية فاشلة لاحتلال فلسطين تمثلت في حملة نابليون بونابرت في العام ١٧٩٩، وشهد آخرها محاولات أكثر تنظيماً للصهيونية العالمية، يدعمها الاستعمار الأوروبي، وبخاصة البريطاني، لاحتلال فلسطين بإنشاء مستعمرات استيطانية فيها كمرحلة أولى.

وقد شهدت فلسطين، وبلاد الشام بعامة، في الفترة التي ندرسها، تطورات سياسية وإدارية وعمرانية واقتصادية واجتماعية وثقافية، متداخلة ومتسارعة، بتأثير عوامل داخلية وخارجية، وهو أمر لم تشهده بهذه الكثافة وهذا التأثير العميق، طيلة القرون الثلاثة السابقة من الحكم العثماني. ولهذا، فإن أية دراسة لفلسطين في القرن التاسع عشر لا بدّ وأن تُعنى بهذه التطورات لأنها تشكل المرتكزات الأساسية التي من خلالها يمكن فهم الأحداث اللاحقة في فلسطين بما لها من خصوصية ومكانة متميزة في تاريخ بلاد الشام.

الفصل الأول
الإطار السياسي والإداري لفلسطين

إن ما جرى من أحداث سياسية وتنظيمات إدارية في فلسطين، في القرن التاسع عشر، يساعد على فهم التطورات العمرانية والاجتماعية والثقافية والاقتصادية التي حدثت فيها. كما ان هذه التطورات تساعد، من ناحيتها، على تصحيح فهمنا للتاريخ السياسي ودوافعه العميقة وهو ما يجعل دراسته أكثر عقلانية وعمقاً.

ويلاحَظ في الإطارين السياسي والإداري كيف أن البنى التي سادت فلسطين قرابة ثلاثة قرون، منذ بدء الحكم العثماني لها في عام ١٥١٦، قد أخذت تتمزق بفعل التغيّرات الداخلية، من ناحية، والأحداث الخارجية، من ناحية أُخرى، وانعكاساتها على الدولة العثمانية ككل. وإنَّ أبرز الأحداث الخارجية، في القرن التاسع عشر، تلك التي أثارتها الثورتان الأوروبيتان: الثورة الفرنسية والثورة الصناعية، منذ الربع الأخير من القرن الثامن عشر، وما كان لهما من آثار في تسريع حركة الاستعمار الأوروبي (الامبريالي)، على مختلف المستويات، وما ترتب على ذلك من تنافس بين الدول الصناعية الكبرى في أوروبا في الحصول على المستعمرات ومناطق النفوذ في العالم، وبمعنى آخر التسابق للسيطرة على مصادر المواد الخام وعلى الأسواق للبضائع المصنّعة.

وترتّب على وصول الطبقة البورجوازية الأوروبية إلى الحكم وتسخيرها الطاقات القومية لخدمة مصالحها، داخلياً وخارجياً، أن خرج يهود أوروبا، الذين يشكلون جزءاً أساسياً من هذه الطبقة التي تملك المال والخبرة، عن عزلتهم الاجتماعية والسياسية التي فرضتها عليهم الطبقة الارستقراطية، التي خسرت المعركة مع

البورجوازية، وأصبحوا في القرن التاسع عشر أكثر فعالية في أوروبا وفي الخارج، بعد أن اعترفت البورجوازية بهم كجزء منها، سياسياً واجتماعياً، فأسهموا، من خلال البورجوازية، في النشاط التجاري والصناعي والمالي الأوروبي، وأصبحوا في الواقع حجر الزاوية في ذلك النظام الرأسمالي. وبالتدريج سخروا الأنظمة الأوروبية الحاكمة لخدمة مصالحهم ولتبنّي مطلب الحركة الصهيونية في جعل فلسطين وطناً قومياً لهم.

وقد شهدت فلسطين، خلال الفترة التي ندرسها، ثلاث حملات خارجية كبرى، أولاها حملة نابليون بونابرت التي باءت بالفشل في العام ١٧٩٩؛ وثانيتها حملة محمد علي باشا من مصر التي دامت قرابة تسع سنوات (١٨٣١ ــ ١٨٤٠)، وفتحت البلاد للرأسمالية الأوروبية؛ وثالثتها، وأخطرها في الوقت نفسه، الحملة البريطانية ــ الفرنسية ــ الصهيونية، إبّان الحرب العالمية الأولى وفي أعقابها، التي مزقت أوصال بلاد الشام وسهّلت استيلاء الصهيونية على فلسطين.

وكانت الدولة العثمانية، المسؤولة أساساً عن فلسطين، بحكم الاحتلال، تحاول أن تملأ الفراغ، بين الحملة والأخرى، بتطبيق نماذج جديدة، بصورة تجريبية أكثر منها جذرية، في الإدارة والاقتصاد بخاصة، وهذا زاد الأمر تعقيداً، إزاء المؤثرات الأوروبية الطاغية. ولفهم ما حدث من تطورات في القرن التاسع عشر لا بد من فهم الأطر العامة لأوضاع فلسطين في الفترة السابقة.

قُسمت فلسطين إدارياً، منذ مطلع الحكم العثماني، إلى خمسة صناجق (الصنجق كلمة تركية تعني اللواء أو الراية التي تحمل أمام حاكم الوحدة الإدارية التي تتشكل منها الولاية) هي: القدس وغزة وصفد ونابلس واللجون، وكانت ملحقة بولاية الشام التي شكّلت واحدة من ثلاث ولايات قُسمت إليها بلاد الشام، والولايتان الأُخريان هما حلب وطرابلس. أما الضفة الشرقية من نهر الأردن فقد قُسمت إلى صنجقين هما: عجلون والكرك مع الشوبك. وقد أُدخل، بين الفترة والأُخرى، بعض التعديلات على هذه الصناجق والولايات، كما حدث مثلاً في العام ١٦٦٠ حين أُنشئت ولاية رابعة هي ولاية صيدا، التي سُلخت من ولاية الشام وضمت صنجق صفد وصنجق صيدا مع بيروت، وذلك في محاولة من الدولة العثمانية، في عهد وزرائها العظام من آل كوبريلي (١٦٥٦ ــ ١٦٧٦)، لتوطيد نفوذها في بلاد الشام الجنوبية، وإحكام الرقابة على جبل لبنان بعد القضاء على الأمير الثائر فيه فخر الدين المعني الثاني في عام ١٦٣٥، وكذلك لتمكين ولاة دمشق من التفرغ لإقامة الأمن في أطراف ولايتهم، وجمع الضرائب، والمحافظة على قافلة الحج الشامي المتجهة سنوياً إلى الحجاز، والمشاركة في الحروب خارج الولاية التي لم تعد مظفرة كالسابق.

وتفسَّر كثرة إنشاء الوحدات الإدارية (الصناجق) في فلسطين، بالمقارنة مع غيرها، بطبيعة المنطقة الجغرافية والبشرية المتنوعة، إذ ضمّت مرتفعات وسهوباً وسهولاً وأودية، تقطعها أنهار وبحيرات، كما انها جاورت مناطق تدفق القبائل من الجنوب والشرق إلى قلب البادية الشامية وهو ما دفع بالقبائل الصغيرة التي لم تقو على الصمود أمام القبائل البدوية الكبرى القادمة من الجزيرة العربية ــ والتي سيطرت في منطقة شرقي الأردن والبادية الشامية، مثل قبائل العنزة في القرن الثامن عشر ــ إلى التسرب إلى داخل فلسطين، والإقامة في معظم مناطقها الداخلية، وبخاصة الجنوبية منها، وأقل من ذلك في المناطق الشمالية والوسطى. ونتج عن ذلك اشتهار أُسر بدوية كثيرة في فلسطين، عبر التاريخ منذ مطلع الحكم العثماني، أشهرها أسرة طراباي في شمالي فلسطين[1]، في القرنين السادس عشر والسابع عشر، وأسرة الزيادنة، وزعيمها ظاهر العمر، في منطقة صفد ــ طبرية، في القرن الثامن عشر. وقد تعاملت الدولة العثمانية مع قبائل البدو في فلسطين واعترفت بها نظراً لسيطرتها في مناطق هامة، استراتيجياً واقتصادياً، مثل غزة ونابلس وصفد، وتحكّم بعضها في طريق قافلة الحج الشامي المتجهة إلى الحجاز، أو في الطريق التجارية بين دمشق ومصر، فعينت بعض زعمائها حكام صناجق، أو ملتزمين للضرائب، أو أمراء لقافلة الحج الشامي. كما حاولت، في الوقت نفسه، أن تضرب زعيماً بآخر ليسهل عليها فرض سيطرتها، وأن تشتري ولاء قبيلة خطرة بالمال في الوقت الذي تفرض فيه الضرائب على القبائل الأصغر والأقل شأناً.

وحين قوي شأن الأمير فخر الدين المعني الثاني أمير الشوف وجبل لبنان (١٥٩٠ ــ ١٦٣٥) مدّ نفوذه على أجزاء كثيرة من فلسطين، فأضعف أُمراءها المحليين، وعيّن أبناءه حكاماً عليها. وبعد القضاء عليه أُضعفت سلطة أُمراء جبل لبنان في المنطقة بسبب انقسامهم إلى حزبين متصارعين، قيسية ويمنية. وانتقلت الزعامة الريفية في المنطقة من جبل لبنان إلى شمالي فلسطين في القرن الثامن عشر بظهور أُسرة الزيادنة البدوية الأصل في منطقة صفد ــ طبرية. وقد اشتهرت من خلال المؤسسة الحاكمة كملتزمة

للضرائب. وسرعان ما توسعت لحسابها معتمدة على دعم القبائل البدوية في المنطقة. واستطاع أحد أفراد هذه الأسرة، وهو ظاهر العمر (حوالي ١٧٣٠ ــ ١٧٧٥) أن يمدّ نفوذه على حيفا وعكا في حوالي منتصف القرن، وأسس بحق إمارة عربية في شمالي فلسطين. وقد ساعد ظاهر العمر في توطيد نفوذه انشغالُ ولاة دمشق بإمرة قافلة الحج، منذ أن عهد إليهم بها منذ عام ١٧٠٨، وحرصهم على إثراء أنفسهم وعدم الاصطدام مع ظاهر بعد أن فشلت محاولات بعضهم في اقتحام قلعتي ظاهر الحصينتين في طبرية وديرحنا. وساعده كذلك انشغال أمراء جبل لبنان في نزاعاتهم بين جنبلاطية ويزبكية، وكذلك انقسام أمراء الشيعة، في جبل عامل، على أنفسهم وانحياز فريق منهم إلى ظاهر. ولعل أهم سبب في قوة ظاهر استغلاله الموارد الاقتصادية لمنطقة الجليل، وتعامله مع التجار الفرنسيين الذين كانوا ناشطين آنذاك في المنطقة، واستخدامه العائدات المالية في استئجار القوات المرتزقة، وأبرزها المغاربة، وتقوية قواته الخاصة المعروفة بالصفدية أو الزيادنة[٢].

ومثلما أسهمت العوامل السابقة في توطيد قوة ظاهر أسهمت أيضاً، بصورة عكسية، في تقويض سلطته، إذ ثار أبناؤه عليه منذ الستينات تدعمهم القبائل البدوية التي ينتسبون إليها، كما أن أمراء جبل لبنان وجبل عامل تدخلوا في النزاع بين ظاهر وأبنائه ليزيدوا الأمر تفاقماً. وعوضاً عن تعايش ولاة دمشق مع ظاهر أخذوا الآن يركزون جهودهم لإضعافه. وزاد الأمر تدهوراً تحالف ظاهر مع حاكم مصر المملوكي علي بك، واحتلال قواتهما دمشق في حزيران/يونيو ١٧٧١ بحيث أثار هذا العمل السلطان العثماني. وأدت هذه الاضطرابات وما تلاها من قتال بين المماليك بعضهم مع بعض، وبينهم وبين ظاهر، وبين هذا الأخير والعثمانيين، وتدخل الأسطول الروسي في المتوسط إلى أن تعطلت الفعاليات الاقتصادية في المنطقة، التي كانت أساس قوته. وما ان انتهت الدولة العثمانية من حربها مع روسيا (١٧٦٨ ــ ١٧٧٤) حتى تفرغت لظاهر وقضى عليه أسطولها في العام ١٧٧٥. وهكذا انهارت هذه الإمارة العربية التي دامت أكثر من نصف قرن في فلسطين. وحاول نابليون، أثناء حملته على فلسطين في عام ١٧٩٩، البحث عن أبناء ظاهر، الذين قرأ عنهم في رحلة الرحالة الفرنسي فولني Volney، ليحكم من خلالهم، ولكن أسرة ظاهر كانت قد فقدت قوتها سياسياً. والطريف في الأمر أن سياسياً دمشقياً بارزاً، إبان الانتداب الفرنسي، هو فخري البارودي، يذكر في مذكراته أنه ينحدر من أسرة ظاهر العمر[٣].

وإذا كانت أسرة ظاهر قد شملها النسيان فإن أعمالها، وبخاصة إيجادها إمارة عربية في شمال فلسطين، متمركزة في عكا التي حصنتها أحسن التحصين، تُعد ذروة تحدي القوى المحلية، ذات الطابع العربي الأصيل، للحكم العثماني ما يزيد عن نصف قرن. ولم تكن نهاية ظاهر نهاية هذه الظاهرة التي استمرت في القرن التالي بظهور مراكز قوى عربية في عدد من مناطق فلسطين وتحديها الحكام المحتلين الأغراب، على اختلاف أنواعهم، بدءاً من حكم أحمد باشا الجزار، الذي حلّ محل ظاهر العمر في عكا، مروراً بحكم محمد علي باشا المصري في الثلاثينات من القرن التاسع عشر. ولم تنجح محاولات العثمانيين، في فترة التنظيمات، في القضاء نهائياً على مراكز القوى العربية هذه فاضطر العثمانيون إلى إشراك عدد من ممثلي هذه القوى في الإدارة العثمانية. واستمرت هذه القوى شوكة في جنب العثمانيين، شأنها في الفترات التالية إبان الانتداب البريطاني والحكم الصهيوني من بعده.

إن أسس الإمارة التي وضعها ظاهر العمر، وبخاصة الأساس العسكري، استغله، من بعده، طامع آخر، هو أحمد باشا الجزار، الذي يختلف عن ظاهر في نشأته كمملوك وفي القوى التي اعتمد عليها، وهي في معظمها مملوكية. لكنه يتشابه معه في وصوله إلى السلطة من خلال المؤسسة الحاكمة. واستطاع الجزار أن يسيطر على بلاد الشام الجنوبية في الفترة بين مقدمه مع الحملة العثمانية في عام ١٧٧٥ ووفاته في عام ١٨٠٤. وكان مركز قوته ولاية صيدا ولكنه جعل مقره في عكا التي كان ظاهر قد حصّنها.

وطمع الجزار في حكم ولاية الشام، وتمكن من توليها أربع مرات بدأت أولاها في ٢٨ شباط/فبراير ١٧٨٥. ولم يتخل عن قاعدة حكمه في ولاية صيدا التي كان يعود إليها حين عزله من الشام أو يعينٌ عليها أحد مماليكه حين ولايته على الشام. ويُعد تعيين الجزار على ولاية الشام حدثاً هاماً في تاريخ الصراع على النفوذ في بلاد الشام الجنوبية. فعوضاً عن أن يمد ولاة دمشق نفوذهم على ولاية صيدا، ومنها عكا، كما جرت العادة قبلاً، حدث العكس: إذ أصبحت المبادرة السياسية والعسكرية في المنطقة بكاملها في عكا، مركز حكم الجزار ومماليكه من بعده.

ومما يسترعي الاهتمام أن سيطرة المماليك، بزعامة الجزار، على بلاد الشام الجنوبية، من خلال المؤسسة الحاكمة العثمانية، في

أعقاب إنهاك القوى المحلية، وفقدان ولاة دمشق زعامتهم السياسية في المنطقة، إثرَ احتلال قوات علي بك المملوكي وظاهر العمر دمشق في عام ١٧٧١، لم تكن ظاهرة فريدة. فقد سيطر المماليك، في الوقت نفسه، (منذ العام ١٧٤٧ وحتى العام ١٨٣١)، على معظم العراق، وبخاصة ولايتي بغداد والبصرة، في ظل خضوع اسمي للسلطان العثماني الذي حاول مراراً التخلص منهم. وكانت الأسباب التي ساعدت مماليك العراق على الاستمرار في الحكم هي نفسها التي ساعدت الجزار ومماليكه من بعده في الوصول إلى الحكم والبقاء فيه، ألَا وهيَ ضعف القوى المحلية، والتهديد الخارجي، وعجز السلطات العثمانية عن مواجهة الوضع الجديد بالاعتماد على الولاة التقليديين. فاغتنم الفرصة المماليك الطامحون وحكموا، باسم العثمانيين، ولكن من خلال مصالحهم والإصرار على استمرارية حكمهم. وإذا كان هؤلاء المماليك قد تصرفوا كالطغاة إزاء الشعب، فإن الطاغية الأكبر الذي استغل الأسباب نفسها ـ إنهاك القوى المحلية، والدفاع ضد العدوان الخارجي، وتفويض الدولة العثمانية الأمور إليه لإعادة الأمن ـ هو محمد علي باشا الذي سخّر مصر لمصلحة أسرته التي حكمت بين عامي ١٨٠٥ و١٩٥٢[٤].

كان الجزار سيد الموقف في بلاد الشام الجنوبية، ومنها فلسطين التي توزعتها إدارياً ولايتا الشام وصيدا. وتحدّى بجيشه من المماليك السلطة العثمانية في سبيل الاستمرار في الحكم. وأخضع السكان المحليين، ومنهم أمير جبل لبنان بشير الثاني الشهابي. وبلغت شهرة الجزار الذروة بمقاومته في عكا الحملة الفرنسية بقيادة نابليون، وذلك بالتحالف مع الأسطول الإنكليزي. وكان نابليون قد نزل بجيوشه في مصر، في صيف العام ١٧٩٨، وتوجه في أوائل العام التالي، لاحتلال بلاد الشام في محاولة منه لاستباق الخطر العثماني الذي ظهر في أنباء قدوم جيش عثماني بري لمحاربته في مصر ولإقامة منطقة عازلة، وربما حكومة محلية موالية له، في بلاد الشام، تفصل بين حكمه في مصر وبين العثمانيين في الأناضول. وطبيعي أن المصالح الاقتصادية الفرنسية ومحاولتها ضرب مصالح منافستها بريطانيا بالسيطرة على الطريق المؤدية إلى الهند، عبر بلاد الشام ومصر، كانت لها الأولوية في السياسة الفرنسية آنذاك إلى جانب طموح نابليون ومحاولته استخدام توسعه في الشرق وسيلة للسيطرة على الحكم في فرنسا.

احتل الفرنسيون، في ٢٠ شباط/فبراير ١٧٩٩، قلعة العريش التي كان يرابط فيها ألف وخمسمائة جندي، وتجمعت قواتهم في خان يونس في ٢٦ شباط/فبراير استعداداً للهجوم على غزة التي ما لبثت أن استسلمت لهم. وسقطت مدينة الرملة بأيدي الفرنسيين في ٢ آذار/مارس، وأخذت القوات العثمانية بالتجمع في يافا التي تمتعت بتحصينات قوية نسبياً، وكان يدافع عنها حوالي أربعة آلاف جندي. وصمم نابليون على احتلال يافا بسرعة ليتمكن من الحصول على الإمدادات بحراً من مصر، فحفر الخنادق من حولها في ليل ٥ آذار/مارس، واحتلها في اليوم التالي. وارتكب نابليون ما عُرف بأشد أعماله قسوة ووحشيةً حين قتل ألفين من حامية يافا بعد استسلامها له لأنه، كما قال، لو احتفظ بهم لأوجدوا له مشكلة من ناحية إطعامهم وحراستهم، ولو أطلق سراحهم لكانوا ربما انضموا إلى صفوف خصومه. واستسلمت حيفا للفرنسيين، وبدأ حصارهم عكا في ١٨ آذار/مارس. وقد فشلت هجماتهم في اختراق أسوارها. ولكنهم احتلوا في ٣١ آذار/مارس قلعة صفد ومدينة الناصرة، كما احتلوا صور في ٤ نيسان/إبريل لإعاقة تقدم القوات التركية التي اشتبكوا معها عند قرية لوبية وتراجعوا أمامها باتجاه كفركنا (لوبية وكفركنا قريتان بين طبرية والناصرة) واتجه نابليون مع قوات كبيرة لمواجهة القوات التركية واشتبك معها في معركة عند جبل طابور في ١٦ نيسان/ابريل. وهزمت القوات التركية، واحتل الفرنسيون طبرية. ثم عاد نابليون إلى حصار عكا.

وقد فشلت حملة نابليون على بلاد الشام بعد امتناع أسوار عكا وحصونها عليه بقيادة أحمد باشا الجزار وبدعم الأسطول الإنكليزي. ورفض الأمير بشير الثاني الشهابي، أمير جبل لبنان، دعوة نابليون للانضمام إليه. وانسحب نابليون إلى مصر في ٢٠ أيار/مايو ١٧٩٩ بدون أكاليل غار. وكان ذلك بداية النهاية للحملة الفرنسية في المنطقة بأجمعها[٥].

وعزّز الجزار نفوذه العسكري والسياسي المتزايد فقام بابتزاز المال من الأهلين، وفرض السخرة في تحصين عكا[٦]. وتضرر الفلاحون، بصورة خاصة، من هذه الإجراءات، التي ألحقت الأذى بالزراعة. وشدّد الجزار قبضته على الملتزمين الذين أرهقوا بدورهم الفلاحين. ونظراً لشدته وبطشه لم تحدث ثورات شعبية ضد الجزار. ولكن خلفه في حكم عكا وولاية صيدا، وهو مملوكه سليمان باشا (١٨٠٤ ـ ١٨١٩)، لم يستطع الاستمرار في سياسة الجزار الجائرة. وقد عُرف سليمان بالعادل نسبة لمحاولته إقامة العدل بالمقارنة مع الجزار. وعاد ولاة الشام، في عهده، إلى ممارسة نفوذ أكثر من السابق في المنطقة. وحدث نوع من التوازن بين الفريقين، خاصة وأن الأخطار تهددتها من الجزيرة العربية. وامتنع

خروج قافلة الحج الشامي إلى الحجاز عدة سنوات بسبب ذلك الخطر[٧].

ونلاحظ ثلاث ظواهر في فلسطين في فترة ولاية سليمان باشا في صيدا: أوّلاً قيام ثورات محلية ضد السلطة العثمانية الممثّلة بوالي صيدا ووالي دمشق المسؤولين عن حكم صناجق فلسطين، وثانياً حدوث كوارث طبيعية كانت لها آثارها الاقتصادية المدمرة، وثالثاً نمو العمران وما يرتبط بذلك من ازدهار.

وكانت أولى الثورات تلك التي قام بها محمد باشا أبو مرق متسلم صنجق غزة، ومركزه يافا. وقد شغل هذا المنصب، فضلاً عن متسلمية صنجق القدس، في عهد الجزار، ثم ثار على الجزار وعلى سليمان باشا من بعده. واعتمد أبو مرق على تأييد محمد علي باشا في مصر، وقد لجأ إليه حين شُدد الحصار عليه في يافا. ثم قضى سليمان باشا على ثورته في عام ١٨٠٧[٨]. والجدير بالذكر أن صنجق غزة، شأنه شأن صنجق نابلس وصنجق القدس، كان يتبع والي دمشق. ولكن نظراً لأهمية والي صيدا في منطقة فلسطين ــ تلك الأهمية التي رسخت إبان حكم الجزار ــ فقد عهدت الدولة العثمانية إلى سليمان باشا بتدبر أمر الثائرين. وكافأته الدولة على بطشه بأبي مرق ودخول قواته يافا بأن عهدت إليه بمتصرفية صنجق غزة ويافا وتوابعها، فضلاً عن ولاية صيدا[٩]. وحين تحرك «بعض العصاة من أرباب الشقاوة» في مدينة القدس في أوائل عام ١٨٠٧ وطردوا المتسلم «الموجود فيها من طرف والي الشام»، وسيطروا على أبواب المدينة والقلعة، عهدت الدولة إلى سليمان باشا والي صيدا بالقضاء على الثائرين فأرسل قوات إلى القدس تمكنت من القضاء على العصاة وقطع رؤوس ستة وأربعين من زعمائهم. وأرسل سليمان باشا الأخبار بذلك إلى والي الشام، وطلب إليه إعادة متسلّمه إلى القدس[١٠]. وهذا مثال آخر على أن والي صيدا، منذ عهد الجزار، كان هو صاحب النفوذ الفعلي في صناجق فلسطين بالرغم من تبعيتها إدارياً لوالي الشام الذي فقد الكثير من نفوذه في المنطقة. وكان من الممكن أن تشتد المنافسة بين والي صيدا ووالي الشام، كما ظهرت بوادر ذلك حين آلت ولاية الشام إلى يوسف كنج آغا الكردي، ولكن توسع الوهابيين وتحركهم باتجاه الشام في عام ١٢٢٤هـ / ١٨٠٩م ومنعهم قافلة الحج من السفر إلى الحجاز قرّبت بين الواليين فتناديا لدرء هذا الخطر الذي تهددهما معاً. وطلب سليمان باشا من أصحاب النفوذ في منطقته التجمع عند طبرية لنجدة والي الشام ضد الوهابيين. وكان من الزعماء المحليين الذين طُلب إليهم المشاركة في النجدة، فضلاً عن الأمير بشير الثاني الشهابي أمير جبل لبنان، الشيخ فارس الناصيف شيخ مشايخ الشيعة والشيخ سعد القعدان شيخ فريق من بدو بني صخر، والشيخ مهيد شيخ الفريق الآخر، ومشايخ التركمان التابعين لبلاد صفد، ومشايخ عربان بلاد صفد، ومشايخ بلاد صفد (ولعلهم مشايخ القرى فيها)، وكذلك وجوه، أي أعيان، جبل نابلس. ويدل هذا على أهمية هؤلاء الزعماء محلياً، وعلى إمكاناتهم العسكرية التي تفيد في القتال، ويدلّ أيضاً على انصياعهم لأوامر الدولة. وأعدت كذلك المؤن اللازمة في مناطق الريف لتمويل هذه القوى[١١].

ويبدو أن السلطان العثماني، في محاولة منه لتكتيل القوى العثمانية في بلاد الشام الجنوبية وراء زعامة واحدة، بعد أن وصلت القوات الوهابية إلى قرية مزيريب (على بعد ١٠٣ كم جنوبي دمشق)، عهد إلى سليمان باشا العادل والي صيدا بولاية الشام وكذلك ولاية طرابلس، فضلاً عن ولايته على صيدا، وذلك في العام ١٢٢٥هـ / ١٨١٠م. وأشار سليمان باشا إلى ذلك في المرسوم الذي وجّهه إلى مسؤولي مدينة نابلس حين ذكر لهم أن السلطان «أنعم علينا بمناصب الشام وصيدا وطرابلس وملحقاتها وتوابعها مع إلحاق سنجق القدس الشريف ونابلس وإدارة الحج الشريف وسر عسكرية الجردة (القوة التي تلاقي الحج حين عودته) وتصرف سنجق غزة ويافا والرملة ولاذقية العرب وتوابعهم عن واجب هذه السنة المباركة سنة خمسة وعشرين»[١٢]. وقد استمرت ولاية سليمان باشا على ولايات صيدا والشام وطرابلس سنة ثانية كما جاء في المرسوم الذي وجهه إلى سلطات نابلس بهذا المعنى من أن رسولاً من الأستانة حمل إليه أوامر ملوكية «بإبقاء وتقرير إيالة الشام وإمارة الحج الشريف وإلحاقاتها لوا القدس الشريف ونابلس وإيالة صيدا ولوا غزة وإيالة طرابلس الشام و (؟) الجردة ومحصلية لاذقية العرب لعهدتنا العاجزة»[١٣].

وقد ثار في العام ١٢٢٨هـ / ١٨١٣م أبو عودة الجيوسي، شيخ ناحية بني صعب، في منطقة نابلس، وتحصّن في قلعة صوفين، ورفض دفع مال الدورة، وهي الضرائب التي كان يجمعها والي الشام أثناء دورته السنوية في أنحاء الولاية لهذا الغرض، فاستعان والي الشام بوالي صيدا سليمان باشا الذي أخضع آل الجيوسي[١٤]. وعهد بمشيخة ناحية بني صعب إلى ابن أخي متسلم نابلس موسى بك طوقان. ويدل هذا على المكانة الهامة التي كانت لأسرة طوقان المحلية في منطقة نابلس واعتماد العثمانيين على أفرادها في الإدارة. واستمر ذلك لعدة سنين[١٥]. ويتبين من المراسيم التي كان يصدرها والي الشام بهذا الخصوص

(بتعيين الأمير موسى بك طوقان في متسلمية نابلس بسبب عدم رضى الدولة عن آل الجيوسي) أن صنجقي القدس ونابلس وملحقاتهما، فضلاً عن ولاية طرابلس، كانت تابعة في هذه الفترة إلى والي الشام(١٦).

وكان اشتغال والي الشام، وهو المسؤول عن معظم صناجق فلسطين، بتأمين سلامة قافلة الحج الشامي وبالمنافسة على النفوذ السياسي في المنطقة مع والي صيدا مدعاة للزعامات المحلية في فلسطين، وبخاصة في منطقة جبل نابلس وجنين والقدس والخليل، لأن تبرز وتتكتل وتتنافس بعضها مع بعض في منأى عن السلطة العثمانية أحياناً وبتآمر معها أحياناً أخرى. وكان والي الشام يعتمد في حكم نابلس على آل طوقان الذين كان يؤيدهم آل البرقاوي. وذكر من هؤلاء، في العام ١٢٣١هـ / ١٨١٥م، كل من الشيخ عمر السليمان البرقاوي والشيخ صالح أبو بكر البرقاوي بمناسبة خلاف بينهما حول مشيخة قريتي سبسطية وجيت التي كانت لهما، وتوسط في الخلاف بينهما متسلم نابلس الأمير موسى بك طوقان(١٧). وقد دخل موسى بك هذا، في عام ١٢٣٢هـ / ١٨١٦م، في نزاع مع زعيمين آخرين هما موسى العثمان وقاسم الأحمد الجماعيني، وسرعان ما استقطب هذا النزاع آل جرار والبرقاوي وعبد الهادي والجيوسي. وتولج سليمان باشا أمر المصالحة بينهم(١٨). ومما ساعد هؤلاء الزعماء في فرض نفوذهم محلياً تحصنهم في قلاع منطقة نابلس وجبالها، وطاعة الفلاحين لهم، وتشجيع كل من والي الشام ووالي صيدا لفريق ضد آخر، وكذلك انقسامهم إلى قيسية ويمنية وما يثير ذلك من عصبية ضمن إطار الحزب الواحد، وبين الحزبين(١٩).

وإلى جانب نزاعات الزعماء هؤلاء التي أضرّت بالفلاحين وبالزراعة، حدثت في فلسطين، في هذه الأثناء، كوارث طبيعية مثل السيل الكبير الذي دهم عكا في تشرين الأول / أكتوبر من العام ١٨١٠ وأضرّ بكميات من السكر اشتراها رجل استانبولي من مصر ووضعها في مخزن فيها(٢٠). وانتشر الطاعون في العامين ١٨١١ و١٨١٢ من عكا إلى المدن الأخرى والأرياف، وعمد الناس إلى الاختباء، ومع ذلك توفي به، كما يقول الأخباري إبراهيم العورة «خلق كثير»(٢١).

إلا أن عكا أفادت من حكم سليمان باشا الذي عمّر سورها في عام ١٨٠٦، وأقام جسراً خشبياً على مينائها لتسهيل حركة المسافرين. وبنى قائمقامه علي آغا خاناً لربط الدواب بين سوري عكا، أسماه خان الحمير، وذلك لتنظيم ورود الناس إلى عكا، وأيضاً لفرض الضرائب على دوابهم. ومن الأعمال الهامة التي جرت في عكا جلب المياه إليها من نبع الكابري الذي يبعد عنها مسيرة ثلاث ساعات ونصف الساعة، واستخدمت لذلك الأقنية والقناطر(٢٢). وتمّ كذلك ترميم بعض الجوامع وبناء البعض الآخر، مثل تجديد جامع المجادلة في عكا، في عام ١٢٢٥هـ / ١٨١٠م، من قبل علي آغا، لأن الجامع يقع قبالة داره. وبعد أن حصل علي آغا هذا على لقب باشا أمر بإعادة بناء جامع قرية كفرتا، التي تبعد عن شفا عمرو مقدار ساعة، وبعمارة جامع في الناصرة وقد رتّب له الأوقاف وعيّن عليه الشيخ عبد الله الفاهوم قاضي الناصرة. وبنى سليمان باشا سبيلاً عند بوابة عكا لفائدة القادمين إليها والذين يبيتون عند هذه البوابة. ولعل أهم أعمال سليمان باشا ترميمه في العام ١٢٣١هـ / ١٨١٦م قبة الصخرة والمسجد الأقصى في القدس، وكذلك تربة النبي داود ومقامه. وبالرغم من أن القدس كانت تابعة لوالي الشام فقد تمّ ذلك بطلب من استانبول مما كلف سليمان باشا مبالغ ضخمة(٢٣).

ويمكن تلخيص وضع فلسطين السياسي والإداري في عهد ولاية سليمان باشا على صيدا بأن والي الشام المسؤول أساساً عن صناجق فلسطين كان يعهد بأمورها إلى سليمان باشا بسبب انشغاله في أمور الحج، وبسبب هيمنة سليمان باشا في المنطقة. ونظراً لهذه الهيمنة عين سليمان باشا، على غرار الجزار، والياً على دمشق بين عامي ١٨١٠ و١٨١٢ وناب عنه في حكم صيدا كتخداه علي باشا(٢٤)، (كتخدا كلمة فارسية تعني مساعد). كما أن الزعماء المحليين، وبخاصة في منطقة نابلس، كانوا على علاقة جيدة مع سليمان باشا، إن لم يكن مع السلطة العثمانية الممثلة بالنسبة لهم بوالي الشام، لأن سليمان باشا عرف كيف يسوسهم بالتهديد حيناً وباللين حيناً آخر، في حين كانوا يتحدّون والي الشام الأضعف منه. وأفادت بعض مدن فلسطين، وبخاصة عكا، مقر والي صيدا، من شهرة سليمان باشا ومساعديه التي ترجمت عملياً ببناء عدد من الأبنية ذات النفع العام كالجوامع وغيرها.

وقد شغل ولاية صيدا في الفترة بين وفاة سليمان باشا في عام ١٨١٩ ومجيء الحملة المصرية في عام ١٨٣١ عبد الله باشا، وكان في السابق كتخدا سليمان باشا، وينحدر من أب مملوكي. وقد أعاد عبد الله باشا سياسة الجزار الظالمة في التعامل مع الرعايا وفي مضايقة الأمير بشير الثاني الشهابي، فاضطر هذا إلى أن يلجأ إلى محمد علي باشا في مصر. وقاوم عبد الله باشا محاولة السلطان لعزله عن ولاية صيدا في العام ١٨٢٤، بالتواطؤ مع والي دمشق، وطلب المساعدة من محمد علي باشا في مصر. ومنذئذ أصبح محمد علي باشا في مكانة الحَكَم في شؤون بلاد الشام الجنوبية إلى أن احتلها في العام ١٨٣١(٢٥).

وبالرغم من تبدّل ولاة الشام وصيدا الذين تدخلوا في شؤون فلسطين بحكم المسؤولية الإدارية أو بسبب ازدياد النفوذ، فإن الأسر المحلية التي اعترف العثمانيون بها، واستخدموها أدوات لسلطتهم، وضربوا الواحدة منها بالأخرى أحياناً لإضعافها، كانت باستمرار محور السياسة المحلية في معظم مناطق فلسطين، من خلال الإدارة العثمانية وخارجها. وكان لهذه الأسر، إلى جانب القبائل البدوية التي كثيراً ما تداخلت معها، دورٌ رئيسيٌّ في دعم السلطات الحاكمة من عثمانية تقليدية، أو مملوكية عسكرية، أو، فيما بعد، مصرية شديدة المركزية، كما كان لها أثر في مناهضة هذه السلطات نفسها.

وقد استغل سكان فلسطين اضطراب الأوضاع في المنطقة، في العشرينات من القرن التاسع عشر، التي أثارتها سياسة عبد الله باشا، وعداء والي الشام له، وحصار هذا الأخير عكا أكثر من مرة، وتذبذب سياسة استانبول بين الفريقين، وكذلك استغلّ هؤلاء السكان تدخل الأمير بشير الثاني الشهابي ومحمد علي باشا في النزاع، فتعاظم دورهم السياسي، وبخاصة معارضتهم محاولات فرض الضرائب الإضافية وابتزاز المال منهم، وقاموا بسلسلة من الثورات بين عامي ١٨٢٥ و١٨٣١.

وكان الباعث على بدء هذه الثورات التي اتصفت بالعنف منذ مطلع عام ١٨٢٥ طلب والي الشام مصطفى باشا مبالغ إضافية من المال من بعض مناطق ولايته بحجة تمويل قافلة الحج الشامي. وامتنع سكان منطقة القدس ونابلس عن دفع ذلك لمتسلم القدس، وتكتلوا من حول الزعيم البدوي إبراهيم أبو غوش الذي كان يسيطر على الطريق الرئيسية بين القدس والرملة، ويفرض الاتاوات على المسافرين عليها. وتذكر المصادر أن العثمانيين عهدوا إلى أسرة أبو غوش، منذ عهد السلطان سليمان القانوني، بحماية طريق القدس ــ الرملة، وكان مقرهم قرية القُبيبة أو عمواس شمال غربي القدس، وأصبح مقرهم فيما بعد قرية العنب (أو قرية أبو غوش غربي القدس). وازداد عداء أبو غوش لوالي الشام بعد أن اعتقل هذا الأخير أحد إخوته. واستنجد متسلم القدس بوالي الشام الذي قدم على رأس قواته وبدأ يجمع المال المفروض على السكان. وقد استسلم لطلباته بعض الفلاحين، وقرر البعض الآخر مقاومة الوالي، فيما هرب قسم آخر من قراهم. ومن الذين هربوا سكان قرية سلوان، ووادي سلوان (أو وادي النار) شرقي القدس، وسكان قرى المالحة وعين كارم والولجة إلى الغرب من القدس، وقرى بيت حنينا وبيتين إلى الشمال منها، وصور باهر وبيت صفافا فضلاً عن سكان بيت جالا. ولجأ بعض السكان إلى الأديرة، داخل القدس وخارجها، وحصّنوها، ولكنهم دفعوا، مع رهبان هذه الأديرة، ثمناً باهظاً لوالي الشام الذي حاصرهم وأرغمهم على دفع الضرائب. وقد صمم سكان بيت لحم ومن لجأ إليهم على المقاومة، ولكن تهديد والي الشام بمهاجمة البلدة اضطر رهبان الأديرة والسكان فيها إلى شراء انسحابه بمال كثير. وما إن عاد الوالي إلى دمشق حتى عاد السكان إلى التمرد في ٥ حزيران / يونيو ١٨٢٥م، واستولى الثائرون في القدس على القلعة وسور المدينة وبواباتها، وطردوا المتسلم، ونصبوا زعيمين من بينهم هما يوسف عرب جبجب أخي وأحمد آغا دزدار، وكتبوا إلى محمد علي باشا في مصر وعبد الله باشا في عكا وإلى السلطان العثماني يشرحون أسباب ثورتهم.

وكان السلطان محمود الثاني منشغلاً آنذاك بالقضاء على الانكشارية. فعهد إلى عبد الله باشا والي صيدا بالقضاء على ثورة القدس. فأرسل هذا قوات بقيادة كتخداه، واشترى خضوع أسرة أبو غوش بالمال فسمحت له بالمرور من المنطقة التي تسيطر عليها، وبذلك أبعد هذه الأسرة عن دعم الثائرين في القدس والفلاحين المؤيدين لهم. ورفض الثائرون في القدس الاستسلام لقوات عبد الله باشا بالرغم من قصف هذه القوات للقلعة حيث تحصن الثائرون واستمروا يقاومون طيلة سبعة أيام. ولم يُجْدِ إرسال عبد الله باشا قوات إضافية ومدافع أكبر.

والذي لم تستطع السلطة العثمانية الحصول عليه بالقوة حصلت عليه بالانقسام الداخلي في صفوف الثائرين. فقد طال الحصار والقتال، بالنسبة لإمكاناتهم، وانتشر الفقراء في الشوارع بسبب انقطاع ورود المواد الغذائية إلى المدينة، وأرهب الرصاص والقنابل النساء والأولاد، فانقسم الثائرون إلى فريقين: فريق أصرّ على المقاومة وكان هو المتورط الرئيسي في القتال ويسيطر على القلعة، وفريق آخر رغب في المفاوضة. وتم الاتصال بالكتخدا خارج السور فوعد بالأمان للجميع وبأن يدفع السكان الضرائب المقررة فقط دون أية إضافات، وبألا تتدخل حامية القلعة في السياسة أو غيرها. وأقسم المتفاوضون على احترام هذه البنود. واضطر الفريق المتشدد إلى الموافقة عليها. وأصدر عبد الله باشا العفو عن زعيمي الثائرين وطلب إلى أحمد آغا دزدار الإقامة في نابلس وإلى يوسف عرب جبجب أخي الإقامة في الرملة. وسلّم عبد الله باشا القدس إلى والي الشام الذي أرسل إليها متسلماً وقوات في ٢٠ كانون الأول/ديسمبر ١٨٢٦م(٢٦).

وتروي المصادر حدوث ثورات متعددة في فلسطين في فترة

العشرينات من القرن التاسع عشر ولكنها تختلف فيما بينها حول زمان هذه الثورات ومكانها وزعمائها وإن كانت تتفق على فشلها في النهاية على يد عبد الله باشا والي صيدا وطرابلس آنذاك بتكليف من والي الشام. وذُكر أنه حدثت في منطقة نابلس ثورة عارمة تزعّمها آل جرار، الذين دعمهم الفلاحون، احتجاجاً على كثرة الضرائب التي فرضها عليهم والي الشام. وعهد هذا الأخير إلى عبد الله باشا بتأديب العصاة الذين تحصنوا أولاً في قلعة نابلس، ثم في قلعة صفد. ومن المصادر ما يذكر أنهم تحصنوا في قلعة سانور (جبال نابلس). واعتمد عبد الله باشا على قوات أمير جبل لبنان بشير الثاني الشهابي، واصطدمت قواته بالثائرين قرب قرية عَجَّة (شمال غرب نابلس) فبطش بهم، كما احتل قلعة صفد. ومن المصادر ما يذكر أن عبد الله باشا، إزاء الخطر الداهم من مصر آنذاك، توصل إلى اتفاق مع عبد الله جرار في العام ١٨٣١م عيّنه بموجبه متسلماً على جبل نابلس(٢٧). وقد ذُكر أن عبد الله باشا، بتكليف من والي الشام أو بتشبث منه، قد جعل نفسه آنذاك متصرفاً على صناجق غزة ويافا والقدس ونابلس، كما تدل ألقابه التي اتخذها حين أجرى التوقيع على أوامر أصدرها في ٩ ذي القعدة ١٢٤٦هـ / (٢١ نيسان/أبريل ١٨٣١م) وغرة محرم ١٢٤٧هـ / (١٢ حزيران/يونيو ١٨٣١م)(٢٨).

ومهما يكن من أمر معالجة الدولة لهذه الثورات في فلسطين فإن الأوضاع المضطربة في بلاد الشام بعامة عشية الحملة المصرية عليها كانت عاملاً حاسماً في تسهيل احتلال قوات محمد علي باشا لبلاد الشام. ومن أشهر الثورات آنذاك ثورة دمشق في صيف عام ١٨٣١م على واليها سليم باشا الذي قتله الثائرون بسبب محاولته فرض ضرائب إضافية على الأهالي(٢٩).

وفي غمار هذه الأحداث وصلت أنباء عن تحرك الحملة المصرية، بقيادة إبراهيم باشا، باتجاه بلاد الشام، في ٢٩ تشرين الأول/أكتوبر ١٨٣١. وكانت تلك الأنباء منعطفاً هاماً في تاريخ المنطقة على مختلف المستويات. ففي فلسطين احتلت قوات إبراهيم باشا غزة ويافا وحيفا والقدس ومنطقة الجليل بدون مقاومة. وقدم الزعماء المحليون ولاءهم لإبراهيم باشا، وفي طليعتهم الشيخ حسين عبد الهادي والشيخ قاسم الأحمد من زعماء منطقة نابلس، وذلك بإشارة من الأمير بشير الثاني الشهابي، فأبقى إبراهيم باشا الشيخ حسين عبد الهادي حاكماً على منطقة نابلس وعيّن أبناء الشيخ قاسم الأحمد الثلاثة حكاماً: يوسف على القدس، ومحمد على نابلس، وعثمان على يافا.

وشدّد إبراهيم باشا الحصار على عكا التي امتنعت عليه، وكان يدافع عنها عبد الله باشا. وقُدّر عدد سكان عكا آنذاك بين ثمانية وعشرة آلاف نسمة. وكان طولها ١٠٠٦ أمتار وعرضها حوالي ٤٥٧ متراً. وتمتعت بتحصينات في غاية الإحكام. وبعد قتال ضار وحصار من البر والبحر بدأ في ٢٦ تشرين الثاني/نوفمبر ١٨٣١م واستمر ستة أشهر استسلمت عكا في ٢٨ أيار/مايو ١٨٣٢م(٣٠). وانطلق إبراهيم باشا بعد ذلك لاحتلال بلاد الشام فاستولت قواته على دمشق في ١٥ محرم ١٢٤٨هـ / ١٤ حزيران/يونيو ١٨٣٢م، وهزم الجيش العثماني عند بحيرة قطينة حمص في ٩ صفر ١٢٤٨هـ / ٨ تموز/يوليو ١٨٣٢م، واستسلمت له مدن حماة وحلب وأنطاكية. وكان دخوله حلب في ١٧ تموز/يوليو ١٨٣٢م(٣١). وبعد موقعة بيلان التي انتصر فيها على العثمانيين في ٣٠ تموز/يوليو ١٨٣٢م توغلت قوات إبراهيم باشا في الأناضول، وهزمت العثمانيين من جديد عند مدينة قونية في ٢١ كانون الأول/ديسمبر ١٨٣٢م، وأسرت الصدر الأعظم الذي كان قائد الجيش العثماني في المورة. وتم الصلح بين الفريقين، بتدخل الدول الأوروبية، في كوتاهية في أيار/مايو ١٨٣٣ على أن يحتفظ محمد علي بحكم مصر وراثياً وببلاد الشام وأضنة. وهكذا انتصرت قوات محمد علي باشا التي كان وراءها خبرة عسكرية طويلة ومعارك مظفّرة خاضتها في الجزيرة العربية والسودان وشبه جزيرة المورة. وهُزمت قوات السلطان العثماني التي كانت غضة العود لم تستكمل بعد أسباب قوتها في أعقاب إلغاء الانكشارية في العام ١٨٢٦م.

وضعت الحكومة المصرية بلاد الشام بكاملها في عهدة حاكم عام مدني هو شريف باشا الذي كان نسيب محمد علي باشا ومساعده في مصر لسنوات طويلة. وكان إبراهيم باشا ممثل والده والمشرف الأعلى على الحكم في بلاد الشام بصفته القائد العام للجيش. وقسمت بلاد الشام إلى عدة مديريات أو متسلّميات يحكم كلاً منها مدير أو متسلّم ينوب عن شريف باشا في الإدارة. وتتألف هذه المديريات من حلب وطرابلس وأضنة مع طرسوس، وصيدا مع القدس ونابلس وغزة ويافا. وترك للأمير بشير حكم جبل لبنان كالسابق. وأُنشئت الدواوين والمجالس للمساعدة في الحكم وشارك فيها السكان المحليون(٣٢).

قامت الاضطرابات على الحكم المصري في فلسطين، كما في المناطق الأخرى من بلاد الشام، شاملة المدن والقرى والأرياف، بدءاً من العام ١٨٣٤م، بفعل ثلاثة عوامل: فرض ضريبة جديدة عرفت بالفردة على كافة السكان الذكور ممن هم في سن الرابعة عشرة وما فوق. وتراوح مقدار الضريبة بين خمسة عشر قرشاً

وخمسمائة قرش. وكانت تُفرض بصورة جماعية على أصحاب الحرفة الواحدة أو سكان الحي أو المدينة أو القرية. وعهد بجمعها إلى ممثلين محليين قاموا بتوزيعها بين الأفراد حسب وضعهم المادي. وبتوالي الزمن ازداد عبء الفردة على السكان لأن مبلغها العام لم يتناقص بتناقص السكان بفعل الهجرة والتجنيد، وازداد بالتالي، ما لحق الفرد المقيم من تكاليف الفردة. وعندئذ أصبحت الفردة من العوامل الرئيسية في الثورة. وأدرك إبراهيم باشا هذا الأمر في وقت متأخر، في العام ١٨٣٦م، وأوصى بإعادة النظر في هذه الضريبة[٣٣]. والعامل الآخر هو التجنيد الإجباري، وكان يحتسب على أساس عشرة بالمائة من دافعي الفردة. واتُّبعت أساليب وحشية في تطبيقه. وبالرغم من تحذيرات أولية من قبل إبراهيم باشا لوالده بعدم التسرّع في فرض التجنيد الإجباري، كما يذكر أسد رستم[٣٤]، إلاّ أنه عندما أُقر التجنيد طُبِّق في آن واحد في القدس ودمشق وحلب وبيت الدين. ودعا إبراهيم باشا أعيان القدس للاجتماع به حيث أبلغهم بقرار تجنيد ألفي رجل من منطقة نابلس، وألف وخمسمائة من منطقة القدس، ومائتين من مدينة القدس، وخمسمائة من الخليل ومنطقتها. ودعا عدداً من أبناء الأعيان ليكونوا ضباطاً على المجندين[٣٤]. ولم يكن للخدمة العسكرية الإجبارية مدة محددة لذا كان تأثيرها كبيراً على أصحاب الدخل المحدود، وبخاصة الفلاحين، مما جعل الشباب يهجرون منازلهم وأعمالهم تحاشياً لها. وزاد هذا في تعطيل الأعمال الحرفية والزراعية. وقد قدّر عدد المجندين في بلاد الشام بين خمسة وعشرين ألفاً وستة وعشرين ألفاً. ومنهم من وضع الرقم في حدود ستة وثلاثين ألفاً، وذلك من أصل مجموع السكان البالغ حوالي مليوني نسمة[٣٥]. أما العامل الثالث فهو جمع السلاح من الأهالي وذلك كوسيلة لمنعهم من مقاومة التجنيد وضريبة الفردة. وكان لهذا العامل أثره الحاسم في استثارة الجماعات المسلحة في الريف، ومن ذلك ريف فلسطين. واستثارت إجراءات أخرى لإبراهيم باشا بعض زعماء فلسطين، مثل أبـي غوش، الذي مُنع من فرض الاتاوات على المسافرين في المناطق التي يسيطر عليها، بين القدس والرملة.

حدثت أولى الثورات في بلاد الشام، ضد إجراءات إبراهيم باشا، في فلسطين فعمّت أولاً القدس، ابتداء من ١٨ أيار/مايو ١٨٣٤، حيث تجمع نحو عشرين ألفاً (أحد المصادر يجعلهم عشرة آلاف) من الفلاحين والبدو بزعامة عدد من المشايخ القيسية واليمنية من جبل نابلس ومنطقتي القدس والخليل، ومن بينهم الشيخ قاسم الأحمد الذي حاول إبراهيم باشا في البدء استمالته إليه. وتسلل الثائرون إلى القدس بزعامة صبح شوكة شيخ قبيلة الفواغرة في منطقة بيت لحم، وهاجموا العساكر المصريين فيها فلجأ هؤلاء إلى القلعة. وفي الخليل قتل الثائرون الحامية المصرية فيها. وكان إبراهيم باشا قد وصل آنذاك إلى يافا قادماً من القدس قبل أن تعمها الثورة فغادر يافا في ٢٤ أيار/مايو على رأس قواته متجهاً إلى القدس للقضاء على الثورة. واعترضه الثائرون عند قرية العنب، مقر آل أبو غوش، والتي تبعد عن القدس مسيرة ثلاث ساعات فهزمهم. ودخل القدس التي أخلاها الثائرون بعد أن انتشرت بينهم المجاعة والوباء. وهكذا اقتصرت سيطرة المصريين على المدن، مثل القدس ويافا وغزة وعكا، في حين سيطر الثائرون على المناطق خارجها. وتجمع هؤلاء في مناطق الجبال المجاورة، بزعامة الشيخ قاسم الأحمد والشيخ عيسى البرقاوي. وقدّر أحد المصادر عددهم بخمسة وستين ألفاً. ويبدو أن هذا الرقم مبالغ فيه لكنه يعكس شمولية الثورة وزخمها. وسار الثائرون نحو القدس حيث إبراهيم باشا فخرج على رأس ألفي عسكري وأربعة مدافع فهزمهم. ثم عادوا إلى التجمع وهاجموا إبراهيم باشا في ناحية بيت لحم، عند قرية بيت جالا، وقتلوا أحد كبار ضباطه ولكنه هزمهم. وعاودوا الكرة وتجمعوا من جديد وهاجموه في ناحية عين سلوان فهزمهم أيضاً. ويبدو أن خطة الثائرين كانت إرهاق قوات إبراهيم باشا بتكرار الهجوم عليها، وإيقاع الإصابات بينها، واستنفاد ذخيرتها. وفعلاً نجح الثائرون في ذلك وأحكموا قبضتهم على الطرق المؤدية إلى القدس لمنع ورود النجدات إلى إبراهيم باشا. وتدخل رؤساء الأديرة، كما يقول صاحب مذكرات تاريخية، في الصلح بين الفريقين. وقبل إبراهيم باشا، بعد أن أرهق جيشه وشحت ذخيرته، مطالب الثائرين في رفع الفردة وإلغاء التجنيد، مقابل دفع البدل، والاكتفاء بالضرائب القديمة المعتادة، وسحب جنوده من بلادهم. ولكن اشترط إبقاء حامية في قلعة القدس وتقديم المؤونة لها بحجة أنها تخص السلطان العثماني، وقلّد الشيخ قاسم الأحمد حكم المنطقة. وكانت قد حدثت اضطرابات في صفد فعهد إبراهيم باشا إلى الأمير بشير الثاني الشهابـي بإقامة النظام فيها.

وغادر إبراهيم باشا القدس إلى يافا في ٢٠ حزيران/يونيو ١٨٣٤م. وهاجمه في الطريق الشيخ مصطفى أبو غوش، زعيم الحزب اليمني، ولكن إبراهيم باشا نجح في الوصول إلى يافا التي قدم إليها والده محمد علي باشا من مصر على رأس قوات كبيرة لدعمه. وكان زعماء الثائرين قد ظنوا أن قبول إبراهيم باشا بشروطهم دليل ضعف من جانبه فعقدوا العزم على قتاله، وبذلك يتوددون أيضاً إلى السلطان العثماني. وعاد إبراهيم باشا بالقوات التي أحضرها والده واصطدم بالثائرين عند قرية زيتا وقرية دير الغصون في أواخر حزيران/يونيو فهزمهم وأحرق ست قرى في

منطقة نابلس لم تعلن الخضوع له. واستسلمت له نابلس فقتل عندها عدداً من زعماء الثائرين، في حين هرب الشيخ قاسم الأحمد والشيخ عيسى البرقاوي إلى الخليل حيث تجمع الثائرون من جديد. فهزمهم إبراهيم باشا في ٢٤ تموز/يوليو ١٨٣٤م وأباح مدينة الخليل لقواته، ولاحق المشايخ الثائرين الذين هربوا إلى الكرك، وسيطر على هذه المدينة بعد حصار دام قرابة شهر آب/أغسطس ١٨٣٤م، وأباحها لجنوده. وأنذر إبراهيم باشا البدو بعدم إيواء أي زعيم ثائر، فسلّمه هؤلاء عدداً من الثائرين الذين لجأوا إليهم فقتلهم. وكان من هؤلاء الشيخ قاسم الأحمد وابناه يوسف ومحمد، وشيخ دورا الخليل علي رباح، وعبد الجبار أبو صالح شيخ بني زيد، وإسماعيل شيخ آل المجالي في الكرك، ويوسف سلامة من قرية صلوح، وإسماعيل بن سمحان. وسجن إبراهيم باشا بعض المشايخ في عكا، كما أرسل ابني قاسم الأحمد القاصرين، وهما أحمد وعثمان، إلى القاهرة. ونصب إبراهيم باشا أبناء المشايخ المعزولين مكان آبائهم وأعطاهم لقب نواطير (أي حراس) ثم بدل اللقب بعد ذلك إلى مخاتير. وهكذا عين حسين بن سعيد سمحان ناطوراً على بني حارث الشمالية، وإبراهيم محمد على بني حارث الجنوبية. ومن القرى التي شملتها سلطة حسين بن سعيد جفنة وبيرزيت. وعاد إبراهيم باشا، بعد أن أقام الأمن في فلسطين، إلى فرض الفردة وتطبيق التجنيد وجمع السلاح[٣٦].

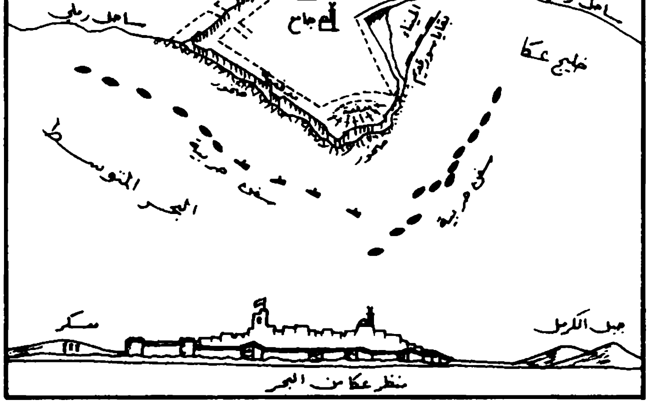
وكانت قد انتشرت في مناطق أخرى من بلاد الشام، مثل منطقة جبال النصيرية ومنطقة حوران وجبل الدروز (جبل العرب)، ثورات مماثلة، فتوجه إبراهيم باشا لإخمادها. وبعد أن تم ذلك ارتأت الإدارة المصرية أن حصر بلاد الشام بإدارة واحدة مركزها دمشق ويَرْئِسُها حاكم عام لا يساعد على إحقاق الأمن بسهولة نظراً لضخامة المسؤولية، وامتداد الرقعة، ووجود مراكز قوى ناقمة ففصلت حلب ومنطقتها عن حكومة الشام، وجُعِلَ منها مقر حاكم مستقل[٣٧].

وحين تبدّل الوضع الدولي ودعمت الدول الأوروبية الكبرى السلطان العثماني في نزاعه مع محمد علي باشا تقرر في مؤتمر لندن في ١٥ تموز/يوليو ١٨٤٠م انسحاب القوات المصرية من بلاد الشام. وفي حوالي شهر أيلول/سبتمبر من ذلك العام احتلت قوات إنكليزية بحرية وأخرى عثمانية برّية بيروت وصور وصيدا. ثم استسلمت يافا واحتلت القوات العثمانية الجليل والناصرة وطبرية وصفد. وقصفت السفن الإنكليزية في ٢٢ تشرين الأول/أكتوبر عكا، وهدمت تحصيناتها واحتلتها.

واستسلمت حامية القدس المصرية للعثمانيين، وانسحب معظم أفرادها من المدينة في ٢٦ تشرين الأول/أكتوبر. وتسلح الفلاحون من جديد لمقاومة إبراهيم باشا ولكن الصراعات الداخلية بين زعمائهم أضعفتهم. ودخل الجيش العثماني القدس في ٢٢ كانون الأول/ديسمبر.

وكان إبراهيم باشا قد غادر دمشق في ٢٠ كانون الأول/ديسمبر باتجاه مصر، وتعرض أثناء اجتيازه الضفة الشرقية للأردن ومروره بالغور ثم اجتيازه فلسطين باتجاه غزة إلى هجمات الفلاحين والبدو فضلاً عما لاقاه من قسوة الطبيعة. وحين وصل غزة في أوائل كانون الثاني/يناير ١٨٤١م كان قد فقد معظم جيشه وعتاده وحيوانات نقله. ثم غادر بحراً إلى مصر فيما غادر أفراد الجيش غزة براً. وبذلك انتهى الحكم المصري لفلسطين وبلاد الشام[٣٨].

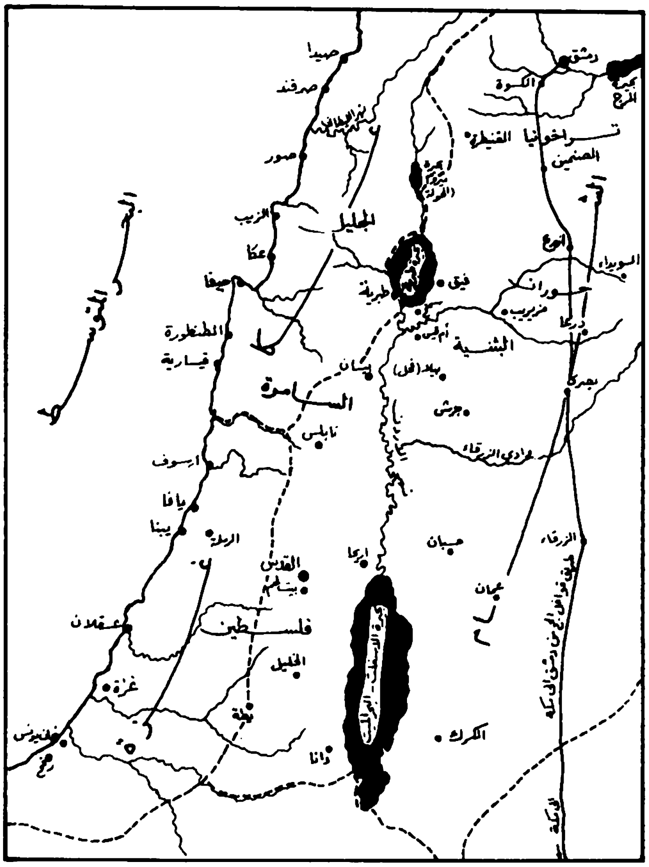
لم يتمكن العثمانيون من فرض سيطرة قوية على المناطق الثائرة في فلسطين، وأهمها جبال القدس ونابلس والخليل، خلافاً للمناطق الشمالية والساحلية التي كانت مرتعاً للثورات في عهد ظاهر العمر وأحمد باشا الجزار ثم خضعت للسلطات الحاكمة، من عثمانية ومصرية. أما المناطق الجنوبية الثائرة فقد عادت إليها، بعد انسحاب المصريين، النزاعات القبلية والانقسامات بين مشايخ القرى وزعمائها إلى قيسية ويمنية، ثم الانقسامات حتى داخل هذين الحزبين. ومن جديد اضطر العثمانيون إلى الاعتراف بهؤلاء الزعماء حكاماً محليين ومحصّلين للضرائب. ومن أبرز هؤلاء الزعماء الشيخ مصطفى أبو غوش، أحد زعماء اليمنية البارزين، الذي اعترف به العثمانيون حاكماً على منطقة جبال القدس وحامياً



مخطط معركة وحصار عكا سنة ١٨٤٠

للطريق المؤدية إليها. واعترف العثمانيون كذلك بأحد زعماء آل عمرو المدعو عبد الرحمن الذي كان شيخ القيسية الفوقا (كان مصلح العزة شيخ القيسية التحتا)، حاكماً ومحصلاً للضرائب في منطقة جبال الخليل. وكان آل أبو غوش وآل عمرو في نزاع فيما بينهما استمر عدة سنوات. وذُكر أن الشيخ مصطفى أبو غوش كان يجند المؤيدين له، في العام ١٨٤٦م، من بني مالك، وسكان جبل القدس، ومنطقة شرقي جبل نابلس، فضلاً عن بدو المساعيد وغيرهم. وكان هدفه الاستيلاء على قرى الطيبة ودير جرير ورمون وكفر مالك، وسكانها مزيج من القيسية واليمنية. وكان يعارضه في مشاريعه هذه زعماء القيسية من آل سمحان، ويؤيدهم أتباعهم وحلفاؤهم من بني مرّة وأنصارهم من رام الله والبيرة. وحدث اصطدام بين الفريقين عند قرية الوسطية، غربي الطيبة، حيث هزم اليمنيون بزعامة آل أبو غوش ثم عقد الصلح بينهما. وهكذا كان يتتالى قتال وهدنة وصلح ثم دورات جديدة من القتال سببها غياب السلطة العثمانية[٣٩].

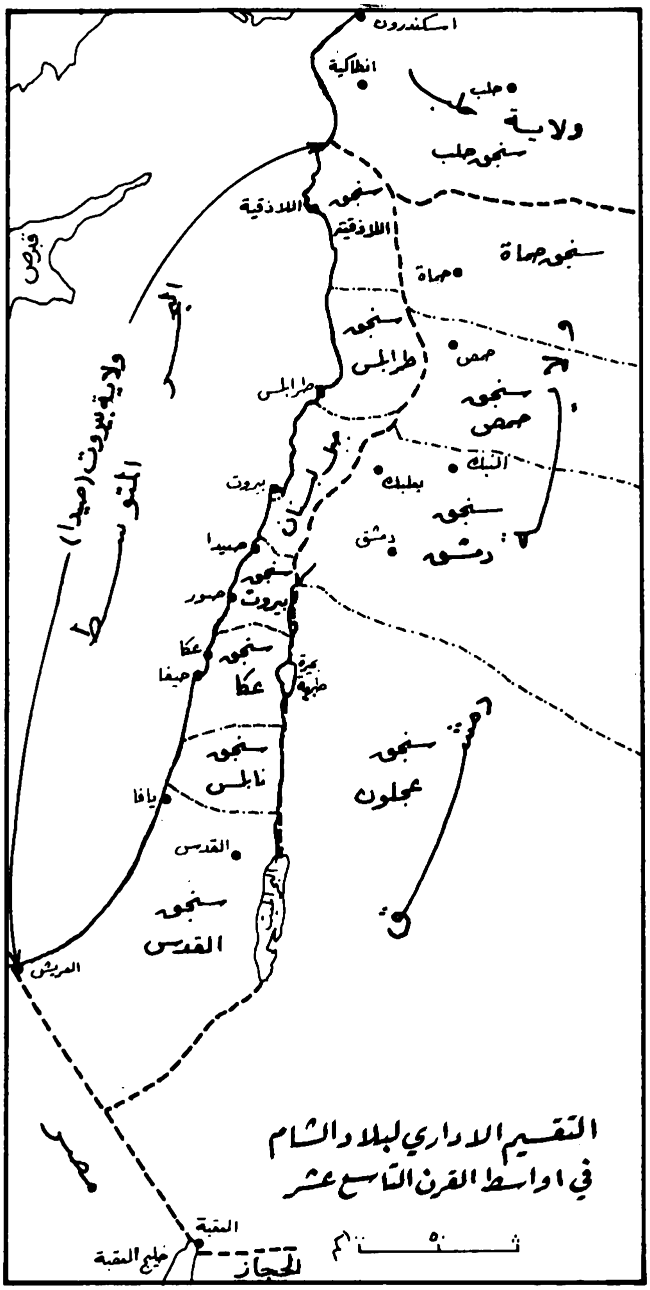
وكان العثمانيون، في الفترة بين عامي ١٨٤١ و ١٨٦٠،



فلسطين سنة ١٨٤١

يمارسون سلطتهم في فلسطين بين مدّ وجزر حسب الظروف المحلية والعثمانية والدولية، فحيناً يضربون زعيماً بآخر أو يدعمون زعيماً دون غيره من الأسرة نفسها، وأحياناً يرضخون لأية تغييرات يفرضها الزعماء المحليون أنفسهم[٤٠].

وفي محاولة من العثمانيين لإحقاق الأمن في منطقتي القدس والخليل المضطربتين أنشأوا في القدس، في العام ١٨٥٤ ولاية قائمة بذاتها ترتبط باستانبول مباشرة، هدفها إحكام الطوق على المتمردين. وكان ذلك يعتمد إلى حد كبير على شخصية الوالي،



ومدى دعم استانبول له، وموقف الزعماء المحليين منه. وضمت ولاية القدس كلاً من صنجقي غزة ونابلس[٤١]. وكان من شأن هذا الإجراء الإداري وتعيين الوالي مصطفى ثريا باشا على القدس أن توطدت سلطة الدولة فيها وفي المناطق التابعة لها. ولم تقم فيها، مثلاً، أية اضطرابات طائفية في عام ١٨٦٠ كما حدث في لبنان ودمشق[٤٢].

ويكتنف الغموض، في الكتابات التاريخية الحديثة، التطورات التي حدثت في فلسطين، وبخاصة القدس، في الفترات اللاحقة[٤٣]. وكان أبرز إجراء إداري صدور قانون تشكيل الولايات لعام ١٨٦٤، وبموجبه أُعيد النظر في التشكيلات القديمة، وقُسمت بلاد الشام إلى ولايتين هما: ولاية سوريا وولاية حلب، وقُسمت الولاية إلى متصرفيات والمتصرفية إلى قائمقاميات.

وذكر الرحالة الهولندي نيهولت Nijeholt الذي زار فلسطين في ربيع عام ١٨٦٨م أن فلسطين تتبع ولاية سوريا، ويحكمها حاكم مقره القدس، وأنها تتألف من تسع مناطق تتمركز حول القدس، والخليل، وغزة، واللد، ونابلس، والسامرة، وبلاد شقيف، وبلاد حوران، والغور الشرقي[٤٤].

وقد فُصلت متصرفية القدس عن ولاية سوريا في عام ١٨٧٣م وارتبطت مباشرة باستانبول، كما كان الأمر بالنسبة لمتصرفية جبل لبنان ومتصرفية دير الزور ومتصرفية ديار بكر بسبب الأوضاع الخاصة في كل منها. وقد ذكر نعمان القساطلي لدى حديثه عن فصل متصرفية القدس وربطها باستانبول بأنه «في سنة ١٨٧٣م انسلخ القسم الجنوبي عن سوريا وهو متصرفية القدس الشريف وصار تعلقه بالباب العالي رأساً لكثرة مشاكله واتساع الولاية»[٤٥]. وقد ازدادت بالفعل مشاكل هذا القسم الجنوبي



القدس في القرن التاسع عشر

بسبب ازدياد تدخل الدول الأوروبية والمؤسسات الدينية، وبخاصة اليهود، بفلسطين والهجرة إليها وشراء الأراضي فيها بحيث أوجد وضعاً خاصاً لها اقتضى ربطها مباشرة باستانبول، وربما كان ذلك لغير مصلحتها لأن الأحداث اللاحقة أظهرت زيادة في هجرة اليهود وفي شراء الأراضي فيها بالرغم من ارتباطها باستانبول. وأخذت «السالنامات» العثمانية التي تتضمن إحصاءات إدارية سنوية، تذكر متصرفية القدس الشريف أو لواء القدس الشريف أو صنجقه، مع الألوية الأخرى المشابهة، تحت عنوان ألوية مستقلة، أي مستقلة عن أية ولاية ومرتبطة مباشرة باستانبول. وضم لواء القدس الشريف أو صنجق القدس الشريف، كما تذكر سالنامات الدولة العثمانية، كلًّا من الأقضية التالية: يافا، بئر السبع، غزة وخليل الرحمن، ويتألف كل قضاء من عدد من النواحي.

ثم تشكلت ولاية ثالثة في بلاد الشام، هي ولاية بيروت، التي سُلخت من ولاية سوريا في عام ١٨٨٧، وذلك نظراً للأهمية التجارية والسياسية التي تمتعت بها بيروت والمناطق التابعة لها آنذاك، وكذلك بسبب الأعباء الملقاة على عاتق والي سوريا. وضمت ولاية بيروت، كما توضح ذلك السالنامات، صنجق عكا الذي تألف من أقضية حيفا وطبرية وصفد والناصرة، إلى جانب مركز اللواء وهو عكا، وصنجق البلقاء ــ نابلس الذي ضم مركز اللواء نابلس وقضاءي جنين وبني صعب (طولكرم).

وقد حدثت تبدلات إدارية فيما بعد ضمن حدود هذه الصناجق، فيما يتعلق بعدد النواحي، وفيما بينها كأن ينقل قضاء من تبعية صنجق إلى آخر مثل الناصرة التي ألحقت بصنجق نابلس ثم ألحقت بالقدس فيما بعد. وقد صُنِّفت الصناجق والأقضية التي تتألف منها إلى درجات أولى وثانية وثالثة حسب أهميتها وحجمها وأقسامها. وأشارت السالنامات إلى ذلك بكلمة صنف. ولتوضيح الثوابت والمتغيرات الإدارية في فلسطين خلال عدد من السنوات نقدم العينات التالية من ثلاث سالنامات تحمل كل منها عنوان سالنامه دولة (دولت) علية عثمانية، لأنها تُعنى بالدولة العثمانية بأجمعها:

الجدول رقم (١ ــ ١)

سالنامه ١٣١٢/ (١٨٩٤ ــ ١٨٩٥)(*)	سالنامه ١٣١٩/ (١٩٠١ ــ ١٩٠٢)	سالنامه ١٣٢٤/ (١٩٠٦ ــ ١٩٠٧)
ولاية بيروت	**ولاية بيروت**	**ولاية بيروت**
صنجق عكا	**صنجق عكا**	**صنجق عكا (صنف ١)**
ملحق بمركز الصنجق	ملحق بمركز الصنجق	ملحق بمركز الصنجق
قرى نواحٍ	قرى نواحٍ	قرى نواحٍ
١٨ ١ ساحل	١٨ ١ ساحل	١٨ ١ ساحل
١٥ ١ شاغور	١٥ ١ شاغور	١٥ ١ شاغور
٢٥ ١ شفا عمرو	٢٥ ١ شفا عمرو	١٥ ١ شفا عمرو
٥٨ ٣	٥٨ ٣	٤٨ ٣
قضاء حيفا	**قضاء حيفا (صنف ١)**	**قضاء حيفا (صنف ١)**
قرى نواحٍ	قرى نواحٍ	قرى نواحٍ
٣٧ ٠ نفس حيفا	٣٧ ٠ نفس حيفا	٣٧ ٠ نفس حيفا
٢٥ ١ قيسارية	٢٥ ١ قيسارية	٢٥ ١ قيسارية
٦٢ ١	٦٢ ١	٦٢ ١
قضاء طبرية	**قضاء طبرية (صنف ٢)**	**قضاء طبرية (صنف ٢)**
قرى ومزارع = ٣٠	قرى ومزارع = ٣٠	قرى ومزارع = ٣٠
قضاء صفد	**قضاء صفد (صنف ٢)**	**قضاء صفد (صنف ٢)**
قرى ومزارع = ٧٨	قرى ومزارع = ٧٨	قرى ومزارع = ٧٨

(*) تعتمد السالنامات التي تستخدمها تقويمين: هجري، وله الأولوية، وروميِ (مالي)، وقد اعتمدت التاريخ الهجري الذي يتصدر الغلاف في جميع السالنامات، وكذلك تبدأ به السالنامات بمعظمها سنتها في الداخل وتضع إلى جانبه ما يوازيه في الرومي (المالي) والافرنجي (الميلادي). ويلاحظ أن سالنامات دولة علية عثمانية جميعها تبدأ بالسنة الهجرية على الغلاف وفي الداخل وتجدر الإشارة هنا إلى الأخطاء التي تظهر فيها وبخاصة في الأسماء.

سالنامه ١٣١٢/ (١٨٩٤ ــ ١٨٩٥)

قضاء الناصرة

قرى ومزارع = ٢٧

صنجق البلقاء ــ نابلس

ملحق بمركز الصنجق

قرى	نواحٍ
٣١	٠ مشارق نابلس
١٠	٠ وادي الشَّعْراء الغربي
٣	١ جماعين أول
٢	١ جماعين ثاني
٤٦	٢

قضاء جنين

قرى	نواحٍ
٤٩	٠ نفس جنين
١٧	١ شَعْراوية شرقية
٢٤	١ مشاريق الجرار
٩٠	٢

قضاء بني صعب

قرى	نواحٍ
٢٣	٠ نفس بني صعب
٩	١ شعراوية غربية
١١	١ وادي الشعراء الغربي
٤٣	٢

قضاء جماعين

قرى	نواحٍ
٢٢	١ جماعين أول
٢٧	١ جماعين ثاني
٤٩	٢

صنجق قدس شريف (مستقل)

قرى ومزارع	نواحٍ
	١ بيت لحم
	١ رام الله
	١ صَفًا
	١ عبوين
١٢٦	٤

قضاء يافا

قرى ومزارع	نواحٍ
	١ رملة
	١ نعلين
١٢٦	٢

سالنامه ١٣١٩/ (١٩٠١ ــ ١٩٠٢)

قضاء الناصرة (صنف ٢)

قرى ومزارع = ٢٧

صنجق البلقاء ــ نابلس

ملحق بمركز الصنجق

قرى	نواحٍ
٣١	٠ مشارق نابلس
١٠	٠ وادي الشَّعْراء الغربي
٣	١ جماعين أول
٢	١ جماعين ثاني
٤٦	٢

قضاء جنين (صنف ٢)

قرى	نواحٍ
٤٩	٠ نفس جنين
١٧	١ شعراوية شرقية
٢٤	١ مشاريق الجرار
٩٠	٢

قضاء بني صعب (صنف ٢)

قرى	نواحٍ
٢٣	٠ نفس بني صعب
٩	١ شعراوية غربية
١١	١ وادي الشعراء الغربي
٤٣	٢

قضاء جماعين (صنف ٢)

قرى	نواحٍ
٢٢	١ جماعين أول
٢٧	١ جماعين ثاني
٤٩	٢

صنجق قدس شريف (مستقل)

قرى ومزارع	نواحٍ
١٥٦	١
١٢٦	١

قضاء يافا (صنف ١)

قرى ومزارع	نواحٍ
١٢٦	١

سالنامه ١٣٢٤/ (١٩٠٦ ــ ١٩٠٧)

قضاء الناصرة (صنف ٢)

قرى ومزارع = ٢٨

صنجق البلقاء ــ نابلس

ملحق بمركز الصنجق

قرى	نواحٍ
٣١	٠ مشارق نابلس
١٠	٠ وادي الشَّعْراء الغربي
٣	١ جماعين أول
٢	١ جماعين ثاني
٥٩	١ جماعين
١٠٥	٣

قضاء جنين (صنف ٢)

قرى	نواحٍ
٤٩	٠ نفس جنين
١٧	١ شعراوية شرقية
٢٤	١ مشاريق الجرار
٩٠	٢

قضاء بني صعب (صنف ١)

قرى	نواحٍ
٢٣	٠ نفس بني صعب
٩	١ شعراوية غربية
١١	١ وادي الشعراء الغربي
٤٣	٢

صنجق قدس شريف (مستقل)

قرى ومزارع	نواحٍ
	١ بيت لحم
	١ رام الله
	١ صَفًا
	١ عبوين
١٢٦	٤

قضاء يافا (صنف ١)

قرى ومزارع	نواحٍ
	١ رملة
	١ نعلين
١٢٦	٢

سالنامه ١٣١٢/ (١٨٩٤ ــ ١٨٩٥)	سالنامه ١٣١٩/ (١٩٠١ ــ ١٩٠٢)	سالنامه ١٣٢٤/ (١٩٠٦ ــ ١٩٠٧)
قضاء بئر السبع	**قضاء بئر السبع** (صنف ٣)	**قضاء بئر السبع** (صنف ٢)
مرتبط به ٥ قبائل		مرتبط به ٥ قبائل
عزازمة ــ تياها ــ		عزازمة ــ تياها ــ جبارات ــ
جبارات ــ ترابين ــ حناجرة		ترابين ــ حناجرة
قضاء غزة	**قضاء غزة** (صنف ٢)	**قضاء غزة** (صنف ٢)
قرى نواحٍ	**قرى ومزارع**	**قرى ومزارع نواحٍ**
١ مجدل	٧٥	١ مجدل
١ فالوجة		١ فالوجة
١ خان يونس		١ خان يونس
٧٥ ٣	٧٥	٧٥ ٣
قضاء خليل الرحمن	**قضاء خليل الرحمن** (صنف ٣)	**قضاء خليل الرحمن** (صنف ٣)
قرى نواحٍ	**قرى ومزارع**	**قرى ومزارع نواحٍ**
١ بيت عطاب	٥٢	١ بيت اعطاب
١ بيت جبرين		١ بيت جبرين
٥٢ ٢	٥٢	٥٢ ٢

(**ملاحظة**: أبقينا ألفاظ الأسماء كما وردت في السالنامات رغم تعارضها مثل مشارق ومشاريق)

يلاحظ في الجدول رقم (١ ــ ١) أن هناك ثوابت ومتغيرات إدارية. فمن الثوابت أعداد وأسماء الأقضية باستثناء قضاء جماعين الذي يغيب في سالنامه العام ١٣٢٤هـ/١٩٠٦ ــ ١٩٠٧م. ويُعدُّ هذا من المتغيرات الرئيسية في صنجق البلقاء ــ نابلس لأن غياب قضاء جماعين يرفع عدد القرى في مركز الصنجق (نابلس) من ٤٦ قرية إلى ١٠٥ قرى، أي بزيادة عشر قرى فيها لو أُضيف مجموع قرى قضاء جماعين في السالنامتين السابقتين، وقدره ٤٩ قرية، إلى القرى الملحقة بالمركز. ويلاحظ كذلك أن نواحي جماعين أول وجماعين ثاني ملحقة بالمركز في السالنامات الثلاث في حين أنها تظهر، في الوقت نفسه، في قضاء جماعين في السالنامتين الأوليين، وبعدد أكبر من القرى. ولا ندري إذا كان هذا خطأ ــ والسالنامات كثيرة الأخطاء ــ أم أنه إشارة إلى أجزاء من جماعين أول وثاني موزعة على المركز وعلى القضاء.

وبالنسبة لصنجق القدس يلاحظ أن النواحي الملحقة بالمركز في سالنامه العام ١٣١٩هـ / ١٩٠١ ــ ١٩٠٢م هي أقل بثلاث نواح من السالنامتين الأخريين. وينطبق هذا على قضاء يافا الذي يفقد إحدى ناحيتيه. ولكن ليس هناك من تفسير لغياب النواحي في قضاءي غزة والخليل وحتى القبائل في قضاء بئر السبع في هذه السالنامه. والغريب أن هذه النواحي الغائبة لا تظهر في مجموع القرى والنواحي بالنسبة لكل صنجق كما سنرى لاحقاً. فهل جرى تعديل أنقصها إلى هذا الحد أم أنها خطأ الناقل؟

وباختصار الجدول رقم (١ ــ ١) وقصره على مجموع القرى والمزارع، وكذلك النواحي والأقضية في كل صنجق، نصل إلى الجدول التالي رقم (١ ــ ٢).

الجدول رقم (١ ــ ٢)

سالنامه ١٣١٢/ (١٨٩٤ ــ ١٨٩٥)	سالنامه ١٣١٩/ (١٩٠١ ــ ١٩٠٢)	سالنامه ١٣٢٤/ (١٩٠٦ ــ ١٩٠٧)
صنجق عكا	**صنجق عكا**	**صنجق عكا**
قرى ومزارع = ٢٥٦ (الصحيح ٢٥٥)	قرى ومزارع = ٣٥٥ (الصحيح ٢٥٥)	قرى ومزارع = ٢٥٦
نواحٍ = ٤	نواحٍ = ٤	نواحٍ = ٤
أقضية = ٤	أقضية = ٤	أقضية = ٤
صنجق البلقاء ــ نابلس	**صنجق البلقاء ــ نابلس**	**صنجق البلقاء ــ نابلس**
قرى ومزارع = ٢٢٨	قرى ومزارع = ٢٢٨	قرى ومزارع = ٢٣٨

سالنامه ١٣١٢/ (١٨٩٤ ـ ١٨٩٥)	سالنامه ١٣١٩/ (١٩٠١ ـ ١٩٠٢)	سالنامه ١٣٢٤/ (١٩٠٦ ـ ١٩٠٧)
نواحٍ = ٩ (الصحيح ٨) أقضية = ٣ صنجق قدس شريف قبائل عربان = ٥ قرى ومزارع = ٣٧٩ نواحٍ = ١١ أقضية = ٤	نواحٍ = ٩ (الصحيح ٨) أقضية = ٣ صنجق قدس شريف قرى ومزارع = ٣٢٨ (الصحيح ٣٧٩) نواحٍ = ٢ أقضية = ٣	نواحٍ = ٧ أقضية = ٢ صنجق قدس شريف قبائل عربان = ٥ قرى ومزارع = ٣٧٩ نواحٍ = ١١ أقضية = ٤

يلاحظ في مجموع القرى والمزارع، والنواحي، والأقضية، في الجدول رقم (١ ـ ٢) أن سالنامتي ١٣١٢ / (١٨٩٤ ـ ١٨٩٥) و ١٣١٩ / (١٩٠١ ـ ١٩٠٢) ارتكبتا الأخطاء في جمع الأرقام، وهذا يدل على الإهمال وضرورة الانتباه إلى ذلك. وبإجراء مقارنة بين الصناجق، في أعداد القرى والمزارع، يبرز صنجق القدس في احتوائه على أكبر عدد منها، وكذلك بالنسبة للنواحي، في حين أن عدد الأقضية متعادل تقريباً بين صنجقي عكا والقدس. ويضم صنجق البلقاء ـ نابلس أقل عدداً منها. وبالرغم من هذه الأخطاء فإن السالنامات هذه تزودنا بمعلومات مقارنة غاية في الأهمية بالنسبة للصناجق التي تتألف منها فلسطين وأعداد القرى والمزارع فيها، وكذلك النواحي والأقضية.

وإلى جانب هذه التنظيمات الإدارية التي من شأنها أن تمكّن الدولة العثمانية من إحكام قبضتها، إدارياً ومالياً وحتى أمنياً، على مختلف مناطق فلسطين، نلاحظ إشراك السكان المحليين، سواء من الأسر المتنفذة أم الفنيين، في إدارة نواحيهم وأقضيتهم وصناجقهم، ويدل هذا على سيطرة الدولة على هذه الأسر، وعلى رغبة الأسر ذاتها في المشاركة في إدارة الدولة للإفادة منها ما دام ليس بمقدورها التمرد عليها.

والأمر الهام الذي يلاحظ كذلك أن الدولة عينت ممثلين عن الطوائف غير الإسلامية في مجالس الإدارة، ومنهم رؤساء روحيون من تلك الطوائف. مثال ذلك أن سالنامه ولاية سوريا لعام ١٢٩٧هـ / ١٨٧٩ ـ ١٨٨٠م تذكر[٤٦] أن مجلس إدارة صنجق عكا، الذي كان يرأسه متصرف الصنجق، كان يضم رئيس الطائفة المارونية (بالتركية: «موراني رئيس روحانيسي») يعقوب أفندي، كعضو طبيعي، ومسيحيين هما: إلياس أفندي خمّار والياس أفندي بويز، من بين الأعضاء الأربعة المنتخبين. كما أن كاتب المجلس كان مسيحياً هو الآخر ويُدعى حبيب ملكي أفندي. وبذلك يبلغ عدد الأعضاء المسيحيين في مجلس إدارة عكا أربعة من أصل أحد عشر، أي بنسبة قدرها حوالي ٣٦,٥٪.

وإذا نظرنا إلى نسبة السكان غير المسلمين في صنجق عكا، من خلال إحصاءات سالنامه ولاية سوريا لعام ١٢٩٨هـ / ١٨٨٠ ـ ١٨٨١م، ومقدارها حوالي ٣٨٪ لوجدنا أن نسبة تمثيل غير المسلمين في صنجق عكا متقاربة مع هذه النسبة. ويدل هذا أيضاً على تبدُّل السياسة العثمانية بالنسبة لرعاياها غير المسلمين، في أعقاب صدور الخطوط الشريفة والتنظيمات الأخرى التي حررتهم من كثير من القيود. ويتأكد هذا الأمر أيضاً باستعراض أسماء أعضاء المجلس البلدي في عكا الذي شكل فيه المسيحيون حوالي ٥٨٪ من مجموع أعضائه البالغين اثني عشر شخصاً. وتألف الأعضاء المسيحيون من جبور أفندي قرداحي، ويعقوب أفندي غطاس، وناصر أفندي سيقلي، ونيقولا أفندي حوا، وراجي أفندي سيقلي، وطبيب هو الياس أفندي مدور (وهو الطبيب الوحيد بين الأعضاء)، ومهندس الدرف أفندي. ونلاحظ في مجلس إدارة قضاء حيفا المؤلف من سبعة أشخاص أسماء عضوين فيه أحدهما يهودي، وهو ماير أفندي لاوي، والآخر مسيحي وهو بشارة زحلان أفندي. أما مجلس بلدية حيفا فضم خمسة أعضاء مسيحيين من أصل تسعة أعضاء، أي بنسبة قدرها حوالي ٥٦٪، والأعضاء المسيحيون الخمسة هم: سمعان أفندي، وأيوب أفندي الجدع، وعيسى أفندي سيقلي، وبولس أفندي الجدع، وجاووش الياس أفندي. وفي صفد نجد مجلس إدارتها يضم اثنين من رجال الدين المسيحيين ويهودياً هم: رئيس الطائفة المارونية واسمه يوسف أفندي، ورئيس الطائفة الكاثوليكية بطرس أفندي، وإسرائيل أفندي عمار. وفي الناصرة ضم مجلس إدارتها رئيس الطائفة المارونية الخوري بطرس أفندي كعضو دائم وكلاً من ميخائيل أفندي الخوري وناصر أفندي مزّاوي عضوين منتخبين. وضم المجلس البلدي فيها أربعة أعضاء مسيحيين من أصل عشرة أعضاء. وكان رئيس البلدية مسيحياً يدعى طنوس أفندي. وفي سالنامه ولاية بيروت لعام

١٣١١هـ / (١٨٩٣ ـ ١٨٩٤م)(٤٧) أصبح رئيس بلدية الناصرة عبد المجيد فاهوم أفندي ولكن جميع أعضاء مجلس هذه البلدية أصبحوا من المسيحيين وهم: بولص قعوار أفندي، ويوسف عازار أفندي، ويوسف الحلو أفندي، ومخايل خوري أفندي، ويوسف اسكندر أفندي، وكاتب اسكندر أفندي، وصندوق أميني نقولا أفندي. ويدل هذا المثال على بلوغ الذروة في التسامح الديني، والاعتراف بالكفاءات المحلية، وتأكيد الشعب لذلك بانتخابه هؤلاء الأعضاء.

وتبرز أسماء أعضاء من الأسر النافذة القديمة مثل حافظ طوقان بك في مجلس بلدية نابلس، ومصلح الحسين أفندي في مجلس إدارة جنين، والشيخ قاسم أفندي في مجلس بلدية قضاء بني صعب، وعبد الله الحسين رئيس مجلس بلدية طبرية، وعبد الهادي أفندي عضو مجلس الإدارة فيها، وأسعد الأحمد أفندي في مجلس إدارة قضاء جماعين(٤٨). ويدل تعيين أفراد هذه الأسر ذات الماضي السياسي العريق، كل منها في منطقتها، في أهم مجالس القضاء وهما مجلسا الإدارة والبلدية، على اندماج هذه الأسر في الإدارة العثمانية، في فترة التنظيمات هذه، وتخليها، أو على الأقل تخلّي بعض أفرادها، عن تحديها السابق للدولة بعد أن ازدادت هذه الدولة قوة وازدادت هذه الأسر ضعفاً.

ويتبين مما تقدم أن الدولة العثمانية، وبخاصة في الربع الأخير من القرن التاسع عشر، إبان الأوج في فترة التنظيمات، قد أحكمت قبضتها على فلسطين، كما فعلت في غيرها، عن طريق تنظيمات إدارية جديدة، وتجنيد إجباري، وقوات عسكرية مرابطة فيها مستفيدة من ضعف القوى المحلية التي قاومتها في السابق، وممعنة في إضعافها أكثر من ذلك لإخضاعها لسلطتها تماماً. ولكن بسبب هذا الوضع، أي قوة الدولة وضعف القوى المحلية، من ناحية، وتآمر الرأسمالية الأوروبية والصهيونية العالمية، من ناحية أُخرى، أمكن للمشاريع الصهيونية أن تقيم لها موطىء قدم في فلسطين مستغلة دعم الدول الأوروبية لها وضغطها على الدولة العثمانية وتواطؤ بعض الإداريين العثمانيين معها أو ضعفهم أمامها وهو أمرٌ مكّن اليهود الأوروبيين المهاجرين إلى فلسطين وأولئك المقيمين فيها من شراء الأراضي على نطاق واسع وتعميق نفوذهم فيها.

وتستقطب قضية هجرة اليهود وشرائهم الأراضي في فلسطين الحيز الأكبر من تاريخ فلسطين بدءاً من النصف الثاني من القرن التاسع عشر. ونظراً للتلاعب في طرق شراء الأراضي من قبل أُناس من غير رعايا الدولة العثمانية صدرت الأوامر إلى السلطات المحلية في فلسطين بالتأكد من هوية المشترين. مثال ذلك، الأمر الذي أصدره والي القدس ثريا باشا إلى قاضي غزة مصطفى أفندي علمي زاده، (أي ابن العلمي)، بتاريخ ٢ جمادى الثانية ١٢٧٥هـ / ٧ كانون الثاني/يناير ١٨٥٩م والذي يطلب منه فيه وجوب التفحص عن هوية مشتري العقار وهل «هو من تبعة الدولة العلية أم لا وكيفية الوقوف على هذه الحقيقة، يكون من رأس الملة المنسوب إليها أعني إن كان من المسيحيون [كذا] ورومي المذهب مثلاً أم خلافه فيصير الاستعلام من رأس ملته ومتى أخذ الجواب أنه من تبعة الدولة العلية وتبيّن مجلسياً سلامة بيع ذلك المحل من المجذور ملكاً وموقعاً فعندها يصير الرخصة من الحكومة بتحرير حجة وسند البيع للمشتري كما يوافق أصول الشرع الشريف»(٤٩) (كما ورد في الأمر).

ويبدو أن هذا الإجراء بقي معمولاً به بدليل ما جاء في سجل محكمة نابلس الشرعية مثلاً، بتاريخ ٢٥ محرم ١٢٩٢هـ / ٣ آذار/مارس ١٨٧٥م من شراء الخواجه سليم، الملقب بالمرّ، بن سليم الغره المسيحي الرومي من رعايا الدولة العلية بماله لنفسه من بائعه الحاج مكاوي ابن الشيخ الحاج صالح الزربا، كلاهما من محمية نابلس، ما هو بملكه حسبما يفصح عن ذلك القوجان (نسخة مصدقة) الوارد من مجلس إدارة الأملاك بلواء البلقاء (الذي تتبعه نابلس) والمحفوظ بهذا المجلس الناشىء عن علم الخبر الوارد من مختاري المحلة الآتي ذكرها وذلك جميع الطبقة والايوان العلويين داخل مدينة نابلس بمحلة الغرب بخط التوباني داخل دار الدبعي المعروفة بدار بيت الأحمدية بثمن قدره سبعة آلاف وخمسماية غرش عملة نابلس يومئذ(٥٠).

وبالرغم من صدور هذه التعليمات بشأن التأكد من هوية المشتري للعقار يبدو أنه أصابها الوهن وبدأ التلاعب بها كما يتضح من أمثلة عديدة من سجل المحكمة الشرعية في حيفا مثلاً. فقد جاء في قضية فيها بتاريخ ٤ جمادى الثانية ١٢٩٠هـ / ٣٠ تموز/يوليو ١٨٧٣م شراء الحاخام إبراهيم كوهين الحزان يهودي الملة ومن تبعة الدولة العلية ومن سكان حيفا بماله من عبد القادر ابن الحاج عمر بن مسلم من تبعة الدولة العلية ومن سكان قرية الطيري (الطيرة) ستة قراريط مشاعة بكامل كرم الزيتون الكاين بقرية الطيري بطريق الكنيسة بثمن قدره ٨٥٠ غرشاً معاملة يومئذ(٥١). والطريف في الأمر أن القضية التي تتلو هذه القضية في الصفحة ذاتها والتاريخ ذاته تتعلق بشراء إبراهيم كوهين الحزان يهودي الملة ومن تبعة دولة فرانسا الفخيمة ومن سكان حيفا بماله لنفسه من المرأة صالحة بنت محمد عويس مسلمة

ومن تبعة الدولة العلية ومن سكان قرية الطيري خمسة قراريط وربع مشاعة بكامل الحاكورة بقرية الطيري بثمن قدره ٥٥١ غرشاً وربع غرش معاملة يومئذ(٥٢).

ولا يعقل أن اسم إبراهيم كوهين الحزان في قضيتين متعاقبتين يمثل شخصين مختلفين، والأرجح أن إبراهيم هذا قد استخدم في إحدى القضيتين صفته كحاخام ومن تبعة الدولة العلية وفي الثانية تبعته لفرنسا بدون لقبه الديني ليستفيد من الامتيازات التي يمنحها له انتسابه لفرنسا. ومهما يكن، فإن هذا السجل للمحكمة الشرعية في حيفا تكثر فيه قضايا شراء اليهود للعقارات السكنية والتجارية والزراعية في منطقة حيفا وليس بيعهم لها مما يؤكد حرصهم على التملك. وفي عدة أمثلة تكتفي الوثيقة بذكر اسم المشتري ومذهبه اليهودي وأنه من سكان حيفا دون الإشارة إلى تابعيته أو تابعية البائع العثمانية، ويمكن أن يحدث تلاعب كبير في ذلك. كما أن هناك أمثلة أخرى عن مشترين يهود من تبعة دولة فرنسا في حيفا ويافا(٥٣).

وهناك أمثلة مشابهة، من أمكنة أخرى في فلسطين، في الفترة ذاتها، عن شراء اليهود للأراضي الزراعية. وكمثال على ذلك نورد قضية شراء أرض زراعية في الخليل من قبل أحد سكانها اليهود كما وردت في سجل محكمة الخليل الشرعية. وتتعلق بشراء «الخواجه روفيل ولد الخواجه نجور لاوي اليهودي القاطن بمدينة السيد الخليل بالوكالة عن الخواجه إسحاق النويتي ولد الخواجه يعقوب السكناجي القاطن بمدينة السيد الخليل من بايعه عبد الهادي ابن المرحوم عثمان عمرو جميع كردار خمسة عشر فدان أرض من أراضي الدلبة المنوع الكردار. . . بثمن قدره من القروش الأسدية والمعاملة السلطانية الصاغية ٨٢٠٠ غرش صاغ عنهم ٨٢ ذهب ليرا عثملي. ثم بعد تمام هذا البيع ولزومه وعد المشتري البايع أنه متى أتى له بمثل الثمن أن يعيد له البيع ثانياً وعداً شرعياً»(٥٤). ومما يلفت النظر في هذه القضية وكالة روفيل عن إسحاق السكناجي القاطن في الخليل، وسكناج هو التعبير المحلي لكلمة «اشكنازيم»، وهي التسمية التي تُطلق على اليهود الروس أو الألمان تمييزاً لهم عن «السفارديم» وهم يهود اسبانيا. ويُستدل من هذه القضية التي هي بيع بالوفاء، أي بيع غير باتّ، أنها تتضمن الوعد بالإباحة(٥٥)، أي استخدام الأرض أثناء مدة البيع التي لم تحدد. وهذا نوع من الدين، وعقد الشراء هنا أقوى من الرهن مما يدل على القدرة المالية لليهود واستخدامهم لها في استغلال الأراضي الزراعية التي ستؤول لهم إذا لم يوف الثمن.

ويتضح من سجلات المحاكم الشرعية هذه إقبال اليهود على شراء الأراضي في فلسطين في الوقت الذي أخذت فيه هجرتهم إليها بالازدياد وذلك قبل أن تأخذ هذه الهجرة انعطافاً متسارعاً بدءاً من الهجرات الكبرى من روسيا في العام ١٨٨٢. ويمكن بالاعتماد على هذه السجلات معرفة الطريقة التي تم بها شراء هذه الأراضي، وهوية المشترين والبائعين، ومواقع العقارات وأثمانها، وحجم هذه العمليات وذلك قبل أن تنتقل هذه الاختصاصات من المحاكم الشرعية إلى المحاكم الحديثة في السنوات الأخيرة من القرن التاسع عشر.

وقبل أن تشتد هجرة اليهود إلى فلسطين منذ أواخر الستينات وفي السبعينات، وبخاصة منذ أوائل الثمانينات، من القرن التاسع عشر، كانت هناك مدن في فلسطين لا تضم يهوداً. مثال ذلك مدينة الرملة التي لا يذكر الرحالة الهولندي نيهولت الذي زارها في العام ١٨٦٨م وجود اليهود بين سكانها الذين قدّرهم بأربعة آلاف نسمة، ثلاثة أرباعهم من المسلمين والبقية من الروم الأرثوذكس وقلة من الكاثوليك(٥٦).

ويؤكد ذلك تقرير لخبير أجنبي مطّلع على تاريخ فلسطين، في مطلع القرن العشرين، إذ ذكر أن الرملة التي تُعد ما بين خمسة وستة آلاف نسمة يشكل المسلمون فيها ٣٥٠٠ نسمة، والروم الأرثوذكس حوالي ألف أو ألف ومائتين، والبقية من اللاتين والبروتستانت واليهود. ويخص بالذكر هؤلاء الأخيرين الذين يعود وجودهم فيها كما يقول إلى العام ١٨٨٩م فقط(٥٧). وتجدر الإشارة إلى أن الناصرة لم تضمّ يهوداً حتى مطلع الحرب العالمية الأولى، على الأقل.

ومع ازدياد أعداد اليهود، وبخاصة في القدس، ازدادت نشاطاتهم الاقتصادية فاحتكروا تقريباً التجارة في القدس، وكثفوا من شرائهم للأراضي في ضواحيها والبناء فيها وتمويلها عن طريق التعاونيات. وكان كثير من اليهود آنذاك تحت الحماية البريطانية. وكان لليهود قرب يافا أراضٍ واسعة ضمت ٧٨٠ فداناً (يساوي الواحد منها حوالي أربعة آلاف متر مربع) من البساتين، وأوجد فيها اليهود في العام ١٨٧٠م مدرسة يافا الزراعية لاتحاد الإسرائيليين العالمي Alliance Israélite Universelle المعروف اختصاراً بالأليانس Alliance. وعُرفتْ هذه المدرسة باسم مدرسة «نيتر» الزراعية، وذلك نسبة إلى اسم مديرها كارل نيتر. وكان هدفها تدريب أولاد اليهود وتثقيفهم. وقد تشكّلت منها أول مستعمرة إسرائيلية تحت اسم مكفه إسرائيل، أي ينبوع أو أمل إسرائيل. وقد حاول اليهود في حيفا مزاولة العمل الزراعي، كما

خطط لهم منظّروهم، ولكنهم فشلوا فتحولوا إلى التجارة والعمل في الدكاكين وإقامة الفنادق(٥٨).

وقد وقف السلطان عبد الحميد الثاني، الذي لعب دوراً أساسياً في السياسة العثمانية آنذاك، موقفاً معارضاً في البدء لهجرة اليهود إليها كي لا يخلقوا مشكلة قومية، على غرار المشاكل القومية التي كانت تعاني منها الدولة العثمانية، خاصة وأن معظم المهاجرين اليهود كانوا ينتسبون إلى جمعية محبي صهيون. كما أن الدولة العثمانية خشيت من ازدياد النفوذ الأوروبي، وبخاصة الروسي، من خلال المهاجرين اليهود. ولكنها سمحت، بضغط بريطاني ــ ألماني، بهجرة اليهود إلى بقية أنحاء الامبراطورية العثمانية خارج فلسطين(٥٩).

ووجد اليهود مخرجاً لذلك عن طريق تبعيتهم للدول الأوروبية التي كانت تتمتع بامتيازات كبيرة منحتهم إياها الدولة العثمانية، ومن هذه الامتيازات حرية المتاجرة في أراضيها والتملك فيها. وقد تسرّب عدد من اليهود إلى فلسطين عن هذه الطريق وتملكوا فيها، كما أن الدول الأوروبية مارست ضغطاً على الدولة العثمانية إلى أن حصلت منها في عام ١٨٨٨م على امتياز يسمح لليهود الإقامة في فلسطين إفرادياً وليس جماعياً. وإلى جانب الهجرة واجهت السلطات العثمانية مشكلة شراء اليهود للأراضي. ولم تعد إجراءات التأكد من هوية المشترين مطبقة بشدة في السبعينات كما انها انهارت في الثمانينات. ونظراً لأن أصحاب الملكيات الصغيرة من سكان فلسطيِن العرب يعارضون بيع أراضيهم لليهود، وهي مصدر معيشتهم، فقد تحوّل هؤلاء إلى شراء أراضي الدولة (الأراضي الأميرية) وأراضي كبار الملاكين الغائبين خارج فلسطين (مثل آل سرسق الذين سنتحدث عنهم لاحقاً)، الذين تمثل لهم الأراضي مجرد سلعة للربح ولم تكن مورد رزق. وقد أوقفت الدولة العثمانية بيع أراضي الدولة لليهود في العام ١٨٩٢م، ثم سمحت لهم بشرائها شريطة أن يكون دخولهم البلاد قانونياً.

ومما يدل على تزايد اليهود غير الطبيعي، العريضة التي رفعها رؤساء الطوائف اليهودية في القدس وممثلوها إلى رئيس الولايات المتحدة الأمريكية يوليسيس غرانت Ulysses Grant (١٨٦٩ ــ ١٨٧٧م)، عن طريق القنصل الأمريكي في القدس، وفيها يذكرون مجيء اليهود إلى القدس ليقضوا فيها بقية حياتهم وان السكان اليهود في القدس يبلغون نحواً من ثمانية إلى تسعة آلاف نسمة معظمهم من روسيا، وأضافوا أن اليهود القادمين من الولايات المتحدة وبروسيا والنمسا وانكلترا بحوزتهم جوازات سفر من هذه الدول وهم بحماية قناصل بلادهم. وجاء في العريضة أن يهود روسيا، قبل حرب القرم (١٨٥٤ ــ ١٨٥٦م) اعتبروا رعايا لروسيا ولكن باندلاع الحرب وانقطاع العلاقات مع روسيا عهد بحماية اليهود الروس إلى القنصل البريطاني، ثم بانتهاء الحرب وعودة العلاقات صدرت قرارات روسية جديدة تنص على أن اليهودي القادم من روسيا ويحمل جوازاً منها تحميه القنصلية الروسية لمدة خمس سنوات من تاريخ صدور جوازه وعليه عندئذ العودة إلى روسيا وإلا سقطت عنه الحماية. وبما أن معظم هؤلاء اليهود فقراء وليس بإمكانهم العودة إلى روسيا لتجديد جوازاتهم، ونظراً لأنه لم يعد بإمكانهم طلب حماية انكلترا، فإن المستدعين يطلبون حماية أمريكا لهم(٦٠).

وأقام اليهود القادمون من روسيا مستعمرات لهم شمالي يافا، وازدادت بقدومهم، وقدوم آخرين من ألمانيا وبولونيا، أعداد اليهود الاشكنازيم (الأوروبيين). وكانت مراكز إقامتهم الرئيسية في القدس والخليل وطبرية وصفد. ونظراً لأن يافا كانت محطة الاستقبال الرئيسية لهذه الجاليات فإن تجمعهم فيها يفوق ما عداها من موانىء فلسطين(٦١). ويشكل اليهود الاشكنازيم هؤلاء كتلة رئيسية إلى جانب السفارديم الذين يضمون اليهود من أصول آسيوية وأفريقية وإسبانية. وكان لكل من الكتلتين جرائد أسبوعية وشهرية ونشرات تنطق باسمهم. وكان السفارديم الأكثر عدداً وثروة. وكانوا يتمتعون بمكانة اجتماعية عالية بين اليهود بالرغم من وجود مائتي أسرة معدمة بينهم. وبما أن الاشكنازيم أوروبيون فإنهم كانوا يعيشون على الصدقات والإعانات من أوروبا وأمريكا. ويتجمع اليهود الأكثر فقراً وتعبداً وتعصباً، والأكبر سناً، والأكثر أمراضاً في القدس، حيث يعيشون على الصدقات والصلوات كما يذكر القنصل الأمريكي فيها(٦٢). وقد شكا قناصل أمريكا من متاعب التعامل مع اليهود. وبعد أن شكل الأمريكيون منهم طائفة خاصة بهم لم يبق منهم تحت سلطة القنصلية الأمريكية في القدس في العام ١٨٧٩ سوى ١٠٦ أشخاص وشخص واحد أمريكي. ولم تمنح القنصلية الحماية لأي منهم غير موظفيها(٦٣).

عرفت الطائفة التي شكلها اليهود القادمون من الولايات المتحدة في العام ١٨٧٩م باسم طائفة السلام، وكان لها أنظمتها وقوانينها بهدف التعاون وإقامة الشعائر الدينية والاتصال بالأصدقاء في أمريكا بشكل منظم للحصول على التبرعات منهم بعد أن شكا اليهود الأمريكيون في القدس من الغبن في توزيع أموال التبرع الخارجية لصالح الطوائف اليهودية الألمانية والنمساوية والروسية والانكليزية بالرغم من أن معظم الأموال من أمريكا(٦٤). وقدّر

القنصل الأمريكي في رسالته بتاريخ ٢٨ آذار/مارس ١٨٧٩م أعداد اليهود الفقراء في القدس بعشرة آلاف من مجموعهم المقدر بخمسة عشر ألفاً.

وقد حاول السير لورانس أوليفانت Sir Lawrence Oliphant في العام ١٨٧٩م، الحصول من الدولة العثمانية على امتياز لإقامة مستعمرات يهودية في شرقي الأردن وفي منطقة حوران وفي العقبة في الجنوب ولكنه فشل(٦٥). وفشلت كذلك محاولات بعض المتنفذين الانكليز والألمان المتعاطفين مع اليهود في الحصول على موافقة العثمانيين على هجرة اليهود إلى فلسطين في العام ١٨٨١م. وقد وافق العثمانيون على هجرتهم إلى أي مكان في الامبراطورية العثمانية عدا فلسطين بشكل أفراد عاديين خاضعين لقوانين الدولة(٦٦). ولكن الهجرة استمرت، وبخاصة من روسيا، وبلغ تعداد المهاجرين اليهود خلال سنة، بين ٣٠ أيلول/سبتمبر ١٨٨١م و ٣٠ أيلول ١٨٨٢م، سبعة آلاف أقام منهم حوالي أربعة آلاف ونيف في القدس وأقل من ألفين في يافا وألف في الخليل(٦٧). ولا تتضمن هذه الأرقام عدد المهاجرين الفعلي الذي زاد عنها بكثير لأن أناساً كثيرين من المهاجرين كانوا ينزلون في مرفأ بيروت أو في غيره ثم يسافرون براً إلى القدس، ولا تبلّغ الحكومة بأعداد هؤلاء(٦٨). وفي إحصاء لبلدية القدس عن عدد الموافقات التي أعطتها في الفترة بين آذار/مارس إلى آب/أغسطس ١٨٨٢م لتصليح دور جديدة أو توسيعها أو بنائها كانت الأرقام كالتالي: ١٥ تصليح، ٦٣ توسيع، و ٦٥ بناء جديد. وكان ثلثا هذه الموافقات ليهود تلقوا مساعدات من الخارج. وفي إحصاء السنوات التالية تبرز أيضاً نسبة اليهود الغالبة في بناء البيوت الجديدة(٦٩).

وقد استخدم اليهود رؤوس المال الأوروبية، وبخاصة من أسرة روتشيلد Rothschild لإقامة مستعمرات زراعية لهم في سبيل استيعاب المهاجرين، واستمالتهم للاستقرار، والحيلولة دون تركهم البلاد(٧٠). وفي تقرير مفصل للقنصل الأمريكي في القدس بتاريخ ٣ تشرين الأول/أكتوبر ١٨٩١م تحت عنوان: «تقرير مفصل عن اليهود والمستعمرات اليهودية في فلسطين»، أشار إلى تضاعف عدد اليهود في فلسطين، وبخاصة في أعقاب الهجرة من روسيا في العامين ١٨٨٢ و١٨٨٣م، وقد حدث تباطؤ في الهجرة بعد ذلك، ثم ازدادت لتتضاءل من جديد في العام ١٨٩١م. ويُعزى ذلك إلى عدة أسباب منها هجرة أعداد كبيرة من اليهود الأغنياء من فلسطين في العام ١٨٩١م، بعد أشهر من قدومهم إليها، بسبب عدم رضاهم عن شروط العمل وأسعار الأراضي المرتفعة، ولعدم توافر إمكانات الاستثمار. كما أن أعداداً من اليهود الفقراء وجدوا إمكانات العمل في المهن التي يتقنونها غير متوفرة لاكتظاظها بالحرفيين فقرروا مغادرة فلسطين بدورهم. ويضاف إلى ذلك أن الحكومة العثمانية طردت أكثر من مائتي عائلة يهودية من فلسطين بسبب عدم شرعية دخولهم.

ولتقدير أعداد اليهود قام القنصل الأمريكي في القدس سِلاه ميريل S. Merril بالاتصال بالمنظمات اليهودية التي تسجل الأسر اليهودية، وبرؤساء المستوطنات، وبمدراء المدارس، وبالبيوت التي ينزل فيها الحجاج اليهود، وبالمستشفيات والملاجىء وبيوت العجزة، وبالقناصل الذين يزودون اليهود بالحماية وتوصل إلى النتائج التالية حول أعدادهم في عام ١٨٩١م: تضم يافا ٢,٧٠٠ يهودي، الرملة ١٦٦، القدس ٢٥,٣٢٢، الخليل ١,٢٠٠، نابلس ٩٩، طبرية ٢,٩٠٠، صفد ٦,١٢٦، عكا ٢٠٠، حيفا ١,٦٤٠. ويبلغ مجموعهم ٤٠,٣٥٣ شخصاً.

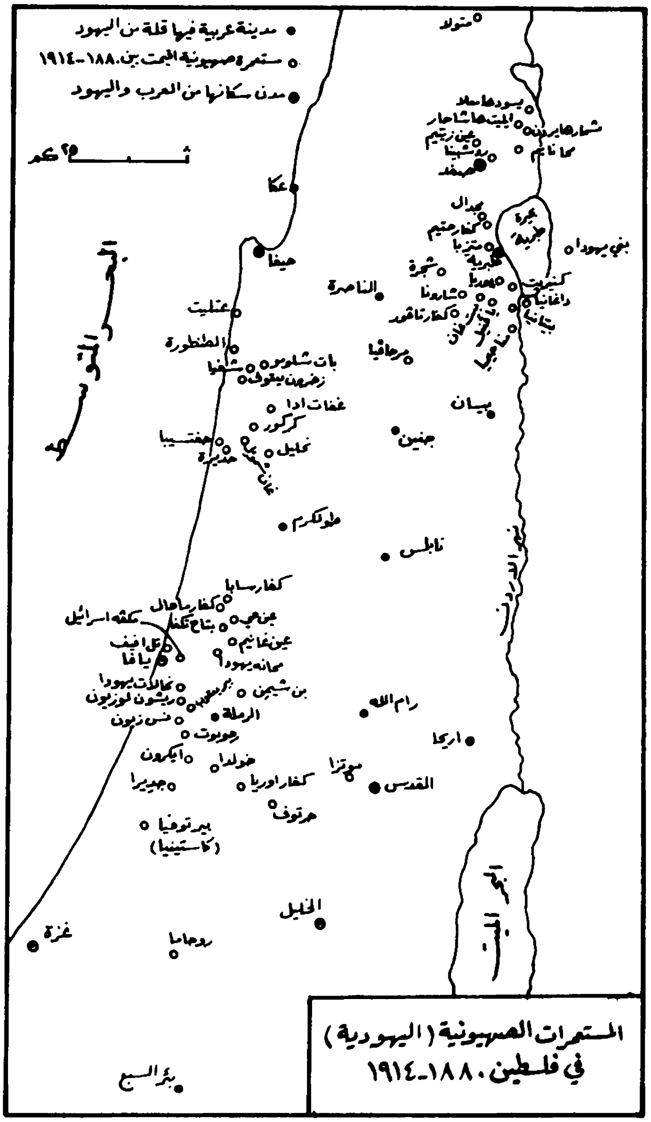
وفضلاً عن هذه الأعداد وجدت سبع مستعمرات زراعية تضم ٤٣٥ أسرة. وإذا اعتبرنا أن وسطي أفراد الأسرة هو خمسة أشخاص فيصبح العدد ٢,١٧٥ شخصاً. وبإضافة هذا العدد إلى المجموع أعلاه يمكن القول انه كان يوجد حوالي ٤٢,٠٠٠ أو ٤٣,٠٠٠ يهودي في فلسطين، كما يقول القنصل الأمريكي.

ويلاحظ التقرير ارتفاع أسعار الأراضي، وبخاصة حول القدس، بسبب شراء اليهود لها، وأن ما كان يكلف منها بضع مئات من الدولارات قبل خمس سنوات أصبح سعره في العام ١٨٩١م عدة آلاف. وسبب ذلك ليس وجود مصالح صناعية جديدة أو اكتشاف مناجم أو زيادة غير عادية في إنتاج الأرض أو إنقاص مدة الخدمة العسكرية وإنما وضع خطة لتمديد خط حديدي بين يافا والقدس سيكون بداية عهد جديد من الازدهار، وكذلك الشائعات الرائجة بأن فلسطين سيسكنها اليهود من جديد، ونشر الأخبار، من قبل بعض الفئات ذات المصلحة، في الصحف الروسية والانكليزية والأمريكية في الخارج بأن هذا الوقت هو وقت جمع الثروات بشراء الأراضي.

ويتابع التقرير أن الحكومة العثمانية عمدت، إزاء هذه التطورات، إلى منع الهجرة من روسيا بدءاً من أول تموز/يوليو ١٨٩١م، فهبطت تبعاً لذلك أسعار الأراضي بمقدار الثلث. ويضيف التقرير أنه قدم، أثناء الربيع، عشرات من اليهود الذين يحملون المال بعد أن سمعوا عن ازدهار فلسطين ولكنهم غادروها مع كثير ممن أتى قبلهم. واعترف بعضهم للقنصل الأمريكي أن

هدفهم ليس شراء الأرض والاستقرار فيها وتطويرها بل مجرد الربح بشراء الأراضي وبيعها.

وحول السؤال: هل يود اليهود الاستقرار في فلسطين؟ يجيب القنصل أن عدد اليهود في العالم يبلغ حوالي سبعة ملايين وأنه لا يعتقد أن ٢ ٪ منهم يودون المجيء إلى فلسطين، وقد استفهم من بعض الميسورين منهم من أوروبا وأمريكا فيما إذا كان لهم أو لأصدقائهم رغبة في الهجرة إلى فلسطين فوجد أن قلة منهم رغبوا بذلك، واقتصر هؤلاء على الفقراء لأن يهود أوروبا يتمتعون بحياة مزدهرة ولا يريدون التخلي عنها. فاليهود يكرهون العمل في الزراعة والتجارة البعيدة المدى، وهم يفضلون الحياة في المدن حيث مراكز التجارة والصناعة التي يتوخون منها الثراء على حساب



المستعمرات الصهيونية (اليهودية) في فلسطين ١٨٨٠-١٩١٤

مصائر الناس الآخرين. ومن المدن التي اكتظت باليهود في فلسطين الخليل والقدس وطبرية وصفد. ويعيش أكثر من نصف يهود فلسطين في القدس، وقبل سنتين أو ثلاث (من تاريخ التقرير) بدأ اليهود يسكنون، على نطاق ضيق، في يافا والرملة وحيفا وعكا ونابلس.

وفيما يتعلق بالمستعمرات يقول التقرير انه إذا ما جرت مقارنة بين الكلام الذي ملأ العالم، خلال الخمس عشرة سنة الأخيرة، حول إسكان اليهود في فلسطين والجهود والأموال التي أنفقت على ذلك وبين النتائج الفعلية التي تم التوصل إليها فإنه يبدو أن اليهود ليس لديهم رغبة لأن يكونوا مستوطنين، فالرجال الأشداء الذين يستأجرون ليكونوا مستوطنين ليسوا مؤهلين لأن يبنوا مستعمرة، بمعنى أن بناء المستعمرات مخطط من الخارج دون أن يكون اليهود مؤهلين لذلك. ومن بين ٤٣٥ أسرة تشكل مجموع المستعمرات في فلسطين فإن ٢٥٥ أسرة منها يدفع آل روتشيلد المال لها شهرياً فضلاً عن سكن مجاني وتغطية نفقات المدارس والتداوي وذلك لإغراء اليهود على العيش في المستعمرة وممارسة الزراعة. وتُشجع أيضاً العناصر الفقيرة على السكن في القدس وتقدم لها المساعدات الخارجية باستمرار لإعاشتها.

ويخلص التقرير إلى القول ان إنشاء المستعمرات اليهودية في فلسطين التي أمل منشئوها من اليهود وأصدقائهم الكثير من ورائها ما تزال مجرد تجربة غير مضمون نجاحها. كما أن احتكار اليهو الأعمال العامة أدى إلى منع المسلمين والمسيحيين من الحصول على لقمة العيش، لا سيما وأن اليهود يقترون كثيراً في المأكل والملبس والسكن ويوفرون بذلك الكثير مما يمكنهم من تخفيض أسعار سلعهم بالنسبة لأسعار سلع المسلمين والمسيحيين مما أضر بأعمال هؤلاء الأخيرين، وجعلهم يشعرون بالغبن تجاه اليهود الذين سمحت لهم الدولة بالدخول إلى فلسطين وحمت مصالحهم بعد ذلك. لذا كتبوا عريضة قوية إلى سلطات استانبول يحتجون فيها على ازدياد اليهود.

وينتهي تقرير القنصل الأمريكي بذكر الأسباب وراء فشل المستعمرات الزراعية اليهودية في فلسطين بالرغم من استمرار الجهود للإكثار منها. وليس مرد تلك الأسباب إلى المناخ والتربة والإدارة بقدر ما كان الصفات الخاصة بالشخص اليهودي[٧١].

وكانت الإدارة العثمانية تطبق أو تتساهل في تطبيق قواعد شراء الأراضي بالنسبة لليهود الأغراب، فقد أوجبت التأكد من هوية الشاري الأجنبي عن طريق تقدمه بطلب إلى قنصل بلاده

وقيام هذا القنصل برفع الطلب إلى الجهات الرسمية العثمانية مؤكداً لها أن صاحب الطلب من رعايا بلاده وأنه يرغب بشراء الأراضي[٧٢]. وقد أُلغي في صيف العام ١٨٩٣م قرار منع اليهود كأفراد من شراء الأراضي، واقتصر المنع على اليهود المهاجرين بأعداد كبيرة. ووجب على الراغبين في شراء أراضي الدولة الحصول على موافقة استانبول المسبقة[٧٣].

واستخدم القناصل الأجانب نفوذهم لحماية اليهود من رعايا بلادهم وتسهيل عملية شرائهم الأراضي. وقدر عدد اليهود الذين اعتُبروا من رعايا الدول الأجنبية كالتالي:

الجدول رقم (١ ــ ٣)

رعايا الدول الأجنبية في القدس في أيلول/سبتمبر ١٨٩٩م

البلد	المواليد الأصليون	يهود يحملون الجنسية
أمريكا	٥٠	٨٠٠
بريطانيا	١٢٠	٢٥٠
فرنسا	٢٥٠	٢٠٠
إيطاليا	٣٠٠	١٠
اليونان	١٥٠	ــ
ألمانيا	٥٥٠	٣٥٠
النمسا	١٠	٣٠٠٠ (معظمهم مولود فيها)
هولاندا	١٠	٢٥
اسبانيا	١	١٢٠
روسيا	٢٠٠	٤٠٠٠ إلى ٥٠٠٠

وقدر عدد الحجاج الروس الذين يزورون فلسطين بين ثلاثة إلى أربعة آلاف سنوياً. وفي عام ١٨٩٩م زار القدس ستة آلاف حاجّ روسي[٧٤].

ونظراً للقاسم المشترك، وهو الدين والمصلحة، الذي جمع بين معظم رعايا هذه الدول، فإنهم غالباً ما تشاركوا في العمل، الأمر الذي أدى إلى منازعات لاحقة وتوريط للقناصل بعضهم ضد البعض الآخر[٧٥].

وفي الوقت الذي كانت فيه الهجرة اليهودية إلى فلسطين تسير وفق خط بياني مألوف، إذ تشتد في بعض السنين ثم تتضاءل في أخرى وذلك لتوفير الاستقرار للقادمين من ناحية ولإقناع السلطات المعارضة أن الهجرة ليست مستمرة بشكل مبرمج، من ناحية أخرى، أبرز وأوضح تيودور هرتزل Theodor Herzl، في بيانه عن **دولة اليهود** الصادر في العام ١٨٩٦م مبادىء الحركة الصهيونية، التي تأسست رسمياً في العام التالي، والتي دعت إلى إقامة الدولة اليهودية في فلسطين. وبدأ العمل بتصميم ودعم أوروبي منظم على تنفيذ هذا الهدف. وكان هرتزل قد زار استانبول في العام ١٨٩٦م واتصل بالسلطان عبد الحميد الثاني، عن طريق وسيط، وطلب إليه الموافقة على منح فلسطين لليهود مقابل تسوية ديون الدولة العثمانية مع أوروبا. ولكن السلطان رفض ذلك بالرغم من أن بعض الوزراء كانوا أكثر تجاوباً. ومع ذلك منح السلطان عبد الحميد وساماً لهرتزل وطلب إليه تدبير قرض أوروبي[٧٦].

وإذا كان هرتزل لم يحصل على مطلبه فإنه لم يُتخذ بصورة فعالة أي إجراء عثماني لإيقاف هجرة اليهود وتملكهم في فلسطين. واستمر هرتزل في مساعيه لدى السلطات العثمانية إلى أن قابل السلطان عبد الحميد في أيار/مايو ١٩٠١[٧٧] بحجة تسوية ديون الدولة. وبالرغم من أن هرتزل لم يحصل على نتائج إيجابية فإن فتح الباب للمناقشة وعدم اتخاذ إجراء سلبي كانا مكسبين بحد ذاتهما. وصدرت عدة قرارات عثمانية لمنع الهجرة شكلاً ولكنها أتت مبهمة قصداً، وكانت النتيجة تسرب المهاجرين بأعداد أكبر وتملكهم الأراضي بشكل أوسع.

وحين أطاحت جمعية تركيا الفتاة بالسلطان عبد الحميد في العام ١٩٠٩ استفاد النفوذ الصهيوني بقدر كبير لأن هذه الجمعية كان من بين أعضائها عدد من اليهود ومن الدونمة (وهم يهود اعتنقوا الإسلام). وكان أحد القواسم المشتركة الذي جمع بين هذه العناصر انتسابها للجمعية الماسونية السرية[٧٨].

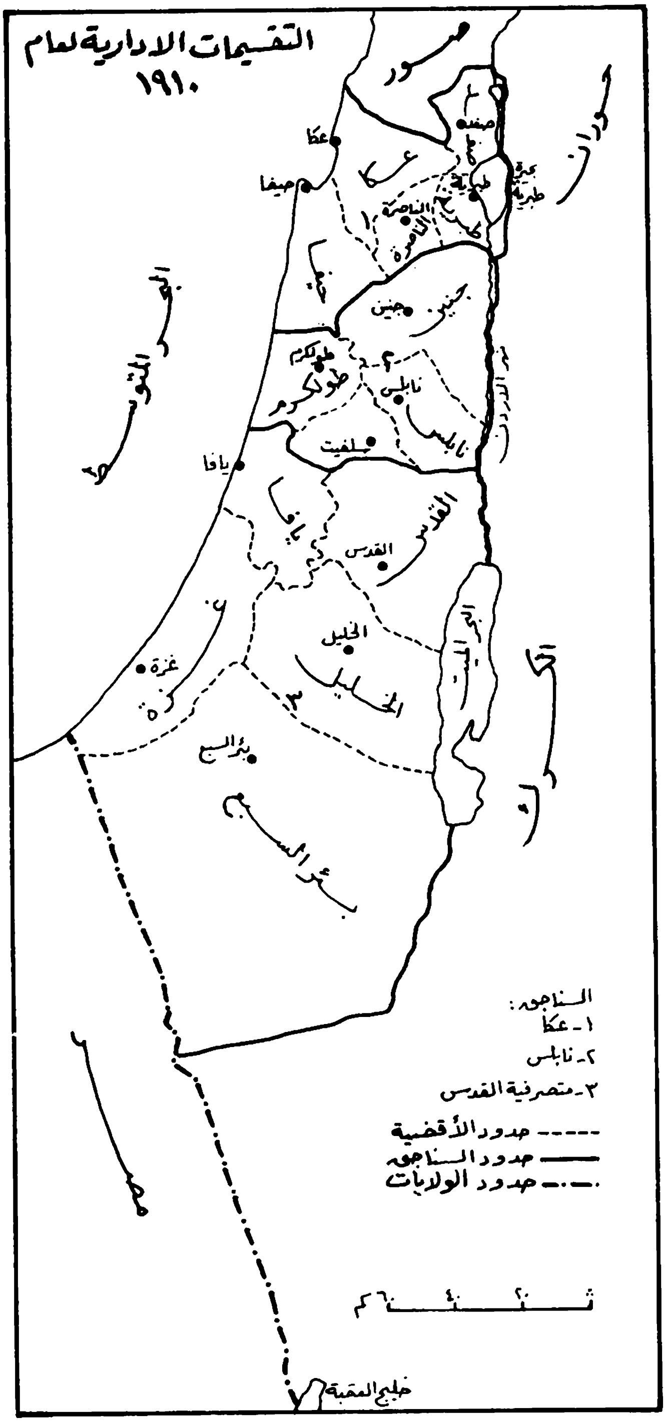
وبرزت آنذاك الحركة القومية بين المهاجرين اليهود في فلسطين الذين عملوا علناً وبمنأى عن ضغوط الدولة العثمانية. وكان المهاجرون قد أقاموا عدداً من المستعمرات الزراعية بلغت في العام ١٩٠٨م ستاً وعشرين مستعمرة تضم عشرة آلاف عضو ومساحة من الأرض تُقدر بأربعمائة ألف دونم. وازداد عدد سكان هذه المستعمرات بعد ست سنوات إلى اثني عشر ألفاً عمل حوالي سبعة آلاف وخمسمائة منهم بالزراعة. وبلغت مساحة الأراضي التي شغلتها هذه المستعمرات أربعمائة وخمسين ألف دونم. وقد حصلوا على هذه الأراضي إما من الحكومة العثمانية التي تتصرف بأراضي الدولة أو من كبار الملاكين الغائبين والمحليين. وفي حالات قليلة حصلوا عليها من الفلاحين[٧٩]. ووظف ادموند

روتشيلد، رجل المال الفرنسي اليهودي، أموالاً طائلة في هذه المستعمرات. ونصح بزراعة الكرمة لتصنيع الخمور وزراعة الزيتون لضمان مورد آخر في سبيل استمرار هذه المستعمرات الزراعية. وكان روتشيلد قد زار فلسطين في عام ١٨٩٩م حيث تفقد هذه المستعمرات(٨٠).

وتعرضت حكومة الاتحاد والترقي في استانبول إلى ضغوط المؤيدين للهجرة اليهودية إلى فلسطين وشراء الأراضي فيها الذين ضموا شخصيات عثمانية وأوروبية بارزة سياسياً واقتصادياً. كما أن مواقف الدول الأوروبية كان مماثلاً لذلك. ويلخص عارف العارف موقف الدولة العثمانية من الهجرة اليهودية إلى فلسطين بقوله: «أصدرت الحكومة التركية عام ١٨٨٢م قانوناً حرمت فيه الهجرة اليهودية وشراء الأراضي إلا أنها عادت فعدلت بفضل تدخل ستراوس الوزير الأميركي المفوض في استانبول ومنحت اليهود حق الدخول إلى فلسطين والبقاء فيها ثلاثة أشهر بقصد العبادة. وهنا تلعب الرشوة دورها فيدخل البلاد عدد غير قليل من اليهود ويبقون فيها»(٨١).

وبالمقابل، أبدى العرب، سواء ممثلوهم البرلمانيون في استانبول أم زعماؤهم السياسيون في فلسطين وغيرها من الأقطار العربية، وكذلك صحافتهم، معارضتهم للمشاريع الصهيونية في فلسطين. وينبع ذلك من مصلحة ذاتية ومن وطنية محلية ومن شعور بالانتماء القومي، وكذلك من غيرة إسلامية تقليدية ضد أعداء الدين من يهود ومؤيدين أوروبيين لهم. وأحسّ عدد من مثقفي العرب، من مسلمين ومسيحيين، بالأخطار المستقبلية التي تهددهم، وتنبهوا إلى ذلك منذ وقت مبكر بدليل ما ذكره نعمان القساطلي، أثناء سياحته في فلسطين في عامي ١٨٧٤م و ١٨٧٥م حين قال ان اليهود الوطنيين والسكناج في القدس يشكلون آنئذ ٢٢,٠٠٠ من أصل نحو ٤٠,٠٠٠ من مجموع السكان، «وربما بعد وقت قصير سيزداد عدد سكان هذه المدينة كثيراً لكثرة المهاجرين إليها من اليهود الذين يوافونها من أقطار العالم»(٨٢). وزاد تنبه العرب لمخاطر الصهيونية إثر عقدها مؤتمرها الأول في بازل Basel في العام ١٨٩٧م. ولم يغب عن فكر دعاة القومية العربية والنهضة الإسلامية، منذ مطلع القرن العشرين، ما تمثله الصهيونية من خطر. فلفت نجيب عازوري في كتابه **يقظة الأمة العربية** الأنظار إلى مطامع الصهيونية حين أشار إلى القوتين الرئيسيتين اللتين ستستقطبان المنطقة والعالم في المستقبل وهما: يقظة الأمة العربية ومحاولة اليهود تأسيس إسرائيل القديمة. كما نبه إلى ذلك السيد محمد رشيد رضا على صفحات المنار. ولكن مما يلفت النظر أن المؤتمر العربي الأول في باريس في العام ١٩١٣م لم يعر الخطر الصهيوني على فلسطين أي اهتمام رسمي، وهو أمر يستلزم دراسة أسباب ذلك بتعمق.

ثم جاءت الحرب العالمية الأولى التي شهدت اصطدام القوميين العرب بالقوميين الأتراك، وإعدام جمال باشا شهداء



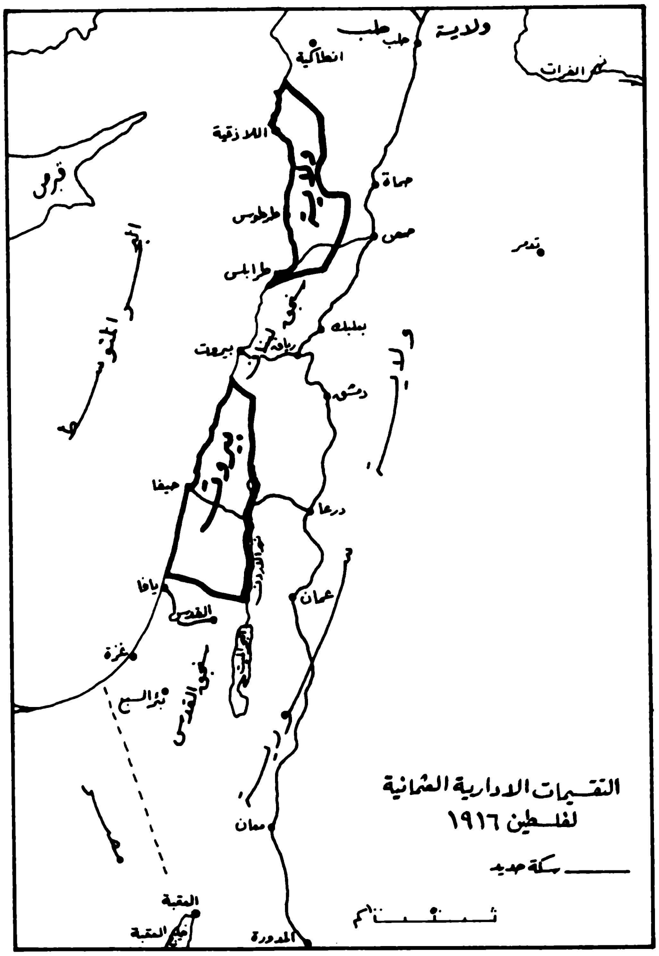
العرب، وإعلان الثورة العربية في ١٠ حزيران/يونيو ١٩١٦م، ثم انسحاب العثمانيين من بلاد الشام. وطغت في عام ١٩١٨م هذه الأحداث على ما كان يجري في فلسطين آنذاك من تدفق المهاجرين اليهود وشرائهم الأراضي بشكل منظم. وطغت الحرب العالمية الأولى على أصوات الصحف العربية في فلسطين وخارجها، وصيحات بعض الزعماء في التنبيه إلى خطورة ما يجري فيها. وأصبحت فلسطين قضية دولية حاول فيها الصهاينة تجنيد الدول الأوروبية الكبرى المتصارعة لصالحهم. وأصدر وزير خارجية بريطانيا آرثر جيمس بلفور Arthur James Balfour تصريحه المعروف في ٢ تشرين الثاني/نوفمبر ١٩١٧م الذي أيدت فيه بريطانيا إقامة وطن قومي لليهود في فلسطين. وكان الهدف الاستراتيجي من وراء ذلك اقامة حاجز يفصل المشرق العربي عن المغرب العربي ويلبي، في الوقت ذاته، مصالح بريطانيا في تأمين طريق تجارتها إلى الهند وكذلك مصالح فرنسا في تدعيم نفوذها في أقطار المغرب العربي التي كانت تحتلها عن طريق إضعاف المشرق العربي وإخضاع ما أمكنها منه لسيطرتها. وفوق كل هذا تهدف إقامة وطن قومي لليهود في فلسطين إلى إيجاد شرخ في جسم الأمة العربية مُقدَّر له أن يتسع مع مرور الزمن. وظهرت عدة تفسيرات لتوقيت صدور هذا التصريح، فمنهم من قال انه كان لإغراء الزعماء اليهود الذين برزوا في الثورة البلشفية في روسيا وجعلهم يعارضون انسحاب روسيا من الحرب كحليفة لبريطانيا وفرنسا. ومن قال انه قصد به



جمال باشا وأركان حربه في القدس

إرضاء زعماء الصهيونية في أمريكا لحملها على دعم الحلفاء بصورة أكبر. وهناك من قال ان التصريح هدف إلى إرضاء المانيا والزعماء اليهود المتنفذين فيها لكي يمارس هؤلاء نفوذهم على يهود روسيا لجعلها تنسحب من الحرب لمصلحة ألمانيا، ولهذا، كما يقولون، حثّت ألمانيا تركيا على التنازلات لليهود في فلسطين.

وسيجد القارىء في البحوث الخاصة بالحركة الصهيونية والحركة الوطنية الفلسطينية معلومات تفصيلية وهامة عن تطورات الأحداث في فلسطين في هذه الفترة. ولكن من الأهمية بمكان أن نذكر هنا، إزاء سطحية بعض الكتابات والتناقضات في بعضها الآخر، ضرورة اعتماد سجلات المحاكم الشرعية في فلسطين ثم سجلات الطابو بعد ذلك في معرفة انتقال ملكية الأرض من فئة إلى أخرى والوسائل التي اتُبعت في ذلك. كما يجب دراسة العوامل الفاعلة على الساحة الفلسطينية والعربية ومنْها المصالح الفئوية للفاعلين سياسياً واقتصادياً من عرب ويهود.



الفصل الثاني
البنية العمرانية لفلسطين

كان لمدن فلسطين دور هام في تاريخها القديم والحديث، سواء من النواحي الإدارية أو العسكرية أو الاقتصادية أو الثقافية أو الدينية. وتنوَّعَ تركيبها السكاني حسب وظائفها، فالقدس كونها تضم أماكن دينية مقدسة لدى أتباع الديانات الثلاث، استقطبت فعاليات ثقافية ودينية، محلية وعربية وإسلامية وأجنبية. أما مدن الساحل فقد جذبت إليها جاليات تجارية، محلية وعربية وأجنبية، نظراً لاتصالها بالطرق التجارية الرئيسية في المتوسط التي أتاحت لها المتاجرة مع موانىء بلاد الشام ومصر وآسيا الصغرى وأوروبا. وهرع إليها التجار من الداخل ومن الخارج حيث أقاموا فيها الخانات لتخزين بضائعهم وتسويقها وأحياناً للمبيت فيها. وازدادت الأهمية التجارية لهذه الموانىء في النصف الثاني من القرن التاسع عشر بازدياد تعاملها مع أوروبا الصناعية وفتح الطرق وبناء السكك الحديدية، بينها وبين الداخل، وربطها بدمشق وما وراءها، لتسويق البضائع الأوروبية فيها وشحن المواد الخام إلى أوروبا.

وأفادت بعض مدن فلسطين كذلك من وقوعها على الطريق البرية التي تصل بلاد الشام، ومن ورائها الأناضول، بمصر. كما أن قافلة الحج الشامي التي كانت تضم ما يقرب من عشرين ألف حاج سنوياً، وتسير عادة على الطريق السلطاني بين دمشق والحجاز، عبر مزيريب وذات حج، كثيراً ما لجأت، في طريق العودة، إلى تحويل طريقها عبر غزة لتحاشي هجوم القبائل البدوية عليها بعد اجتيازها منزلة ذات حج، وعرف هذا الطريق بالغزاوي[(١)].

واستخدمت المدن الداخلية في فلسطين، مثل صفد وطبرية، وجنين ونابلس والخليل، كمراكز عسكرية من قبل السلطة العثمانية أو الثائرين عليها من الزعماء المحليين، لذلك حُصنت فيها القلاع والأسوار شأنها شأن بعض مدن الساحل الاستراتيجية وعلى رأسها عكا. واستخدمت تلك المدن، مثلها مثل القرى الكبيرة، كأسواق رئيسية لتسويق منتجاتها ومنتجات الأرياف الملحقة بها.

وفي التعرف على البنية العمرانية لمدن فلسطين وقراها سنعتمد نماذج من أوصاف الرحالة، العرب والأجانب، وكتابات الطبوغرافيين الأوروبيين وسجلات المحاكم الشرعية والإحصاءات السنوية العثمانية شبه الرسمية (السالنامه) في محاولة لتبين التطورات التي طرأت على هذه المدن والقرى خلال القرن التاسع عشر.

وقد استقطبت فلسطين أعداداً كبيرة ومتواصلة من الرحالة الأوروبيين جاء معظمهم بهدف زيارة الأماكن المقدسة، كما أن بعضهم الآخر زارها كجزء من زيارته بلاد المشرق التي عُرفت آنذاك باسم الليفنت Levant، بتكليف من دولته أو من الشركة التجارية التي ينتمي إليها، أو بدافع الاطلاع والاستكشاف كما حدث في أعقاب الثورتين الفرنسية والصناعية حين سادت البورجوازية أوروبا، سياسياً واقتصادياً وفكرياً، ودفعت بالكثير من المنتمين إليها لاستكشاف مناطق العالم كمقدمة لاستعمارها. واستقطبت فلسطين كذلك عدداً أقل من الرحالة العرب والمسلمين الذين زاروها في طريقهم إلى الشام أو الحجاز أو مصر أو استانبول. وقد اهتم معظم الرحالة بزيارة المدن والقرى الرئيسية في فلسطين، وبخاصة تلك التي تضم أماكن دينية أو التي تقع على الطرق الرئيسية، وتركوا لنا أوصافاً متنوعة تُنوع اهتماماتهم والدوافع التي أتت بهم إلى فلسطين.

وقد وصف الفيكونت فرانسوا رونيه دي شاتوبريان Vicomte François René de Chateaubriand (١٧٦٨ ـ ١٨٤٨) الذي مثّل أقصى اليمين الفرنسي في الحركة الرومانتيكية التي أعقبت الثورتين الفرنسية والصناعية، زيارته لفلسطين في أواخر العام ١٨٠٦[(٢)]، فعبّر عن الظلم والدمار اللذين حلا بها في أعقاب الأحداث الكبرى التي انتابتها منذ القضاء على ظاهر العمر في العام ١٧٧٥، وسيطرة الجزار عليها (١٧٧٥ ـ ١٨٠٤)، وحملة نابليون بونابرت في العام ١٧٩٩، والاضطرابات التي تلت ذلك. وكان شاتوبريان قد غادر استانبول في ١٨ أيلول/سبتمبر ١٨٠٦ فوصل حيفا بحراً مساء الأربعاء في الأول من تشرين الأول/اكتوبر. وقد وصف آثار الدمار الذي لحق بالبيوت عند سور يافا وكذلك بالبساتين حولها نتيجة الأحداث العسكرية السابقة. وفي طريقه إلى القدس وصف أيضاً الدمار الذي حلّ بالريف، وبخاصة قطع الأشجار، نتيجة الحروب بين السكان والسلطة الحاكمة، وبين الزعماء المحليين بعضهم مع البعض الآخر[(٣)].

وفي القدس وصف شوارعها الضيقة غير المبلطة وكيف أن

أصحاب الحوانيت يغلقونها معظم الوقت خشية اعتداء أصحاب السلطة عليهم. ويضيف أن للمدينة سبعة أبواب، وأن ثلاثة شوارع رئيسية تتوزعها: شارع في الغرب يمتد من الشمال إلى الجنوب يسميه شارع قصر داود، وشارع البازار (السوق) وما يتفرع عنه، ثم شارع يخترقها من الشرق إلى الغرب ويسميه شارع الصليب(٤).

ويذكر شاتوبريان أن القدس كانت آنذاك ملحقة بولاية الشام، ويصف مرور والي الشام بها في الدورة التي يدور فيها على أنحاء ولايته لجمع الضرائب الميرية وتمويل قافلة الحج الشامي التي كان أميرها. وكان برفقة الوالي ثلاثة آلاف جندي، ويذكر أنه ابتز المال من الأهلين، وهاجم القرى للحصول على المال منها، كما طاردت قواته القبائل البدوية. وباع ما غنمه منهم من خيول وماشية في القدس. وأضاف شاتوبريان أنه بعد مغادرة الباشا المنطقة هاجمت القرى بعضها بعضاً للثأر والنهب، وردّ كل فريق بقطع أشجارالزيتون وكروم العنب العائدة للفريق الآخر. ويخلص إلى القول ان الطرق مهددة والزراعة مدمرة(٥). وتظهر في هذه الصورة الفوضى التي أصبحت عليها الإدارة العثمانية والتي انعكست في ظهور الزعامات المحلية المتنافسة وتدمير الموارد الاقتصادية على حساب الشعب.

وبعد ست سنوات من رحلة شاتوبريان زار فلسطين الرحالة السويسري جون لويس بوركهاردت(٦) John Lewis Burckhardt. وقد تميز بدقة الملاحظة والمعرفة بتاريخ المنطقة، وأهم من ذلك كان يحب التعرف على مختلف نواحي الحياة في المناطق التي زارها. وقد جاء إلى فلسطين من حوران، وكانت أول المدن التي زارها فيها صفد التي وصل إليها عبر نهر الأردن والجبال المحيطة بها، وكان ذلك يوم ٢١ حزيران/يونيو ١٨١٢. ويذكر القلعة المطلة عليها وعلى منطقة عكا والتي جُدد بناؤها في القرن السابق فأصبح لها سور جيد يحيط به خندق. وهناك قلعة أُخرى في سفح المرتفع، وهي أصغر من السابقة ولكنها أحدث منها، وسورها شبه متهدم. وتُقسم صفد إلى عدة أحياء تبعاً للتلال المبنية عليها، وأكبر هذه الأحياء، كما يقول بوركهاردت، حي اليهود. وتضم صفد حوالي ٦٠٠ بيت (خانة)، منها ١٥٠ بيتاً يهودياً، وقرابة ٨٠ إلى ١٠٠ بيت مسيحي. ويقدّر وسطي أفراد البيت أو الخانة آنذاك بخمسة أشخاص، وهذا يعني أن صفد في العام ١٨١٢ كانت تضم ٧٥٠ يهودياً و ٤٠٠ إلى ٥٠٠ مسيحي، ويجعل هذا عدد المسلمين حوالي ١٧٥٠ إلى ١٨٥٠ شخصاً. ويكون مجموع سكان صفد حوالي ٣٠٠٠ شخص. ويقول بوركهاردت ان صفد يحكمها متسلم، وتتألف حاميتها من جنود مغاربة تزوج معظمهم من السكان المحليين وعملوا في الزراعة. وتحيط بصفد أشجار الزيتون والكرمة، ولكن الأعمال الرئيسية لأهلها هي صباغة النيلة ونسيج القماش القطني. وتقام في صفد كل يوم جمعة سوق يأتي إليها الفلاحون المجاورون(٧).

غادر بوركهاردت صفد في ٢٢ حزيران/يونيو ومرّ، بعد مسيرة ساعتين وربع الساعة، باتجاه بحيرة طبرية، بخان جب يوسف المتهدم وبقربه بركة، ويقع هذا الخان على الطريق الرئيسية بين دمشق وعكا، ويقيم فيه بضعة جنود مغاربة مع أُسرهم ويزرعون الأراضي المجاورة. وبعد مسيرة ساعة ونصف الساعة من هذا الخان، مرّ خلالها بمنطقتي قوع القرد ورجل القاع، وصل إلى بحيرة طبرية. ويشير إلى نبع قرب البحيرة، يُعرف بعين الطابغة، تقوم عنده طاحون، وبضعة بيوت يعيش أصحابها على صيد السمك. ووراء الطابغة يقوم خان متهدم، قرب البحيرة، يدعى منية، ويبدأ عنده سهل واسع تغذيه عدة ينابيع. ورأى بوركهاردت في أعلى الجبل المحاذي للبحيرة قرية سنجل، وعلى بعد حوالي نصف ساعة إلى الغرب منها تقع قرية حطين. وفي الزاوية التي تنتهي عندها الجبال وتلتقي بالبحيرة توجد قرية مجدل، ومنها يتفرع وادي الحمام الذي تقوم فيه قلعة ابن معن. وبعد ذلك وصل بوركهاردت إلى طبرية(٨).

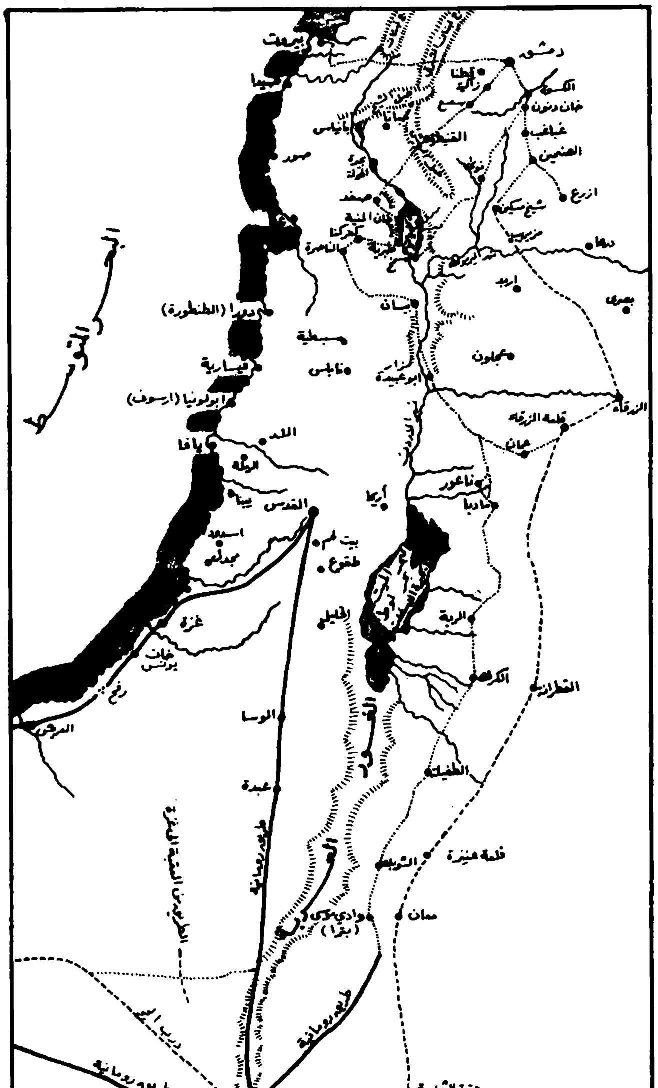
ويذكر أن طبرية تقع على مقربة من البحيرة في سهل تحدق به الجبال ومن هنا جاءت شدة حرارتها، وبالتالي ضررها للصحة. وللمدينة، من ناحية الداخل، سور كثيف يبلغ علوه عشرين قدماً يحيط بها من ثلاث جهات، ويلامس الماء من طرفيه. وتوجد بقايا سور من جهة البحيرة. ويقوم على السور عشرون برجاً مستديراً مبنية، كالسور، من حجارة سوداء متوسطة الحجم وقديمة العهد، ويصعب اختراقها من قبل جنود والي الشام. ومن المعالم البارزة في طبرية التي رآها بوركهاردت بوابة المدينة، وسرايا أو قصر المتسلم، وهي بناء كبير رمم مؤخراً، والجامع وهو في حالة بنائية غير جيدة، وبوابة الحي اليهودي، ثم جامع آخر جميل كان في الأصل كنيسة، ومجموعة من الأقواس، قريبة من البحيرة، ومبنية من الحجر، ذات سقوف منخفضة، ويبدو أنها كانت معدة كمخازن، ثم هناك السوق الجديدة.

وتؤلف طبرية مع قراها العشر أو الاثنتي عشرة جزءاً من باشاوية عكا (أي ولاية صيدا). ونظراً لأهمية طبرية الدفاعية تقيم فيها حامية من مائتين أو ثلاثمائة جندي معظمهم متزوجون.

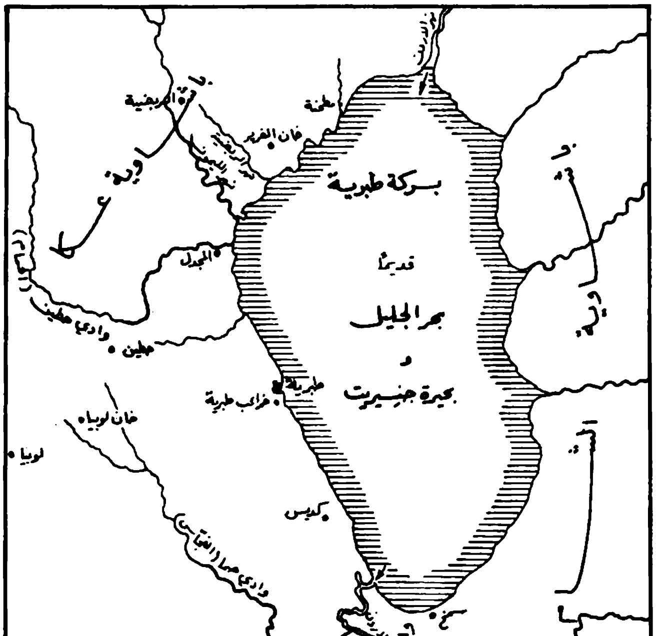
وخلال حكم أحمد باشا الجزار أقامت في طبرية جالية من مِئتي جندي أفغاني تفرقوا في بلاد الشام بعد وفاته.

ويقول بوركهاردت ان طبرية تضم حوالي أربعة آلاف نسمة ربعهم من اليهود. وتتألف الطائفة المسيحية من بضع أسر تتمتع بحرية أشبه بحرية المسلمين. ويعمل بعض سكان طبرية في التجارة، ولكن معظمهم مزارعون. ويصف بوركهاردت الحي اليهودي في طبرية بأنه على طرف البحيرة، في وسط المدينة، وقد توسع مؤخراً بشكل كبير بشراء عدة أبنية وضمها إليه. ويفصل هذا الحي عن بقية المدينة سور عال له باب واحد يغلق عند الغسق. وفي الحي مئة وستون أومئتا أسرة، أربعون أوخمسون أسرة منها من أصل بولوني، والبقية يهود من إسبانيا وشمال أفريقيا وسوريا. ويعود اهتمام اليهود بطبرية إلى ربطهم لها بتاريخهم الديني كما يفعلون بالنسبة إلى صفد والقدس والخليل. ويضيف بوركهاردت أن اليهود هنا يتمتعون بحرية دينية تامة، وبخاصة منذ أن تسلم باشاوية عكا سليمان باشا لأنَّ وزيره الرئيسي يهودي يدعى حاييم فارحي[٩].

غادر بوركهاردت طبرية في ٢٨ حزيران/يونيو باتجاه الناصرة، وذكر أن هناك طريقين تؤديان إليها: الأولى عبر قرية كفرسبت والخان، والأخرى عبر قرية لوبية. ولكنه، لأنه أراد أن يشاهد أماكن دينية قديمة، اتخذ طريقاً أخرى عبر عين الرحم وحجار النصارى. وإلى الشمال الشرقي من هذا المكان، باتجاه الأسفل، يمتد سهل حطين، وعلى بعد ساعة من حجار النصارى، وعلى المستوى نفسه، تقوم تلة يطلق السكان على قمتها اسم قرون حطين. وبعد مسيرة أربع ساعات وربع الساعة من طبرية وصل بوركهاردت إلى قرية كفركنّا التي تحيط بها أشجار الزيتون والفواكه، ومعظم سكانها مسيحيون كاثوليك. وتمر الطريق من بعدها في مناطق تلية حتى الناصرة، وهي على بعد ثماني ساعات من طبرية على هذه الطريق.



فلسطين كما تظهر في خريطة بوركهارت ١٨٢٢



بحيرة طبرية وجوارها سنة ١٧٩٩

ويقول بوركهاردت عن الناصرة انها من المدن الرئيسية في باشاوية عكا، ويتصف سكانها بالجد وان ثلثيهم من المسلمين والثلث الباقي من المسيحيين. وفيها تسعون أسرة من مذهب اللاتين بالإضافة إلى طائفة من الروم الكاثوليك وأخرى من الموارنة. ويخص بالذكر دير الرهبان اللاتين لاتساعه، وقد جدد بناؤه في العام ١٧٣٠. ويقول ان المسيحيين في الناصرة يتمتعون بحرية كبيرة. ويقول ان أبرز رجل في الناصرة أثناء زيارته لها هو السيد كتافاكو، وهو تاجر فرنجي من مواليد حلب. وقد استأجر من والي عكا حوالي اثنتي عشرة قرية بجوار الناصرة وفي مرج ابن عامر، وان أرباحه كبيرة وكذلك نفوذه السياسي[١٠].

واتجه بوركهاردت من الناصرة نحو السلط يوم ٢ تموز/يوليو فسار بمحاذاة مرج ابن عامر مخلفاً إلى يساره جبل طابور، ووصل إلى منطقة في جبل نابلس تُعرف ببلاد حارثة. ويذكر أن سكان منطقة نابلس يحكمهم زعماؤهم وأن قرى منطقة نابلس بإمكانها تجنيد خمسة آلاف رجل، وسكانها في نزاع فيما بينهم ومع والي عكا. وقد تحدّوا الجزار وهزموا فرقة فرنسية إبان هجوم نابليون بونابرت.

وسار بوركهاردت باتجاه بيسان، وذكر أنها تضم سبعين أو ثمانين بيتاً وأن سكانها يعانون من هجمات البدو من الغور، ويدفعون لهم ضريبة (خُوَّة) ضخمة. ثم سار من بيسان باتجاه نهر الأردن حيث عبره إلى الضفة الشرقية باتجاه السلط والكرك[١١].

وإذا كانت رحلة شاتوبريان تصف حالة الفوضى التي سادت فلسطين في مطلع القرن التاسع عشر، ورحلة بوركهاردت تقتصر على المنطقة الشمالية الشرقية من فلسطين التي وصفها بتفصيل دقيق، فإن رحلة الشاعر الفرنسي الفونسو دي لامارتين Alphonse de Lamartine (١٧٩٠ ـ ١٨٦٩)[١٢] التي جاءت في



يافا في القرن التاسع عشر

أواخر عام ١٨٣٢، تصف وضع فلسطين بعيد الاحتلال المصري لها. وقد أوصى إبراهيم باشا حاكم يافا خيراً بلامارتين. وبالرغم من انتشار الوباء آنذاك في القدس وبيت لحم وعلى طول الطريق المؤدية إليهما من الرملة فإن لامارتين تحدّى نصيحة حاكم يافا وآباء الأرض المقدسة Terra Santa فيها بعدم السفر، وقام برحلته في أواخر تشرين الأول/اكتوبر١٨٣٢.

وقد وصف لامارتين ميناء يافا بأنه غير مأمون، وأنه يكفي فقط لاستقبال القوارب، وان مرساه خطر. وذكر أن ليافا سوراً وأن عدد سكانها بين خمسة آلاف وستة آلاف نسمة ويتألفون من أتراك وعرب وأرمن وروم أرثوذكس وكاثوليك وموارنة[١٣].

وذكر لامارتين أن الرملة تضم حوالي ألفي أسرة، أي حوالي عشرة آلاف نسمة، وأن بعض الأماكن فيها معزولة صحياً لتحاشي الوباء. وفي الطريق من الرملة إلى القدس ذكر لامارتين الزعيم أبوغوش، وهو شيخ القبيلة البدوية التي تسيطر على هذه الطريق منذ أجيال وأن أتباعه يقدّرون بحوالي أربعين ألفاً ينتشرون في المناطق الجبلية بين الرملة والقدس وبين الخليل وأريحا. وقد أوصت الليدي ستانهوب Lady Stanhope الإنكليزية صديقة الشيخ أبوغوش بلامارتين خيراً. ويعلّق هذا على مصدر سلطة أبوغوش بقوله انه في البلاد العربية لا يناقش في أصل السلطة أو شرعيتها ولكن يعترف بها ويخضع لها ما دامت قائمة. وقد منع إبراهيم باشا المصري الشيخ أبوغوش من أخذ الخوة من المسافرين، واعتقل أخاه وأخذه إلى دمشق. وتوسط أبوغوش لدى لامارتين لإطلاق سراحه.

ويعلّق لامارتين على الوباء في القدس بأن ضحاياه في اليوم الواحد بين ستين وثمانين شخصاً وأن جميع النزل والأديرة قد أُغلقت، ويضيف أن انتشار الوباء في القدس ونواحيها حال دون زيارته بيت لحم. ولكن بعض سكان منطقة بيت لحم هرعوا إليه ورجوه أن يتوسط لدى صديقه إبراهيم باشا لتخفيض الضرائب عنهم[١٤].

ويصف لامارتين سور أريحا القوي الذي يبلغ ارتفاعه عشرين قدماً وعرضه من خمسة عشر إلى عشرين قدماً، وهو مزود بحزم من الشوك مرتبة الواحدة فوق الأخرى بدقة للتحكم في مرور الإنسان والحيوان من خلال بابين أو ثلاثة فقط. ويتكلم عن الصحراء حول أريحا وسيطرة البدو عليها وتهديدهم القوافل المسافرة بين القدس ودمشق، وبين العراق ومصر[١٥].

ويصف لامارتين عكا بأنها منطقة خراب. فقباب جوامعها مثقوبة بفعل القنابل، وسورها مليء بالثغرات والتهديم، وأبراجها تهدمت وسقطت في الميناء بسبب حصار قوات إبراهيم باشا لها[١٦].

وإذا كانت أوصاف الرحالة السابقين، في الأعوام ١٨٠٦ و١٨١٢ و١٨٣٢ تبرز، بشكل متفاوت، الفوضى السياسية وتسلط البدو والدمار الذي لحق بمدن فلسطين والأوبئة التي عمتها في تلك الحقب، فإن العقدين التاليين لم يكونا بأحسن حالاً إذ شهدا ثورات فلسطين على حكم إبراهيم باشا، والزلازل المدمرة في العام ١٨٣٧، وفترة الاضطرابات وعدم الاستقرار التي تلت عودة الحكم العثماني. وقد وصف بعض آثار ذلك وبعض المنجزات الإيجابية الرحالة السويسري فليكس بوفيه[١٧] Félix Bovet، الذي غادر مرسيليا باتجاه بيروت في ٧ آذار/مارس ١٨٥٨ على سفينة لشركة مساجيري امبريال Messageries Impériales الناشطة في المتوسط آنذاك.

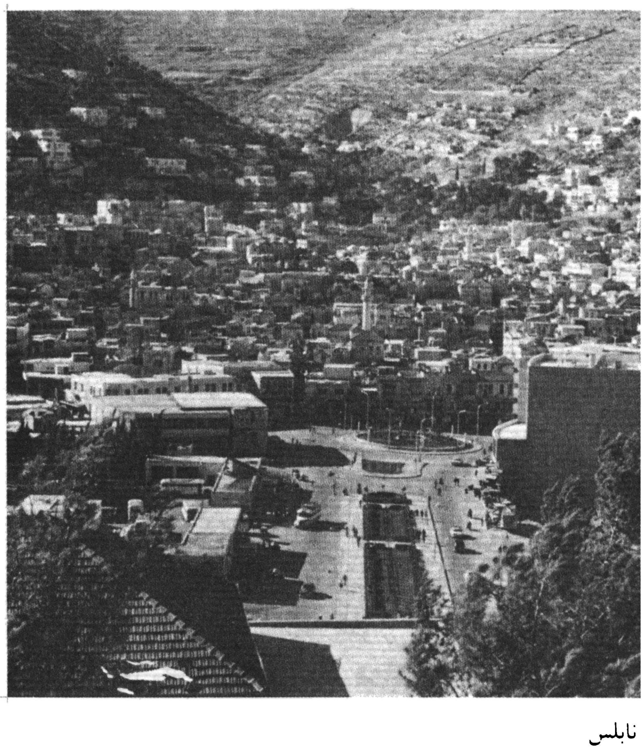
يصف بوفيه يافا بأنها محاطة بالبساتين الخصبة وأن برتقالها مشهور في بلاد المشرق ويشكل ثروتها الرئيسية. ويحل بوفيه في القدس في ٢٨ آذار/مارس ويصف شوارعها المبلطة جزئياً والتي لا يتسع معظمها لمرور عربة. ويعلق أن العربات لا تشاهد في عموم فلسطين وإنما تستخدم الحمير والخيول. ويذكر أنه لا يمكن تكوين فكرة دقيقة عن عدد سكان القدس الذين تضاعفوا أثناء زيارته بأعداد الحجاج تلك السنة، وأن هؤلاء يضمون خمسة عشر ألف حاج أرثوذكسي وعشرة آلاف أرمني، وأن الأوروبيين قلة بالنسبة لأعداد الحجاج من المشرق[١٨].

ثم يصف بوفيه حالة الفوضى التي تعم فلسطين ويقول ان الحكومة التركية ليست بدون قوة ولكنها بدون سلطة، وان سيادتها لا تمتد لأبعد من مدى مسدسها. ويرسل والي دمشق إليها بمناسبة أعياد الفصح ثمانمائة عسكري لحماية الحجيج وحفظ الأمن. ويعلّق بوفيه على حالة الفوضى تلك بأن هناك عدة سلطات إلى جانب السلطة العثمانية، فكل قبيلة مستقلة بأمورها، وعددٌ من القرى تدفع ضرائبها لا للحكومة وإنما لأمراء القبائل. وأثناء وجود بوفيه في القدس كانت قبائل منطقة الخليل تتصارع بعضها مع بعض. كما نُهبت قوافل الحجاج على بعد بضع ساعات من القدس، في طريق عودتها إلى يافا، وذلك على يد أفراد من أسرة أبوغوش المتمركزة في قرية العنب والتي سيطرت على طريق القدس ــ يافا منذ حوالي نصف قرن بالرغم مما تعرضت له من بطش على يد إبراهيم باشا المصري في العام ١٨٣٢[١٩].

ويذكر بوفيه أن القدس تضم أربعة أحياء كبيرة هي: حي المسيحيين في الشمال الغربي، وحي الأرمن في الجنوب الغربي، وحي اليهود في الجنوب الشرقي، وحي المسلمين في الشمال الشرقي. وتلحق بالحي الإسلامي حارة المغاربة إلى الشرق من الحي اليهودي ومنطقة الحرم التي تشكلّ بمفردها أكثر من خمس مساحة المدينة وتمتد على أكثر من نصف قسمها الشرقي[٢٠].

ومن الأُمور التي تدعو إلى الاستغراب، كما يقول بوفيه، الكلام عن حي خاص بالأرمن متميز عن الحي المسيحي، ويفسر ذلك بكون الأرمن أغراباً ويشكلون في القدس جالية غنية وكبيرة تتميز عن السكان الآخرين بلغتها وبملابسها، في حين أن معظم المسيحيين الآخرين (من أرثوذكس أو كاثوليك) هم من السكان المحليين ولا شيء يميزهم عن المسلمين سوى لون العمامة للذين يلبسونها، فلغتهم واحدة وكذلك أُصولهم وصفاتهم وحتى عاداتهم إلى حد كبير. ويضيف بوفيه أنه يصعب في القدس تمييز المسلم من المسيحي كما يصعب في الغرب تمييز البروتستانتي من الكاثوليكي[٢١].

ويشير بوفيه إلى التقديرات المختلفة لسكان القدس فمنهم من يقدّرهم بأحد عشر ألفاً أو بعشرين ألفاً، ولكن بوفيه يؤيد الأرقام التي ذكرها السيد شولتز، قنصل بروسيا بالقدس، بناء على بحوث جدية، من أن سكان القدس يقدرون بحوالي خمسة عشر



نابلس

ألف نسمة منهم ثلاثة آلاف وأربعمائة من المسيحيين وخمسة آلاف من المسلمين، وسبعة آلاف من اليهود، وأن هؤلاء الأخيرين أكثر الناس فقراً وأن حيهم أصغر باثنتي عشرة مرة من مجموع الأحياء الأخرى وهو الأكثر بؤساً[٢٢].

ويذكر بوفيه أن مدينة نابلس تضم ثمانية آلاف نسمة وأن بيوتها ذات نمط واحد من البناء، وهي مبنية من الحجارة الجميلة البيضاء التي يزيد من جمالها عدم وجود الخرائب والأنقاض فيها كما في القدس. ومعظم سكانها من المسلمين، وبينهم حوالي مئة من السامريين الذين لهم معبدهم. ويصف سانور بأنها محاطة بسور صغير، وأنها تتوج قمة تلة مستديرة، وهي أشبه ببرج يقع في طرف سلسلة من التلال القليلة الارتفاع[٢٣].

وحين اقترابه من بلدة جنين يذكر بوفيه السهل الخصب المحيط بها والبساتين التي تحدق بها أشجار الصبّار. ووراء ذلك شاهد طاحونة هوائية لاستخراج الماء، ولها أقنية لتوزيعه، وهي جديدة تستلفت النظر. وفي الأفق البعيد تبدو حقول القمح والمراعي. ولكنه يضيف أن خصب الأرض غير مستغل تماماً، وترى العين مجموعات الغزلان تمر راكضة، وطيور اللقلق تحوم في الجو، وكذلك الصقور[٢٤].

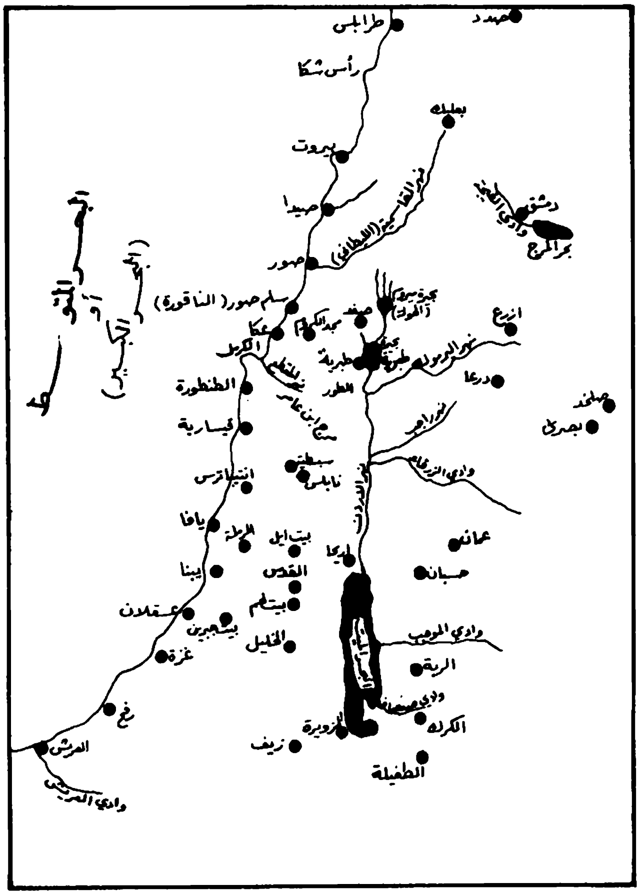
ويصف الناصرة بأنها بدون سور، وأنها ذات منظر خلاب تجتمع عندها ثلاث شعب جبلية تشكل عند التصاقها وادياً فسيحاً تحيط به تلال صخرية. وتقع الناصرة على أعلى هذه التلال وأكبرها. وتشكل بيوتها البيضاء والبساتين الخضراء المحيطة بها منظراً في غاية النظافة والجمال. ويضيف أن موقع الناصرة يوحي بالود والصداقة، وقلما شاهد مدناً أغرته على السكن فيها بأكثر منها. ويقول انه ليس في الناصرة جلال القدس ولا عظمة نابلس وإنما فيها التناسق المتواضع. ويروي بوفيه نقلاً عن أحد المبشّرين الألمان المقيمين في الناصرة أن المسيحيين فيها يشكلون أكثرية السكان، وهم يتوزعون بين أرثوذكس ولاتين بنسب متقاربة[٢٥].

ويذكر بوفيه أن مدينة طبرية هي الوحيدة القائمة على طرف البحيرة، وتقع بين البحيرة والمنطقة الجبلية. ويشكل سورها قوساً تحيط به أبراج تهدم ثلاثة أرباعها في حين يشكل طرف البحيرة وتره. ويكثر اليهود في طبرية، ويعلّق بوفيه على ذلك بقوله: «ان طبرية مدينة الحاخامين مثلما القدس مدينة الأنبياء». ويضيف أن قنصل النمسا في طبرية يهودي وأن معظم اليهود الأوروبيين المقيمين فيها وفي صفد هم من أصول نمساوية[٢٦].

وعن بناء طبرية يذكر بوفيه أنه دخل إليها من فجوة في

السور أحدثها زلزال ١ كانون الثاني/يناير ١٨٣٧ الذي هدم معظم المدينة وقتل أكثر من ألفين من سكانها. ولم يتهدم السور إلا جزئياً. ويعم الفقر سكانها، كما أن بيوتها تتألف من طابق أرضي وليس لها قباب(٢٧).

وبعد عشر سنوات من زيارة بوفيه فلسطين وفد إليها الرحالة الهولندي نيهولت(٢٨) T.M. Chevalier Lycklama A. Nijeholt قادماً من حلب. وقد وصل عكا بحراً في ٧ أيار/مايو ١٨٦٨. ويصف الدمار الذي لحق بها من جراء قصف الأسطول البريطاني ـ النمساوي لها في العام ١٨٤٠ لإخراج القوات المصرية منها، وتضرر من جراء ذلك جامع الجزار فيها. ويذكر عدة قرى بجوار عكا هي جديدة، المكر، أبو سنان وكفرياسيف. ويصف حيفا بأنها بلدة صغيرة تحيط بها البساتين التي تضم أشجار النخيل المتصلة حتى البحر. ولا يوجد فيها ميناء وإنما مرسى جيد. ويحيط بالبلدة سور قديم متهدم. ويبلغ عدد سكانها بين ثلاثة وأربعة آلاف نسمة يشكل المسلمون منهم ألف نسمة ويتوزع



خريطة فلسطين سنة ١٨٥٠

البقية، بالتساوي تقريباً، بين يهود ومسيحيين. ويكثر بين الأخيرين الأرثوذكس. ويتردد التجار الأوروبيون على حيفا، وتقيم فيها معظم الدول الأوروبية ممثلين قنصليين لها(٢٩).

ويشتق نيهولت تسمية مدينة الناصرة من كلمة (نضارة)، ويفسرها على أنها باقة ورد، ولعل المقصود أنها ذات النضرة أي الحسن، لأنه تحيط بها كروم الزيتون والتين والرمان والصبّار التي تحدق ببيوتها ذات الشرفات. وقد عاشت فيها مريم والمسيح. ثم يصف أزقتها بأنها ضيقة. ويشكل المسلمون، الذين يقدّرهم بألفي نسمة، أقلّ من خمسي السكان. ويتوزع السكان المسيحيون كالآتي: ٩٠٠ لاتين، ٧٥٠ كاثوليك، ٢٠٠٠ أرثوذكس، ٢٥٠ موارنة و ٣٥ بروتستانت(٣٠).

وفي الطريق من الناصرة إلى جبل طابور لفت انتباه نيهولت وجود خان كبير على مقربة من جبل طابور يتألف من بناءين محصنين بنيا، كما يقول، في أواخر القرن السادس عشر، على الطريق التي تصل دمشق بمصر. وعُرف هذا الخان بسوق الخان أو خان التجار لكونه أصبح سوقاً أسبوعية تنعقد كل يوم اثنين ويبيع البدو من الجوار مواشيهم فيها. كما يفد البدو إليها يومياً لسقاية خيولهم من بركة يغذيها أحد الينابيع. وذكر نيهولت أنه اجتاز أرضاً بركانية في الطريق إلى بحيرة طبرية مرّ خلالها وعلى بعد ساعة من سوق الخان بقرية كفرسبت المبنية من حجارة بازلتية. ثم اجتاز وادياً يُعرف بوادي بيسان قبل وصوله إلى طبرية. ويقول إن اسم هذه المدينة مشتق من اسم الامبراطور الروماني طيبيريوس، وإن قلعتها وسورها، بالرغم من بعض الإصلاحات المتعاقبة، متهدمان بكاملهما تقريباً بسبب الحروب وعاديات الزمن، وبخاصة زلزال العام ١٨٣٧، حتى إنه يمكن الدخول إليها من أية جهة كانت بالرغم من وجود باب وحيد لها(٣١).

ثم عاد نيهولت من طبرية إلى الناصرة بطريق آخر مرّ فيه بخان لوبية، وبقربه قرية لوبية. وفي طريقه إلى كفركنّا رأى، على بعد ثلاثة أو أربعة كيلومترات، صفورية، فوصفها بأنها من أشهر مدن الجليل وأن برجها يُشاهد على تل فيها. ويصف كفركنّا بأنها قرية تضمّ نحواً من خمسمائة إلى ستمائة نسمة نصفهم أرثوذكس ونصفهم الآخر مسلمون، وتقع وسط كروم التين والرمان والزيتون(٣٢).

غادر نيهولت الناصرة في ١٦ أيار/مايو باتجاه القدس التي وصلها في التاسع عشر منه، ويذكر مروره، في اليوم التالي لمغادرته

الناصرة، في طريقه إلى القدس، بقرية نين وسكانها مسلمون، ثم بمدينة جنين التي تضم ثلاثة آلاف نسمة جميعهم من المسلمين، وفيها جامع جميل وساقية ماء. ومرّ بعد ذلك بقباطية وهي قرية كبيرة سكانها من المسلمين، ثم بقرية سبسطية المبنية على مرتفع. ويصف فلاحي منطقة نابلس الموزعين في عدة قرى في هذه المنطقة الجبلية بأنهم يجدون البحبوحة من زراعة القمح والقطن والزيتون وشجر التوت، وأنهم يشعرون بنوع من الاستقلال التقليدي كونهم بعيدين عن دمشق التي يرتبطون بها إدارياً. ثم يذكر كيف أن سكان نابلس قاوموا بعناد إبراهيم باشا المصري الذي بطش بهم وأسر قائدهم قاسم الأحمد وهدم القسم الأكبر من مدينتهم(٣٣)، ويضيف نيهولت أن نابلس مدينة كبيرة تضم قرابة ستة عشر ألف نسمة ولا يتجاوز عدد المسيحيين منهم خمسمئة إلى ستمئة نسمة، منهم ستون من الكاثوليك والبقية من الأرثوذكس. وفيها أيضاً حوالي خمسمئة من اليهود نصفهم من السامريين. ويصف نابلس بأن نموها طولاني، ومنظرها جميل بسورها الأبيض وجامعها ومئذنته وبيوتها ذات الشرفات وبيارات البرتقال والليمون التي تحيط بها من كل جهة. ولكن أزقتها ضيقة ومتعرجة، وفيها أسواق مغطاة. وقد غادر نيهولت نابلس في ١٨ أيار/مايو في طريقه إلى القدس ماراً بالبيرة التي وصفها بأنها قرية تضم بين سبعمئة وثمانمئة من السكان المحليين، وبينهم قلة من الأرثوذكس(٣٤).

يذكر نيهولت أن سور القدس جُدد بناؤه في العام ٩٤١هـ / ١٥٣٤م في عهد السلطان سليمان القانوني، وهو مدعم بأبراج وتحصينات، ويبلغ ارتفاعه ثلاثة عشر متراً وعرضه متر. ويعلّق على ذلك بأن مقاومته لهجوم جدي ضعيفة، وفيه سبعة أبواب سُد منها اثنان. والأبواب هي: باب صهيون وباب المغاربة في الجنوب، والباب الذهبي وباب ستي مريم في الشرق، وباب دمشق (عرف أيضاً في أوقات مختلفة بباب العمود وباب سانت اتيين (باب ستّي مريم)، وهو أقواها، ويؤدي إلى نابلس والناصرة ودمشق، وباب هيرودس (عرف أيضاً بباب الساهرة أو الزاهرة)، وهو مغلق منذ ثلاث وأربعين سنة، وهذه جميعها في الشمال. ثم باب يافا، وهو السابع، في القسم الغربي من السور، ويسميه العرب باب الخليل، وتقوم القلعة بقرب الباب الأخير من جهة الداخل(٣٥). والطريف في الأمر أن تسميات الأبواب هذه تختلف من فترة إلى أُخرى وربما من كاتب إلى آخر طبقاً للمنظور الذي ينظر إليها فيه، وللمصادر التي يستقي منها معلوماته، مثلاً يسمى العارف أبواب القدس كالتالي: باب الأسباط من الشرق، باب الساهرة وباب العمود من الشمال، الباب الجديد من الشمال الغربي، باب الخليل من الغرب وباب النبي داود وباب المغاربة من الجنوب. ويضيف العارف أنه حتى منتصف القرن التاسع عشر كانت هذه الأبواب تُغلق عند الغروب ولكن حين شرع الناس بالبناء خارج السور حوالي العام ١٨٦٨ فُتحت الأبواب ليلاً ونهاراً(٣٦).

وتُقسم القدس، كما يذكر نيهولت، إلى أربعة أحياء رئيسية: مسيحي وأرمني ويهودي وإسلامي. ويحتل الحي المسيحي القسم الشمالي الغربي وتوجد فيه كنائس رهبان القلب المقدس والفرنسيسكان، والقنصليات الفرنسية والروسية والبروسية والإسبانية. ويمتد الحي الأرمني في الجنوب الغربي، والحي اليهودي في الجنوب الشرقي ويقول نيهولت ان الحي الإسلامي يضم مسجد عمر وسرايا «أوقصر» الباشا الحاكم. ويصف نيهولت الحي اليهودي بأنه أسوأ الأحياء وأوسخها، وهو مجموعة من الأزقة الضيقة. ويذكر أن في القدس ثلاثة شوارع رئيسية منظمة نوعاً ما، أولها يبدأ من باب يافا باتجاه الشرق، ثم الشارع الذي يقطعها من الشمال إلى الجنوب حتى باب صهيون، ثم الشارع الذي يبدأ من باب سانت اتيين (باب ستّي مريم) وهو (باب العمود) وينتهي بجبل الجلجلة(٣٧).

وفي طريقه من القدس إلى بيت لحم مر نيهولت بقرية عين كارم التي تضم بين خمسمئة وستمئة ساكن، مئة منهم من الكاثوليك. أما بيت لحم فتعد قرابة خمسة آلاف نسمة، نصفهم من الكاثوليك، ويتألف القسم الآخر من ألف وسبعمئة من الأرثوذكس وسبعمئة أرمني أرثوذكسي واثني عشر إلى خمسة عشر بروتستانتياً ومئة مسلم(٣٨).

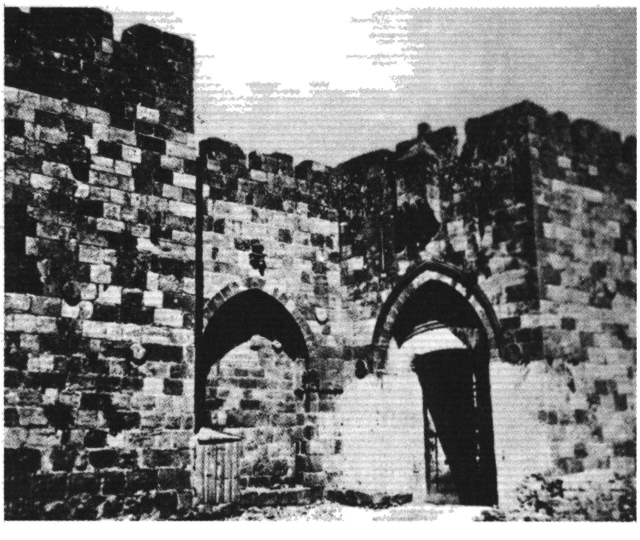


جانب من السور الغربي في القدس الذي بناه السلطان سليمان عام ١٥٣٦

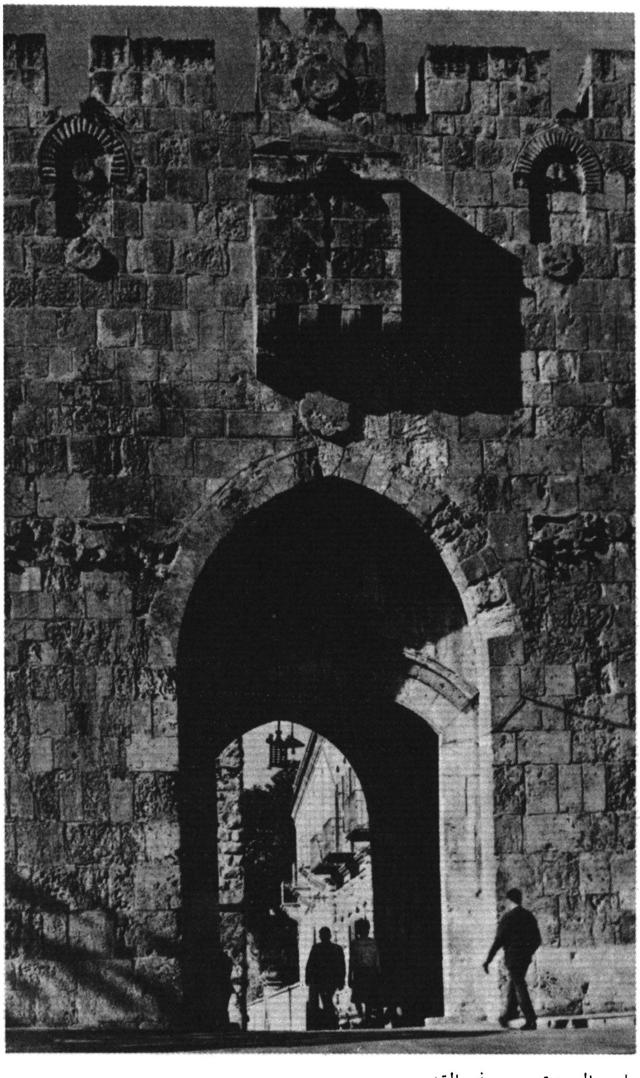
غادر نيهولت القدس يوم الثلاثاء في ٩ حزيران/يونيو ١٨٦٨ متجهاً نحو يافا ليسافر منها إلى بيروت. وقطع المسافة في يومين، ومر في طريقه بقرية العنب (أبو غوش) التي تقع على مرتفع. ويقول نيهولت ان وجود الدولة ملحوظ في نقاط عدة على أطراف الطريق التي تقوم فيها مراكز مراقبة من قبل قوات الباش بوزوق، وهي قوات عثمانية غير نظامية، ويبلغ عددها سبعة عشر مركزاً مهمتها توفير سلامة المسافرين.

ثم مرّ بقرية ساريس، وسكانها مسلمون، وتحيط بها أشجار الزيتون. ويذكر كذلك عدة قرى مسلمة، في الطريق إلى الرملة، مثل القبيبة، وأبوشوشة والبرية وعنابة. ويصف الرملة أنها مدينة صغيرة يبلغ سكانها حوالي أربعة آلاف نسمة، ثلاثة أرباعهم من المسلمين، ويعد الكاثوليك حوالي ستين شخصاً، والبقية أرثوذكس. ثم يصف اللد، القريبة من الرملة، فيقول ان سكانها يبلغون قرابة سبعة آلاف نسمة منهم خمسة آلاف من المسلمين، والبقية من الأرثوذكس باستثناء خمسين شخصاً من الكاثوليك وخمسة من البروتستانت. ومن اللد توجه إلى يافا بطريق لا يمر في الرملة، ومر بعدة قرى منها مزيرعة، ودير طريف، وبيت نبالا، وبيت دجن ويازور. وبعد أن مرّ ببساتين البرتقال والليمون، خارج يافا، ذكر إقامة سوق يومية، خارج سور يافا، تُباع فيها الخضار والفواكه من كل نوع(٣٩).

ويعلّق نيهولت على تاريخ يافا في العهد العثماني فيقول ان اسمها لم يبرز حتى العام ١٧٩٩، حين احتلها نابليون بونابرت، وفي عام ١٨٤٠ حين احتلها الإنكليز وطردوا قوات محمد علي باشا منها وأعادوها للعثمانيين. وقد أناخ عليها بثقله زلزال العام ١٨٣٧ الذي تسبب بوفاة ما يقرب من خمسة آلاف من سكانها، ولهذا فسكان يافا اليوم لا يزيدون عن ستة آلاف نسمة ثلثاهم من المسلمين. ويشكل كل من الكاثوليك والأرثوذكس حوالي سبعمائة نسمة، في حين يشكل اليهود أربعمئة نسمة، مع قلة من الموارنة والأرمن والبروتستانت. وميناء يافا أشبه بالمرسى المكشوف، والملاحة فيه سيئة في فصل الشتاء، من كانون الأول/ديسمبر حتى آذار/مارس، أما بقية السنة فتنشط فيها حركة الحجاج المسيحيين القادمين من أنحاء العالم لزيارة الأراضي المقدسة. وأما التجارة فيصفها بأنها ضعيفة في أيامه، والسلع الرئيسية هي منتجات مصر التي تنقل عبر يافا إلى سوريا. وتتألف الصادرات من الحبوب والحرير والقطن والبلح وغيرها(٤٠).



باب يافا (١٥٣٨)



باب السيدة مريم في القدس

وبعد حوالي أربع سنوات من رحلة نيهولت يقوم الرحالة الفرنسي أوجين دي فوغيه Vicomte Eugène-Melchior de Vogüé بزيارة فلسطين قادماً إليها من استانبول، عبر لبنان ودمشق، وقد بدأ رحلته في ١ تشرين الثاني/نوفمبر ١٨٧٢[٤١]. ويصف فوغيه مشاهداته في كل بلد على شكل مذكرات تحمل اسم البلد وتاريخ زيارته. ففي مذكراته عن صفد ـ طبرية بتاريخ ١ كانون الأول/ديسمبر ١٨٧٢ يقول إن صفد قد أهملها الرحّالة، ويشبهها بواحة من أشجار الزيتون والتين والعنب، بين مرتفعين، وتبرز فيها بقايا قلعة قديمة. وفي وسط البلدة ساحة تلتقي عندها الأحياء الثلاثة للمسلمين واليهود والمغاربة. ويعلّق فوغيه على تنوع السكان ونشاطهم في صفد بأنه يلفت النظر بالمقارنة مع صغر البلدة ويصف اليهود فيها بأنهم غريبو الأطوار والمظهر بعباءاتهم الأوروبية الرثة والقذرة، وقد زار حيهم وتحدث عن معتقداتهم. وقال انهم بحماية الإنكليز وقنصلهم في صفد، وان معظمهم قدموا من شمال أوروبا، وبخاصة من بولونيا وروسيا والأفلاق، وقد احتفظوا بملابسهم وعاداتهم الأصلية التي حملوها معهم قبل عشر سنوات أو خمس عشرة سنة[٤٢].

ويصف سور طبرية الذي تقوم عليه أبراج ضخمة والذي جدده ظاهر العمر. وقد أناخ زلزال العام ١٨٣٧ بثقله على مدينة طبرية. ويذكر أن فيها بعض المسيحيين الأرثوذكس وقلة من اللاتين ولهم كنيسة صغيرة. ويصف منطقة طبرية، بحوضها وأوديتها ومياهها، بأنها حديقة سوريا، وهي بنخيلها الجميل وأشجار الموز فيها وخصب تربتها تحتاج إلى القليل من الجهد للحصول على مردود كبير، ولكن لا يهتم كثيرون بذلك. ويذكر أن تجارة طبرية شبه منعدمة باستثناء ما يتعلق بالمواد الغذائية الأولية. وينصب اهتمام الناس على قضايا الدين[٤٣].

واتجه الرحالة فوغيه بعد ذلك نحو الناصرة. فسار في مرتفعات وهضاب كان آخرها قرون حطين، وهو مكان الموقعة التي انتصر

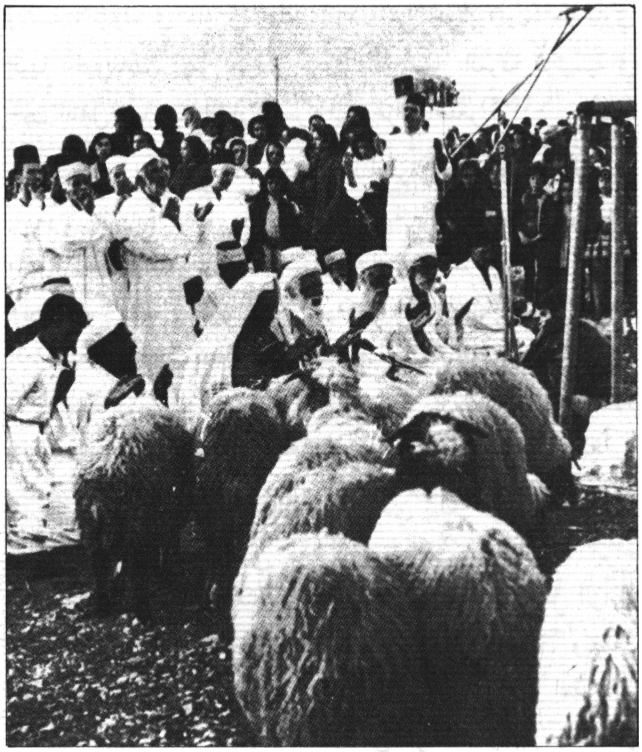


جانب من شاطىء يافا

فيها صلاح الدين على جيوش الصليبيين في ربيع الثاني ٥٨٣هـ / تموز/يوليو ١١٨٧م. ثم مرّ بقرية لوبية وفيها خان متهدم بُني في القرن السادس عشر لإيواء التجار المتجهين من مصر إلى دمشق. ويصف، حين اقترابه من الناصرة، انسجام ألوان البيوت وشرفاتها مع لون تربة المنطقة المحيطة بها. ويقول عن الناصرة انها قرية من أكثر القرى التي رآها نظافة وحسن بناء. ودعي فيها إلى غداء عند الشيخ أبو أحمد الصفدي الذي يزوره الناس، ووصفه بصديق الفرنسيين. ويصف سكان الناصرة بأنهم قرويون متوسطو الحال، ويقارن بين وقار كلامهم ونبل موقفهم وبين صخب السكان الأوروبيين وإزعاجهم(٤٤).

ويكتب فوغيه من نابلس بتاريخ ٨ كانون الأول/ديسمبر ١٨٧٢ بأنه يوجد فيها مئة وخمسون سامرياً، ويصف وجود مرض البرص فيها ويقول ان هذا المرض يوجد أيضاً في القدس وفي مدينتين أو ثلاث غيرهما في فلسطين(٤٥).

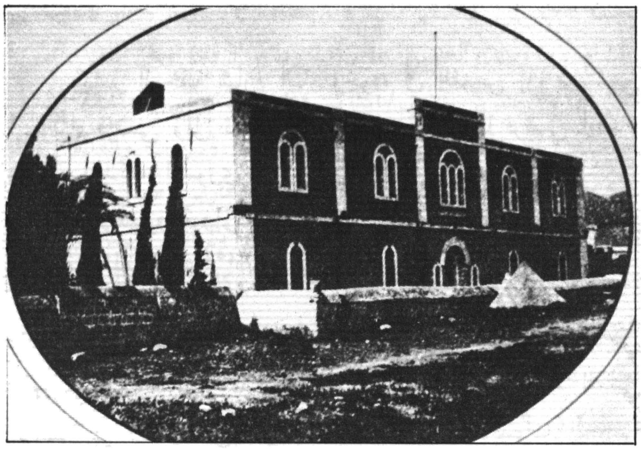
ثم يتحدث عن صناعة الزجاج في الخليل حيث تصنع منه الحلى النسائية، ويذكر صناعة أخرى هامة فيها وهي الخمر التي تنتج من العنب الموجود بكثرة في المنطقة. ويشبّه الخليل بميناء يطل على الصحراء. ويقوم عند مدخلها محجر صحي (كارانتينا) أشبه بمحاجر الموانىء الأوروبية. ويذكر أن قافلة الحج العائدة من الحجاز تحجر في الخليل للتأكد من سلامتها من الأوبئة. كما تتوقف فيها قوافل مصر والبتراء ونَجْد حيث تفرغ حمولة جمالها وتخزن فيها القطن والقهوة(٤٦).



السامريون على جبل جرزيم

وفي رسالة من القدس بتاريخ ١٤ كانون الأول/ديسمبر يذكر فوغيه زيارته إلى المنشآت الروسية الواقعة على بعد عشر دقائق من القدس على الطريق إلى يافا. ويسكن القنصل الروسي في أحد هذه الأبنية التي بُنيت بتبرعات روسية والتي تضم مستشفى من ستين سريراً وصيدلية ومَضافَة للحجاج الفقراء وللمسافرين الميسورين، ومصلّى وكنيسة وملحقات أخرى مع ما يلزم ذلك من اختصاصيين وموظفين. وهذا الأمر جعل فوغيه يشبّهها بالمدينة المسكوفية الصغيرة La petite cité moscovite. ويضيف أن أعداد الحجاج المسيحيين الروس الذين يفدون كل عام إلى فلسطين عبر ميناء يافا تراوح بين ثلاثة وأربعة آلاف حاج. ثم يصف النزاع بين اللاتين والأرثوذكس وعدم تمكن الأرمن الغريغوريين من أن يكون لهم دور هام، ويشير إلى وجود الأقباط والأحباش واليعاقبة وإلى دخول عنصر جديد في الثلاثين أو الأربعين سنة الأخيرة وهو البروتستانت عن طريق الإرساليات التبشيرية الأنغليكانية والأمريكية ثم اللوثرية الألمانية. ويقدِّر فوغيه سكان القدس بحوالي ستة وعشرين ألفاً يشكل اليهود منهم حوالي أربعة عشر ألفاً، ويضم البقية من سبعة إلى ثمانية آلاف مسيحي، ومن أربعة إلى خمسة آلاف مسلم(٤٧).

غادر فوغيه القدس باتجاه يافا ووصل بعد ساعتين من السير إلى قرية قالونية، ثم اجتاز ممراً جبلياً، ووصل إلى قرية أبو غوش. ثم يعبر الجبال من باب الواد



الدير الروسي في أريحا

ويدخل إلى سهل سارونا الخصب الذي يمتد حتى البحر. ويمر باللد في طريقه إلى يافا، وعلى بعد كيلومترين إلى الشرق من يافا يدخل بساتين البرتقال. ويعلّق على ذلك بقوله إنه باستثناء غوطة دمشق لم يعرف منطقة أخرى في جميع سوريا أكثر غنى من منطقة يافا، ثم يدخل إلى سوق، خارج سور يافا، تحمل إليها أنواع الفواكه والخضار ويقوم ببيعها وشرائها خليط من الناس المحليين والأغراب. ويصف مدينة يافا بأنها محاطة بسور تخرقه في عدة نقاط الأبنية المتنامية. ويقول عن مرفئها إنه أسوأ ما في الساحل لأن المراكب في فصل الشتاء لا تستطيع الرسو فيه. وأنهى فوغيه زيارته لفلسطين في ٢٨ كانون الأول/ديسمبر ١٨٧٢م(٤٨).

وآخر رحالة أوروبي في عيّناتنا هذه هو الفرنسي غبرييل شارم Gabriel Charmes(٤٩) الذي غادر الإسكندرية في ٢١ آذار/مارس ١٨٨٠م متجهاً نحو يافا. وكغيره من الرحالة الأوروبيين يلفت انتباهه ضيق شوارع يافا وتعرجها ووساختها، وشرفات البيوت التي تحيط بها جدران تمنع النظر إلى من فيها من الخارج على عكس شرفات القاهرة. ويضيف أن هذا يتلاءم مع الحياة الاجتماعية حيث تظهر النساء في الشوارع وهن محجبات. ولكنه في مكان آخر يذكر أن النساء في الصيف يكشفن عن وجوههن(٥٠). ويتحدث عن السكان فيقول إنهم مزيج من أقوام ومذاهب متعددة. ويشير إلى مستشفى فرنسي فيها أقامه رجل من مدينة ليون الفرنسية بكلفة تقدر بحوالي مئتين إلى ثلاثمائة ألف فرنك فرنسي، وإلى مدرسة بروتستانتية وأخرى كاثوليكية غير هامة للفرنسيسكان. وفي طريقه من يافا إلى القدس سلك الطريق البرّي الذي بُني في العام ١٨٦٨م(٥١) وكلّف، كما يقول، أكثر من عشرة أضعاف ما كلفه طريق بيروت ــ دمشق البري الذي افتُتح في عام ١٨٦٣م(٥٢)، وذلك بسبب طبيعة التربة وطبوغرافية الأرض(٥٣).

ويشير الرحالة شارم أثناء وجوده في القدس إلى مستشفى فيها بناه فرنسي وإلى ثلاث مدارس مهنية أسسها فرنسي أيضاً. ويشيد بالذكاء السوري عموماً ولكنه يشير إلى فقدان الشعور بالواجب والمسؤولية وإلى ضرورة تبنّي المدرسة مهمة التعليم وليس مجرد نقل المعلومات(٥٤).

وكغيره من الرحالة الأوروبيين يصف شارم بؤس الحي اليهودي في القدس وقذارته، ثم يشيد بجهود الاتحاد العالمي الإسرائيلي (الاليانس) في بناء المستشفيات وبيوت العجزة والمدارس لخدمة اليهود، ولكن تلك الجهود تلقى معارضة من اليهود المحافظين الذين يريدون مدارس تلمودية كالتي أسسوها في القدس وطبرية وصفد(٥٥).

ثم يتحدث، أثناء رحلته من القدس إلى البحر الميت وأريحا، عن قطّاع الطرق الذين وضع إبراهيم باشا المصري حداً لتصرفاتهم وبخاصة أبو غوش الذي أصبح لاسمه رهبة بعد مقتله أشبه بالأساطير(٥٦). ويصف حقول القمح والأشجار حول أريحا ويذكر أن بها مستشفى روسياً. ولكنه يضيف أن هذه المدينة المشهورة سابقاً والتي سُمّيت بمدينة النخيل يعمها البؤس الآن. فقد تلاشت أشجار النخيل والأرض بحاجة إلى الري لزراعة القطن وقصب السكر وغيرهما. كما كان على السكان الدفاع عن مزروعاتهم ضد البدو(٥٧).

ويذكر شارم، في طريقه من أريحا إلى الناصرة، إهمال الريف وبؤس ساكنيه على عكس ما كان عليه الأمر في السامرة والجليل. ويصف الزيتون المحيط بنابلس ووجود سور يحيط بها وما إن اجتازه حتى وصل إلى أزقة ضيقة بائسة، ولكن وجود نوافير الماء الغزيرة يحسّن الصورة كثيراً. ويشير إلى معبد السامريين فيها وإلى مجموعة صغيرة من السكان الكاثوليك تتألف من حوالي ستين شخصاً(٥٨).

ويشيد شارم بالمناظر الجميلة في الوادي بين نابلس وسبسطية وجنين التي تطل على مرج ابن عامر وتحيط بها الأشجار. ووصف نزوله في دار في جنين تتألف من حوش أو ساحة تأوي إليها الحيوانات، ومن غرف. وذكر أنه شغل الغرفة الرئيسية في حين انتقل صاحب الدار وأسرته إلى غرفة أصغر(٥٩).

وقد زار جبل طابور عند الناصرة حيث وجد الحجاج يقومون بالزيارة أيضاً، وأشار إلى هضبة واسعة يقع عليها خان متهدم أشبه بالقلعة ويُعرف بسوق الخان أو خان التجار. وذكر أن هذه الهضبة كان يسكنها آنذاك شراكسة من الذين لجأوا إلى الدولة العثمانية بعد احتلال روسيا القيصرية لبلادهم فوزعتهم الدولة في آسيا الصغرى وفي سوريا. وهم يمتهنون تربية الخيل، ولكنهم يموتون بسرعة بسبب قسوة المناخ(٦٠).

ثم زار طبرية ووصف سورها الذي يبلغ طوله، كما يقول، كيلومتراً واحداً، وهو مبني من كتل البازلت، وتحيط به أبراج مستديرة ولكنه في حالة متهدمة شأنه شأن القلعة التي تحتل الزاوية الشمالية الغربية منه، وذلك بفعل زلزال العام ١٨٣٧م. ويصف كثرة اليهود الشرقيين في طبرية، وقذارة شوارعها. ومنها انتقل إلى الناصرة مروراً بقرية لوبية القائمة على مرتفع، وأنهى رحلته في عكا(٦١).

إن هذه العينات من أوصاف الرحالة الأوروبيين لمدن فلسطين وقراها، عبر فترة زمنية امتدت من العام ١٨٠٦ إلى العام ١٨٨٠م، تبين لنا، من ناحية، اهتمامات هؤلاء الرحالة وخلفياتهم الاجتماعية والاقتصادية والدينية، ومدى ما أثّرت هذه الاهتمامات على ما رأوه في فلسطين وكذلك على ما لم يروه ولم يهتموا بوصفه فيها من ناحية أخرى. وقد حاولوا أن يستقوا معلوماتهم من أناس موثوق بهم التقوا بهم في فلسطين، أو من كتابات من سبقهم. وقد استبعدنا تعليقاتهم الشخصية وأخذنا ما يفيد في التعريف بمدن فلسطين وقراها أثناء زيارتهم لها. ومن شأن هذه الأوصاف أن تفيدنا عن وضع مدينة أو قرية ما، أو عن مجموعة سكانية مدنية أو ريفية، أو عن حالة اقتصادية أو طبيعية أو اجتماعية، في فترة ما، ومقارنتها مع ما كانت عليه أو ما أصبحت عليه في فترة لاحقة، تطوراً أو انحطاطاً، أو ما استجد فيها من أوضاع.

وهناك أوصاف أخرى لرحالة عرب، من الربع الأخير من القرن التاسع عشر، تعرِّف بمدن فلسطين وقراها وبجوانب متعددة من طبيعتها ونواحي الحياة فيها، وبعضها هام جداً لأنه ينطلق من منظور آخر. وقد انتقينا من هذه الرحلات أهمها وأكثرها تفصيلاً وهي **الروضة النعمانية في سياحة فلسطين وبعض المدن الشامية**، لمؤلفها نعمان القساطلي الدمشقي[٦٢]، الذي زار فلسطين في عامي ١٨٧٤ ـ ١٨٧٥. والجدير بالذكر أن أحداً لم يستخدم هذه الرحلة ولا يعرف الكثير عنها[٦٣]. وكان القساطلي قد ذكر في كتابه، **الروضة الغناء في دمشق الفيحاء** «وإن شاء الله سأردفه بكتاب آخر دعوته مرآة سورية وفلسطين»[٦٤]. ويبدو أن مؤلَّفه **الروضة النعمانية** هو المقصود بكتابه الآخر عن سوريا وفلسطين، ولكن لم يصلنا منه سوى دفترين أو جزءين.

أما الرحلة الأخرى فهي أقل أهمية بكثير من رحلة القساطلي، وقد قام بها الشيخ محمد عبد الجواد القاياتي المصري في العام ١٨٨٣، بعد أن نُفي من مصر، إثر الاحتلال الإنكليزي لها في العام ١٨٨٢م، فقدم إلى بلاد الشام وزار بعض مدنها ومدن فلسطين، وسجل ملاحظاته المقتضبة نسبياً عن فلسطين والمستفيضة عن بعض مدن سوريا ولبنان، في رحلته: **نفحة البشام في رحلة الشام**[٦٥]. وسنستخدم رحلة القاياتي هذه في بحث الحياة الثقافية في فلسطين لأن صاحبها كعالم أزهري ذكر من لقيه من العلماء فيها ووصف العلوم الدينية التي برعوا فيها. وقد أهملنا رحلة أخرى، قريبة الزمن من هاتين الرحلتين، لصاحبها السيد حمود بن أحمد بن سيد البوسعيدي، من زانزبار (زنجبار)، قام بها في العام ١٨٧٢، وزار مصر والحجاز وفلسطين وسوريا حتى دمشق[٦٦]. وإهمالها كان بسبب المبالغات وعدم دقة المعلومات فيها، وبخاصة فيما يتعلق بأعداد السكان وتوزعها على الطوائف الدينية.

ليس لرحلة القساطلي من بداية أو نهاية واضحتين. فقد وضع هو، أو ناقل مخطوطه، أخباره في دفترين أو جزءين، عالج فيهما مناطق الخليل وغزة والقدس ونابلس. ويقول في نهاية الجزء الثاني (ص ٩٠) «تم الجزء الثاني من الروضة النعمانية ويليه الثالث إنشاء [كذا] الله وكان ختام تحرير هذا الجزء في مدينة نابلس في ١١ حزيران غربي ٧٥». ولم نعثر على الجزء الثالث ولا ندري إن كان قد وضعه حقاً. ولكن رحلته ينقصها وصف الجليل وكذلك مدينة نابلس. وقد وعد في الجزء الثاني (ص ٧٩) بالاستفاضة في وصفهما فيما بعد. وعوضاً من أن يتوقف كلام القساطلي بنهاية الجزء الثاني يضع في الصفحة التالية (ص ٩١) عنوان: «بعض آثار أورشليم أو القدس الشريف»، ويتكلم عنها حتى صفحة ١١٣، أي النهاية الفعلية للدفتر الثاني وتتوقف الكتابة فجأة في أعلى الصفحة. ويذكر القساطلي في مطلع هذه النبذة عن آثار القدس (ص ٩٢) «بما أننا قد أوعدنا في بداية (مقدمة) دفترنا بأن نذكر بعض آثار أورشليم أو القدس الشريف المدينة القديمة والشهيرة في الكتب المقدسة والتواريخ نبادر الآن لذكر ما تمكنا من الوقوف عليه». وعلى هذا فإن هذا «الملحق» هو تتمة بالفعل للصفحات العشر غير المرقمة في مطلع هذا الدفتر، أو الجزء، التي يعالج فيها القساطلي تاريخ القدس.

ويتبين من ثنايا رحلة القساطلي أنه بدأها يوم السبت في ٢٦ أيلول/سبتمبر ١٨٧٤م إذ يقول: «حيث خرجت من مدينتي دمشق الشام قاصداً هذه البلاد عن طريق بيروت»[٦٧]. ويشير في مكان آخر إلى دمشق بأنها «مدينتنا»[٦٨]. وقد اعتز القساطلي بالشام وبيروت والقدس على أنها وطنه إذ قال حين تلقى تحارير منها في ٢٧ تشرين الأول/أكتوبر ١٨٧٤م، وهو في منطقة الخليل «وأخذت أتلو تحارير وردت إلي من الشام وبيروت والقدس وقد سكبت دموعاً من شدة الفرح لأنها أول تحارير وصلت ليدي من بلادي في ذلك بعد أن مضى عليّ شهر ولم أنظر شيئاً من تلك الجهات التي هي وطني العزيز»[٦٩]. وكان آخر تاريخ ذكره القساطلي في رحلته هو الأربعاء ١١ حزيران/يونيو ١٨٧٥م حين اختتم تحرير الجزء الثاني من سياحته في مدينة نابلس التي كان قد وصلها في ٩ حزيران[٧٠]. ونظراً لأن القساطلي يذكر أنه سيكون هناك جزء ثالث لرحلته فلا نعلم متى انتهت رحلته فعلاً. كما أنه

كان يكتب على شكل مذكرات وقد وعد بترتيبها فيما بعد حين قال: «وحيث ان دفترنا هذا مذكرة لنا لا نراعي به شروط الترتيب الآن ولكن إنشاء [كذا] الله إذا عدنا لأوطاننا سالمين سنرتبه ترتيباً حسناً ونحفظه في مكتبتنا تذكاراً لسياحتنا الحالية»(٧١).

ويظهر من خلال رحلة القساطلي أنه كان مع مجموعة من الخبراء بينهم الكابتن (يدعوه القساطلي القبطان) وهو كلود كوندر C. R. Conder، الذي كان يعمل في فلسطين لصالح صندوق استكشاف فلسطين Palestine Exploration Fund البريطاني(٧٢). ويذكر القساطلي في إحدى المناسبات أنه ركب «مع مستر جرج وسرنا قاصدين تل عراد»(٧٣). ومما يدل على أن القساطلي كان يعمل مع هؤلاء الخبراء المسّاحين كثرة المعلومات والمخططات الأثرية التي يضمنها في رحلته. وكان يستخدم باستمرار صيغة الجمع مما يدل على أنه كان واحداً في مجموعة كقوله، مثلاً، حين لجوئه إلى الخليل في جو عاصف إنه «وصلت بغالنا وبقية أرفاقنا في حالة التلف ونزلت مع الخواجات في لوكندة هناك»(٧٤). ومما يؤكد أن القساطلي عمل مسّاحاً مع فريق المسّاحين البريطانيين هؤلاء ما ذكره هو نفسه في مقال كتبه في مجلة **الجنان** لعام ١٨٧٧م(٧٥).

وعُرف عن القساطلي صراحته في تقريره الوقائع مما يضفي على رحلته أهمية خاصة إذ قال:

> «وبما أن القصد إفادتنا من ذلك نبدي آراءنا المتعلقة ببعض ما سنذكره بحسب ما تقودنا إليه تلك الآثار التي بعضها مهم في الاعتقادات بحسب اعتبار بعض الطوائف. ولا بد من الاستناد أيضاً على النتائج الصادرة المأخوذة عن المؤرخين الشهيرين إذ بواسطتها تستنير أفكارنا ونفوز بحكم صائب فيما نتعرض للحكم عليه»(٧٦).

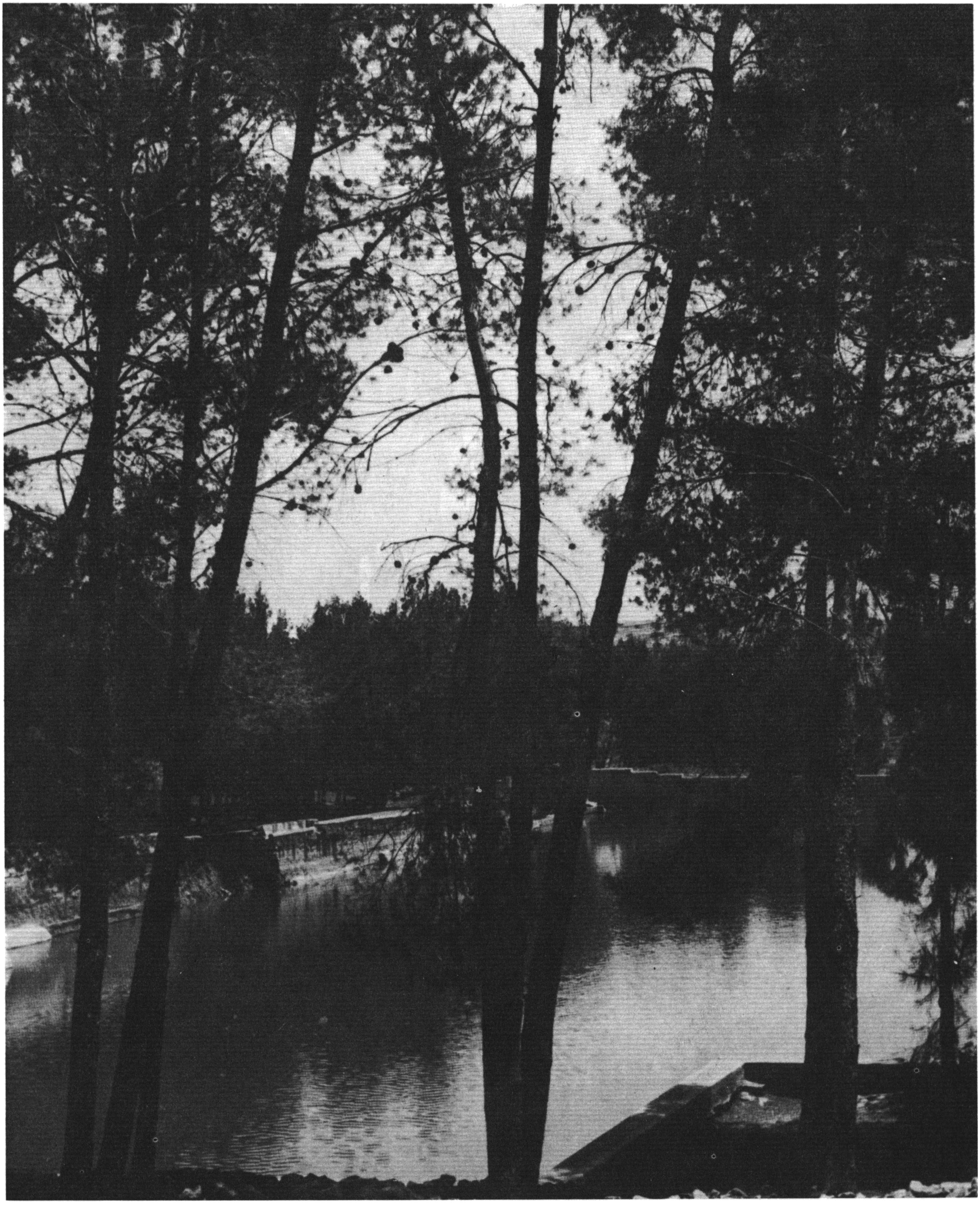
ولم يصف ما لم يطلع عليه بنفسه بدليل قوله:

> «وهذا المحل لم أزره بل زاره جناب القبطان كوندر في ٣ تشرين الثاني غربي ٧٤ وهو أخبرني عنه وبناء عليه لا أقدر بأن أتكلم بالتفصيل عنه بل ذكرت الكلمات ذاتها التي أخبرني بها عنه جناب المومى»(٧٧).

إن أول موقع يصفه القساطلي في رحلته هو الرامة في جبل الخليل إلى الشمال من قرية الخليل على بعد نصف ساعة، ويقول إنها خربة، ثم يشير إلى وادي العروب وبركة الماء فيه التي قيل إنها تجري بقناة إلى برك سليمان، وبقايا القناة ما زالت قائمة. وهذا الوادي على بعد أربع أو خمس ساعات جنوبي القدس. ثم يذكر الوادي الشرقي الذي هو إلى الجنوب الغربي من القدس ويمتد غرباً من قرية حلحول، ويشير إلى خصب تلك الأودية وزراعتها بسبب الأمن الذي حقّقه فيها ثريا باشا والي القدس الذي «تهاب سكان تلك البلاد اسمه حتى الآن»(٧٨). ويصف قرية كوفين بأنها خراب، وهي إلى الجنوب الشرقي من القدس تبعد عنها حوالي ثلاث ساعات ونصف على الطريق السالك بين القدس والخليل. وبلغ من دقة القساطلي أنه ذكر أعداد أشجار الزيتون فيها ووجود بلوطة كبيرة إلى جانب الخربة. وقبالة تلك الخربة، على الجانب الثاني من الطريق، خربة أخرى هي زيتا، ويرجّح أنها كانت حصناً أو قلعة. ويشير إلى خربة على تلّة إلى الجنوب الشرقي من القدس، هي خربة ساوير، ويذكر أنها ربما خربت منذ مئة وخمسين سنة أو مئتي سنة، وإلى الغرب منها على بعد ربع ساعة خربة اسكاري، وإلى الشمال الشرقي، على بعد ثلث ساعة، خربة بريكوت(٧٩).

وعلى الطريق بين القدس والخليل، إلى الشمال من حلحول، على بعد ساعة ونصف الساعة من الخليل، ثلاث عيون ماء، عين الحصا وعين الذروة العليا وعين الذروة التحتا. ويصف حلحول بأنها قرية جميع أهلها من المسلمين ويبلغون نحو مائة أو مائة وعشرين بيتاً «وهم يبلغون نحو خمسماية نفساً وهم جهالاً [كذا] لا يوجد بينهم من يقرأ سوى اثنين الخطيب وولد آخر»(٨٠)، وإلى الجنوب منها واد يُعرف بوادي عين العاصي وإلى الشمال وادي أيوب، وفي كليهما عيون من الماء. ويشير في الشمال الغربي من قرية حلحول إلى خربة مدينة بيت صور، بين الخليل والقدس. وإلى الغرب منها خربة بعارنة التي خربت، كما يرجح، من نحو عشرين أو ثلاثين سنة، وإلى الغرب منها واد غني التربة أخذ فلاحو القرى المجاورة منذ أربع سنين في غرسه كرماً. وإلى الغرب من خربة بعارنة خربة الصفا.

ويصف مدينة الخليل بأنها على بعد ست ساعات من القدس باتجاه الجنوب الغربي، وأنها مركز حكومة جبل الخليل منذ اثنتي عشرة سنة حينما تغلب ثريا باشا والولاة الذين قبله على هذه البلاد بعد أن كانت خاضعة لعائلة بيت عمرو وبيت اللحام ومصلح العزة ونمر العملة. وكانت الخليل مع ثلاث عشرة قرية خاضعة لأولاد عيسى عمرو من قرية دورا وأكثر إقامتهم في الخليل. وإلى الجنوب من الخليل، على بعد ساعة ونصف منها، تقع قرية يطا (أويطة) التي هي قرية صغيرة تضم نحو سبعمائة نسمة يعملون في تربية المواشي، وأيضاً في زراعة الزيتون والكرمة. ويقسم سكانها إلى حارتين ولهم شيخان الأول اسمه أبو صبحة ابن حماد الشعبي والآخر عبد القادر خليل عوض. وقد ثارا على الدولة قبل عشر سنوات ثم أخضعتهما لها(٨١).



برك سليمان

وإلى الجنوب من يطا، على بعد ساعة، تقع قرية السموع، وهي ذات أبنية قديمة. ويبلغ عدد سكانها نحو أربعمئة وخمسين نسمة كلهم مسلمون. وإلى الغرب من الخليل على بعد أربع ساعات تقع قرية الظاهرية، ومجموع سكانها خمسمئة نسمة ونيف، وهم قسمان، على غرار قرى جبل الخليل، قسم يخص أحمد النصار وأخاه الشيخ علي المختار، وهذه الأسرة ذات أهمية في



الخليل

تاريخ المنطقة منذ عهد إبراهيم باشا المصري، وقسم آخر شيخه حسن أبو شرخ.

ويُعنى أهل الظاهرية بتربية المواشي والزراعة فقط، أما غرس الكرمة والزيتون وغيرها من الأشجار الذي كان شائعاً في الماضي فلا يهتمون به الآن. ويذكر القساطلي أن هذه القرية قبل عشر سنوات أو أكثر كانت خربة بسبب الحروب المحلية إلى أن أقام حاكم القدس ثريا باشا الأمن فعاد سكانها إليها(٨٢). ولكن بعد ثلاث سنوات من ذلك، في شهر أيلول/سبتمبر ١٨٧٧، وصف مراقب بريطاني قرية الظاهرية بأنها مهجورة لأن سكانها لم يتمكنوا من دفع الضرائب للدولة بسبب سوء المحاصيل فقرروا مغادرتها(٨٣).

وفي يوم الثلاثاء ١٠ تشرين الثاني/نوفمبر ١٨٧٤م رحل القساطلي من الظاهرية إلى بئر السبع، وهي إلى الجنوب الغربي منها على بعد ست ساعات. وتحيط ببئر السبع أرض واسعة خصبة ذات تربة بيضاء وحمراء، وقد أخذ العربان بزراعتها. ونظراً لخصبها فإن مدّ الشعير ينتج خمسين مداً أو أكثر، ومد القمح ثلاثين مداً. وبعد ست ساعات ونصف الساعة من بئر السبع شرقاً وصل القساطلي وصحبه إلى تل الملح، ومنه عاد إلى قرية الظاهرية. وزار في طريقه خربة حورا. ويذكر إلى الغرب من الظاهرية خربة عناب التي تأوي إليها في الشتاء والربيع أغنام ومواشي الظاهرية بسبب وجود المغائر فيها. ويميز بين موقعين: عناب الصغيرة وعناب الكبيرة، ويذكر القساطلي أن حدود جبل الخليل تحتوي على برك سليمان الثلاث التي تمتلىء بمياه الأمطار، وتذهب مياهها بقناة إلى بيت لحم والحرم والقدس(٨٤).

ويلخص القساطلي أسماء المواقع الخربة والمعمورة التي قام بزيارتها في منطقة الخليل في الفترة بين يوم الأربعاء في ٧ تشرين الأول/أكتوبر ١٨٧٤م ويوم الجمعة في التاسع منه ويصنفها في جداول يذكر فيها أولاً اسم المكان ثم وضعه البنائي إذا كان خرباً أم معموراً وموقعه الجغرافي(٨٥).

وبعد أن أمضى القساطلي «ثلاثة أشهر ويوم واحد»، كما يقول، في القدس خرج منها في ٢٥ شباط/فبراير ١٨٧٥م يتفقد المنطقة حولها. وبعد مسيرة ساعة ونصف الساعة وصل إلى بيت لحم. ويقول إن فيها نحو ألف رجل من النصارى وستين من المسلمين «وبناء على ذلك يكون عدد سكانها يقارب الأربعة آلاف نفس»، أي أن حجم الأسرة هو بحدود ٣,٧ أشخاص إذا كان المقصود بكلمة «رجل» من له أسرة. ويتألف سكانها من روم ولاتين وبروتستانت ومسلمين، فالروم ثلاثة أخماس، واللاتين ثلاثة أعشار، والبروتستانت ثلاث عيل والمسلمون الباقي. ويصف أهلها بأنهم ذوو ثروة وهم أصحاء البنية. ويذكر أن المدينة محاطة بأودية عميقة من كل جهاتها عدا بعض الغربية وجانب من الشمالية الغربية فإن الأرض هناك مرتفعة وعالية. وتحيط بها البساتين من كل جهاتها، وأكثر شجرها من الزيتون، ولها كروم كثيرة. وعن مياهها يذكر القساطلي أنه لا يوجد فيها نبع ماء ويشرب الأهالي من ماء يصل إليهم بقناة من برك سليمان. ويذكر أن الخلافات بين الروم والإفرنج والأرمن حول المغارة التي ولد فيها المسيح والأولوية في الأعياد جعلت الدولة العثمانية تقيم في قلعتها وحدة عسكرية، كما جعلت بيت لحم قائمقامية مرتبطة بالقدس(٨٦).

ويذكر القساطلي إلى الجنوب الشرقي من بيت لحم خربة تقوع (طقوع) التي تبتدىء عندها برية عين جدي نسبة إلى مدينة خربة آنذاك. ويستغل البدو فيها جودة التربة وتوفر المياه لزراعة ما يحتاجون إليه. ويعلق القساطلي على جمال المنطقة بقوله: «لم ينشرح صدري بمكان من جميع الأماكن التي زرتها سوى عندما جلست على عين جدي بظل تلك الأشجار وكان النسيم الرايق يخطر بينها»(٨٧).

وبعد ترحال في برارٍ مقفرة وجبال كالحة، كما يقول، وصل القساطلي إلى مدينة الخليل. ويصف أهلها بأنهم مسلمون ويهود،



نجمة كنيسة المهد في بيت لحم

فالأولون عددهم خمسة عشر ألف نسمة والآخرون ألفان جميعهم من السكناج (الاشكنازيم). ويصف أبنية المدينة بأنها من الحجارة من الأسفل إلى الأعلى والسقوف معقودة، ومنظر الخليل من الخارج جميل لأنها من حجر أبيض متين. ولكل بيت قبة أو أكثر في أعاليه ولا ترتيب أو نظام في المساكن. ويصف طرقات المدينة بأنها ضيقة وقذرة ولا يوجد بها مجلس بلدي لإصلاح أحوالها. وبها أربع أسواق متلاصقة تضم معاً مئة وستين دكاناً ونيفاً، وقال بعضهم أكثر من ذلك. وهذه الأسواق تبدأ من نهاية القلعة الملاصقة للحرم الشريف وتنتهي عند حارة القزازين فيكون امتدادها من الشرق إلى الغرب. وبها مقاهٍ كثيرة وحمّامات. وأكثر الطرقات مبلّطة بحجارة. وتوجد بها معاصر كثيرة للزيت بسبب كثرة الزيتون من حولها. ويشرب سكانها من ماء المطر. وبها بعض عيون متفرقة أحسنها عين الخليل، وكذلك بركتان للماء جنوبي البلد، الأولى في الوادي والثانية عند باب البلد قرب حارة القزازين. وكعادته يعالج القساطلي بالتفصيل الحياة الاقتصادية والاجتماعية والثقافية، وسنذكر ذلك في حينه.

ومن بنايات الخليل التي تستحق الاعتبار، كما يقول القساطلي، الكرنتينا (المحجر الصحي)، إلى الجنوب من المقبرة بسفح الجبل، وتحتوي على حجر جميلة ومرتبة وبها مأمور خاص يقيم بها. ولكن أشهر شيء في المدينة هو الحرم الشريف، وهو مبني من حجارة كبيرة يبلغ طول بعضها خمسة أو سبعة أذرع، وارتفاعها ذراعان، وله بابان من جهة القبلة. ويذكر إلى الشمال الغربي من الخليل، على بعد ربع ساعة، ديراً للمسكوب (الروس) بني من عهد قريب، وإلى الغرب منها قرية بيت جبرين ذات التاريخ الحافل(٨٨).



الحرم الإبراهيمي في الخليل

ويصف القساطلي بيت جبرين بأنها انحطت عن عظمتها السابقة حتى أضحت قرية، غير أنها تفضّل على غيرها لأنها من القرى الشهيرة، وهي عاصمة بيت العَزَّة الذين اشتهروا في هذه البلاد. وكان بها ثلاث بيّارات (البيارة: بستان يُروى بالمياه المستخرجة من الآبار) عامرة في زمنهم ثم خربت بتأثير التنافس بين أفراد هذه الأسرة وتدخّل الحكومة في شؤونهم. ويذكر أن سكانها ألف ومئتا نسمة، وقد توفي منهم في صيف العام ١٨٧٤ وخريفه وأوّل شتائه حوالي أربعمئة وخمسين نفساً بالحمى التيفوسية. وأراضي بيت جبرين حسنة التربة وخصبة وأكثرها سهل، وزيتونها كزيتون قريتي ادنا وتفوح قديم جداً، إذ يعود إلى زمن الرومان كما يقول الفلاحون.

ويلاحظ القساطلي في قرية بيت جبرين آثار سورها والخندق المحيط به، وكذلك بعض الآبار. ويشير إلى أثر كنيسة على اسم جبرائيل رئيس الملائكة الذي اشتُق منه اسم المدينة. وينقل القساطلي عن الفلاحين المسنّين أن خراب القلعة والكنيسة حديث، وأن القلعة كانت حصناً في أيام الجزار ثم خربت من بعده حين تحصّن بها الفلاحون ضد الدولة، ثم أخذ حجارتها مصلح العزة لبناء بيته(٨٩).

ويصف الآبار إلى الجنوب من بيت جبرين ويقول إن قطر البئر الواحدة ينوف عن عشرة أقدام. ثم يصف خربة صندحنّة التي كانت ملحقة ببيت جبرين لاتصال الأثر بينهما. ومن آثار صندحنّة مغائر كبيرة يسميها السكان باسم العرقان (مفردها عراق)، ويبلغ طول بعضها أربعمئة أو خمسمئة قدم، وفي أكثرها عند الأرض مصاطب ومقاعد وأحواض وآبار صغيرة. ويستنتج القساطلي من عدم وجود أكوام ترابية حولها ناتجة عن حفرها أنها طبيعية. وقد تهدم معظم هذه العرقان ربما بفعل الزلازل. ونظراً لأهميتها يذكر القساطلي أسماء بعضها ويسهب في وصفها ويأتي برسوم هندسية لها. ويشير القساطلي إلى آثار كنيسة في صندحنّة ربما كانت على اسم القديسة حنة أو لعلها سُمّيت كذلك فيما بعد فعرفت بسنتا حنّة التي حرّفها الفلاّحون إلى صندحنّة(٩٠).

وترد في مطلع الجزء الثاني من سياحة القساطلي عشر صفحات (غير مرقمة) عن القدس يذكر فيها عدد سكانها أثناء زيارته لها (١٨٧٥م) بحوالي أربعين ألفاً منهم ستة آلاف من المسلمين واثنا عشر ألفاً من المسيحيين «من جميع الطوائف إفرنج ووطنيين»، والباقي، وهو اثنان وعشرون ألفاً، «يهود وطنيّون وسكناج».

ثم يتابع القساطلي سياحته من حيث توقف في الجزء الأول ويعود للكلام عن صندحنة والمغائر التي تحيط بهـا، وكذلـك الخرائب والأودية(٩١).

وبعد أن ينتهي القساطلي من الكلام بالتفصيل عن مواقع بلاد الخليل ينتقل إلى وصف بلاد غزة التي بدأ زيارته لها في أول نيسان/أبريل ١٨٧٥م قادماً من بيت جبرين. وأول مكان صادفه فيها قرية كرتيا التي يسكنها نحو خمسمائة نفس من الفلاحين، ونصب القساطلي ورفاقه الخيام في مجدل عسقلان، ويصف عسقلان بأنها الآن خربة تماماً على شاطىء البحر وآثار سورها ما زالت باقية، وضمن السور ستّ وثلاثون بئراً لسقاية البساتين. وإلى الشرق من عسقلانَ قرية الجورة، وأهلها حوالي تسعمائة نفس من المسلمين. ويصف القساطلي المجدل بأنها في السهل على بعد أربع ساعات ونصف الساعة من بيت جبرين لجهة الغرب، ويسكنها نحو ألفين وخمسمائة نسمة من المسلمين. وتُقسم إلى ست حارات (أو أحياء)، وهي مركز تجاري هام للجنوب. ويصف أبنيتها بأن بعضها حديث مبني بحجارة رملية والآخر من اللبن القبيح. وكان بها سرايا للحكومة خربت منذ زمن قريب.

وعلى بعد ساعتين من المجدل، لجهة الشمال، تقع أسدود (أشدود)، ويبلغ عدد سكانها ثمانمائة نسمة، وبها خربة خان يضم محراب مسجد للصلاة. وفي هذه القرية بساتين من الزيتون والصبير ويستقون الماء من بيارة يخرجون ماءها بواسطة الدواب. أما أسدود القديمة فهي قرية على شاطىء البحر. ويذكر القساطلي أن الخواجه نعوم أبو بشارة، التاجر اليافاوي حاول تجديد ميناء أسدود في العام ١٨٧٥م ليمكّن القوارب التي تأتيه لشحن الغلال إلى أوروبا من أن ترسو وتحمّل فيه(٩٢).

وإلى الشرق من المجدل بانحراف قليل نحو الشمال، على بعد ساعة، تقع خربة الجلدية، وفيها آثار قلعة من عهد الصليبيين. وإلى الشرق منها، باتجاه الشمال، خربة بردغا (بردغة). ويصف القساطلي الخرائب المحيطة بقرية برير. وقد غادر مجدل عسقلان يوم ١٥ نيسان/أبريل ١٨٧٥م وسار مع رفاقه بمحاذاة البحر ووصف خربة الخصاص، القريبة من عسقلان، ثم وصل إلى بيت لاهي (بيت لَهْيَا) وهي قرية مبنية بين الرمال، تحتوي على نحو مائة بيت وتكثر فيها أشجار التفاح والصبير والليمون، وفيها مقامات أولياء، وبئر تستقي منها القرية(٩٣).

ويصف القساطلي غزة التي وصلها على الطريق السلطاني (الرئيسي)، وهي مركز قائمقامية، ويعرّفها بأنها آخر مدن الشام، وحولها عربان من جهة الشرق والغرب، وتبعد عن المتوسط (يقول عنه بحر الروم) نصف ساعة. ويقدّر سكانها بستة عشر ألفاً من المسلمين وثمانمائة من المسيحيين الروم ولهم كنيسة ومدرسة. وللمسلمين جوامع كثيرة أشهرها الجامع الكبير ويليه جامع سيدنا هاشم في حارة الزيتون في الجنوب الغربي من المدينة(٩٤). وكان البريطاني كوندر، الذي كان يرئس بعثة استكشاف فلسطين، التي ضمت القساطلي، والذي زار معه غزة في التاريخ نفسه، قد قدّر سكانها في رسالة له من غزة بتاريخ ٢٠ نيسان/أبريل ١٨٧٥م بأنهم ثمانية عشر ألفاً معظمهم من المسلمين ويضمون خمسمائة من الروم الأرثوذكس(٩٥).

ويذكر القساطلي أن أكثر أبنية غزة من الحجارة الرملية. ويقول إنه يوجد على بعد خمس دقائق من المدينة حارة تفصلها عنها البساتين يسمونها حارة الشجاعية، وأكثر سكانها من الفلاحين، وبيوتهم من اللبن كبيوت الفلاحين، ويكثرون من التراب فوق السقوف حتى انه في أيام الربيع يكون فوقها مرعى جيد للمواشي. ويضيف القساطلي أنه لم يبق شيء من أسوار غزة. ويصف القساطلي أسواق غزة ودكاكينها وتخصصها، وسنشير إلى ذلك في بحث التجارة. ويذكر وجود قلعة صغيرة للعساكر يسمونها «الدبوي» (من الفرنسية وتعني مستودعاً)، بجانب السرايا، في الجهة الشرقية من غزة، في الطريق إلى حارة الشجاعية. وفي منتصف الطريق بين الشجاعية والسرايا مقام أبو العزم (شمشون الجبار) وأمامه تلّة فوقها مقبرة للمسلمين. ويصف القساطلي تل المنطار شرقي غزة وبه مقام الشيخ علي المنطار. ويزوره الناس في آخر خميس من شهر نيسان/أبريل، وقبله بيوم يقومون بالتنزه عند البحر فيما عُرف بأربعاء أيوب. وتل المنطار أعلى مرتفع في جهات غزة يربو علوه على مائة قدم(٩٦).

ويتابع القساطلي رحلته فيذكر أنه وصحبه غادروا غزة في ٢٩ نيسان/أبريل ١٨٧٥م باتجاه الشمال فمروا بقرى هربيا وعسقلان والمجدل وأسدود وبرقة وبشيت (بها مقام للنبي شيت وتُعد نحو خمسين بيتاً). ومنها سار شرقاً بانحراف إلى الشمال فوصل بعد ثلث ساعة إلى قرية المغار وهي مبنية على تل مرتفع وبها نحو أربعين أو خمسين بيتاً، وحولها بساتين من التين والكرمة والصبير. ثم وصل إلى قرية يُبنة، وهي فوق تل يبعد أربع ساعات عن يافا جنوباً بانحراف إلى الشرق، وساعة ونصف الساعة شرقاً عن بحر الروم، والفاصل بينها وبين البحر تلال رملية. ويبلغ سكانها ألفاً وستمائة نسمة، وقد فقدوا ثلاثمائة منهم، معظمهم أطفال، بسبب انتشار الحمى التيفوسية بينهم في

صيف العام ١٨٧٤. وأراضي القرية خصبة وبها تين وزيتون وأكثر من عشر بيارات يستقون منها، وفيها جامع في وسطها يعرف بجامع أبـي هريرة.

وفي ٦ أيار/مايو ١٨٧٥ سار القساطلي وصحبه من يبنة باتجاه الشمال الغربـي ووصلوا إلى الرمل، ومنه إلى مقام النبـي روبين فبحر الروم. ثم تابعوا مسيرهم وسط تلال رملية بينها أرض خصبة وبساتين فيها مياه تستقي منها العربان النازلة هناك مثل عرب السواركة. ويشير القساطلي إلى وجود قرية عاقر (عقرون) وتعد ثمانين بيتاً وتتبع قائمقامية الرملة التي تبعد عنها نحو ساعة إلى الشمال(٩٧).

وبعد أن عاد القساطلي إلى يبنة اتجه منها في ٨ أيار/مايو جنوباً فوصل إلى قرية شحمة، وهي صغيرة تضم عشرين بيتاً، وبعدها بنصف ساعة وصل إلى خربة المخيزن إلى الجنوب الشرقي منها، وبها بيارة أعاد تعميرها الشيخ عيسى الوحيدي شيخ قبيلة الجبارات(٩٨)، وأسكن بعض أفراد قبيلته فيها ولكن أهالي قرية المسمية القريبة من تلك الخربة طالبوا الحكومة أن ترفع يد الشيخ عيسى عن تلك الخربة ذات التربة الجيدة فتم لهم ذلك.

ثم وصل القساطلي إلى قرية الخيمة ويسكنها نحو ثلاثمائة من الفلاحين، وبعدها إلى الذنبة وتبعد عن تل الصافي نحو ساعة لجهة الشرق بانحراف إلى الجنوب. ويذكر أنه منذ سنتين جرى خصام بين أهلها فنزح نحو نصفهم لخربة تبعد عنها أربعين دقيقة فعمّروها. والذنبة من القرى التابعة لغزة وهي على الحدود، ولم يشاهد القساطلي حجراً في كل السهل إلا بها لأنها واقعة وراء جبل الخليل، ومنها تبتدىء الجبال.

وفي ١١ أيار/مايو خرج القساطلي وصحبه باتجاه الشمال فمروا بعدة خرائب أولها خربة جليا وفيها عشرون بيتاً لأناس رحلوا إليها من الذنبة إثر خصام فيها. وإلى الشرق توجد قرية قزازة، وفيها نحو مائة بيت، وهي على رأس تل عال. ثم اتجه شمالاً حتى وصل إلى قرب صيدون وفيها ما ينوف عن سبعين بيتاً، وتتبع الرملة، ومنها توجه إلى قرية خلدة وفيها ما يقرب من خمسين بيتاً. ومنها اتجه، يوم الخميس في ١٣ أيار/مايو، إلى خربة رافات التي هي ملك دير اللاتين في القدس، وأراضيها جيدة، وقد أُقيم بها أبنية جديدة.

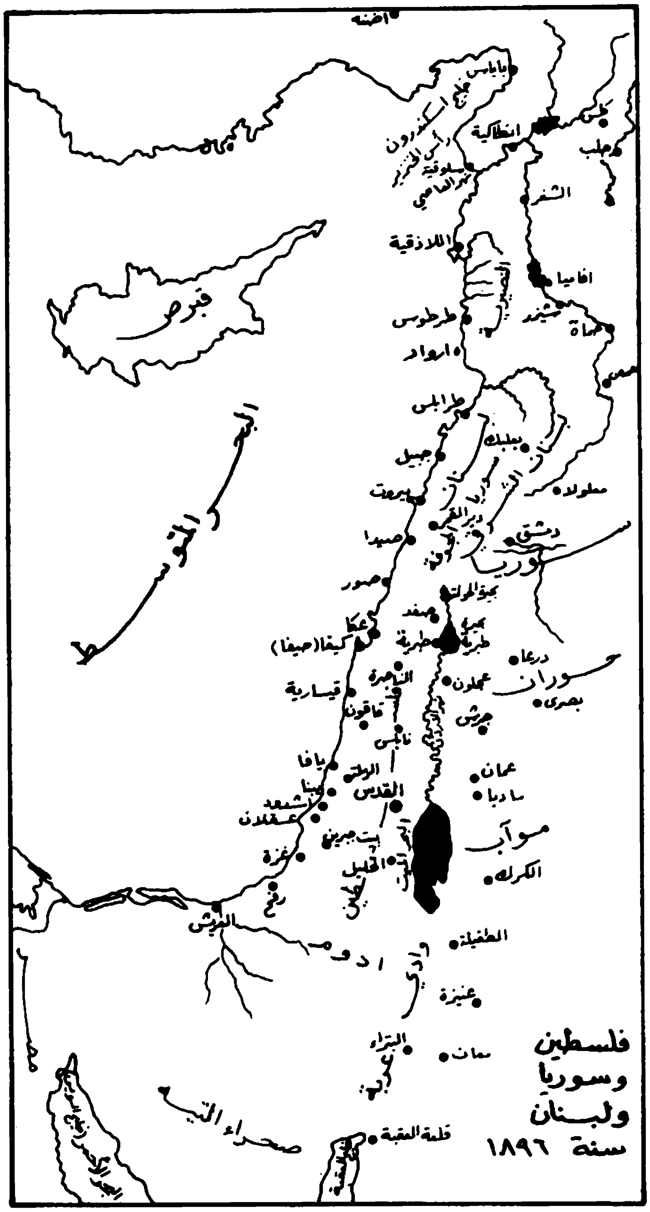
وقصد القساطلي وصحبه يوم السبت في ١٥ أيار/مايو القدس ومروا في طريقهم بقرية ايلونية التي تبعد عن القدس ساعة. ويقول القساطلي إن في سفح هذه القرية آثار قلعة وفيها متنزه وحدائق يقصدها أهالي القدس، وأُنشئت بها لوكندة جميلة منذ أن أُحدث طريق المركبات بين القدس ويافا(٩٩).

وزار القساطلي، أثناء وجوده في القدس، جبل الطور حيث وصف الأماكن الدينية فيه وإقامة الشعائر الدينية المسيحية من قبل الطوائف المختلفة وما تثيره من حساسيات بينها حسب أولوية الواحدة في التقدم على الأخرى. ووصف إقامة الروس أبنية في الجهة الشرقية منه. ويقول القساطلي إن قرية الطور، على رأس جبل الزيتون، يبلغ سكانها نحو أربعمائة نفس، ولأهلها اعتناء بتربية المواشي. ثم زار القساطلي قرية النبـي صموئيل إلى الشمال الغربـي من القدس، وفيها مقام النبـي صموئيل وهو جامع كبير في الجانب الغربـي منها. ولا تضم القرية أكثر من عشرين بيتاً وبها عيون ماء عذبة(١٠٠).

واتجه القساطلي وصحبه من القدس في ٩ حزيران/يونيو ١٨٧٥م نحو نابلس ووصلوا بعد مسيرة ثلاث ساعات إلى البيرة، وهي قرية تضم ما ينوف على المائة بيت وجميع سكانها مسلمون. وساروا بعد ذلك إلى قرية عين يبرود وتليها قرية يبرود، وتعد كل من القريتين نحو مائة بيت. ثم نزلوا في وادي التين وشاهدوا قرية في الجبل اسمها سلواد. وفي اليوم التالي وصلوا قرية (ترمس عيّا) وبعدها قرية حوارا (حوارة) وتحتوي على حوالي مائة بيت في طريقهم إلى نابلس(١٠١).

يصف القساطلي نابلس بأنها مدينة كبيرة بالنسبة لمدن فلسطين الوسطى، ولها بساتين مسقية، ويكثر فيها الزيتون والصبير وأنواع الخضار. وأبنيتها من الحجارة وهي ذات طبقات. وأسواقها ضيقة ولكن فيها سوق للتجار جميل واسع يشبه أسواق صيدا. وأهلها مسلمون ونصارى، روم ولاتين وبروتستانت، وفيها يهود «وبها جنس من الأمم من بقايا طائفة قديمة اندثرت تماماً ولم يبق سوى قليل منها في هذه المدينة وهم السمرا (السمرة أو السامريون)». وينوف سكانها عن اثني عشر ألفاً. وفيها سبعة جوامع أجملها الجامع الكبير في وسط المدينة، وثلاث كنائس، ومعبد للسمرة وآخر لليهود.

ومما يدل على اطلاع القساطلي وثقافته، إلى جانب استشهاده بكتابات كبار المؤرخين العرب والأجانب، اطلاعه على رزنامة الحكومة، أي السالنامه، لعام ١٢٨٨هـ (١٨٧١ - ١٨٧٢م) وهي أقدم سالنامه عثمانية فيما يتعلق بالإحصاءات السكانية عن فلسطين. ويعطي القساطلي الإحصاءات التالية منها عن نابلس: عدد بيوت (خانة) نابلس: ١,٣٥٦ مسلمون، ٧٠ روم،



١٣ لاتين، ١٣ بروتستانت، ١٣ سَمَرة، ١٤ يهود، المجموع = ١,٤٧٩ بيتاً(١٠٢)، وإذا اعتبرنا أن وسطي عدد أفراد البيت أو الخانة هو خمسة أشخاص فيصبح مجموع سكان نابلس ٧,٣٩٥ شخصاً. وبمقارنة هذه الأرقام مع السالنامه ذاتها، نجد أن بيوت السمرة فيها هو ١٢ وليس ١٣.

أما المحلات العامة التي يذكرها القساطلي في نابلس، نقلاً عن السالنامه، فهي: ٧ جوامع و ٧ تُرَب أولياء (مزارات للمسلمين) و ٣ كنائس و ٩ مكاتب إسلامية فيها ٣٢٥ تلميذاً و ٥ مكاتب غير إسلامية فيها ٨٦ تلميذاً و ٤٥٠ دكّاناً و ٤ خانات و ٧ حمّامات و ٢٠ مطحنة، فيكون مجموع المحلّات العامة ٥١٢ محلاً.

ويضيف القساطلي أن نابلس هي مركز متصرفية البلقاء، وبها يقيم المتصرف، وفيها دائرة الحكومة. وهي أيضاً مركز إقامة متروبوليت الروم الأرثوذكس الذي كرسيه في سبسطية (السامرة)، وبها قس وطني بروتستانتي يدعى يوحنا الغزي، وقس آخر من قبل الجمعية الإنكليزية اسمه مستر فيشر(١٠٣).

وينهي القساطلي الجزء الثاني من سياحته بذكر بعض المعلومات التاريخية عن القدس، ويذكر أن سكانها الحاليين حوالي أربعين ألفاً منهم نحو خمسة أو ستة آلاف خارج سور المدينة(١٠٤)، مما يدل على ازدياد السكان وحاجتهم للبناء خارج السور.

وهكذا تتبين لنا مظاهر من طبوغرافية فلسطين التاريخية من خلال كتابات الرحالة، الأجانب منهم والعرب. وأهمية ذلك تكمن في التعرف على هذه المظاهر في سنوات محددة وتتبُّع التطورات التي لحقت بالأمكنة وبالفعاليات، إيجاباً وسلباً، على مر الزمن.

الفصل الثالث

القوى المحلية في فلسطين

كان لعدة عوامل دور حاسم في ظهور القوى المحلية في فلسطين وتحديها للسلطات الحاكمة، عبر تاريخها الطويل. وفي طليعة هذه العوامل العامل الجغرافي، إذ أدى تنوع طبوغرافية فلسطين ووجود الأودية والجبال والسهول والأنهر، جنباً إلى جنب، في مساحات صغيرة، إلى قيام تجمعات بشرية في كل منطقة حافظت على خصوصيتها، عبر الزمن، بالرغم من أنها ارتبطت بعضها ببعض وبخاصة في النواحي الاجتماعية والثقافية والاقتصادية. ومن العوامل الأخرى وقوع فلسطين بمحاذاة البوادي التي كانت ممراً للقبائل المتجهة من الجزيرة العربية إلى بادية الشام، مما جعلها تتأثر بهجرات هذه القبائل، إما مباشرة أو عن طريق القبائل الصغرى على أطراف البادية التي توغلت في فلسطين، وأقامت فيها هرباً من القبائل الكبرى المسيطرة على الطرق الرئيسية في بادية الشام. وإطلالة فلسطين على المتوسط واحتكاكها بالموانىء المجاورة، سواء تلك التي في بلاد الشام أم في

مصر، وكذلك البلدان الأوروبية والأمريكية فيما بعد، زاد من انفتاحها على الغرب وشجع الجاليات الأجنبية على الإقامة فيها وبخاصة في الموانىء والمدن الرئيسية.

وتبدت عوامل الانفتاح والاندماج هذه كأوضح ما يكون في المنطقتين الساحلية والشمالية من فلسطين اللتين خضعتا لمراكز السلطة في الشمال والغرب، فأصبحتا في القرن التاسع عشر هادئتين سياسياً بالمقارنة مع ما كانتا عليه في القرن الثامن عشر، وبخاصة في عهد ظاهر العمر الزيداني، وكذلك في القرنين السابقين للقرن الثامن عشر حين برزت فيهما زعامات محلية. وشهدت الفترة بين نهاية حكم الجزار (١٨٠٤) والاحتلال المصري لبلاد الشام (١٨٣١م) نهاية تسلط أكبر أسرة في منطقة الناصرة ومرج ابن عامر وحيفا وعكا، وهي أسرة آل ماضي التي لعبت دوراً هاماً في القرن الثامن عشر، كما توصل أحد أفرادها، مسعود ماضي، إلى حكم غزة قبل احتلال المصريين لها. ولكن إبراهيم باشا قضى على نفوذها ولم تستطع استرداده بعد ذلك[١].

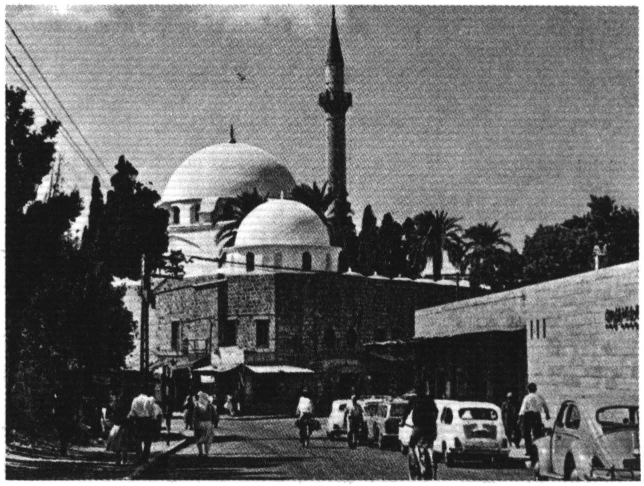
وبخضوع المنطقة الشمالية من فلسطين للقوى الحاكمة في دمشق وعكا، انتقل ثقل الأحداث والتحديات المحلية إلى الجزء الأوسط والجنوبي، وبخاصة مناطق نابلس والقدس والخليل، نظراً لموقعها الجغرافي المنيع وبُعدها عن مراكز السلطة في الشمال وعلى الساحل. وتحدّت القوى المحلية في هذه المناطق السلطات الحاكمة أياً كان نوعها.

وتتألف هذه القوى المحلية من زعماء القرى وزعماء القبائل البدوية الذين برزوا في المناطق الجبلية، وإلى الجنوب منها في منطقة غزة، وكذلك إلى الشرق منها باتجاه الضفة الغربية لنهر الأردن امتداداً للقوى البدوية في الضفة الشرقية. وأمكن للعثمانيين، في فترة التنظيمات، أن يسيطروا على معظم هذه القوى ويشركوها في الإدارة المحلية في محاولة ناجحة لضمان سيطرتهم عليها. ويهدف هذا الفصل إلى التعرف على هوية هذه القوى المحلية والأسس الاقتصادية والاجتماعية لسلطتها السياسية وحجم الدور الذي كان لها في تاريخ فلسطين على مختلف المستويات. وأهمية ذلك تكمن في أنه يمكن أن نلاحظ نمطاً سلوكياً استقلالياً في هذه المناطق يتحدى السلطات الحاكمة التي تحاول إخضاعه لها. وتتبدّى في هذا السلوك تقاليد راسخة ومستمرة من الماضي تتجلّى في شخصية محلية، أو وطنية، ترفض الخضوع لأية سلطة إلا برضاها ومن خلال ترابط مصلحة الطرفين.

عرف زعماء القوى المحلية، سواء منهم المقيمون في القرى وفي مناطق البادية، بالمشايخ، وتعاملوا مع السلطة، في مراكز المدن، بالخضوع لها وتأدية الضرائب حيناً وبالثورة والامتناع عن دفعها حيناً آخر. ويتوقف ذلك على طبيعة هذه السلطة وقوتها وعلى قوة المشايخ أنفسهم وخلافاتهم بعضهم مع بعض من فترة إلى أخرى. وإذا ما صممت الدولة على إخضاعهم هجروا قراهم أو مناطق تجمعهم ريثما تنتهي حملة الدولة ضدهم. وفي القتال فيما بينهم، أو مع السلطة، لعبت النساء دوراً هاماً في تشجيع المقاتلين والعناية بجرحاهم، وكشف مواقع الأعداء. وتَمَتعن باحترام الفريقين المتقاتلين. وإذا ما خرجت النساء مع المقاتلين فمعنى ذلك أن الأمر جدّيّ والحرب واقعة لا محالة.

وقُسمت القرى إلى حمائل (جمع حمولة) أو أسر، وتتوقف سلطة الحمولة على أعداد أفرادها. ويختار شيخ القرية عادة من أقوى هذه الحمائل. ويتعصب أفراد هذه الحمائل بعضهم لبعض في السراء والضراء، ويتحملون أية غرامة أو عقاب يتعرض له أحد أفراد الحمولة. وحين يعترف أفراد القرية بشيخ لهم، يحاول هذا جهده، ولو بالرشوة أحياناً، أن تعترف به السلطة.

وانتظم مشايخ القرى وأتباعهم، في الغالب، في واحدة من طائفتين: اليمنية ورايتها بيضاء، والقيسية ورايتها حمراء. وهذا من بقايا التقاليد البدوية التي تنسب القيسية إلى بني عدنان واليمنية إلى بني قحطان. وشاع ذلك حيث استقرت القبائل البدوية، مثلاً في جبل لبنان، وحتى في قرى غوطة دمشق وبعض



جامع الجزار في عكا

أحياء مدينة دمشق، خارج السور، التي هاجرت إليها أقوام ريفية ذات أصول بدوية. وليس هناك من اعتبار للدين أو المذهب الواحد في عداد الطائفتين المتخاصمتين هاتين. وكان زعماء اليمنية في فلسطين في القرن التاسع عشر من أسرة أبو غوش المتمركزين في قرية العنب (قرية أبو غوش)، في لواء القدس، وتحكّموا في الطريق الرئيسية بين القدس ويافا. أما زعماء القيسية فكانوا من أفراد أسرة العزة في تلال الخليل وأسرة ابن سمحان في تل الصافي وأسرة درويش في قرية المالحة. وعلى مستوى المدن فقد تمثلت زعامة القيسية في القدس في أسرة الخالدي وزعامة اليمنية في أسرة الحسيني[٢].

وبعض المناطق ينتسب معظم سكانها إلى طائفة القيسية أو اليمنية، مثال ذلك منطقة الخليل حيث الأغلبية قيسية، وكذلك بيت جالا وعين كارم، في حين أن أكثرية سكان بيت لحم وصوبا يمنيّة. ومع ذلك، يوجد في عدد من القرى أتباع لكل من الطائفتين. ويروى عن قتال جرى في قرية البيرة بين القيسية واليمنية، كيف أن كل فريق حاول أن يسيء إلى علم الآخر، واشتركت النساء في ذلك[٣].

واشتهرت في مناطق فلسطين، وبخاصة جبال الخليل والقدس ونابلس، في الثلثين الأولين من القرن التاسع عشر، عدة أسر كانت لها الزعامة في مناطقها. واضطُرت السلطات الحاكمة إلى أن تتعامل معها وتحكم البلاد من خلالها. وكان جبل الخليل يُقسم إلى أربع مقاطعات، تتحكم بكل مقاطعة أسرة أو أكثر، تسيطر على عدد من القرى فيها. وقد لخّص نعمان القساطلي، صاحب **الروضة النعمانية**، أحوال هذه المقاطعات بقوله:

> «وكانت هذه المقاطعات محكومة من عيال لا يعلم في أي وقت قبضت عنان حكمها الظالم... وكانت تلك العيال كملوك مستقلة تأخذ أموالاً من الأهالي من غير ترتيب وتسوق الرجال للحرب وقت الاقتضاء بدون تنظيم. وكان كل رجل أو ذكر يقدر أن يتقلد السلاح مجبوراً أن يتجند ويسير لساحة القتال. وكانت الحروب كثيرة وقلما تنقطع وأكثرها مع العرب ومنها ما يكون أهلياً. وكان لكل قرية شيخ يتقلّد أحكامها ويأخذ منها ما يشاء من الأموال بدون ممانع أو معارض، وكان عند الاقتضاء أو عند طلب العيال الحاكمة يقوم بتقديم الأموال لهم وكان يجمعها بإلقاء الضرائب على الفلاحين. وكانت الفتن في هذا الجبل كثيرة جداً حتى إنه ما كان إنسان يتمتع بالراحة أسبوعاً من الزمان. وقد أخبرني بعض الرجال المتقدمين بالسن بأن كل أيامهم قبل أن تسود الحكومة (بين عامي ١٨٥٨ ـ ١٨٦١م) وتحل دعايم الراحة في تلك الأقطار كانت مشحونة بالأكدار والغزوات وكان لا يقدر أن يسلك في الطريق أقل من عشرة رجال بسلاح كاف للدفاع عنهم عندما يهاجمهم العدو وقلما يمضي يوم ولا يُسلب به أحد في الطريق وترعد بنادق الدفاع والهجوم»[٤].

وقد اعترف إبراهيم باشا ببسالة هذه القوى المحلية التي قاتلته. واستمر تسلطها بعد عودة العثمانيين إلى أن عيّن على القدس مصطفى باشا ثريا في العام ١٨٥٧م، فتمكن من القضاء على نفوذ عدد كبير من هذه الأسر في الفترة بين عامي ١٨٥٨ ـ ١٨٦١م[٥].

واستمر العثمانيون من بعد ذلك في محاولة إخضاع الزعماء المحليين لسلطتهم. ويذكر القساطلي مثلاً في عام ١٨٧٤ أن مشايخ أهالي قرية يطا في جبل الخليل قد عصوا الدولة منذ عشر سنين، أي حوالي عام ١٨٦٤م،

> «والتجأوا إلى خربة غرب يطا تسمى البرج وداموا مجهرين العصاوة أربعة أشهر فجردت الدولة عليهم عساكرها وصار بينهم هناك وقعة واحدة وقتلت خمسة رجال منهم وجرحت كثيرين وفي آخر النهار رفعوا علامة الطاعة وسلموا إلى الدولة (بواسطة مشايخهم) ومنذ ذلك الوقت دخلوا في سلك الطاعة وصاروا يدفعون الأموال الميرية بغير تردد، ومال قريتهم السنوي عشرة آلاف غرشاً (كذا) خلا الأعداد (العَداد) على الأغنام والأعشار، وهم الآن يخافون الدولة كثيراً كخوف البشر من الموت والغنم من الذئاب»[٦].

وإذا كان أهالي قرية يطا هؤلاء قد خضعوا للدولة فإن كثيرين غيرهم استمروا في مقاومة الدولة. لذا يجدر التعرف على هذه القوى المحلية في كل منطقة، ومقدار أعدادها، وأماكن وجودها لمعرفة كيف أمكن للدولة السيطرة عليها تدريجاً وإشراكها في مسؤولية الإدارة في مناطقها.

وقد سيطر في كل مقاطعة من مقاطعات جبل الخليل الأربع، منذ أيام المصريين، كل من الأسر التالية في الأماكن والقرى التابعة لكل منها، وكانوا جميعاً من القيسيين:

١ ـ **مقاطعة اللحام**: والتسمية نسبة إلى بيت اللحام الذين سيطروا فيها. وآخر من اشتهر منهم عثمان اللحام الذي نال سطوة ونفوذاً أكثر ممن سبقه من الحكام. وكان يخشاه البدو والفلاحون. وفرض نفوذه على الأماكن الواقعة إلى الشمال الغربي من مدينة الخليل والمبينة في الجدول رقم (٣ ـ ١).

الجدول رقم (٣ ــ ١)

أسماء القرى	عدد سكانها	مذهب الأهالي
بيت عطاب (مسكن بيت اللحام)	٧٠٠	مسلمون
علار العليا	٤٠٠	مسلمون
وادي فوكين	٥٠٠	مسلمون
علار التحتا	٤٠٠	مسلمون
جراش (جرش)	٥٠٠	مسلمون
دير الهوا	٤٠٠	مسلمون
دير الشيخ	٤٠٠	مسلمون
حوسان	٤٠٠	مسلمون
عرتوف (عرطوف)	٥٠٠	مسلمون
اشوع	٤٥٠	مسلمون
صرعا (صرعه) (وهي حدود بيت اللحام)	٤٠٠	مسلمون
بيت نشف (بيت نوشيف)	٥٠٠	مسلمون
زكريا	٤٠٠	مسلمون
بيت محسير (تبع أبو غوش)	٤٥٠	مسلمون
بيت الجمال (تبع الرملة)	٤٠٠	مسلمون
مجموع القرى = ١٥	٦٨٠٠ **(في الأصل ٧٠٠٠ وهو خطأ)**	

الجدول رقم (٣ ــ ٢)

أسماء المدن والقرى	الموقع	عدد سكانها	مذهب الأهالي
مدينة الخليل		١٢,٠٠٠	٨,٠٠٠ مسلمون ٤,٠٠٠ يهود سكناج
بيت فجار	من حدود	٢٥٠	مسلمون
بيت كاحل	الجبل	٤٠٠	مسلمون
سعير	الشمالية إلى	٥٠٠	مسلمون
الشيوخ	شمال مدينة	٤٥٠	مسلمون
حلحول	الخليل	٥٠٠	مسلمون
يطا		٥٠٠	مسلمون
السموع	جنوب	؟	مسلمون
بني نعيم	شرق	٥٠٠	مسلمون
الظاهرية جنوب	الخليل	٤٥٠	مسلمون
دورا (سكن أولاد عيسى)		٣,٠٠٠	مسلمون
تفوح	غرب	٦٠٠	مسلمون
أدنا	الخليل	٥٥٠	مسلمون
الدوايمه		٥٠٠	مسلمون
سبتا (شمال الخليل)		٥	نصارى
مجموع القرى = ١٥		٢٠,٢٠٥	**(وفيها دور للمسكوب أي الروس)**

٢ ــ **مقاطعة بيت عيسى عمرو**: تعرف بالقيسية الفوقا. وكان كبير شيوخ بيت عمرو، في الربع الثاني من القرن التاسع عشر، هو الشيخ عبد الرحمن عيسى الذي كان آخر من اشتهر في هذه المنطقة «من حكامها الوطنيين»، على حد تعبير القساطلي. وكان مركزه الرئيسي قرية دورا وكانت تخضع له الأماكن المبينة في الجدول رقم (٣ ــ ٢).

٣ ــ **مقاطعة بيت العَـزَّة**: وتُعرف مع مقاطعة بيت العملة، بالقيسية التحتا. ويصفها القساطلي بأنها من المقاطعات الشهيرة في قوة رجالها ومقدرتهم، وجميع قراها واقعة إلى الغرب من مدينة الخليل. وآخر من اشتهر من رجالها مصلح العزة الذي خضع للعثمانيين. وتخضع لها القرى التالية:

الجدول رقم (٣ ــ ٣)

أسماء القرى	عدد سكانها	مذهب الأهالي
القبيبة	٦٠٠	مسلمون
بيت جبرين (على حدود الجبل الغربية وهي مسكن بيت العزة)	٦٠٠ (مات نصفهم في العام ١٨٧٤م)[٧]	مسلمون
دير نخاس	٥٠٠	مسلمون
كدنا (كدنه)	٦٠٠	مسلمون
رعنا (رعنه)	٦٥٠	مسلمون
عجور	٥٠٠	مسلمون
تل الصافي	٥٠٠ (مات نحو ١٥٠ شخصاً سنة ١٨٧٤م)	مسلمون
زيتا	٤٥٠	مسلمون
دير الدبان	٦٠٠	مسلمون
زكرين البردان	٧٠٠	مسلمون
مجموع القرى = ١٠	٥,٧٠٠	

وينبّه القساطلي إلى أن هذه المقاطعة قد نقص عدد أهلها في العام ١٨٧٤م ما يقرب من خمسمئة نفس، وذلك لشدة الأمراض الوبائية بها، وأكثر ذلك كان في بيت جبرين وتل الصافي وما يجاورهما من القرى.

٤ ــ **مقاطعة بيت العملة**: واشتهر من هذه الأسرة عبد النبي العملة، وكان آخر حكامها نمر العملة. وهذه المقاطعة أصغر من المقاطعات السابقة ولكنها لم تكن أقل أهمية عند نشوب الحروب بسبب بسالة رجالها. وضمت القرى التالية:

الجدول رقم (٣ ـ ٤)

أسماء القرى	عدد سكانها	مذهب الأهالي
ترقومية	٨٠٠	مسلمون
بيت أولى (مركز حكومة أو قصبة بيت العملة)	١،٠٠٠	مسلمون
نوبا	٦٠٠	مسلمون
خاراس	٥٠٠	مسلمون
صوريف	٦٠٠	مسلمون
أم البرج، سنابرة } خربتا قبل عشرين سنة، أي في العام ١٨٦٤م، بحرب أهلية		
مجموع القرى = ٧	٣،٥٠٠	

ويعلّق القساطلي[٨] على الإحصاءات السابقة بأن مجموع بلدان جبل الخليل هذه مدينة واحدة وثلاث وأربعون قرية عمار ودير واحد، وأن أعداد السكان التي أعطاها تقريبية ويقول: «وقد فحصنا فحصاً مدققاً عن ذلك من الفلاحين سكان البلاد وإنشاء (كذا) الله سنتوصل إلى الحقيقة تماماً من دفتر الحكومة إذا فزنا بما يمكننا من ذلك وإلا فنظن بأن تقريرنا المذكور هو قريب من الحقيقة جداً إذا ما كان الحقيقة بعينها»[٩].

ويجمل القساطلي أعداد السكان الذين جندتهم الزعامات المحلية من المقاطعات الأربع السابقة كما يلي:

الجدول رقم (٣ ـ ٥)

المقاطعات	مسلمون	نصارى	يهود
مقاطعة بيت اللحام وهي إلى الجهات الشمالية الغربية من مدينة الخليل	٧،٠٠٠	ـ	ـ
مقاطعة بيت عمرو وهي إلى الشمال والجنوب والشرق والغرب من جبل الخليل	١٦،٢٠٠	٥	٤،٠٠٠
مقاطعة بيت العَزّة وهي إلى الغرب من الخليل	٥،٧٠٠	ـ	ـ
مقاطعة نمر العملة وهي إلى الغرب من الخليل	٣،٥٠٠	ـ	ـ
المجموع = ٣٦،٤٠٥	٣٢،٤٠٠	٥	٤،٠٠٠

ويبدو أن بيت مصلح العزة كان من أقوى البيوت في جبل الخليل، ولكن الخلاف العائلي على الزعامة مزق آل العزة من الداخل فأتاح للدولة أن تتدخل في شؤونهم وتضعفهم في النهاية. ويروي القساطلي أن قرية بيت جبرين، مقر مصلح العزة، قد زادت شهرتها بازدياد شهرته، وكان مصلح آخر الزعماء المتنفذين من هذا البيت الذي حكم أفراده المنطقة مدة من الزمن. وكان في بيت جبرين ثلاث بيارات عامرة يعتني بها الشيخ مصلح ولكن خلافاً دب بينه وبين ابن عمه ناجي، ولجأ الفريقان إلى السلاح، كل في قصره حيث تحصن، وذلك بسبب طموح ناجي للحلول في زعامة البلد محل مصلح. وأيّدت الدولة العثمانية الشيخ مصلح وكذلك فعل الأهلون إلى أن تمت الغلبة لمصلح بدعم من والي القدس مصطفى باشا ثريا. واعترفت به الدولة بعد ذلك قائمقاماً في مدينة الخليل ومسؤولاً عن جبل الخليل، ثم عزلته. أما ابن عمه ناجي فقد نقلته الدولة من بيت جبرين وأسكنته في قرية كدنا حيث توفي. وبالرغم من تنحية هذين الزعيمين عن السلطة فقد استمر أتباعهما في بيت جبرين يُعرفون بالولاء لهما من خلال ثلاثة أحزاب: حزب الدعاجنة وحزب الشوايكة، وولاؤهما للشيخ مصلح، وحزب الغيرية وولاؤه لناجي. واستمر العداء بين حزب مصلح وحزب ناجي لعدة سنوات[١٠].

وإلى جانب منطقة الخليل وجبالها اشتهرت منطقة القدس وجبالها بالقوى المحلية فيها. وقد برز فيها بنو حسن. واشتهر من زعمائهم الشيخ علي محمد والشيخ محمد درويش. وكان مركزهم الرئيسي قرية ولجة. وقد سيطروا على حوالي عشر قرى منها مالحة، وعين كارم، وبيت جالا، والخضر، وصوبا.

وبرز في هذه المنطقة كذلك بنومالك، وكانت منطقة نفوذهم إلى الشمال الغربي من منطقة بني حسن، وأبرز بيوتهم بيت أبوغوش الذين اشتهر من بينهم الحاج مصطفى أبو غوش سالف الذكر ومركزه الرئيسي قرية العنب. وقد سيطرت هذه الأسرة على حوالي عشرين قرية منها: بيت عنان، ولفتا، ويالو، وبيت لقيا، وخربتا، وبيت عور الفوقا، وبيت عور التحتا.

وإلى الشرق من القدس، في منطقة الوادية، اشتهر بيت عريقات، وأبرز زعمائهم الشيخ محمد عريقات. ومركزهم الرئيسي قرية أبوديس، ويسيطرون على ثماني قرى أُخرى منها الطور، وسلوان، وبيت ساحور، وعلى مركز بدوي هو سواحرة الواد.

وفي جبل القدس، الذي يضم مدينة القدس، اشتهرت

أربعة بيوت في أربع مناطق هي التالية: بيت عبد اللطيف سمحان الكسواني، ومركزهم قرية بيت إكسا؛ وبيت أحمد علي، ومركزهم قرية دير دبوان؛ وبيت حسن عبد الله، ومركزهم قرية بيت عنيا؛ وبيت عمر الشماع، ومركزهم قرية البيرة. ومن القرى الأخرى التي اشتهرت في هذه المنطقة: رام الله وكفر عكوب، وجبع، والرام، وشعفاط ومخماس.

وقسمت منطقة بني حارث، إلى الشمال من القدس، إلى قسمين: بنو حارث الشمالية وبنو حارث الجنوبية. واشتهر في القسم الشمالي بيت سمحان، وأبرزهم الشيخ إسماعيل الذي قتله إبراهيم باشا في العام ١٨٣٤م فخلفه حسن السعيد ومحمد بن إسماعيل. وأبرز قراهم الجانية، والراس (تعرف أيضاً براس كركر)، ومن القرى الأخرى الخاضعة لنفوذهم: بيت اللو (بيتللو) وجماله (جمالا)، وأبو قش وسردا وجفنة وبير زيت ودير عمّار، ومزرعة ودورا وقراوى (قراوة). واشتهر في قسم بني حارث الجنوبية، أو القبلية، بيت قعراها، وأبرز زعمائهم الشيخ عبد الله وابنه مصطفى، ومركزهم قرية ابزيا، ومن القرى الخاضعة لنفوذهم صفّا وعين عريك وعين قينيا.

وقد ذُكر أنه بسبب حظوة الشيخ نصر من بير زيت لدى الشيخ إسماعيل فلم يجبِ هذا الأخير منه أية ضرائب خلال حياته. وعندما خَلَفَ الشيخ إسماعيل كلٌّ من الشيخ حسن سمحان ومحمد سمحان قاما بمحاولة لفرض مئة وخمسين جرّة زيت على بير زيت فقاومهما موسى بن نصر شيخ بير زيت، وحدث قتال بين الفريقين شارك فيه مئة وعشرون رجلاً من بير زيت وثلاثة آلاف من أتباع آل سمحان. ورُفع الأمر إلى والي القدس الذي حكم بأن أهالي بير زيت غير خاضعين لآل سمحان وعلى هؤلاء الأخيرين عدم دخول قريتهم(١١).

وإلى جانب منطقة بني حارث الشمالية تقع منطقة بني مرة. وكان زعيم هؤلاء حتى الحكم المصري الشيخ أحمد أبو عبد الله من قرية المزرعة الشرقية. وبعد وفاته، في عهد المصريين، انقسمت هذه المنطقة إلى قسمين: قسم يحكمه الشيخ عبد العزيز الأنسوية، ومركزه قرية المزرعة الشرقية، وقسم يحكمه الشيخ محمد أبو مبارك، ومركزه قرية سلواد. وقد عُين هذان الشيخان من قبل إبراهيم باشا. ويضم القسمان القرى التالية: عين سينيا، وجلجليا وسنجل وترمس عيّا.

وإلى الشرق من بني مرة تقع منطقة بني سليم، وأبرز زعمائها الشيخ ديكه من قرية كفرمالك والشيخ عبد الحق أبو إبراهيم من قرية دير جرير. ومن القرى الخاضعة لهما طيبة ورمان.

وإلى الشمال من بني حارث الشمالية سيطر بنو زيد، وكان مشايخ هذه المنطقة في الأصل من آل البرغوثي، ومركزهم الرئيسي قرية دير غسانة، واشتهر منهم، قبل الاحتلال المصري، الشيخ معروف والشيخ عاصي رباح. وفي مطلع الحكم المصري اشتهر علي رباح بن عاصي وعبد الجبار أبو صالح ابن عم معروف. وقد قتلهما إبراهيم باشا وخلفهما موسى أحمد من قرية عبوين والشيخ سعيد بن علي الرباح من قرية كبارا. وفي أواخر أيام موسى أصبح صلاح بن عبد القادر من دير غسانة شيخاً. وقامت عداوة شديدة بينهما. واشتملت منطقة بني زيد على القرى التالية: عطّارة، وعجّول، وعرارة، ومزرعة، وكفر عين، وبيت ريما وعابود.

وذُكر عن البراغثة أنهم أُسرة غنية تتباهى بنبل أصلها وفصاحة أفرادها. وكان مركزهم الرئيسي دير غسانة. لكن نزاعاً حدث بين أفراد هذه الأسرة، في أواخر القرن التاسع عشر، بعشرهم في عدة قرى منها كبارا، وبيت ريما، ودير الدهام وغيرها(١٢).

أما منطقة نابلس وجبالها فظهرت فيها المناطق والأقسام والزعامات التالية:

١ - **منطقة جماعين**: جنوبي نابلس. وتُقسم إلى قسمين: أحدهما تحت سلطة بيت قاسم الأحمد ومقرهم قرية دير إستيا، وتلحق بهم القرى التالية: عزون، وسلفيت، ورنتيس، وإسكاكا وحبلة. والقسم الآخر تحت سلطة بيت الريان، الذين ينحدرون من بيت قاسم العماد، ومقرهم قرية مجدل، وزعيمهم الشيخ صادق الذي نُفي في العام ١٨٥١ إلى طرابزون وخلفه أخوه موسى أبو بكر. وتخضع لهذا البيت القرى التالية: كفر بورين وزاوية، ومردة وحوارة. ويوجد في منطقة جماعين ما مجموعه ثمان وخمسون قرية. واشتقت المنطقة اسمها من قرية جماعين المقر الأصلي لبيت قاسم الأحمد.

٢ - **منطقة بني صعب**: إلى الشمال من جماعين، ويحكمها بيت الجيوسي، وزعيمهم الشيخ يوسف واكد من قرية كفر صور. ومن القرى الخاضعة لهم قلقيلية، والطيبة، وجيوس (التي تنسب الأسرة إليها)، جنصافوت، وكفر زيد وكفر جمّال. ويشترك بيت الجيوسي مع بيت جماعين وبيت البراغثة بحجب نسائهم، وقد بالغ بيت الجيوسي في ذلك.

٣ ـ **منطقة وادي الشعير**: شمال نابلس، وقد سيطر فيها بيت الحفة (ترد أيضاً حيف والحفاة) وبيت سيف. وبرز من البيت الأول الشيخ إسماعيل يوسف والشيخ مسعود الحمدان والشيخ محمود الحاج إسماعيل، ومن البيت الثاني برز الشيخ مصطفى برقاوي. والقرى الرئيسية التي خضعت لهم هي سبسطية، وزواتا، والناقورة وأجنسنيا، وبيت إمرين، ونصف جبيل.

٤ ـ **منطقة الشعراوية الغربية**: شمالي وادي الشعير، وتزعّم فيها بيت جرّار وبيت عبد الهادي. ومن زعماء آل جرّار الشيخ محمد الحاج والشيخ أحمد يوسف والشيخ أبو خليل والشيخ المفلح. ومن زعماء آل عبد الهادي الشيخ حسين بك عبد الهادي وأخوه الشيخ محمود بك وابن الأخير الشيخ سليمان بك، ومقرهم الرئيسي قرية عرابة. وسكن آل جرار في الأصل قرية جبعة، ولكن فرعاً منهم سكن سانور. ومن القرى التي خضعت لهم شويكة، وقاقون، وباعقة، وعتيل، وسيلة الظهر، وعجة، وكفر اللبد.

والحكام الأصليون لمنطقة الشعراوية الغربية هم آل جرّار. ولكن آل عبد الهادي برزوا كذلك، وكان لشيخهم حسين بك عبد الهادي أخوان: عبد الهادي حاكم جنين في العام ١٨٥١م، وعبد القادر حسين الذي توفي مسموماً قرب عكا من قبل شقيقة إبراهيم باشا المصري كما أُشيع. وكان له أربعة أولاد: محمود حاكم غزة في ١٨٤٩م، وقد نُفي فيما بعد، وعبد الرحمن، وصالح وسعيد.

٥ ـ **منطقة الشعراوية الشرقية**: يحكمها كذلك آل جرّار وآل عبد الهادي. واشتملت على ثمان وخمسين قرية من بينها طوباس، وطمون، وزبابدة، وصير، وسيريس، وجبع، وقباطية وفندقومية.

٦ ـ **مشاريق نابلس**: الأسرة الحاكمة فيها بيت دويكات، ومقرّها الرئيسي قرية بيتا. ومن القرى الخاضعة لها عورتا، وبيت فوريك، وبيت دجن، وبلاطة وعسكر.

٧ ـ **مشاريق دار الحاج محمد**: الأسرة الحاكمة فيها دار الشيخ ناصر منصور، ومركزها قرية جالود، وتخضع لها قرى قريوت، وقصره، وعقربا، ودوما وقبلان.

٨ ـ **مدينة نابلس**: الأسرة المتزعمة فيها هي آل طوقان، وأشهرهم موسى بن طوقان الذي كان حاكماً لهذه المدينة. واشتهر فيها كذلك آل النمر(١٣).

وبالرغم من انقسام منطقة نابلس وجبالها سياسياً إلى الأقسام الثمانية المذكورة قبلاً فإنها في أوقات النزاع بين أسرها كانت تستقطب من حول الحزبين الرئيسيين: القيسية واليمنية. وزعماء القيسية من بين هذه الأسر هم الشيخ موسى بك طوقان والشيخ محمد الجرّار والشيخ الحاج محمد والشيخ صادق الريان، أما زعماء اليمنية فهم الشيخ حسين بك عبد الهادي وقاسم الأحمد والشيخ نمر آغا ودار الجيوسي. وقد ذكر الرحالة بوركهاردت حين زار منطقة نابلس في العام ١٨١٢م أن قرى منطقة نابلس يمكنها تجنيد خمسة آلاف رجل(١٤). وقد تحالف بدو المنطقة مع فريق أو آخر بحسب انتماء هؤلاء البدو إلى هذا الفريق أو ذاك(١٥).

وقف العثمانيون موقف اللامبالي من صراعات هذين الحزبين وأيدوا هذا الفريق أو ذاك حسب مصلحتهم التي كان من أولوياتها جمع الضرائب وتحقيق الأمن عن طريق ضرب فريق بآخر لإضعافهما. ولكن الدولة العثمانية، في فترة التنظيمات، استعادت سيطرتها وأخضعت هذه الأسر إلى درجة كبيرة وأدخلتها ضمن الإدارة.

وإلى جانب هؤلاء الزعماء من مشايخ القرى، في المناطق الجبلية الوسطى، برز البدو كقوة محلية هامة في فلسطين. وبالرغم من انقسامهم إلى عدة قبائل كثيراً ما تصارع بعضها مع البعض الآخر، فقد جمع بينهم نمط متقارب في السلوك وعداء تجاه السلطة المركزية. وكانوا أقل تأثراً من مشايخ القرى بسياسة الدولة العثمانية، في فترة التنظيمات، حين حاولت تشديد قبضتها ضد مراكز القوى المحلية لأنهم لم يتمركزوا في قرية بعينها.

ويُلاحظ ثلاث مناطق رئيسية سيطر فيها البدو في فلسطين ومنطقة رابعة تسربوا منها إليها وهي شرقي الأردن. ففي منطقة شرقي الأردن برزت منذ القرن الثامن عشر قبيلة بني صخر التي قُدّر رجالها في مطلع القرن التاسع عشر بحوالي عشرة آلاف نسمة(١٦). وقد سيطرت على منطقة شرقي الأردن في النصف الأول من القرن التاسع عشر(١٧) في الوقت الذي أُضعفت فيه قبيلة العدوان التي اقتصر نشاطها على منطقة البلقاء. وكانت قبيلة العدوان في السابق من أشهر قبائل هذه المنطقة الذين عُرفوا بعرب البلقاء، وتراوح عددهم بين أربعين وستين ألف شخص يحكمهم من أربعين إلى ستين شيخاً، وأكبرهم شيوخ بني عدوان. وبسبب صعوبة مناطقهم الصخرية لم يتمكن الوهابيون من إخضاعهم(١٨). وقد ذكروا في العام ١٨٧٢م بأنهم أكثر انضباطاً ومساعدة للمسافرين بسبب تعرضهم لإجراءات الحكومة القمعية(١٩).

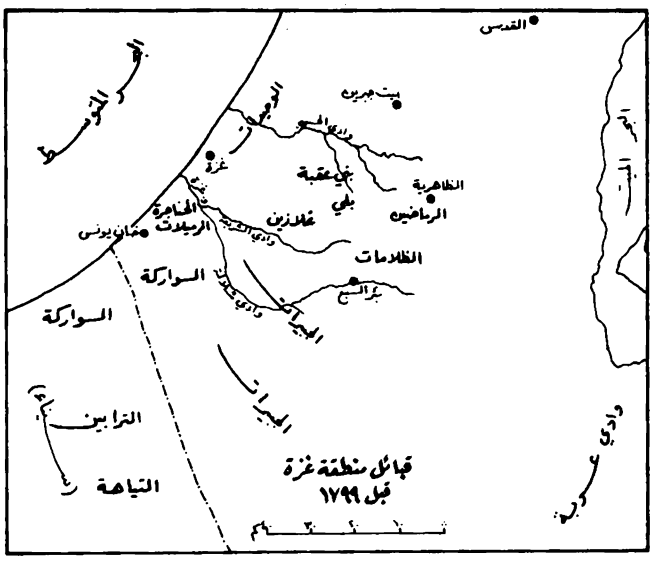
وكانت قبائل العنزة تسيطر على بادية الشام وتمارس ضغطها على القبائل المجاورة لها أثناء تحركاتها الموسمية في فصل الربيع طلباً للكلأ. لذا لم تجد قبيلة بني صخر من مجال سهل للتوسع وممارسة غزواتها إلّا على الطريق السلطاني لقافلة الحج، بين دمشق ومعان وحتى ظهر العقبة. ولكن توسع الوهابيين في مطلع القرن التاسع عشر وتوغلهم في بلاد الشام الجنوبية دفع بقبائل بني صخر، وبغيرها أيضاً، أكثر فأكثر إلى الضفة الغربية من الأردن حيث هاجموا مناطق نابلس والقدس. وقد تحالف مع قبيلة بني صخر قبيلة السرحان، التي توجد في المناطق نفسها تقريباً حيث يوجد بنو صخر، وتعد مثلها حوالي عشرة آلاف رجل(٢٠).

وقد ذكر في العام ١٨٧٧م أن قبيلة بني صخر تحتل المنطقة بين بيسان وطبرية وأن جِمالها ترعى في مرج ابن عامر. وكان زعيمها آنذاك فندي الفايز الذي كان بإمكانه تجنيد أربعة آلاف وخمسمائة بدوي(٢١). ومما يدل على قوة الدولة العثمانية، في فترة التنظيمات آنذاك، قتالها بني صخر وبطشها بابن فندي الفايز وإجبارها قبيلة بني صخر على النزوح من منطقة جنين بسبب اتهامها بقتل بريطاني قرب الناصرة. فاستغلت الدولة الجريمة كوسيلة لطرد بني صخر، وكان فندي غائباً في بُصرى الشام لتأجير وبيع جِماله لنقل حجاج قافلة الحج الشامي إلى الحجاز. وكان يحصل على ربح سنوي من ذلك يعادل، حسب أحد التقديرات، ألف وخمسمائة ليرة انكليزية. فاعتقلته السلطة هناك وقتلت ابنه الذي أتى لإنقاذه. ولا أدلّ على بطش الدولة آنذاك وضعف البدو أمامها من قول فندي الذي عوضاً عن الثأر قال: كنت وابني خادمين للسلطان فأصبح له الآن خادم واحد(٢٢).

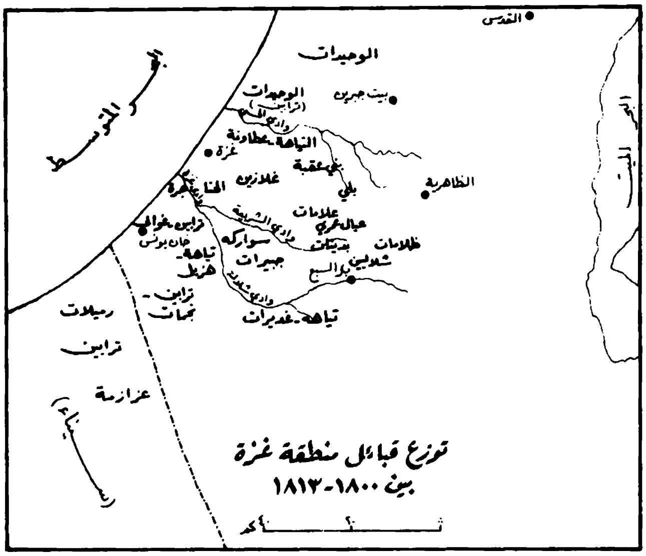
وقد وجدت في منطقة الكرك وشرقي البحر الميت قبائل العمر التي تعد بين ستّة آلاف وسبعة آلاف رجل. وسيطرت في منطقة البتراء قبيلة الحويطات، على مسيرة يوم من ظهر العقبة(٢٣). وفي الصحراء إلى الجنوب من الحويطات وجد بدو الصليب، وكل عشيرة منهم تبعد عن الأخرى أربعة أو خمسة فراسخ ولا يعيشون تحت الخيام بل في المغائر، ولا يربون الخيول أو الجِمال أو الغنم بل يصطادون الحيوانات، ومعهم بنادق(٢٤).

والمنطقة الرئيسية في فلسطين التي وجد فيها البدو بأعداد كبيرة وسلطة قوية هي تلك الممتدة في جنوبها بين غزة وبئر السبع والنقب، بمحاذاة سيناء. واشتهر فيها من القبائل العزازمة والتياهة والترابين والسواركة والقديرات والجبارات(٢٥).

وقد أمكن للدولة العثمانية، إبان التنظيمات، أن تنظم أمور البدو في منطقة غزة وأن تقيم علاقة جيدة معهم، وبخاصة في أواخر الخمسينات من القرن التاسع عشر. وكان بدو منطقة غزة يقسمون إلى قسمين عرفا باسمي عربان بلاد غزة الصف القبلي، ويرئسهم الشيخ عيسى بن عايش الوحيدي الحسيني الذي تلقب بشيخ مشايخ هؤلاء العربان، وعربان بلاد غزة الصف الشمالي، ويرئسهم الشيخ حسن بن رباح الوحيدي الحسيني الذي لُقب هو الآخر بشيخ مشايخ هؤلاء العربان(٢٦). ويُلاحظ أن شيخي مشايخ العربان في قسمي غزة الشمالي والجنوبي ينتسبان إلى الوحيدي الحسيني، وربما كانا من الوحيدات، ولكن لا يعرف فيما إذا كانا من وحيدات الترابين أو وحيدات الجبارات. وينسب الوحيدات أصلهم إلى قريش وينتمون إلى الحسين بن فاطمة الزهراء(٢٧).



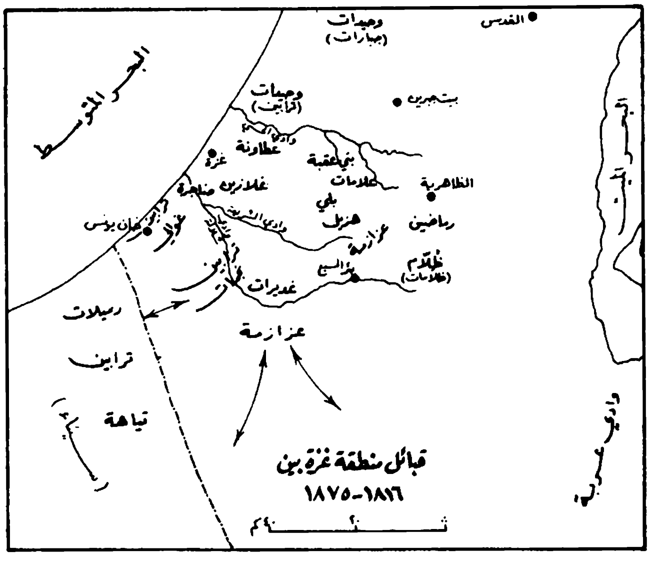
قبائل منطقة غزة قبل ١٧٩٩



توزع قبائل منطقة غزة بين ١٨٠٠-١٨١٣

ومما يدل على تعامل الدولة العثمانية مع هؤلاء العربان عن طريق شيوخ مشايخهم تكليفهم بنقل المؤن، من شعير وحنطة، من منطقة غزة إلى معان لتمويل قافلة الحج الشامي. وبلغ حجم هذه المؤن عدة آلاف من الكيلات نُقلت على الجمال بموجب عقد تمّ في محكمة غزة الشرعية(٢٨). ونستنتج من هذا أيضاً انضباط البدو، أو على الأقل شيوخهم، واعترافهم بسلطة المحكمة الشرعية والتزامهم بالعقود أمامها. وهناك أمثلة أخرى عن تسجيل زواج بعض البدو في محكمة غزة الشرعية وشراء شيوخهم الدور فيها(٢٩). وقد اشترى الشيخ عايش الوحيدي، شيخ عربان بلاد غزة، الصف القبلي، أغلى دار في غزة طرحت للبيع في العام ١٨٥٨م(٣٠).

والمنطقة الثانية التي برز فيها البدو في فلسطين ولكن على نطاق أضيق مما في منطقة غزة، هي منطقة شرقي القدس. ومن أبرز القبائل فيها قبيلة التعامرة التي امتدت منطقة نفوذها بين بيت لحم والبحر الميت. وقد وصِف التعامرة بأن سمعتهم سيئة في القدس بالرغم من أنهم يختلفون عن غيرهم من القبائل البدوية بأنهم شبه مستقرين، إذ يحرثون الأرض ويزرعون القمح الذي يبيعونه في بيت لحم. ومما يدل على أن التعامرة نصف بدو ونصف فلاحين لبسهم الأحذية ووضعهم الطاقية على رؤوسهم في حين أن البدو الأقحاح يلبسون الصنادل ويضعون الكوفيات على رؤوسهم. وكان شيخهم في العام ١٨٧٥م يدعى عبد القادر، ووجد لديه في وادي حصاصة ثمان وعشرون خيمة، وهو ما اعتُبر شيئاً كثيراً في مقاييس تلك المنطقة وذلك الزمن. ولم تكن لديه خيول في حين أن بدو الجهالين في المنطقة إلى الجنوب من عين



قبائل منطقة غزة بين ١٨١٦-١٨٧٥

جدي استخدموا الخيل، وكان شيخ الجهالين الشيخ أبو داهية. وكان الدخان أحسن هدية مترفة تقدَّم لهؤلاء البدو(٣١).

ووجد أيضاً في منطقة شرقي القدس بدو الرشيد وابن عبيد والصويرة والحطيمات. ونظراً لضعف هذه القبائل فقد كانت تغزو منطقتهم، وبخاصة في أوقات الربيع، قبائل من شرقي الأردن، وأبرزها بنو صخر، وذلك تحت ضغط القبائل الكبرى من بادية الشام. وقام أيضاً مشايخ القرى في مناطق وجبال الخليل والقدس ونابلس، وكان بعضهم من أصول بدوية، بالتعامل مع بدو هذه المناطق وجرهم إلى صفوفهم بعضهم ضد بعض. كما أن القبائل الأكبر في منطقة غزة كثيراً ما مدّت نفوذها إلى هذه المناطق عن طريق التحالفات، وبخاصة العصبية القيسية واليمنية.

وعلى غرار الفلاحين ومشايخهم انقسم البدو وأُمراؤهم إلى قيسية ويمنية. وكان شيخ قيسية بدو جنوبي فلسطين الأمير حسن الوحيدي الملقب بالدائمي، ولعله هو الذي شغل منصب شيخ مشايخ عربان بلاد غزة الصف الشمالي بعد أخيه الأمير حسين(٣٢). وقد تبعته من القبائل القيسية الجبارات والقلازين والسواركة والعمارين، كما استقطب تأييد الفلاحين القيسيين وعلى رأسهم الشيخ العزة وابنه مصلح في جبال الخليل، ومركزهم بيت جبرين. وبالمقابل كان شيخ اليمنية الأمير عايش الوحيدي، ولعله أيضاً هو الذي لُقّب شيخ مشايخ عربان بلاد غزة الصف القبلي، وتبعه من القبائل اليمنية التياهة والترابين والحويطات. ومن مؤيديه الفلاحون من حزب اليمنية في جبال الخليل، وزعماؤهم من أسرة عمرو ومركزهم قرية دورا.

وذُكر أن الأمير عايش جمع قوة من مؤيديه البدو والفلاحين وهاجم الأمير حسن منفرداً به وبقبيلة الجبارات الصغيرة التي كانت معه، وذلك في موقع رخمة جنوبي غزة. واستولى عايش على خيمة حسن وقطيعه وجميع ممتلكات الجبارات. وعندما رأى حسن أن عدوه يستعد للاستيلاء على نسائه ونساء أتباعه اندفع بقوة وهزم الأعداء. وقُدر القتلى بين الطرفين بألفين وثمانمائة شخص. وحين توفي الأمير حسن الدايمي خلفه ابنه سليم الذي شن هجمات متكررة على قبيلتي التياهة والترابين من حزب اليمنية(٣٣).

ويبدو أن زعامة القيسية واليمنية قد انتقلت إلى أسر أُخرى في الربع الأول من القرن العشرين، فقد ذُكر آنذاك أن من أبرز زعماء اليمنية حماد الصوفي، وتشمل زعامته القبائل التالية: في منطقة غزة: التياهة، والترابين، والعزازمة، والحناجرة،

والوحيدات؛ وفي منطقة الغور: العدوان؛ وفي الكرك: المجالي. أما مشايخ القيسية فهم من بني صخر، وتشمل زعامتهم أيضاً القبائل التالية: الشرارات في شرقي البلقاء، بني عطية في جنوبي الكرك، وبني حميدة بين الكرك والبلقاء(٣٤).

أما المنطقة الثالثة في فلسطين حيث ظهرت زعامة بدوية واحدة، ذات صفة عسكرية، ولفترة مؤقتة، في الثلث الثاني من القرن التاسع عشر، فكانت منطقة الجليل الأدنى، وكانت تلك زعامة عقيل من قبيلة الهنادي المصرية الأصل. ولم تشهد تلك المنطقة منذ القضاء على ظاهر العمر الزيداني زعامة محلية، بدوية أو فلاحية، على غرار ما حدث في وسط فلسطين وفي جنوبها بسبب وجود سلطة قوية فيها سواء في عهد الجزار والولاة من بعده أم في عهد الحكم المصري.

وكان أفراد من قبيلة الهنادي الذين عرفهم الجزّار في مصر وأطلق عليهم فيها لقب هوارة، نسبة إلى قبائل هوارة المشهورة ببأسها في الصعيد(٣٥)، قد استخدمهم أثناء حكمه في بلاد الشام (١٧٧٥ ــ ١٨٠٤م) كقوات مرتزقة لصد هجمات البدو على شمال فلسطين من شرقي الأردن. واستمر مجيء هؤلاء البدو فيما بعد، وكان من بينهم موسى الحاسي، والد عقيل، الذي قدم إلى منطقة غزة في العام ١٨١٤، ودخل مع قواته البدوية في خدمة كل من سليمان باشا العادل وعبد الله باشا واليي صيدا. وحين احتل إبراهيم باشا بلاد الشام قدمت معه، ومن بعده، أعداد كبيرة من بدو الهنادي(٣٦). وبرز من بينهم في خدمة إبراهيم باشا عقيل آغا ابن موسى الحاسي الذي انقلب على إبراهيم باشا فيما بعد وشارك في ثورة فلاحي فلسطين ضده.

وبعد انسحاب قوات إبراهيم باشا من بلاد الشام وعودة العثمانيين إليها برز عقيل في خدمة العثمانيين، ولكنه اصطدم في العام ١٨٤٥م مع محمد قبرصي قائمقام عكا فطرده من الخدمة. ولجأ مع قواته إلى بدو بني صخر واشترك معهم في مهاجمة السلطة العثمانية. وفي العام ١٨٤٧م عاد إلى خدمة العثمانيين وعهد إليه مع قواته البدوية التي عُرفت بلقب باش بوزوق، وتعني قوات غير نظامية، بصد هجمات البدو في المنطقة الممتدة بين حيفا وعكا في الغرب، وغور بيسان وطبرية في الشرق، وكانت الناصرة في وسطها. واختار مقراً له حصن عبلّين الذي استخدمه الزيادنة من قبله. وتصاهر مع بني صخر ليكسب دعمهم وصداقتهم إذا ما لجأ إليهم.

وقد عهدت السلطات العثمانية إلى عقيل آغا وقواته البدوية بمهمات متنوعة. فقد هاجم في العام ١٨٤٨م، بمساعدة بني صخر، بدو ابن عدوان الذين حاولوا مهاجمة بعثة لنش Lynch الأمريكية لاستكشاف بحيرة طبرية والبحر الميت، والتي عهد إليه بحمايتها. وشاع اسمه في أوروبا وأمريكا إثر ذلك. ثم ساهم وقواته في العام ١٨٥٢م في قمع ثورة درزية في منطقة اللجاة. وأثارت شهرته خشية العثمانيين وحسد منافسيه فدبروا أمر نفيه إلى بلغاريا في العام ١٨٥٣م. ولكنه عاد إلى فلسطين في العام التالي والتحق من جديد في خدمة العثمانيين. وحاول هؤلاء، في أعقاب انتصارهم في حرب القرم عام ١٨٥٦م، القضاء على عقيل ومؤيديه من الهنادي فأرسلوا ضده قوة كردية غير نظامية، ولكنه هزمها. وازداد شأنه ونُسب إليه إقامة الأمن ومنع التعدي في أحداث العام ١٨٦٠م، ولكن الدولة العثمانية، في محاولتها إخضاع الزعماء المحليين في فلسطين وغيرها، في فترة التنظيمات، استغلت عدم قدرة عقيل على صد هجمات البدو من شرقي الأردن على طبرية في العام ١٨٦٣م فأرسلت قوات من دمشق وعكا وتمكنت من القضاء على نفوذه. وهرب من فلسطين ثم عاد إليها في العام ١٨٦٦م. وبوفاته في العام ١٨٧٠م قُضي على نفوذ آخر قوة محلية في شمالي فلسطين، ونجحت الحكومة العثمانية في العام ١٨٧٠م في فرض هيمنتها على معظم مناطق فلسطين(٣٧).

وتتجلى محاولة الدولة العثمانية تنظيم الإدارة وإخضاع القوى المحلية لسلطتها بقيامها بتعداد القبائل البدوية وإجراء إحصاء لأفرادها. وقد أوردت سالنامات ولاية سوريا إحصاءات لتعداد القبائل البدوية في بعض صناجق فلسطين مثل صنجق عكا ثم صنجق البلقاء. وبالرغم من تكرار بعض السالنامات المعلومات هذه في الأعداد المتتالية منها فإنها تزودنا بمعلومات هامة حول أعداد القبائل وعدد الخيام في الصنجق الواحد، وبالتالي عدد النفوس، في كل منها بصورة تقريبية. وقد أقلت هذه السالنامات في الكلام حول بدو صنجق عكا في حين أنها أعطت معلومات ضافية عن البدو في صنجق البلقاء. وتُبين الجداول التالية إحصاءات العشائر هذه كما وردت في سالنامه ولاية سوريا لعام ١٣٠٠هـ / ١٨٨٢ ــ ١٨٨٣م.

يلاحظ في الإحصاء التالي أن سالنامات أعوام ١٢٩٩ ــ ١٣٠٢هـ / ١٨٨١ ــ ١٨٨٥م قد أعطت قوائم متشابهة في أسماء العشائر وأعداد النفوس بالنسبة لكل قبيلة ولكنها اختلفت في جمع الأرقام. والنتيجة مبنية على جمع الأرقام الفعلي وتؤيدها عدة سالنامات. وقد أشارت السالنامات إلى الأرقام على انها «تخمين»، أي أن الأعداد تقريبية. ويُلاحظ كذلك أنها تُذكر في أعلى الجدول كلمة «خيمة» بالنسبة للبلقاء، ثم تذكر كلمة «خانة» عند ذكر

الجدول رقم (٣ ـ ٦)

صنجق عكا				صنجق البلقاء			
القضاء	اسم العشيرة	نفوس	خيمة	القضاء	اسم العشيرة	نفوس	خيمة
صفد	بني لهيب	ـ	ـ	البلقاء	بني سقر (صقر)	٢,٥٠٠	٥٠٠
	قديرية	ـ	ـ		بني حسن	١,٥٠٠	٣٠٠
	سواعد	ـ	ـ		بني عجارمة	١,٠٠٠	٢٠٠
	جرامية	ـ	ـ		بني دعجة	٣,٥٠٠	٧٠٠
	مواس	ـ	ـ		أبو الغنم	٣,٥٠٠	٧٠٠
	حويتلات	ـ	ـ				خانة
	كراد	ـ	ـ		بني عبادة	٥٠٠	١٠٠
	زنغرية	ـ	ـ		بني سقر (صقر)	١,٠٠٠	٢٠٠
	طويطات	ـ	ـ		بني غزاوية	٥٠٠	١٠٠
	سمكية	ـ	ـ		بني عدوان	١,٧٥٠	٣٥٠
	شعار	ـ	ـ		بني صخر	٤,٠٠٠	٨٠٠
	خوبار	ـ	ـ		بني هنانه	٢٥٠	٥٠
طبرية	ادهيب	ـ	ـ		بني سلط وحجايا	١,٠٠٠	٣٠٠
	هبيج	ـ	ـ		مساعيد	٢٥٠	٥٠
	دلايكه	ـ	ـ		عرب الغوارني	١٥٠	٣٠
	شبشوش	ـ	ـ		بني جرامنه	٧٥	١٥
	صخور الغوش	ـ	ـ		جونيت	٧٥	١٥
شفا عمرو	هنادي	ـ	ـ		بني حميدة	١,٥٠٠	٣٠٠
طبرية	هوارة	ـ	ـ				
	هجيرات	ـ	ـ				
	تركمان	ـ	ـ				
	عريقات	ـ	ـ				
المجموع		٤,٠٠٠		**المجموع**		٢٣,٠٥٠	٤,٧١٠

بني عبادة (أو بني عباد) وما بعد. وربما هذا يعني أن القبائل كانت متنقلة تعتمد الخيام وأن القبائل الأخرى كانت شبه مستقرة لذا قدرت أعدادها بالخانة. وفي كلتا الحالتين اعتمدت السالنامات الرقم ٥ كعدد وسطي لسكان الخيمة أو الخانة. وهو المعتمد بالنسبة للسكان المستقرين.

وبمقارنة أعداد البدو في عدد من صناجق بلاد الشام في الإحصاءات ذاتها نتوصل إلى الجدول رقم (٣ـ٧):

الجدول رقم (٣ ـ ٧)

الصنجق	أعداد البدو	النسبة٪
البلقاء	٢٣,٥٥٠	٣٦,١٧
حوران (باستثناء جبل الدروز)	٣٢,٧٥٠	٥٠,٣٠
عكا	٤,٠٠٠	٦,١٤
حماة	٣,٠١٢	٤,٦٢
طرابلس	٨٠٠	١,٢٣
الشام	١,٠٠٠	١,٥٤
المجموع	٦٥,١١٢	١٠٠,٠٠

يُلاحظ في الجدول رقم (٣ ـ ٧) أن بدو صنجق البلقاء يشكلون أكثر البدو عدداً في ولاية سوريا، بعد بدو حوران، كما أن بدو عكا تزيد أعدادهم على بدو كل من حماه وطرابلس والشام. وطبيعي ألا تستقيم المقارنة بين هذه الصناجق إلا إذا عرفنا الأقضية والنواحي التي تتألف منها. وبالنسبة لصنجق عكا فقد ضم أقضية حيفا والناصرة وطبرية وصفد ونواحيها. أما صنجق

البلقاء فضم نابلس وجنين وبني صعب والسلط. وإذا اعتبرنا أعداد البدو كمؤشر لمدى كثافة الوجود البدوي، وبالتالي السيطرة البدوية، في منطقة ما فإن منطقة شمالي فلسطين التي تضم صنجق عكا هي أقل من منطقة وسط فلسطين التي ضمت صنجق البلقاء من ناحية سيطرة البدو. ويؤكد هذا ما سبق إليه القول من أن البدو لم يبرزوا سياسياً في القرن التاسع عشر في شمالي فلسطين بقدر ما برزوا في وسطها وجنوبها.

وهكذا تتبين لنا بعض مظاهر بنية القوى المحلية في فلسطين في القرن التاسع عشر مما يسهل فهم سلوكها السياسي، بالنسبة لعلاقاتها مع الدولة وعلاقة بعضها مع البعض الآخر، وكذلك فهم واقعها الاجتماعي والاقتصادي، وبالتالي واقع فلسطين سياسياً واجتماعياً واقتصادياً آنذاك.

الفصل الرابع
مظاهر سكانية واجتماعية من فلسطين

شهدت فلسطين، عبر تاريخها الطويل، تعددية سكانية، من حيث الأصول والمذاهب، وهجرات داخلية وخارجية، عادية وسياسية، منها وإليها، دون أن يقوّض ذلك بنيتها الاجتماعية وإنما زادها غنى وازدهاراً، وحافظت فلسطين دوماً على أصالتها وتقاليدها العربية. وتطرح عدة قضايا في التعرف أولاً على أعداد السكان وتنوعهم وأماكن توضّعهم ونسب ساكني المدن منهم إلى ساكني القرى. وقد جهد الباحثون في معرفة أعداد سكان فلسطين في القرن التاسع عشر ولكن تباعدت، بل تناقضت، تقديراتهم بحسب المصادر التي اعتمدوا عليها والنتائج التي توخوها. وبالرغم من اعتماد الاحصاءات الرسمية في أواخر القرن المذكور، فإن أعداد المهاجرين اليهود إلى فلسطين اكتنفها كثير من الغموض نظراً للنتائج السياسية المترتبة على ذلك. ومما يزيد في فوضى الأرقام ونسب الطوائف «تسييس» هذه الأرقام من قبل البعض للتقليل من أعداد طائفة ما، في موقع ما، أو زيادتها في موقع آخر. ومن آخر الدراسات السكانية عن فلسطين، في فترة محددة (١٨٥٠ ــ ١٨٨٢)، وذلك قبل أن تبدأ الهجرات المكثفة من روسيا في العام ١٨٨٢، دراسة الكسندر شولش A. Schölch[١] التي استعرض فيها معظم الإحصاءات المتوافرة عن سكان فلسطين، من أجنبية وعثمانية شبه رسمية وكتابات الباحثين المحدثين في هذا المجال. وبالرغم من الأدلة التي يبرزها في تأييد إحصاء وترجيح آخر أو شجب ثالث، فإن النتائج التي توصل إليها، على أهميتها وتفوّقها على ما سبقها، تبقى في تقديره تقريبية، وهذا أمر طبيعي نظراً لغياب الإحصاءات الرسمية. وإذا كان الوصول إلى حقيقة أعداد السكان أمراً صعباً، فإن هذا لا يمنع استعراض تقديرات الرحالة والمعاصرين، من عرب وأجانب، وكذلك إحصاءات السالنامات، لا للتوصل إلى الحقيقة المطلقة وإنما للتعرف على ما طرأ من تبدل أو اختلال غير طبيعي لسكان منطقة ما ولنسب الطوائف بينهم بصورة عامة دون الدخول في تفاصيل أعداد أتباع كل كنيسة من الكنائس المسيحية مثلاً.

وقبل استعراض تقديرات المصادر الأولية لأعداد السكان تجدر الإشارة إلى أننا سنعتمد الرقم خمسة باعتباره يمثل متوسط الخانة أو البيت الواحد. وقد اعتمدت هذا الرقم سالنامات ولاية سوريا[٢]، وكذلك القساطلي الذي ساح في فلسطين في العامين ١٨٧٤ و ١٨٧٥ ووصفها بدقة[٣]. كما أن أحد أعضاء بعثة صندوق استكشاف فلسطين، وهو دريك Drake، اعتمد هو الآخر، في العام ١٨٧٢، الرقم خمسة للدلالة على وسطي أفراد الخانة أو البيت[٤]. ومما يرجح هذا الرقم أيضاً أن متوسط عدد أفراد الأسرة في دمشق في عدد من العينات من القرن التاسع عشر كان حوالي خمسة أيضاً، وذلك بالاستناد إلى سجلات تركات المتوفين[٥].

وثمة ناحية أخرى تجب الإشارة إليها وهي أنه في الأرقام التقديرية للسكان التي ذكرها الرحالة، والتي جعلوا لها حداً أدنى وحداً أعلى، فقد اعتمدنا وسطي هذه الأرقام، مثال ذلك أن الرحالة فوغيه ذكر أن أعداد المسيحيين في القدس تراوح بين سبعة وثمانية آلاف شخص فاعتمدنا الرقم الوسطي سبعة آلاف وخمسمائة شخص.

ويبين الجدول التالي تقديرات الرحالة وسالنامه ولاية سوريا للعام ١٢٨٨هـ / ١٨٧١ ــ ١٨٧٢م لأعداد سكان بعض المدن في فلسطين. وقد أهملنا تقديرات سكان بعض المدن التي لا ترد إلا مرة واحدة لصعوبة إجراء مقارنة لأعداد السكان فيها مع أعدادهم في فترات أخرى. وتعد سالنامه العام ١٢٨٨هـ أول سالنامه تعطي أعداد سكان مدن فلسطين وقراهم بحسب طوائفهم المختلفة. وقد اعتمدها وانتقدها الباحث شولش، وقارن أرقامها بأرقام الوثائق الأجنبية.

الجدول رقم (٤ ـ ١)
سكان بعض مدن فلسطين في القرن التاسع عشر

المدينة	مسلمون	مسيحيون	يهود	المجموع
القدس				
ـ الرحالة بوفيه (١٨٥٨م)	٥,٠٠٠	٣,٤٠٠	٧,٠٠٠	١٥,٤٠٠
ـ سالنامه ١٢٨٨هـ / (١٨٧١ ـ ١٨٧٢م)	٥,١٢٥	٣,٦٩٠	٣,٨٠٥	١٢,٦٢٠
ـ الرحالة فوغيه (١٨٧٢م)	٤,٥٠٠	٧,٥٠٠	١٤,٠٠٠	٢٦,٠٠٠
ـ الرحالة القساطلي (١٨٧٤ ـ ١٨٧٥م)	٦,٠٠٠	١٢,٠٠٠	٢٢,٠٠٠	٤٠,٠٠٠
الخليـل				
ـ سالنامه ١٢٨٨هـ / (١٨٧١ ـ ١٨٧٢م)	١٤,٠٠٠	٠	١,٠٠٠	١٥,٠٠٠
ـ القساطلي (١٨٧٤ ـ ١٨٧٥م)	١٥,٠٠٠	٠	٢,٠٠٠	١٧,٠٠٠
غـــزة				
ـ سالنامه ١٢٨٨هـ /(١٨٧١ ـ ١٨٧٢م)	١٣,٤٥٠	٣٢٥	٠	١٣,٧٧٥
ـ القساطلي (١٨٧٤ ـ ١٨٧٥م)	١٦,٠٠٠	٨٠٠	٠	١٦,٨٠٠
يـافـا				
ـ لامارتين (١٨٣٢م)				٥,٥٠٠
ـ سالنامة ١٢٨٨هـ / (١٨٧١ـ ١٨٧٢م)	٤,٣٢٥	١,٣٣٠	٠	٥,٦٥٥
اللـــد				
ـ نيهولت (١٨٦٨م)	٥,٠٠٠	٢,٠٠٠	٠	٧,٠٠٠
ـ سالنامه ١٢٨٨هـ /(١٨٧١ ـ ١٨٧٢م)	٣,٥٠٠	١,٠٧٥	٠	٤,٥٧٥
الـرملـة				
ـ لامارتين(١٨٣٢م)				٢,٠٠٠
ـ نيهولت (١٨٦٨م)	٣,٠٠٠	١,٠٠٠	٠	٤,٠٠٠
ـ سالنامه ١٢٨٨هـ/(١٨٧١ـ ١٨٧٢م)	٣,٣٧٥	١,٢٥٠	٠	٤,٦٢٥
نـابلـس				
ـ بوفيه (١٨٥٨م)				٨,٠٠٠
ـ نيهولت (١٨٦٨م)	١٤,٩٥٠	٥٥٠	يهود ٢٥٠ سامريون ٢٥٠ ٥٠٠	١٦,٠٥٠
ـ سالنامه ١٢٨٨هـ /(١٨٧١ ـ ١٨٧٢م)	٦,٧٨٠	٤٨٠	يهود ٧٠ سامريون ٦٠ ١٣٠	٧,٣٩٠
عكـــا				
ـ سالنامه ١٢٨٨هـ / (١٨٧١ـ ١٨٧٢م)	٢,٧٣٥	١,٠٥٠	٣٠	٣,٨١٥
ـ شوماخر (١٨٨٦م)[٦]	٦,٨٥٠	٢,٨١٠	١٤٠	٩,٨٠٠
ـ تميمي وبهجت ١٣٣١هـ / (١٩١٢ ـ ١٩١٣م)[٧]	٣٢,٢٤١	٨,٩٧٦	١٠٥	٤١,٣٢٢

المدينة	مسلمون	مسيحيون	يهود	المجموع
حيفـا				
ــ نيهولت (١٨٦٨م)	١,٠٠٠	١,٢٥٠	١,٢٥٠	٣,٥٠٠
ــ سالنامه ١٢٨٨هـ /(١٨٧١ ــ ١٨٧٢م)	١,١٢٠	١,١٤٠	٤٠	٢,٣٠٠
ــ شوماخر (١٨٨٦م)	٣,٠٢٥	٣,٢٠٠	١٧٥	٦,٤٠٠
ــ تميمي وبهجت (١٩١٢ ــ ١٩١٣م)	٤,٥٠٠	٤,٦٣١	١,٣٠٦	١٠,٤٣٧
ــ البحري (حوالي ١٩٢١م)[٨]	١٦,٠٠٠	١٣,٠٠٠	٥,٠٠٠	٣٤,٠٠٠
الناصرة				
ــ بوركهاردت (١٨١٢م)	٢/٣	١/٣		
ــ نيهولت (١٨٦٨م)	٢,٠٠٠	٣,٩٣٥	٠	٥,٩٣٥
ــ سالنامه ١٢٨٨هـ / (١٨٧١ ــ ١٨٧٢م)	١,٣٧٥	٥,٣٦٥	٠	٦,٧٤٠
ــ شوماخر (١٨٨٦م)	١,٦٢٠	٤,٩٥٥	٠	٦,٥٧٥
ــ تميمي وبهجت (١٩١٢ ــ ١٩١٣م)	٢,٤٤٠	٦,١٤٤	٠	٨,٥٨٤
طبرية				
ــ بوركهاردت (١٨١٢م)	٣,٠٠٠	قلة	١,٠٠٠	٤,٠٠٠
ــ نيهولت (١٨٦٨م)	٨٠٠	٢٦٠	٢,٥٠٠	٣,٥٦٠
ــ سالنامه ١٢٨٨هـ /(١٨٧١ ــ ١٨٧٢م)	٧٩٥	٣٣٠	٢,٠٠٠	٣,١٢٥
ــ شوماخر (١٨٨٦م)	١,٣٥٥	٢٦٠	٢,٠٢٥	٣,٦٤٠
ــ تميمي وبهجت (١٩١٢ ــ ١٩١٣م)	مسلمون ومسيحيون	١,٠٠٠	٥,٠٠٠	٦,٠٠٠
صفد				
ــ بوركهاردت (١٨١٢م)	١,٨٠٠	٤٥٠	٧٥٠	٣,٠٠٠
ــ سالنامه ١٢٨٨هـ /(١٨٧١ ــ ١٨٧٢م)	٦,٤٧٥	١٥	٥,٩٨٥	١٢,٤٧٥
ــ شوماخر (١٨٨٦م)	١٠,٦٤٥	٧٢٠	١٣,٢٥٠	٢٤,٦١٥
ــ تميمي وبهجت (١٩١٢ ــ ١٩١٣م)	٧,٠٧٧	٤٢٢	٥,٢٥٦	١٢,٧٥٥

يُلاحظ في الجدول رقم (٤ ــ ١)، بالنسبة لسكان القدس، أن الرحالة الفرنسي بوفيه الذي قام برحلته إلى فلسطين في العام ١٨٥٨م قد اطّلع، كما يقول، على إحصاءات متفاوتة لعدد سكان القدس. فهناك تقديرات بأحد عشر ألفاً وتقديرات أخرى بعشرين ألفاً ولكن بوفيه قدّرهم بخمسة عشر ألفاً وأربعمائة نسمة، بناء على تحريات السيد شولتز، قنصل بروسيا في القدس، التي يصفها بأنها تبدو له دقيقة وموثوقة[٩]. وبالنسبة للرحالة فوغيه الذي زار فلسطين في العام ١٨٧٢م فقد زار قبل ذلك عدة مناطق في المشرق، منها استانبول ولبنان ودمشق، كما زار بعد انتهاء رحلته في فلسطين مصر ثم اليونان في العام ١٨٧٢م، وكتب مقدمة رحلتـه في استانبول في العام ١٨٧٥م مما يدل على أنه كانت لديه الخبرة والوقت للتأكد من أرقامه حول السكان بناء على جولاته المشرقية هذه. أما القساطلي فقد كان مراقباً دقيقاً ومطلعاً بحكم مرافقته لبعثة صندوق استكشاف فلسطين البريطانية التي تدخل معرفة أعداد السكان في فلسطين في أولويات اهتماماتها.

وبمقارنة أرقام سكان مدينة القدس، كما وردت في المصادر المذكورة في الجدول، بحسب الطوائف وعبر فترة زمنية تقرب من سبعة عشر عاماً (١٨٥٨ ــ ١٨٧٥م) يتضح أولاً أن أعداد السكان المسلمين فيها ازدادت بشكل قليل، وربما يفسر ذلك بعدم هجرة المسلمين إلى القدس على غرار اليهود، وكان المسيحيون أقل هجرة إلى القدس من اليهود. وتفسر ضآلة السكان هؤلاء أيضاً بانتشار

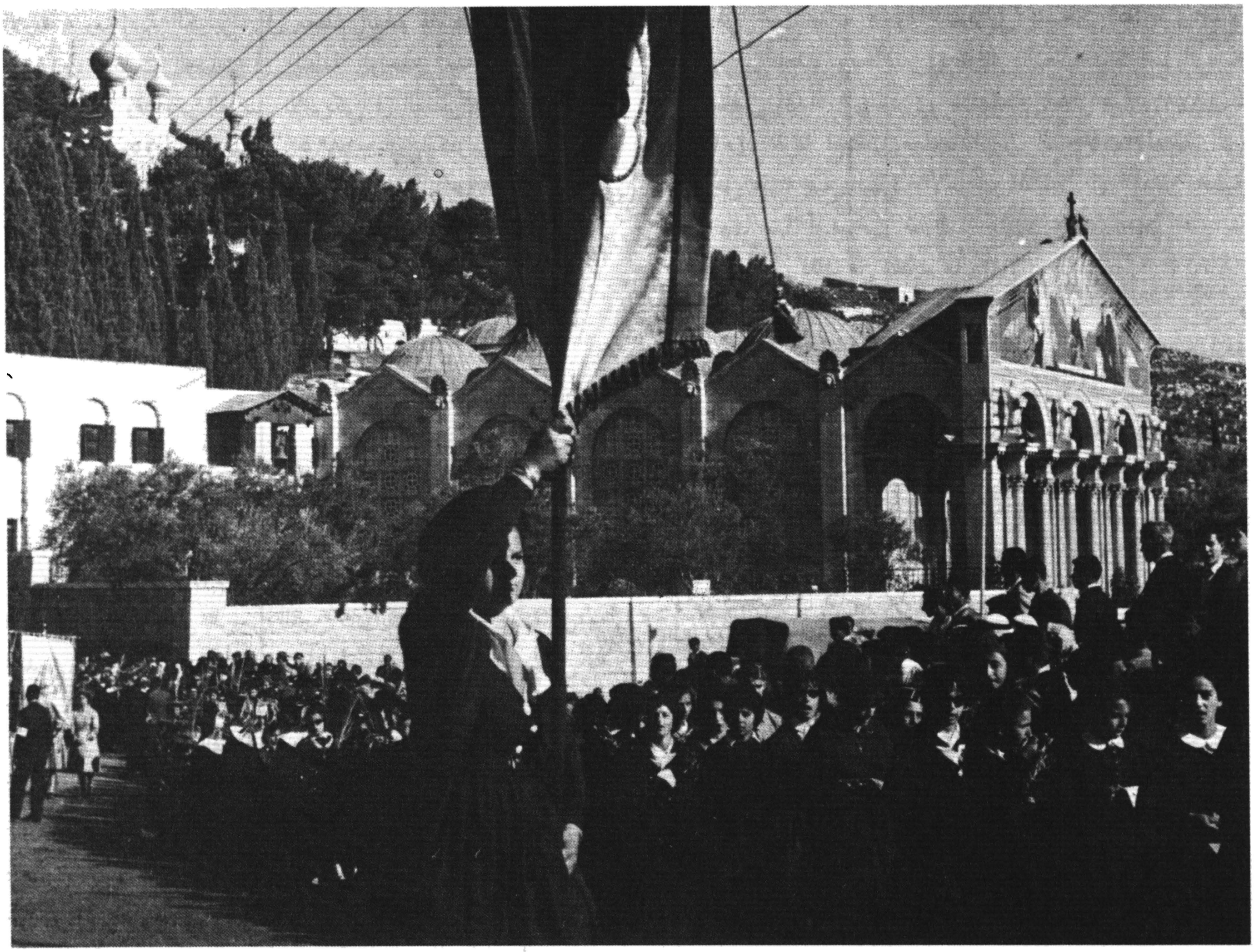
الأوبئة، وبخاصة الكوليرا، في معظم أنحاء فلسطين في العام ١٨٦٥م، وكانت الوفيات في المنطقة الواحدة تُعد بالمئات بل الآلاف[١٠]. وقد ذكر القنصل الأمريكي في القدس في رسالة له منها بتاريخ ٢٥ أيلول/سبتمبر ١٨٦٥م أن الكوليرا أخذت بالانتشار في سوريا وفلسطين في شهر تموز/يوليو ١٨٦٥م، وأن حوالي نصف سكان القدس قد هربوا منها بمن فيهم الوالي العثماني، وأنه مات بسببها ما بين ٣,٥٠٠ و ٤,٠٠٠ نسمة في فلسطين نتيجة الإهمال ونقص العناية الطبية. وقد تراجع الوباء في أيلول/سبتمبر وتلاشى في القدس في كانون الأول/ديسمبر[١١]. وبالرغم من انتشار المحاجر الصحية وأساليب الوقاية آنذاك فإن الإصابات كانت كبيرة.

وبالمقابل نجد أن أعداد المسيحيين متقاربة في تقدير عامي ١٨٥٨ و ١٨٧١ ـ ١٨٧٢م. ولكن الرقم يتضاعف تقريباً عند فوغيه في العام ١٨٧٢م، ولعله أدخل بين المسيحيين أعداد الحجاج المسيحيين من الروس الذين كان يفد منهم كل سنة إلى القدس، كما يقول، ما بين ثلاثة وأربعة آلاف حاج بشكل مستمر، وذلك بعد أن بنى الروس مجمّعاً سكنياً هاماً على بعد عشر دقائق من القدس القديمة، فيه تسهيلات سكنية وصحية لهؤلاء الحجاج، كما أن هؤلاء الحجاج كانوا يدفعون أجوراً رمزية للبواخر الروسية التي كانت تقلهم إلى يافا[١٢]، مما يشجعهم على السفر. وتزداد أعداد المسيحيين في القدس في إحصاءات القساطلي، أي بعد ثلاث سنوات من تقديرات فوغيه، بزيادة قدرها ٣٨,٥ ٪. ولا يعقل تفسير هذه الزيادة بزيادة طبيعية للسكان العرب المسيحيين في القدس، وإنما تفسر بزيادة أعداد المسيحيين الأوروبيين القادمين إلى القدس، وربما المقيمين منهم فيها، لأن القساطلي يذكر أن أعداد المسيحيين التي يعطيها هي «من جميع الطوائف افرنج ووطنيين»[١٣]. ولعل انتهاء الحرب البروسية ـ الفرنسية في العام ١٨٧٠م، ومن قبلها الحرب الأهلية الأمريكية، أتاحا المجال لأعداد أكبر من المسيحيين الغربيين بالسفر إلى القدس.

ولكن الزيادة بالنسبة لأعداد اليهود فاقت ما عداها بأشواط إذ تضاعفت بين عامي ١٨٥٨ و ١٨٧٢م، ثم زادت بنسبة تقرب من ٦٤ ٪ خلال السنوات الثلاث التالية، كما تشير إحصاءات القساطلي. ويفسَّر هذا الازدياد المتسارع بتدفق المهاجرين من الخارج. ويعلّق القساطلي على ذلك بقوله: «وربما بعد وقت قصير سيزداد عدد سكان هذه المدينة كثيراً لكثرة المهاجرين إليها من اليهود الذين يوافونها من أقطار العالم»[١٤]. وصحّت تقديرات القساطلي حين غدت هجرة اليهود إلى فلسطين منظّمة وبأعداد كبيرة، فيما بعد، وبخاصة في أوائل الثمانينات. أما بالنسبة لانخفاض أعداد اليهود في سالنامه ١٢٨٨هـ / (١٨٧١ ـ ١٨٧٢م)، فربما استقت معلوماتها من السجلات المحلية التي لم يسجَّل فيها جميع اليهود والأغراب المقيمين في القدس خشية إخراجهم منها أو فرض ضرائب عليهم وإخضاعهم للتجنيد وما يترتب على ذلك من تقديم مال لقاء الإعفاء منه.

وبدراسة أعداد سكان المدن الأخرى في فلسطين، الواردة في الجدول أعلاه، يتضح ما طرأ على هذه الأعداد من تحولات سكانية وتبدلات حسب الطوائف بصورة طبيعية أو غير طبيعية. فهناك، بصورة عامة، ازدياد في مجموع سكان كل مدينة من فترة لأخرى. ويكون هذا الازدياد ضئيلاً في البدء ثم يتسارع بين الثمانينات ومطلع الحرب العالمية الأولى، كما تبين إحصاءات تميمي وبهجت في كتابهما عن ولاية بيروت. ولا بد أن الإحصاءات الرسمية آنذاك قد أصبحت أكثر دقة، كما أن تحسّن الأوضاع الصحية والحياة الاقتصادية التي أصبحت مرتبطة بالرأسمالية الأوروبية وبالهجرة من داخل بلاد الشام إلى الموانىء الفلسطينية التي تحسّنت أوضاعها وتنامت تجارتها بعد ربطها بالداخل بشبكة خطوط برية وحديدية كانت لها تأثيراتها الإيجابية على هذه الزيادة السكانية. فمدينة عكا مثلاً ازداد سكانها المسلمون والمسيحيون في فترة واحد وأربعين عاماً (١٨٧١ ـ ١٩١٢م) بحوالي ٨٥ ٪ فيما يتعلق بالمسلمين، وبحوالي ١٢ ٪ للمسيحيين، في حين أن نسبة اليهود فيها لم تتجاوز ٣ ٪ وبأعداد متدنية. وينطبق ذلك على مدينتي حيفا ويافا وكلتاهما من الموانىء التي استفادت من ازدياد النشاط الاقتصادي مع أوروبا ومع داخل بلاد الشام. (وسنعالج هذه الطرق في بحث التجارة).

ولكن المدينتين اللتين تبدلت فيهما نسب الطوائف بشكل جذري، بعد القدس، هما طبرية وصفد. ففي طبرية تناقصت أعداد المسلمين بدرجة كبيرة وأعداد المسيحيين بدرجة أقل في تقدير السكان خلال قرن بين عامي ١٨١٢ و ١٩١٢م. فقد ذكر بوركهاردت أن أعداد المسلمين في طبرية في العام ١٨١٢م بلغت ثلاثة آلاف تناقصوا بعدها في نقدير نيهولت (١٨٦٨م) إلى ثمانمائة. وربما يفسر ذلك جزئياً بانتشار وباء الكوليرا الذي عصف بالمنطقة في العام ١٨٦٥م. ثم أصبحت أعدادهم وأعداد المسيحيين مجتمعة في العام ١٩١٢ ـ ١٩١٣م، حسب إحصاء تميمي وبهجت، ألف نسمة، وهذا يدل على تناقص نسبتهم



الجثمانية في القدس

بحوالي ٦٦ ٪ خلال قرن. وبالمقابل ازدادت أعداد اليهود، الذين كانت طبرية بالنسبة لهم مركزاً دينياً هاماً، بنسبة خمسة أضعاف خلال مئة عام إذ قدّرهم بوركهاردت بألف نسمة في العام ١٨١٢م، وشكّلوا آنذاك ٢٥ ٪ من مجموع السكان فغدوا خمسة آلاف في العام ١٩١٢ ــ ١٩١٣م، وشكلوا حوالي ٨٣,٣ ٪ من السكان.

أما صفد فقد ازدادت فيها أعداد المسلمين واليهود خلال القرن نفسه في حين بقيت أعداد المسيحيين ضئيلة. وكانت نسبة هؤلاء ١٥ ٪ من مجموع السكان في العام ١٨١٢م فغدت حوالي ٣,٣ ٪ في العام ١٩١٢ ــ ١٩١٣م. أما أعداد المسلمين في صفد فكانت، حسب تقدير بوركهاردت في العام ١٨١٢م، ١,٨٠٠ من أصل ٣,٠٠٠، أي بنسبة ٦٠ ٪ فغدت ٦,٤٧٥ من أصل ١٢,٤٧٥ في تقدير سالنامه ١٢٨٨هـ / ١٨٧١ ــ ١٨٧٢م، أي بنسبة ٥٢ ٪، ثم أصبحت ١٠,٦٤٥ من مجموع قدره ٢٤,٦١٥ في تقدير شوماخر لعام ١٨٨٦م، أي بنسبة ٤٣,٢ ٪. وفي نهاية المائة سنة أصبحت أعدادهم ٧,٠٧٧ من مجموع قدره ١٢,٧٥٥، أي بنسبة ٥٥,٥ ٪. ويفسر تزايد المسلمين في صفد وتشكيلهم الطائفة الرئيسية فيها، بالرغم من الأوبئة التي أصابتهم، باستقرار جاليات عسكرية من المغاربة والأفغان والشراكسة في المدينة وباستتباب الأمن في منطقة الجليل بعد القضاء على الزعامات المحلية وآخرهم عقيل آغا.

ويوضح الجدول التالي زيادة اليهود بالنسبة للمسلمين والمسيحيين بين سكان كل من صفد وطبرية وفق التقديرات في الجدول رقم (٤ ــ ١)، ثم يقارن ذلك مع تبدل نسب الطوائف في طبرية:

الجدول رقم (٤ ـ ٢)

صفد	مسلمون	مسيحيون	يهود
بوركهاردت(١٨١٢م)	٦٠٪	١٥٪	٢٥٪
سالنامه ١٢٨٨هـ / (١٨٧١ ـ ١٨٧٢م)	٥٢٪	٠,١٪	٤٧,٩٪
شوماخر (١٨٨٦م)	٤٣,٢٪	٢,٩٪	٥٣,٩٪
تميمي وبهجت (١٩١٢ ـ ١٩١٣م)	٥٥,٥٪	٣,٣٪	٤١,٢٪

طبرية	مسلمون	مسيحيون	يهود
بوركهاردت (١٨١٢م)	٧٥٪	قلة	٢٥٪
نيهولت (١٨٦٨م)	٢٢,٥٪	٧,٣٪	٧٠,٢٪
سالنامه ١٢٨٨هـ /(١٨٧١–١٨٧٢م).	٢٥,٤٪	١٠,٦٪	٦٤٪
شوماخر (١٨٨٦م)	٣٧,٢٪	٧,١٪	٥٥,٧٪
	مسلمون ومسيحيون		يهود
تميمي وبهجت (١٩١٢ ـ ١٩١٣م)	١٦,٧٪		٨٣,٣٪

ويتبين من النسب أعلاه أن نسبة اليهود في صفـد قد ازدادت باستمرار، وأن ذروة نسبتهم إلى مجموع السكان قـد حدثت في تقديرات شوماخر للعام ١٨٨٦م، في حين أن نسبة اليهود في طبرية ازدادت هي الأخرى ولكن بوتائر أعلى من مثيلتها في صفد إذ بلغت ٧٠,٢ ٪ في تقديرات نيهولت لعام ١٨٦٨م وارتفعت إلى ٨٣,٣ ٪ في تقديرات العام ١٩١٢ ـ ١٩١٣م.

وبالانتقال من تقديرات سكان المدن إلى تقديرات سكان الصنجق أو اللواء بأجمعه، بما فيه من أقضية ونواحٍ وحتى عشائر، نجد عدة إحصاءات معظمها من السالنامات العثمانية التي تتوفر منذ مطلع السبعينات من القرن التاسع عشر. وإذا كانت تقديرات السكان في المدن ما زالت مدار نقاش واختلاف بين الباحثين فإن تقديرات السكان في الريف أدعى إلى النقاش والاختلاف نظراً لصعوبة إحصاء السكان فيه، ومع ذلك فإنها تعطينا فكرة هامة عن أعداد السكان في الصنجق أو القضاء وتمكّننا من مقارنتها بعضها ببعض. وبعض هذه الإحصاءات لا يعطي أعداد أتباع الطوائف المختلفة في الأرياف في حين أن بعضها الآخر يذكر ذلك.

وسنستعرض سالنامه ١٢٨٨هـ/ ١٨٧١ ـ ١٨٧٢م التي تعطي أعداد أتباع الطوائف في مركز كل لواء ولكنها تختصر ذلك في القرى التي تتألف منها النواحي فتعطي في نهاية كل ناحية أعداد القرى فيها ثم أعداد الخانات بالنسبة للمسلمين (س) ولغير المسلمين (غ). وقد حولنا هذه الخانات إلى مجموع نفوس السكان معتمدين الرقم ٥ كرقم وسطي لأفراد الخانة. ويبيّن ذلك الجدول التالي:

الجدول رقم (٤ ـ ٣)
تقديرات أعداد السكان في ألوية (صناجق) فلسطين
سالنامه عام ١٢٨٨هـ / ١٨٧١ ـ ١٨٧٢م

اسم القضاء	عدد النواحي	عدد القرى	أعداد السكان		المجموع
			مسلمون	غير مسلمين	
لواء القدس					
القدس	٧	١١٧	٣٥,٧١٥	١٢,٨٥٠	٤٨,٥٦٥
غزة	٣	٥٥	٤٥,٥٣٥	٣٢٥	٤٥,٨٦٠
يافا	٣	٦١	٢٨,٣٩٥	٣,٦١٥	٣٢,٠١٠
الخليل	٤	٥٢	٢٨,١٠٠	١,٠٠٠	٢٩,١٠٠
المجموع	١٧	٢٨٥	١٣٧,٧٤٥	١٧,٧٩٠	١٥٥,٥٣٥

اسم القضاء	عدد النواحي	عدد القرى	أعداد السكان		المجموع
			مسلمون	غير مسلمين	
لواء عكا					
عكا	٢	٣٤	١١,٥٧٥	٦,١٨٥	١٧,٧٦٠
حيفا	٣	٤١	١١,١٧٥	١,٩٨٠	١٣,١٥٥
الناصرة	٢	٣٨	٩,٤٠٥	٨,٠٨٥	١٧,٤٩٠
صفد	٢	٣٨	١٢,٥٦٠	٩,٠٨٠	٢١,٦٤٠
طبرية	١	٧	١,٧٣٠	٢,٣٣٠	٤,٠٦٠
المجموع	١٠	١٥٨	٤٦,٤٤٥	٢٧,٦٦٠	٧٤,١٠٥
لواء البلقاء (باستثناء قضاءي عجلون والسلط)[١٥]					
نابلس	٨	١٥٦	٧١,٨٩٠	١,٦٢٠	٧٣,٥١٠
جنين	٣	٣٩	١٣,٨٨٠	١٦٥	١٤,٠٤٥
المجموع	١١	١٩٥	٨٥,٧٧٠	١,٧٨٥	٨٧,٥٥٥
المجموع العام	٣٨	٦٣٨	٢٦٩,٩٦٠	٤٧,٢٣٥	٣١٧,١٩٥

يتبين من الأرقام في أعلاه أن عدد سكان ألوية فلسطين حسب تقديرات سالنامه العام ١٢٨٨هـ / (١٨٧١ ـ ١٨٧٢م) هو ٣١٧,١٩٥ يؤلف المسلمون منهم ٢٦٩,٩٦٠، وغير المسلمين ٤٧,٢٣٥ نسمة، أي أن نسبة المسلمين من مجموع السكان هي ٨٥,١١ ٪ وغير المسلمين ١٤,٨٩ ٪، ويبدو أن هذه النسب، وبخاصة لغير المسلمين، لم تدخل فيها نسب اليهود المتزايدة بتزايد هجرتهم لأن السالنامه إحصائية شبه رسمية تعتمد على معطيات رسمية وليس على الواقع السكاني القائم.

ويلاحظ أن قضاء نابلس يتفوق على الأقضية الأخرى في فلسطين في عدد السكان، تليه أقضية القدس وغزة ويافا والخليل وصفد. كما أن نسبة غير المسلمين تبلغ أعلاها في لواء عكا، وتقدَّر بحوالي ٦٠ ٪ من مجموع السكان، في حين أنها ١١,٤٤ ٪ في لواء القدس، وحوالي ٢ ٪ في الأقضية الفلسطينية من لواء البلقاء. وأقل نسبة لهم على الإطلاق، بين الأقضية، هي في قضاء غزة إذ تبلغ ٠,٠٧ ٪، وأعلى نسبة لهم هي في قضاء الناصرة إذ تبلغ ٤٦,٢٣ ٪ من مجموع السكان.

وإذا كانت السالنامات تعطي تقديرات السكان حسب الطوائف في مراكز الألوية وحسب المذهب بصورة عامة في القرى فإن إحصاء شوماخر[١٦] الذي تم في العام ١٨٨٦، بالنسبة للواء عكا فقط، يزودنا بمعلومات عامة ومفصّلة من هذا القبيل بالنسبة لمراكز المدن والقرى. ونظراً لأنه يقدم نوعاً جديداً من المعلومات السكانية التي لا تعطيها السالنامات ولأنه يشكل حلقة متوسطة بين هذه السالنامات وأول إحصاء رسمي عثماني تمّ في العام ١٨٩٣ فسنذكره هنا. وشوماخر هذا ألماني، وكان ناظراً في الأشغال العامة في لواء عكا، وعُهد إليه في العام ١٨٨٦م بمراقبة إحصاءات الذكور في هذا اللواء بين سن ١٦ و ٦٠ الذين كلّفتهم إدارة النافعة (الأشغال العامة) في استانبول بالعمل لمدة أربعة أيام في السنة تحت إشراف مهندسين لإصلاح الطرق في اللواء كجزء من إصلاح طرق الدولة بكاملها لفائدة السكان والدولة. وقد أدار شوماخر بنفسه عملية الإحصاء هذه في عدد من الأقضية، وزار برافقة الشرطة (الضبطية/الزبطية) وموظفي النفوس كل بيت وسجّل فيه أسماء الذكور. ويقول انه بناء على ملاحظاته وجد أن عدد السكان الاجمالي هو حصيلة ضرب الرقم الوسطي ٥ في عدد هؤلاء الذكور، أي أنه اعتبر الذكر بين سن ١٦ و ٦٠ صاحب بيت (خانة). والخانة، كما رأينا، تُقدر بخمسة أفراد حسب إحصاءات

عدة ولاعتبارات كثيرة تتعلق بتدني متوسط العمر والزواج في الغالب بامرأة واحدة وكثرة الوفيات بين الأطفال بسبب انتشار الأوبئة وعدم توفر العناية الصحية. وبالرغم من المآخذ على إحصاء شوماخر، شأنه شأن غيره من الإحصاءات آنذاك، قبل اعتماد الإحصاءات الرسمية، فإنه يزودنا بأسماء المدن والقرى والحارات التي ضمتها المدن، ومن خلالها نقارن مدى كثافة السكان في موقع ما وهويتهم الدينية. وسنورد فيما يلي إحصاءات إجمالية لكل قضاء، في لواء عكا، حسب الطوائف، ونعرض التفاصيل في الملحق بالنسبة لكل حارة في المدن وبالنسبة للقرى في كل قضاء.

الجدول رقم (٤ ـ ٤)

سكان لواء عكا في إحصاء شوماخر (١٨٨٦) بالنسبة للأقضية وعدد الخانات (الذكور) حسب المذاهب

القضاء	مسلمون	روم أرثوذكس	كاثوليك	لاتين	موارنة	بروتستانت	يهود	دروز	عدد الخانات	مجموع السكان
قضاء عكا:										
مدينة عكا	١,٣٧٠	٣٥٥	١٥٨	٣٣	١٦	—	٢٨	—	١,٩٦٠	٩,٨٠٠
قرى ساحل عكا	٩٧٩	٤٩٨	١٩	—	—	—	—	٤٦٤	١,٩٦٠	٩,٨٠٠
ناحية الشاغور	١,٣٤٣	١٠٦	٢١٠	—	—	—	—	٢٦٢	١,٩٢١	٩,٦٠٥
ناحية شفاعمرو	١,٤٩٢	١٣٧	٢٥٧	٣٤	—	٣٥	٦	٨٨	٢,٠٤٩	١٠,٢٤٥
المجموع	٥,١٨٤	١,٠٩٦	٦٤٤	٦٧	١٦	٣٥	٣٤	٨١٤	٧,٨٩٠	٣٩,٤٥٠
قضاء حيفا:										
مدينة حيفا	٦٠٥	١٢٩	٣٩٣	٤٢	٧٠	٦	٣٥	—	١,٢٨٠	٦,٤٠٠
قرى حيفا	٣,٦٨٢	—	—	—	١	—	١٠٢	—	٣,٧٨٥	١٨,٩٢٥
المجموع	٤,٢٨٧	١٢٩	٣٩٣	٤٢	٧١	٦	١٣٧		٥,٠٦٥	٢٥,٣٢٥
قضاء الناصرة:										
مدينة الناصرة	٣٢٤	٤٩٧	١٦٩	٢٢٣	٤٤	٥٨	—	—	١,٣١٥	٦,٥٧٥
قرى الناصرة	٢,٠٦٧	٣٦١	—	—	—	—	—	—	٢,٤٢٨	١٢,١٤٠
المجموع	٢,٣٩١	٨٥٨	١٦٩	٢٢٣	٤٤	٥٨	—	—	٣,٧٤٣	١٨,٧١٥
قضاء طبرية:										
مدينة طبرية	٢٧١	٣	٤٣	٦	—	—	٤٠٥	—	٧٢٨	٣,٦٤٠
قرى طبرية	٢,٧١٦	—	—	—	—	—	٢٠	٤ إيرانيين	٢,٧٤٠	١٣,٧٠٠
المجموع	٢,٩٨٧	٣	٤٣	٦	—	—	٤٢٥	٤ إيرانيين	٣,٤٦٨	١٧,٣٤٠
قضاء صفد:										
مدينة صفد	٢,١٢٩	—	١٤٤	—	—	—	٢,٦٥٠	—	٤,٩٢٣	٢٤,٦١٥
قرى صفد	٤,٠٩٩	١,١٢٢	—	—	—	—	٢٠	٥٣٨	٥,٧٧٩	٢٨,٨٩٥
المجموع	٦,٢٢٨	١,١٢٢	١٤٤	—	—	—	٢,٦٧٠	٥٣٨	١٠,٧٠٢	٥٣,٥١٠
المجموع العام	٢١,٠٧٧	٣,٢٠٨	١,٣٩٣	٣٣٨	١٣١	٩٩	٣,٢٦٦	١,٣٥٦	٣٠,٨٦٨	١٥٤,٣٤٠

الجدول رقم (٤ ــ ٥)

أعداد سكان فلسطين في أول إحصاء رسمي عثماني (١٨٩٣)

منطقة القدس الخاصة	المسلمون		الروم الأرثوذكس		الأرمن		الكاثوليك		اليهود		البروتستانت		اللاتين		نوَر غيرمسلمين		المجموع		المجموع العام
	إناث	ذكور	إناث	ذكور	إناث	ذكور	إناث	ذكور	إناث	ذكور	إناث	ذكور	إناث	ذكور	إناث	ذكور	إناث	ذكور	
قضاء القدس	٢٦,٣١٧	٢٨,٠٤٧	٥,٧٥٠	٦,٢٧٢	٣٤٣	٥٠٤	١٨	٣٣	٣,٥٣٥	٣,٥٧٠	٢٣٨	٢٩٦	٢,٨٧٨	٣,١٧٤	٣٥	٤٩	٣٩,١١٤	٤١,٩٤٥	٨١,٠٥٩
															أجانب				
قضاء يافا	٢١,٢٨١	٢٣,٨٩٤	١,٨٢٦	٢,٠٧١	٤٠	٥٢	١٧٢	١٩٩	١٦٧	٢٢٧	٤٦	٦٣	٣١٢	٣٩٣	٤٧٥	٦٣١	٢٤,٣١٩	٢٧,٥٣٠	٥١,٨٤٩
قضاء غزة	٢٧,٩٥١	٣١,٥٦٦	٣٧٩	٣٨٩	ـ	ـ	ـ	ـ	ـ	ـ	٦	٥	١٤	١٩	ـ	ـ	٢٨,٣٥٠	٣١,٩٧٩	٦٠,٣٢٩
قضاء الخليل	١٨,٨٥٢	٢١,٧٠٥	١	١٤	ـ	ـ	ـ	ـ	٢٩١	٣٢٠	ـ	ـ	٣	٥٦	١٤٣	١٤٨	١٩,٢٩٠	٢٢,٢٤٣	٤١,٥٣٣
المجموع	٩٤,٤٠١	١٠٥,٢١٢	٧,٩٥٦	٨,٧٤٦	٣٨٣	٥٥٦	١٩٠	٢٣٢	٣,٩٩٣	٤,١١٧	٢٩٠	٣٦٤	٣,٢٠٧	٣,٦٤٢	٦٥٣	٨٢٨	١١١.٠٧٣	١٢٣,٦٩٧	٢٣٤,٧٧٠

يتبين لنا من إحصاء شوماخر السابق أن مجموع سكان لواء عكا هو **١٥٤,٣٤٠** نسمة، كما قدّرهم في العام ١٨٨٦، وأن عدد السكان اليهود في اللواء هو **٣,٢٦٦** خانة، أي ما يعادل (**٣,٢٦٦ × ٥**) = **١٦,٣٣٠**. ويلاحظ أن الكثرة منهم تقيم في قضاءي طبرية وصفد إذ يبلغ مجموعهم هناك **٣,٠٩٥** خانة، أي **١٥,٤٧٥** نسمة، وأن معظم هؤلاء يقيمون في قضاء صفد بما مجموعه هناك **١٣,٣٥٠** نسمة، وأن التركيز في الإقامة هو في المدينة بدليل أن **١٣,٢٥٠** نسمة من هؤلاء الأخيرين يقيمون في

الجدول رقم (٤ ــ ٦)

أعداد سكان فلسطين في أول إحصاء رسمي عثماني (١٨٩٣)

الصنجق/اللواء القضاء	المسلمون		الروم الأرثوذكس		الكاثوليك		اليهود		البروتستانت		اللاتين		المجموع		المجموع العام
	إناث	ذكور	إناث	ذكور	إناث	ذكور	إناث	ذكور	إناث	ذكور	إناث	ذكور	إناث	ذكور	
صنجق عكا:															
قضاء عكا	٩,٦٨٦	١٠,٣٢٨	١,٣٦٩	١,٠٤٥	١,٥١٠	١,٧٠٣	٦٢	٦١	٦٠	٧٠	١٠٤	١١٢	١٢,٧٩١	١٣.٨١٩	٢٦,٦١٠
قضاء حيفا	٦,٥٩٢	٧,٣٤٣	٢٢٠	٢٣٢	٦١٦	٧٤٩	٢١٢	٢٩١	٥	١٠	٥٩	٦٥	٧,٧٠٤	٨,٦٩٠	١٦,٣٩٤
قضاء صفد	٦,٣٠٦	٦,٥٧٦	٩٧	١٢١	٤٨١	٦٣٣	٩٤	٩٩	ـ	ـ	ـ	ـ	٦,٩٧٨	٧,٤٢٩	١٤,٤٠٧
قضاء الناصرة	٣,٤٦٣	٣,٣٨٥	١,٤٠٦	١,٤٥٣	٤٤٢	٤٩٧	ـ	ـ	١٣٩	١٤٩	٦٦٣	٦٩٥	٦,١١٣	٦,١٧٩	١٢,٢٩٢
قضاء طبرية	٢,٥٠٥	٢,٦٥٦	٢٢	٣٢	٨٠	٧٨	٤٠٨	٣٩١	ـ	ـ	٣	٤	٣,٠١٨	٣,١٦١	٦,١٧٩
المجموع	٢٨,٥٥٢	٣٠,٢٨٨	٣,١١٤	٣,٣٨٣	٣,١٢٩	٣,٦٦٠	٧٧٦	٨٤٢	٢٠٤	٢٢٩	٨٢٩	٨٧٦	٣٦,٦٠٤	٣٩,٢٧٨	٧٥,٨٨٢
صنجق البلقاء:															
قضاء نابلس	١٣,٨٠٤	١٦,٩٨٢	٢٨٥	٣٦٧	١٣	٢٢	٤١	٤٢	١١٢	١٣٤	٩٨	١٣٠	١٤,٣٥٣	١٧,٦٧٧	٣٢,٠٣٠
قضاء بني صعب	١٤,٩٦٣	١٦,٣٠٨	٦	٦	ـ	ـ	ـ	ـ	ـ	ـ	ـ	ـ	١٤.٩٦٩	١٦,٣١٤	٣١,٢٨٣
قضاء جماعين	٩,٨٣٧	١١,٤٤٣	ـ	ـ	ـ	ـ	ـ	٣	ـ	ـ	ـ	ـ	٩.٨٣٧	١١,٤٤٦	٢١,٢٨٣
قضاء جنين	١٣,٦٠٩	١٦,٥٧٠	١٥٥	١٥٨	ـ	ـ	ـ	٣	١٣	١٤	٧٩	٧٧	١٣,٨٥٦	١٦.٨٢٢	٣٠.٦٧٨
المجموع	٥٢,٢١٣	٦١,٣٠٣	٤٤٦	٥٣١	١٣	٢٢	٤١	٤٨	١٢٥	١٤٨	١٧٧	٢٠٧	٥٣,٠١٥	٦٢.٢٥٩	١١٥.٢٧٤

المجموع العام لسكان فلسطين: ٤٢٥,٩٦٦

مدينة صفد نفسها. وبهذا يكون شوماخر قد أدخل أعدادهم في لواء عكا بعد الهجرة الكبيرة لهم في العام ١٨٨٢ في إحصاءاته. ويتبين من الجدول التفصيلي لإحصاء شوماخر حيث تُذكر أعداد الطوائف المختلفة في أماكن وجودها، سواء أكانت أحياء المدن أم القرى، أن جميع يهود صفد يسكنون الحارة الغربية فيها، ويوجد منها ٤٠٥ خانات في مدينة طبرية و ٢٠ خانة في قرية حطين.

وإلى جانب تقديرات السالنامه وشوماخر هذه، والتي لا تمثل إحصاءات رسمية، فقد صدر في العام ١٨٩٣ أول إحصاء رسمي شامل قامت به الدولة العثمانية في القرن التاسع عشر[١٧]. ويتبين من هذا عدة أمور حول المجموع العام لسكان فلسطين ونسبة الذكور إلى الاناث والمسلمين إلى غير المسلمين وأعداد الطوائف بين غير المسلمين منهم.

وبإجمال الجدول رقم (٤ ــ ٦) في نقاط رئيسية تتبين لنا الملامح المبينة في الجدول رقم (٤ ــ ٧) عن سكان فلسطين.



قرويون أمام بيتهم

الجدول رقم (٤ ــ ٧)

المنطقة/ الصنجق	الإناث	الذكور	المسلمون	مسيحيون	غير المسلمين		المجموع العام
					يهود	آخرون	
القدس	١١١,٠٧٣	١٢٣,٦٩٧	١٩٩,٦١٣	٢٥,٦٥٠	٨,١١٠	١,٣٩٧	٢٣٤,٧٧٠
عكا	٣٦,٦٠٤	٣٩,٢٧٨	٥٨,٨٤٠	١٥,٤٢٤	١,٦١٨	ــ	٧٥,٨٨٢
البلقاء	٥٣,٠١٥	٦٢,٢٩٩	١١٣,٥١٦	١,٧٠٩	٨٩	ــ	١١٥,٣١٤
المجموع	٢٠٠,٦٩٢	٢٢٥,٢٧٤	٣٧١,٩٦٩	٤٢,٧٨٣	٩,٨١٧	١,٣٩٧	٤٢٥,٩٦٦

يتبين من الجدول رقم (٤ ــ ٧) أن سكان فلسطين في العام ١٨٩٣ قد بلغ مجموعهم ٤٢٥,٩٦٦ نسمة وأن نسبة الإناث هي ٤٧,١ ٪ ونسبة الذكور ٥٢,٩ ٪. وتبلغ نسبة المسلمين منهم ٨٧,٣ ٪ وغير المسلمين ١٢,٧ ٪ ولا ندري إلى أي مدى هذه النسب صحيحة أو غير صحيحة لأنه مما يلفت النظر تدني أعداد اليهود في هذا الإحصاء بصورة كبيرة عما قدّرت في إحصاءات أخرى سابقة. فلا يعقل مثلاً أن تضم صفد ١٩٣ يهودياً فقط وطبرية ٧٩٩ يهودياً، علماً أن هاتين المدينتين كانتا محط أنظار اليهود القادمين إلى فلسطين. كما أن سالنامه عام ١٢٨٨هـ / ١٨٧١ ــ ١٨٧٢م تقدّر السكان اليهود في مدينة صفد بـ ١,١٩٧ خانة أي ما يعادل ٥,٩٨٥ نسمة، وتقدّر عددهم في طبرية بـ ٤٠٠ خانة أي ٢,٠٠٠ نسمة. ويبدو أيضاً بشكل واضح أن هذا الاحصاء الرسمي لعام ١٨٩٣ لم يلحظ إطلاقاً تدفق المهاجرين اليهود إلى فلسطين في أعقاب هجراتهم الكبيرة، وبخاصة بدءاً من العام ١٨٨٢ وتملكهم الأراضي والإقامة في فلسطين. فهل أغمض القائمون بالإحصاء أعينهم عن هؤلاء المهاجرين الكثر أم أنهم اعتبروا دخولهم غير شرعي، والدولة العثمانية في الحالتين لم تقبلهم رسمياً ولكنها لم تخرجهم أو تمنعهم من الدخول. وإذا كان في هذا الإحصاء الرسمي من دلالة وأهمية فإنه يشير إلى أن اليهود المحليين المسجلين قانونياً في العام ١٨٩٣ يبلغ عددهم ٩,٨١٧ نسمة ويشكلون بذلك ٢,٣٠ ٪ من مجموع سكان فلسطين آنذاك. ولكن تتالي الهجرات غير القانونية رفعهم

إلى نسب أكبر من ذلك بكثير.

وإذا ما قارنّا الإحصاء الرسمي هذا مع إحصاء شوماخر، بالنسبة إلى لواء عكا، وجدنا أن مجموع سكان لواء عكا في إحصاء شوماخر للعام ١٨٨٦ قد بلغ ١٥٤,٣٤٠ شخصاً، في حين أنه يبلغ في الإحصاء الرسمي ٧٥,٨٨٢ شخصاً. ونظراً لأن شوماخر أشرف بنفسه على إحصاء لواء عكا وتوخّى فيه الدقة، فمن غير المعقول أن يكون سكان هذا اللواء في إحصاء العام ١٨٩٣ أقل من نصف ما كانوا عليه في إحصاء العام ١٨٨٦. ونعتقد أن الاحصاء الرسمي العثماني للعام ١٨٩٣، بالنسبة للواءء عكا على الأقل، مبني على الاحصاء الوارد في سالنامه عام ١٢٨٨هـ / ١٨٧١ ــ ١٨٧٢م المذكور آنفاً، والذي قدّر سكان لواء عكا بـ ٧٤,١٠٥ نسمات في حين جعلهم الإحصاء بعد عشرين سنة ونيف ٧٥,٨٨٢ نسمة. ولكن الإحصاء الرسمي هذا يقدر سكان لواء القدس بـ ٢٣٤,٧٧٠ نسمة في حين ان سالنامه عام ١٢٨٨هـ / ١٨٧١ ــ ١٨٧٢م تقدرهم بـ ١٥٥,٥٣٥ نسمة، وفي هذا أيضاً فارق عكسي كبير.

وإزاء هذه المآخذ وغيرها على الإحصاء العثماني الرسمي للعام ١٨٩٣ يبدو الإحصاء الذي أوردته سالنامه ولاية بيروت للعام ١٣١١هـ / ١٨٩٣ ــ ١٨٩٤م، أكثر توازناً من حيث توزع السكان بحسب الطوائف ومن حيث أعدادهم في كل لواء في فلسطين. وربما كان هو الإحصاء الرسمي العثماني نفسه بعد أن أُدخلت عليه تعديلات جذرية ليكون أكثر صحة. ولكن هذه السالنامه التي تقتصر على ولاية بيروت لا تورد سكان لواء القدس الذي أصبح له كيان خاص مرتبط بمركز الدولة. ومع ذلك يمكن إجراء المقارنة بين إحصاءات هذه السالنامه والإحصاءات الواردة سابقاً.

الجدول رقم (٤ ــ ٨)

سالنامه ١٣١١هـ / ١٨٩٣ ــ ١٨٩٤م

طوائف السكان	سكان لواء عكا: الذكور	سكان لواء عكا: الإناث	المجموع	سكان قضاء عكا: الذكور	سكان قضاء عكا: الإناث	المجموع
مسلمون	٣٠,٦١٩	٢٨,٨١٠	٥٩,٤٢٩	١٠,٣٦٦	٩,٦٩٨	٢٠,٠٦٤
روم أرثوذكس	٣,٤٢٥	٣,١٤٧	٦,٥٧٢	١,٦٤٥	١,٤٧٢	٣,١١٧
روم كاثوليك	٣,٣٨٠	٢,٩٠٧	٦,٢٨٧	١,٥٣٥	١,٣٨٠	٢,٩١٥
موارنة	٦٩٧	٦١٩	١,٣١٦	٤٨	٤٥	٩٣
لاتين	٨٠٥	٧٨٨	١,٥٩٣	١١٢	١٠٤	٢١٦
بروتستانت	٢٠٥	١٨٦	٣٩١	٧٠	٦٠	١٣٠
يهود	٤,٦٦٩	٤,٣٥٢	٩,٠٢١	٢٦١	٢١٢	٤٧٣
المجموع	٤٣,٨٠٠	٤٠,٨٠٩	٨٤,٦٠٩	١٤,٠٣٧	١٢,٩٧١	٢٧,٠٠٨
طوائف السكان	سكان قضاء حيفا		المجموع	سكان قضاء صفد		المجموع
مسلمون	٧,٦٩٢	٦,٨٣٦	١٤,٥٢٨	٧,١٧٧	٦,٧٩٤	١٣,٩٧١
روم كاثوليك	٦٥٠	٥٣٨	١,١٨٨	٦٢١	٤٧٢	١,٠٩٣
روم أرثوذكس	٢٣٢	٢٢٠	٤٥٢	١٣١	١٠٧	٢٣٨
موارنة	٩٩	٧٨	١٧٧	٤١٠	٣٨٧	٧٩٧
لاتين	٦٥	٥٩	١٢٤	—	—	—
بروتستانت	١٠	٥	١٥	—	—	—
يهود	٦١٢	٤٤٠	١,٠٥٢	٢,٦١٤	٢,٦٠٠	٥,٢١٤
المجموع	٩,٣٦٠	٨,١٧٦	١٧,٥٣٦	١٠,٩٥٣	١٠,٣٦٠	٢١,٣١٣

تابع الجدول رقم (٤ ـ ٨)

طوائف السكان	سكان قضاء الناصرة		المجموع	سكان قضاء طبرية		المجموع
	الذكور	الإناث		الذكور	الإناث	
مسلمون	٣,٢٦٩	٣,٣٥٠	٦,٦١٩	٢,٢٢٤	٢,١٢٧	٤,٣٥١
روم أرثوذكس	١,٤٩٥	١,٤١٨	٢,٩١٣	٣٢	٢٢	٥٤
روم	٣٨٦	٣٤٥	٧٣١	٧٨	٨٠	١٥٨
موارنة	١٤٠	١٠٩	٢٤٩	—	—	—
بروتستانت	١٢٥	١٢١	٢٤٦	—	—	—
لاتين	٦٢٤	٦٢٢	١,٢٤٦	٤	٣	٧
يهود	—	—	—	١,١٨٢	١,١٠٠	٢,٢٨٢
المجموع		٥,٩٦٥	١٢,٠٠٤	٣,٥٢٠	٣,٣٣٢	٦,٨٥٢

طوائف السكان	سكان لواء نابلس		المجموع	سكان قضاء نابلس		المجموع
مسلمون	٦٣,٥٩٧	٥٣,٩٤٢	١١٧,٥٣٩	١٧,٦٧٧	١٤,٣٥٣	٣٢,٠٣٠
روم أرثوذكس	٥٦٣	٤٤٦	١,٠٠٩	٣٥٩	٢٨٥	٦٤٤
روم كاثوليك	١٨	١٣	٣١	١٨	١٣	٣١
لاتين	١٩١	١٧٧	٣٦٨	١١٤	٩٨	٢١٢
بروتستانت	١٨٣	١٢٥	٣٠٨	١٦٩	١١٢	٢٨١
يهود	٣٧	٤١	٧٨	٣٤	٤١	٧٥
سامريون	٩٥	٧١	١٦٦	٩٥	٧١	١٦٦
أجانب	٥٠٤	٣٢٧	٨٣١	—	—	—
المجموع	٦٥,١٨٨	٥٥,١٤٢	١٢٠,٣٣٠	١٨,٤٦٦	١٤,٩٧٣	٣٣,٤٣٩

طوائف السكان	سكان قضاء بني صعب		المجموع	سكان قضاء جاعين		المجموع
مسلمون	١٦,٣١٤	١٤,٩٦٩	٣١,٢٨٣	١١,٤٣٣	٩,٨١٨	٢١,٢٥١
روم أرثوذكس	٦	٦	١٢	—	—	—
المجموع	١٦,٣٢٠	١٤,٩٧٥	٣١,٢٩٥	١١,٤٣٣	٩,٨١٨	٢١,٢٥١

سكان قضاء جنين

طوائف السكان	ذكـور	إنـاث	المجموع
مسلمون	١٨,١٧٣	١٤,٨٠٢	٣٢,٩٧٥
روم أرثوذكس	١٩٨	١٥٥	٣٥٣
لاتين	٧٧	٧٩	١٥٦
بروتستانت	١٤	١٣	٢٧
يهود	٣	—	٣
المجموع	١٨,٤٦٥	١٥,٠٤٩	٣٣,٥١٤

يُلاحظ من الجدول رقم (٤ ـ ٨) أن مجموع سكان لواء عكا يبلغ ٨٤,٦٠٩ نسمات (أو ٤٨,٧١٣ نسمة بحسب مفردات سكان الأقضية) كما ورد في سالنامه ١٣١١هـ / ١٨٩٣ ـ ١٨٩٤م في حين أن مجموعهم في الإحصاء العثماني الرسمي للعام ١٨٩٣م يبلغ ٧٥,٨٨٢ نسمة، أي بزيادة حوالي تسعة آلاف خلال سنة أو نحو ذلك. وهذا التباين في أعداد السكان في فترات قصيرة جداً قد يكون دليلاً على التخبط في تنظيم الإحصاء وبالتالي على المحاولات المتابعة لتصحيح التقديرات السكانية.

ويلاحظ كذلك أن أعداد اليهود في لواء عكا في سالنامه العام ١٣١١هـ (٩,٠٢١ شخصاً) هي أقرب إلى الواقع من أعدادهم التي قدّرها الإحصاء العثماني الرسمي والبالغة ١,٦١٨ شخصاً فقط. وبمقارنة أعدادهم في هذه السالنامه مع أعدادهم، قبل حوالي سبع سنوات، في إحصاء شوماخر (١٨٨٦م) يتبين لنا أن أعدادهم كانت أكثر في إحصاء شوماخر، إذ تبلغ ١٥,٨٣٠ شخصاً، وربما كان هذا الأقرب إلى الصواب بالاستناد إلى واقع هجراتهم آنذاك.

وإلى جانب التنوع الديني الذي كان عليه سكان فلسطين كان هناك تنوع في أصول السكان وفي الأماكن التي قدموا منها. ففلسطين بحكم أهميتها الدينية، وموقعها على مقربة من البادية، التي تفد إليها القبائل البدوية من الجزيرة العربية، وعلى الطريق التجارية التي تربط الشام بمصر، ومحاذاتها لطريق الحج التي تسلكها قافلة الحج الشامي بين دمشق والحجاز والتي مرّ فيها أحياناً (الطريق الغزاوي)، وكذلك بانفتاحها على المتوسط وكونها جزءاً من امبراطورية عثمانية مترامية الأطراف، جذبت إليها، على مر العصور، أقواماً متعددين سرعان ما اندمجوا وتأقلموا مع غيرهم فيها. وشهد القرن التاسع عشر عدة هجرات سكانية إلى فلسطين بعضها سببه سياسي كهجرة المغاربة وهجرة الشراكسة إليها في أعقاب احتلال الأوروبيين لبلادهم، وبعضها سببه ديني، للمجاورة، أو اقتصادي، كما أن أعداداً من الأقوام الأغراب أتت للخدمة العسكرية في فلسطين فاستقرت فيها.

فقد ذكر الرحالة بوركهاردت الذي زار فلسطين في العام ١٨١٢م أن والي عكا أحمد باشا الجزار قد أقام حامية من الجنود المغاربة في صفد وأن معظم أفرادها تزوجوا من السكان المحليين ويعملون في زراعة الأراضي المجاورة لصفد. وحين زيارته طبرية ذكر أن الجزار أقام فيها طائفة من مائتي عسكري أفغاني وكان بعض هؤلاء من سُكّان كشمير، وبعد موت الجزار في العام ١٨٠٤م تفرق أفراد هذه الطائفة في سوريا. ويقول بوركهاردت انه التقى في طبرية اثنين من هؤلاء الكشميريين فتحدثا إليه عن جماعتهما بلغة عربية ركيكة[١٨].

وقد أتى المغاربة إلى فلسطين وبلاد الشام بعامة بأعداد كبيرة منذ القرن الثامن عشر حين استخدموا كقوات عسكرية لدى ولاة الدولة العثمانية ولدى الثائرين عليها على حد سواء. فقد استخدم ظاهر العمر عدداً من هؤلاء الجنود لديه مثلما استخدمهم أعداؤه من ولاة الشام وحلفاؤه مماليك مصر. واستُخدم المغاربة آنذاك أيضاً كحراس في أسواق المدن وفي المزارع. وكانت لهم تنظيماتهم الخاصة. فقد ذُكر مثلاً أنه وجد بين المغاربة في دمشق في القرن الثامن عشر سبع طوائف هي الفاسية، والجزايرية، والسوسية، والتونسية، والطرابلسية، والدراوية(*)، والمراكشية، ولكل منها شيخ مسؤول أمام شيخ المشايخ[١٩]. وأتى المغاربة أيضاً بهدف مجاورة الأماكن الدينية وللتعلم والتعليم الديني بصفتهم مالكية، وقدومهم لهذه الغاية قديم قدم انتشار العروبة والإسلام في بلادهم، ويتجلى بالجوامع والزوايا التي تحمل أسماءهم في بلدان المشرق العربي.

وفي القرن التاسع عشر قدمت جاليات مغربية بأعداد كبيرة إلى فلسطين وغيرها من بلاد الشام، وذلك في أوقات مختلفة، كما جرى مثلاً إثر احتلال فرنسا للجزائر في العام ١٨٣٠م. وقد ذُكر أن وجود المغاربة في مدينة الرملة يعود بدؤه إلى فترة احتلال فرنسا للجزائر[٢٠]. كما أن جاليات مغربية أخرى قدمت إلى فلسطين بعد ذلك، في أعقاب قضاء فرنسا على الثورات المتعددة التي نشبت ضدها في الجزائر. وقد ذكر الرحالة الفرنسي فوغيه في العام ١٨٧٢م أن هناك حياً للمغاربة في صفد وأن جالية مغربية أتت إليها من الجزائر قبل حوالي اثني عشر عاماً في أعقاب ثورة في الجزائر[٢١]. وفي أوائل القرن العشرين ذُكر أن المغاربة يشكلون حوالي نصف السكان المسلمين في صفد[٢٢].

ونظراً لكثرة المغاربة القادمين من الجزائر إلى فلسطين، بعد احتلال فرنسا الجزائر، كانت تحدث الخلافات بينهم وبين السلطات العثمانية والممثلين الفرنسيين في فلسطين وغيرها حول مطالبة هؤلاء الأخيرين بحق حمايتهم بحجة أنهم من رعايا الجزائر التي يحتلونها[٢٣].

ويقيم المغاربة في أحياء خاصة بهم تُنسب إليهم مثل حي

(*) لعل التسمية تحريف لكلمة «الدرناوية» بالنسبة إلى منطقة «درنة» في برقة (وبخاصة لأنها مسبوقة بكلمة «الطرابلسية»)، أو انها تدل على منطقة «درا» (وادي درا) في المغرب كما يشير قاموس لاروس.

المغاربة في القدس وفي غيرها. وكانت لهم زوايا خاصة بهم مثل زاوية المغاربة بمحلة البرجلية[٢٤] في غزّة وخانات خاصة بهم أيضاً. وقد ذُكر أن الجالية المغربية في مدينة الرملة كانت تصلي في الجامع الكبير فيها ولكنها في العام ١٨٩١م رممت جامع الشيخ رسلان للصلاة فيه. وكانت لهذه الجالية لغتها القبلية، كما تزاوجت مع المصريين والطبقات المحلية الفقيرة[٢٥].

وكان المغاربة القادمون إلى فلسطين عادة من المسلمين، ولكن وجد بينهم يهود مغاربة هاجروا إلى فلسطين لأهداف أخرى. فقد ذُكر أن جالية من ثلاثين أسرة يهودية مغربية من مراكش هاجرت، أو بالأحرى هُجِّرت، إلى فلسطين في العام ١٨٥٠ وسكنت قرية شفا عمرو في الجليل الأدنى. وبدأ هؤلاء المستوطنون من اليهود، ومعظمهم من الفلاحين، بزراعة الحبوب والزيتون، ولكنهم بعد بضع سنوات انسحبوا بالتدريج إلى ميناء حيفا حيث عملوا وأبناءهم في التجارة شأنهم شأن اليهود الآخرين[٢٦]. أما لماذا هُجّرت هذه الطائفة إلى فلسطين فيعود إلى تخطيط بين اليهود ومؤيديهم من كبار الموظفين البريطانيين يقضي بأن فلسطين يجب أن تُستوطن من قِبل اليهود وأن اليهود المراكشيين الذين كانوا عمالاً ممتازين في جبل طارق يجب إقناعهم بالهجرة إلى فلسطين لإعمارها والسيطرة عليها. وكان تهجير هذه الجماعة اليهودية المراكشية إلى شفا عمرو جزءاً من هذا المخطط، ولكنه فشل بتحول أبنائها من الزراعة إلى التجارة.

ووجِد في فلسطين مسلمون من عدة شعوب آسيوية مثل الفرس والأفغان والهنود والبلوش، ومعظمهم من التجار الذين يتعاطون بيع السجاد والأدوات الفولاذية إما على أطراف الشوارع أو في دكاكين صغيرة، وقلّما أتقنوا اللغة العربية. ووجد أيضاً العبيد، ويرأسهم شيخهم، ويعملون في البساتين أو كبوّابين، وهم من المناطق الأفريقية الواقعة شمال خط الاستواء. وجَاء آخرون من دارفور، وتكرور ويُعرفون بالتكارنة. وكان البعض الآخر من بقايا حركة تحرير العبيد. وأتى بعضهم الآخر مع قوافل الحج الشامي. وهم في الغالب متمسكون بدينهم الإسلامي وبأخلاقهم، ولهم ملابسهم وعاداتهم الاجتماعية الخاصة بهم[٢٧].

وكانت أكبر الجاليات العربية في فلسطين، من خارج بلاد الشام، هي الجالية المصرية نظراً للعلاقات الاقتصادية التي تربط فلسطين بمصر، براً وبحراً، وسهولة انتقال السكان بين البلدين. ومن الطبيعي أن يتكاثر المصريون في الموانىء وأكثر من ذلك في المناطق الجنوبية من فلسطين، وبخاصة منطقة غزة. وكان لاحتلال محمد علي باشا بلاد الشام (١٨٣١ ـ ١٨٤٠م) أثر كبير في قدوم جاليات سكانية مصرية إلى بلاد الشام، وبخاصة فلسطين. وقد سبقت الإشارة إلى هجرة جماعة من قبيلة الهنادي المصرية إلى فلسطين حيث كان لها دور هام بزعامة زعيمها عقيل في عهد إبراهيم باشا والعثمانيين من بعده. وقد ذُكر أيضاً، في أوائل القرن العشرين، أن سكان يافا يتألفون من خمس وعشرين جنسية وأن المصريين يشكلون الأكثرية بينهم بعد السكان الفلسطينيين العرب[٢٨].

وكان قضاء غزة، بصورة خاصة، بمدنه وقراه وريفه، يغصّ بالمصريين المقيمين فيه، حتى ان قرى بكاملها تقتصر عليهم. وخير مصدر لمعرفة ذلك سجلات المحاكم الشرعية في مدن فلسطين التي تعج بالقضايا العائدة للمصريين وتشير إلى أعمالهم، واهتماماتهم، وعلاقاتهم مع السكان المحليين، وتملّكهم العقارات، وأماكن سكنهم، في الأرياف والمدن، واختلاطهم بالزواج فيما بينهم، ومع السكان المحليين. وكان لوجود المصريين أثره أيضاً في نشر الكثير من العادات والتعابير المصرية. ونذكر، على سبيل المثال، استعمال كلمة خطّة المصرية في قضاء غزة، وبصورة أقل في غيرها، للدلالة على الشارع، فقد قُسمت محلات (أحياء) غزة إلى عدد من الخطط سمّيت بأسماء فعاليات اقتصادية أو دينية فيها، أو نُسبت إلى أولياء كالقول: خط سوق الغزل، وخط الجامع الكبير، وخط ولي الله السيد علي المغربي[٢٩].

وقد توطن المصريون في المدن والأرياف، وغالباً ما عملوا في الزراعة أو كجمّالة ينقلون البضائع بين مدن فلسطين لمعرفتهم بالطرق وعدم خشيتهم قطّاعها. وقد ذُكر عن المصريين في منطقة الرملة أنهم يعنون بأراضيهم الزراعية في الصيف والخريف، ويقومون في فصل الشتاء بنقل البضائع بين يافا والقدس[٣٠].

ومن القرى التي سكنها المصريون في ريف غزة، مثلاً، زرنوقة، وخان يونس، ودير البلح، ويبنة (يبنى)، وجولس. وأُشير إلى المصريين في هذه القرى بأنهم من نزالها، وعُرف الواحد منهم بلقب المصري، ومن هنا تسهل عملية تسقّط أخبارهم وفعالياتهم في سجلات المحاكم الشرعية[٣١]. كما أن المصريين، بالرغم من سكن بعضهم حوالي سبعين سنة في فلسطين، غالباً ما احتفظوا بأزيائهم المصرية وعاداتهم الاجتماعية بوجه خاص. وكانت حياتهم، بصورة عامة، أكثر هدوءاً وأقل شغباً من غيرهم[٣٢].

وقد وردت إلى فلسطين، وبلاد الشام، بعامة، في الربع الأخير من القرن التاسع عشر، جماعات كثيرة من الشركس

بفروعهم القبلية من روسيا في أعقاب الحرب الروسية ــ التركية عام ١٨٧٧ ــ ١٨٧٨م وطرد روسيا القيصرية لهم. وقُدّر هؤلاء المهاجرون بحوالي ثلاثين ألفاً أسكنتهم الدولة العثمانية في مناطق الحدود الشامية المتاخمة للبادية. وأفادت منهم كحاميات عسكرية لصد هجمات البدو على المناطق الزراعية والمأهولة. وعمل الشراكسة من ناحيتهم في الزراعة في أراضي الدولة فأحيوا مناطق كانت مهملة وأسهموا في النمو الاقتصادي العام.

ويصف الرحالة الفرنسي شارم(٣٣)، الذي زار فلسطين في العام ١٨٨٠م، أي بعيد وصول الشراكسة إليها بقليل، أولئك الذين أسكنتهم الدولة في خان متهدم يُعرف بخان السوق أو خان التجار يقع بين الناصرة وطبرية. وكانت تعقد في هذا المكان، كالسابق سوق أسبوعية كل يوم اثنين يقصدها البدو لبيع الخيول وشراء الحاجيات(٣٤). وقد وجد الشراكسة في هذه المنطقة الهضبية ما يشابه مناطقهم الأصلية، وامتهنوا، كالسابق، تربية الجياد إلى جانب الزراعة. ولكن الرحالة شارم يقول إن المناخ الجديد كان يؤثر عليهم ويقضي على بعضهم، كما أن السكان المحليين لم يرحبوا بهم.

وتورد سالنامه ولاية سوريا للعام ١٢٩٩هـ / ١٨٨١ ــ ١٨٨٢م قائمة بأسماء الألوية والأقضية والقصبات والقرى التي أقام فيها المهاجرون الشراكسة إلى بلاد الشام، وأسماء قبائلهم وأعدادهم. ويبين الجدول رقم(٤ ــ ٩) من أقام منهم في لواءي عكا والبلقاء، وقد أبقينا الأسماء كما وردت في السالنامه.

ويتبين لنا من الجدول رقم (٤ ــ ٩) أن معظم المهاجرين من شراكسة ومن روميلية أُسكنوا في المناطق الشمالية من فلسطين، مثلما أُسكن آخرون في المنطقة الممتدة بين منبج والجولان، في بلاد الشام، وأن أكثريتهم سكنت قضاءي طبرية وحيفا، كما ان قبيلتين رئيسيتين هما: أبازاخ وجابساخ شكّلتا الأكثرية الساحقة بين القادمين الشراكسة إلى فلسطين بنسبة تقرب من ٩٠٪، في حين أن جميع الشراكسة الذين أقاموا في قضاءي حماة وحمص أيضاً كانوا من قبيلة بزاروخ. ويدل هذا على الترابط القبلي والهجرة المنسجمة. ويلاحظ أن حوالي ٧٧٪ من قبيلة جابساخ أقامت في قرية كفركما مثلما أقام ٨٦٪ من قبيلة أبازاخ في قرية غابة. ويلاحظ كذلك أن الخانة المذكورة بالنسبة لهؤلاء المهاجرين الشراكسة ليس لها من قيمة ثابتة ويبلغ وسطيّها في المجموع العام حوالي ٢,٤٠ نسمة وهو أقل من الوسطي(٥) المتعارف عليه في السالنامه ذاتها بالنسبة للخيمة أو البيت في العشيرة البدوية. وربما كان تفسير ذلك أن هجرة الأفراد الشباب في الأسرة، من إناث وذكور، قد تمت أولاً. كما أن ارتفاع نسبة الذكور إلى الإناث، بين القبائل الشركسية القادمة، بشكل غير عادي، كما يظهر الجدول، يدل على أن العنصر المحارب من الذكور، خلال السنة الأولى أو السنتين الأوليين من الهجرة، كانت له الأولوية ريثما يستتب لهم الأمر وتُستكمل أسباب الهجرة لبقية أفراد العائلة. أو ربما كانت هذه النسب من السكان هي التي قُدّر لها أن يُحافَظ عليها. ولعل حجب النساء له تأثيره أيضاً في عدم معرفة عددهن الحقيقي.

ونلاحظ أيضاً في الجدول نفسه أن مجموع المهاجرين البالغ ١,٢٧٠ شخصاً قد توزع على خمس قرى. وبالرجوع إلى قوائم شوماخر بعد حوالي خمس سنوات نجد توزع الشراكسة في لواء عكا كما هو مبين على الصفحة التالية.

الجدول رقم (٤ ــ ٩)

أنواع قبائل الشراكسة وأماكن إقامتها

اللواء	القضاء	القصبة أو القرية	اسم القبيلة		وعدد أفرادها بالخانة		حانقوي	أبازاخ	مجموع الخانات	مجموع السكان		المجموع العام
			روميلية(؟)	نوغين	أبوخ	جابساخ				إناث	ذكور	
عكا	صفد	ريحانية	١٣	ـ	١	١٧	ـ	٤٠	٧١	٨٩	٩١	١٨٠
عكا	طبرية	كفركما	ـ	ـ	٣	١٦٥	٧	٩	١٨٤	٢٠٨	٢٤١	٤٤٩
عكا	حيفا	غابة	ـ	ـ	ـ	٣٢	ـ	١٦٧	١٩٩	١٤٥	٢٥١	٣٩٦
بلقاء	سلط	عمان	ـ	ـ	ـ	ـ	ـ	٤٣	٤٣	٧٣	٩٠	١٦٣
بلقاء	جنين	جبول	ـ	٣٢	ـ	ـ	ـ	ـ	٣٢	٣٥	٤٧	٨٢
المجموع			١٣	٣٢	٤	٢١٤	٧	٢٥٩	٥٢٩	٥٥٠	٧٢٠	١,٢٧٠

الجدول رقم (٤ ــ ١٠)

القضاء	القرية	عدد الخانات	عدد السكان
صفد	ريحانية	٨٩	٤٤٥
طبرية	كفركما	٢٣٠	١,١٥٠
حيفا	(؟)	٢٦	١٣٠
المجموع		٣٤٥	١,٧٢٥

ونستدل من قائمة شوماخر في أعلاه أن قرية ريحانية التي كان فيها عام ١٨٨١ ــ ١٨٨٢م ما مجموعه ١٨٠ شخصاً من المهاجرين الشراكسة قد اقتصرت بكاملها عليهم بعد حوالي خمس سنوات، وأن هؤلاء ازداد عددهم إلى ٤٤٥ شخصاً، وينطبق الأمر نفسه على قرية كفركما إذ ارتفع عدد الشراكسة فيها من ٤٤٩ شخصاً إلى ١,١٥٠ شخصاً، واقتصرت القرية كلها عليهم كما يبدو من الإحصاء. وهذا يعني أن الشراكسة إما أنهم أسكنوا في قرى خربة أو أن السكان المحليين كانوا قلة فيها ثم هجروها لصالح الشراكسة، بدليل أن الرحالة شارم الذي زار فلسطين في العام ١٨٨٠م ذكر أن هناك عداء بين السكان المحليين والقادمين الشراكسة. وبالنسبة لقرية غابة فإن قوائم شوماخر عن قضاء حيفا لا تضم قرية بهذا الاسم، كما لم تذكر فيها قرية فيها سكان شراكسة ولكن الشراكسة ذكروا كتجمع سكاني إلى جانب البشناق، وكل فئة قائمة بذاتها. ويضم تجمع الشراكسة ٢٦ خانة أي ١٣٠ شخصاً وتجمّع البشناق ٥٣ خانة أي ٢٦٥ شخصاً.

وهناك أيضاً جاليات أوروبية وأمريكية مسيحية أو تحت النفوذ اليهودي حاولت الاستقرار في فلسطين وشراء الأراضي والعمل في مستعمرات زراعية. ومن أقدم هذه الجاليات الجالية الأمريكية التي رحلت إلى يافا في ٢٢ أيلول/سبتمبر ١٨٦٦م، وكان عدد أفرادها ١٢٢ شخصاً منهم ٤٠ رجلاً و٢٣ امرأة و٦٩ ولداً معظمهم من ولاية مين Maine، وقد رفض والي القدس عزة باشا السماح لهذه الجالية بشراء الأراضي في منطقة يافا والرملة، ولكن القنصل الأمريكي في القدس طلب بقاءهم بحكم المعاهدات والاتفاقيات بين البلدين واعتبارهم مجرد أفراد. وقد حدث خلاف بين القنصل الأمريكي ورئيس الجالية السيد آدامز Adams بسبب إغراء هذا الأخير الأسر الأمريكية التي باعت أملاكها في أمريكا وتبعته إلى فلسطين، وأيضاً بسبب طموحاته بالحصول على ثلاثة ملايين هكتار (الهكتار = ١٠ آلاف م^2) من الأرض، وادعائه أنه يشوع الذي انتقاه الله ليأخذ شعبه المختار إلى أرض الميعاد أي فلسطين. ونظراً لهذا الخلاف، ورفض الوالي العثماني السماح للجالية الأمريكية بشراء الأراضي، والانقسامات التي دبت داخلها، انفرط عقد الجالية، ولم يبق منها في نيسان/أبريل ١٨٦٧م سوى عشرين شخصاً بعد أن عاد معظمهم إلى بلده الأصلي[٣٥]. وحدثت محاولات أُخرى فيما بعد لتجديد هذه المستوطنة ولكنها فشلت.

والجالية الأجنبية الأخرى التي قدمت إلى فلسطين كانت من الألمان، وينتمي أفرادها إلى تنظيم خاص عُرف أحياناً باسم جمعية المعبد Temple Society أو المعبديون Templars والإشارة هنا إلى معبد القدس. وتُسمّى الجمعية كذلك جمعية الاستعمار الألماني، وهدفها الأساسي استعمار فلسطين من قبل الألمان أو غيرهم، وهدفها الديني إعادة تأسيس المعبد في فلسطين استعداداً لعودة المسيح. وكانت تتستّر وراء شعارات إعادة إغناء التربة وإقامة مستعمرات زراعية وتجارية تستوعب في النهاية جميع الفعاليات في فلسطين.

وقد أُسست هذه الجمعية، في الأصل، قرب فرتمبرغ Wurtemberg في ألمانيا حوالي العام ١٨٦٥م. وازداد أعضاؤها بسرعة وأصبح لها فروع في الدويلات الألمانية والولايات المتحدة الأمريكية وانكلترا وروسيا والسويد. وتتمركز السلطة فيها في لجنة تتألف من رجال دين وشيوخ وتجار ينتخبهم الأعضاء، وتمتع هؤلاء برأسمال كبير وظّفوه في إقامة المدارس لتعليم أبنائهم وفي منح القروض لمن يرغب منهم في الهجرة إلى فلسطين. ويعلّق القنصل الأمريكي في القدس أن مهمتهم صعبة في فلسطين ولا يشجّع منهم على المجيء إليها سوى أولئك المؤمنين بالكتب الدينية والذين هدفهم إقامة المعبد وعودة المسيح. وهم يعتقدون أن أوروبا والعالم يزدادان انحلالاً في الأخلاق والتعبد، وأنهم اختيروا لبناء نظام جديد للعالم بإقامة مستعمرة أو معبد في فلسطين يرسلون منه المبشرين إلى أنحاء العالم.

وقد أقام المعبديون هؤلاء مستوطنتين رئيسيتين في فلسطين: الواحدة في يافا والأخرى في حيفا عام ١٨٦٨م، ومستوطنتين أخريين أقل شأناً في سارونا شمال يافا وفي القدس في أوائل السبعينات. وكانت هذه المستوطنات تتألف من حرفيين متنوعين بهدف إبراز مجتمع متكامل أجنبي قادر على استغلال الأرض بطريقته وتخطيطه[٣٦]. وقدّر القنصل الأمريكي عدد المعبديين في فلسطين في العام ١٨٧١م بأنه لا يتجاوز أربعمائة شخص نصفهم في حيفا والنصف الآخر في يافا والقدس.

وبنى المعبديون لأنفسهم في مستوطنة حيفا بيوتاً مريحة ذات حدائق، وخططوا لقرية عند سفح جبل الكرمل. وكان يرعاهم امبراطور ألمانيا، كما حصل لهم السفير البروسي في استانبول عام

١٨٧٠م على موافقة الحكومة العثمانية على منحهم حوالي ٢,٠٠٠ فدان (حوالي ثمانية ملايين متر مربع) من الأراضي الأميرية بجوار جبل الكرمل. ويعلق القنصل الأمريكي على ذلك بقوله ان هذه منحة هامة، وانه لا يمكن لأية دولة سوى ألمانيا الحصول على مثل هذا الامتياز[٣٧].

وبلغ سكان مستوطنة يافا في العام ١٨٧٥ مائتي نسمة. يستثمرون منطقة تُقدر مساحتها بأربعمائة فدان في حين بلغ سكان مستوطنة حيفا ثلاثمائة شخص يستثمرون سبعمائة فدان. وكان أفراد المستوطنتين يطمحون إلى استعمار فلسطين بكاملها والسيطرة على القدس. وقد وصفوا بأنهم منقسمون على أنفسهم، وبدون قيادة كفء، وبأنهم استهجنوا من قبل غيرهم بادعائهم أنهم يمثلون إسرائيل الحقيقية. ولم يستطع هؤلاء المستوطنون إقامة علاقات ودية مع السكان المحليين بسبب احتقارهم لهؤلاء الأخيرين، كما أنهم لم يستطيعوا الحصول على صكوك تملّك الأراضي التي أقاموا فيها بسبب معارضة الدولة لذلك. ولهذه الأسباب، ولأسباب أُخرى، منها عوزهم المالي فيما بعد، وفتك الأمراض بهم، والفردية التي طغت عليهم، واختلاطهم بغيرهم بالزواج فقد بقوا معزولين ومحدودي النشاط بالرغم من استمرارهم حتى أوائل القرن العشرين. وعندما زار الامبراطور الألماني فلهلم (غليوم) Wilhelm II وزوجته حيفا في ٢٥ تشرين الأول/أكتوبر ١٨٩٨[٣٨] أُعدّ لهما استقبال في المستوطنة الألمانية التي تقع على بعد نصف ميل غربي حيفا. وقد وعد الامبراطور الألمان في حيفا أنه سيعهد إلى ملك فرتمبرغ أن يعاونهم ويقضي لهم ما يلتمسون[٣٩].

وقد عقدت مقارنة بين مستوطنة المعبديين في القدس والمستعمرات اليهودية وتبين أن هناك قاسماً مشتركاً بينها وهو فقر معظم سكان هذين النوعين من المستعمرات. ولكن المستوطنين



الامبراطور غليوم الثاني يتفقد مسجد الصخرة

الألمان لم يتلقوا مساعدات كتلك التي تلقاها اليهود، ومع ذلك تمكنوا بجدهم وحيويتهم من بناء بيوت مريحة وزراعة البساتين، وجعلوا بالتالي مستعمراتهم نظيفة ومزدهرة وجميلة، في حين أن مستعمرات اليهود وسخة وبيوتها مهملة وأرضها غير مستغَلّة[٤٠]. وقد حاول بعض المستوطنين اليهود والمخططين لهم العمل في الزراعة لعلمهم أن ثروة فلسطين تقوم على الزراعة ومنتجاتها، وأن أي مورد لهم سيكون عن طريقها، ولكن اليهود فشلوا في ذلك، وظلت أكثريتهم تعيش في المدن وعلى الهبات التي تردهم من أوروبا وأمريكا إلى أن تكاثرت أعدادهم وأقحموا أنفسهم في العمل الزراعي برؤوس مال من آل روتشيلد وغيرهم.

إن سكن هؤلاء المهاجرين والمستوطنين الأوروبيين والأمريكيين ومنهم اليهود، في مناطق معينة وفي مستعمرات زراعية أو تجمّعهم في مدن وقرى وأحياء بعينها أبقاهم على هامش المجتمع الفلسطيني لأنهم زجّوا بأنفسهم في مجتمع غريب عنهم وبقوا تكتلات هامشية بدون جذور محلية. لهذا تلاشى بعضهم وانقرض في حين احتاج البعض الآخر، مثل المهاجرين والمستوطنين اليهود، إلى استمرار الدعم الخارجي، بشرياً ومالياً، لفك عزلتهم ومحاولة إقامة جذور محلية لهم[٤١]. هذا في حين اندمج المهاجرون من أفراد وجاليات عربية أو إسلامية إلى فلسطين، بالتدريج، في المجتمع من حولهم عن طريق التزاوج والاختلاط السكني والعمل.

وإذا ما نظرنا إلى المجتمع الفلسطيني المحلي نظرة إجمالية وجدنا فيه ثلاث فئات رئيسية هي: سكان المدن وسكان القرى أو الفلاحون، والبدو. وتوجد بين أفراد الفئة الواحدة وشائج وثيقة من التعايش والمصالح المشتركة كما توجد بين الفئة والأخرى علاقات متبادلة تفرضها القربى وضرورات التعايش والتكامل الاقتصادي.

يُعرف سكان المدن بالبلديين، وبالرغم من وجود أجناس وطوائف متعددة بينهم، يعيش بعضها في أحياء خاصة بهم، فقد تعايشوا واندمجوا في الأعم الأغلب، وذلك قبل وصول الهجرات اليهودية التي تكتلت في مدن وقرى وأحياء خاصة بها، مما أوجد شرخاً في الاندماج السكاني.

وعُرف عن المدن الفلسطينية بعامة عدم تقوقع سكانها طائفياً بدليل تجاور الدور العائدة لأبناء المذاهب المختلفة. والأمثلة على ذلك أكثر من أن تُحصى في سجلات المحاكم الشرعية في مدن فلسطين، حيث توجد طوائف دينية متعددة. وتذكر السجلات أسماء أصحاب الدور المجاورة لعقار مطروح للبيع كما في المثال

التالي: «شراء مصطفى ابن الحاج أحمد ياسين بالوكالة عن ابنته الحرمة صفية من المعلم رزق ولد المعلم داود الترزي من نصارة غزة جميع الدار بغزة بمحلة الزيتون بخط مسجد الشمعة التي يحدها قبلة دار المعلم عبد الله ولد المعلم صالح الجلدة من نصارة غزة وشرقاً الطريق السالك وفيه الباب وشمالاً دار علي آغا بن خميس الهواري وغرباً دار الحاج إبراهيم بن فرحات النجار»[٤٢]. وليس المهم من هذا المثال شراء مسلمة من مسيحي داره التي تدل بحد ذاتها على التعامل التجاري بقطع النظر عن المذهب، وإنما جوار الدار التي يسكن إلى جنوبها مسيحي وإلى شمالها قائد عسكري من أصل مصري (هواري)، وإلى غربها حاج مسلم.

ولم يقتصر التمازج والتجاور على الطوائف الدينية وإنما شمل الطوائف ذات الأصول الجغرافية أو العرقية المتباينة كما في شراء حسن بن صالح الجعيدي (من طائفة الجعيدية المصرية) نصف دار بدوي بن محمد الأرنوطي (الأرناؤوطي أي الألباني) بغزة بمحلة الشجاعية بخط الشيخ مسافر، ويحد هذه الدار قبلة دار ورثة خليل كافي وشرقاً دار حسين قطيفاني وغرباً دار إبراهيم الأرنوط[٤٣].

وفي مثال آخر من نابلس في العام ١٨٧٥، أي في أوج فترة التنظيمات العثمانية:

> «اشترى الخواجة ميخائيل ابن الخواجة إبراهيم سالم المسيحي الرومي من رعايا الدولة العثمانية بالوكالة عن أخته الحرمة حنّة من بائعه سالم بن الياس سالم من الطائفة المذكورة ما هو بملكه حسبما يفصح عن ذلك القوجان الوارد من إدارة أملاك لواء البلقاء الناشىء عن العلم والخبر الوارد من مختاري المحلة المذكورة وذلك قيراط من الدار بباطن مدينة نابلس بمحلة الحبلة بخط الناموس يحدها قبلة الطريق السالك وشرقاً بستان خلف أبو رموش وشمالاً حوش أبو ربيع وغرباً دار السيد عباس تفاحة بثمن قدره ألف قرش»[٤٤].

ويُلاحظ في هذا المثال عدة أُمور، فهناك أولاً تجاور دور المسلمين والمسيحيين في نابلس التي شكّل فيها المسيحيون قلة من السكان. وأهم من ذلك هناك، ثانياً، تساوي الطرفين في استخدام كلمة ابن عوضاً عن ولد التي خص بها المسيحيون في السابق، وهذا التبدل ناتج عن التنظيمات العثمانية التي ساوت رسمياً بين رعايا الدولة العثمانية التي نصت الوثائق الشرعية على انتسابهم إليها. وقد سبق ذكر محاولة الدولة العثمانية التدقيق في ملكية بائع العقار والتأكد من أن المشتري هو من رعايا الدولة العثمانية، وذلك للحيلولة دون التلاعب في ذلك وشراء من هم من غير رعايا الدولة للعقارات بصورة غير قانونية. والطريف في تسميات الأماكن أن الشارع الذي وجدت فيه الدار يسمى خط الناموس ويبدو أنه تسمى بذلك لكثرة الناموس (أي البرغش) فيه بسبب إحاطة الدار ببستان وحوش.

ويلاحظ في حياة المدن كذلك أنه لم يكن هناك تمييز طبقي أو اجتماعي بين حي وآخر أو خط (شارع) وآخر، فبيوت الأغنياء وبيوت الفقراء تتجاور في الشارع الواحد بدلالة أسعار هذه الدور التي تذكر حين بيعها. فهناك بيوت ذات أثمان مرتفعة تجاور بيوتاً ذات أسعار متدنية في الخط الواحد.

وقد لاحظ الرحالة والمراقبون الأجانب، أثناء زيارتهم لمدن فلسطين، مدى انفتاح فئات المجتمع أو انغلاقها بعضها على بعض وهوية المنفتحين والمنغلقين وأسباب ذلك. يقول الرحالة السويسري بوفيه الذي زار القدس في آذار/مارس ١٨٥٨ انه يمكن تمييز الأرمن من لغتهم وملابسهم لأنهم من الأغراب ولكنه يصعب تمييز المسيحيين المحليين عن المسلمين (من الذين لا يلبسون العمامة التي كان لونها يختلف بحسب الطوائف) تماماً كما يصعب تمييز البروتستانتي والكاثوليكي في سويسرا[٤٥]. ومن الممكن إجراء دراسة لأسماء الناس لملاحظة مقدار ما تشترك به الطوائف من أسماء، بقطع النظر عن الانتماء الديني، ويظهر ذلك بخاصة في الأسماء المشتركة التي تصف صفات الله.

وقد سكن اليهود في أحياء خاصة بهم في مختلف مدن فلسطين، وميّز الرحالة بين أنواع منهم على أساس أصولهم الشرقية (سفارديم) أو الغربية (اشكنازيم)، وكذلك على أساس المناطق التي أتوا منها والأزياء التي اتخذوها. فقد ذكر بوفيه، مثلاً، أثناء زيارته لطبرية أن معظم اليهود فيها وفي صفد من النمسا حتى ان قنصل النمسا في طبرية هو نفسه يهودي. وذكر الرحالة فوغيه الفرنسي الذي زار الحي اليهودي في صفد في العام ١٨٧٢ اكتظاظ أزقته وتقوقع سكانه وغرابة أزيائهم وتنوعها لأن معظمهم أتوا من بولونيا وروسيا والأفلاق. وكانت اللغة السائدة بينهم هي الألمانية[٤٦].

أما بالنسبة للفئة الاجتماعية الثانية وهي سكان القرى من الفلاحين فيصعب التمييز بين ما هو مدينة وما هو قرية. كما أن كثيراً من الفلاحين سكنوا في المدن وكثيراً من القرى كبرت في الحجم وعدد السكان حتى غدت أشبه بالمدن، ولكنها من الناحية الوظيفية لسكانها ضمت أعداداً كبيرة من الفلاحين الذين يعملون في الزراعة. وخير مثال على ذلك مدينة غزة التي عاش فيها، وبخاصة في ضاحيتها الجنوبية الشجاعية، كثير من الفلاحين. وبالمقابل نجد قرى كبيرة، مثل بيت لحم والناصرة، التي لا يزيد سكان الواحدة منها عن خمسة آلاف نسمة، أقرب إلى المدن من

حيث غنى سكانها ورقيهم وعملهم. كما أن هناك قرى تتألف من خليط من الفلاحين والبدو ويظهر ذلك في تباين ملابسهم ولهجتهم وعيشهم في الصيف في الخيام وسكنهم في الشتاء في بيوت القرية.

والمقصود بالفلاحين أولئك الذين يعتبرون أنفسهم كذلك أنّى عاشوا، في القرية أم المدينة، بدليل وعيهم لأنفسهم وقبولهم بهويتهم وبما تمثله «الفلاحية» بينهم من صفات. وقد عبّر عن هذه الصفات والسلوك الفلاحي قول أحدهم، على سبيل الاعتذار، إذا ما ارتكب خطأً أمام ابن المدينة: «ما آني فلاح». وبالمقابل يعتبر البدوي الأصيل نفسه مختلفاً عن المدني والفلاح، ويعتد بحصانه وخيمته وسعة الفلاة من حوله.

وتختلف قرى الفلاحين بعضها عن البعض الآخر بغناها ومواد بنائها المتوفرة من حولها، ففي الجبال تبنى من الحجر، وفي السهول من الطين المجفف بالشمس. وبالرغم من سعة بيوت الفلاحين الحجرية في بعض القرى فإنها بسيطة ومن طابق واحد في الغالب. وفي المناطق الجبلية حيث يعقد سقف البيت توجد أحياناً غرف علوية تسمى واحدتها «عليّة» (بسبب علوها)، ولها نافذتان تسميان مجوزاً[٤٧]. وتقتصر الزخارف عادة على بيوت زعماء القرى وشيوخها التي يراعى فيها أيضاً التحصين العسكري حتى تغدو أشبه بالحصون، وهذا من شأنه أن يزيد في هيبة الزعيم بين الفلاحين. وفي المناطق الهضبية تُبنى القرى عادة على رؤوس التلال لتحاشي فيضان المياه وللحماية من هجمات البدو الذين يسيطرون في السهول، وتقل النوافذ في بيوت الفلاحين للحاجة الأمنية من ناحية ولأن الفلاحين يتعرضون للهواء الطلق طيلة اليوم من ناحية أُخرى. كما أن الفلاح يمضي معظم أوقات فراغه في المضافة. وقد تضم دار الفلاح ساحة مكشوفة أو مغطاة لإيواء حيواناته، ويُعرف مجموع البناء في هذه الحالة بالحوش[٤٨].

وعلى غرار المدن تقسم القرى إلى حارات تسمى بالنسبة لموقعها (الحارة الفوقا والحارة التحتا)، أو بأسماء الأسر الكبرى فيها، أو باسم فعالية اقتصادية أو دينية فيها، مثل خان أو سوق أو جامع أو زاوية أو مدرسة أو كنيسة، أو باسم الأشجار المثمرة فيها أو بجوارها (حارة الزيتون، أو حارة التفاح).

ويرأس القرية شيخُها. وفي بعض القرى الكبيرة التي قُسمت إلى حارات، مثل قرية أم الفحم قرب جنين التي ضمت أربع حارات، ترأس كل حارة شيخ خاص بها، وكان مسؤولاً عن سلوك أفرادها[٤٩]. ولم يمنع هذا أن يكون للقرية شيخ أعلى (شيخ المشايخ) يكون مسؤولاً عن القرية بأجمعها. وهناك قرى ترأسها شيخان كما في قرى جبل الخليل التي تُقسم إلى حلفين يعارض أحدهما الآخر. ويمكن أن يوجد في القرية الواحدة خطيبان، ويعلّق القساطلي على ذلك بأنه «من الأمور الغريبة»[٥٠].

ومن أبرز المؤسسات الاجتماعية في القرية المَضافة، وتدعى أحياناً المنزول كما في قرى جبل الخليل[٥١]. والمضافة عبارة عن غرفة كبيرة غالباً ما تكون في بيت شيخ القرية، وقد يكون أحياناً هو المختار. وقد شاع هذا اللقب منذ أواخر القرن التاسع عشر. وفي بعض المناطق يشارك في تمويل المضافة كل ذكر تجاوز الثالثة عشرة من العمر. ويقول القساطلي في تعريف المنزول «إنه محل لِقِرى الضيوف ويصرف عليه الأهلون بالدُّوْر»[٥٢]. وتفتح المضافة ليلاً ونهاراً، ولا يسمح بدخول النساء إليها إلّا إذا أردن تقديم شكوى ضد شخص ما. وتُستخدم المضافة كمكان لالتقاء سكان القرية وضيوفهم، ولتقديم المبيت والطعام مجاناً لضيوف القرية، ولعقد المحكمة، ولمناقشة قضايا القرية، ولإبلاغ السكان أوامر الدولة، وللصلاة فيها في حالة عدم وجود مسجد جامع. ولكل مضافة ناطور لخدمة الضيوف، كما تُعد القهوة فيها[٥٣].

وقد وصف القساطلي تقديم الطعام في منزول القرى في جبل الخليل حين زيارته لهذا الجبل في العام ١٨٧٤ بقوله:

> «من عوايد سكان هذا الجبل أن يتناولوا الطعام كل ليلة في منزول البلد ويأكلوا من الذبايح التي تذبح به للضيوف. وإذا كان يوجد ضيف واحد لا بد من ذبح رأس غنم أو أكثر وطبخ كمية ليست بقليلة من القمح المجروش [لعلّه الفريكة] أو الأرز. ومن عادتهم عندما يتناولون الطعام أن يجلس الضيوف أولاً... في الصف الأول ويبتدأون في مناولة الأهلين بقولهم هاك يا غانم ثم يتناول الضيف لقمة ويناول الثانية لرجل من الأهلين وهكذا حتى ينتهي الطعام»[٥٤].

وبالرغم من وجود اختلافات بين الفلاحين من منطقة إلى أُخرى، وبين سكان الأودية وسكان المرتفعات، من ناحية اللهجة والزي والتعامل، وانقسامهم إلى قيسية ويمنية، واستقطاب زعمائهم المتناحرين لهم، فإن الصفة العامة للفلاحين في فلسطين هي تمسكهم بأرضهم بعناد لأنها مصدر حياتهم. وقلما هجروا مناطقهم، لذا قاوموا حكم إبراهيم باشا المصري حين أراد تجنيدهم وإبعادهم عن أرضهم، كما قاوموا، من بعده، محاولات العثمانيين لتجنيدهم، ولجأوا إلى شراء إعفائهم بالمال[٥٥].

وقد ذُكر أن قيمة الرشوة (رسمياً البدل) التي قدمها أهالي قرية طوباس في قضاء نابلس لوالي القدس للإعفاء من الجندية، في العام ١٨٧٧، بلغت مائة ليرة إنكليزية للشخص الواحد. وليس للإعفاء من مدة لأن الملاحقة تتتابع بعد ذلك لأجل الحصول على رشوة أُخرى. أما في قرية تياسير القريبة من طوباس فقد هجرها سكانها بسبب التجنيد والضرائب المرهقة(٥٦). وكان قد بلغ عدد المجندين في منطقة القدس في العام ١٨٧٠ مقدار ١٥٠٠ مجند أُرسلوا إلى استانبول. وكان هذا من جملة الأسباب التي أضرّت بالزراعة(٥٧).

ولم يكن تهرب الفلاحين من الخدمة العسكرية العثمانية عن جبن منهم ولكن لما يعني ذلك من مآسٍ لهم ولأسرهم. فخلال الحرب العثمانية ــ الروسية، في عامي ١٨٧٧ ــ ١٨٧٨، أُخليت قرى فلسطينية بكاملها من شبابها للمشاركة في الحرب. وكان المجندون يقيّدون بالسلاسل، أشبه بالمجرمين، على مرأى من أهلهم، لمنعهم من الهرب. وفي هذا عذاب كبير لهم ولأهلهم. وبعد تدريب قصير يُرسلون لقتال الروس، وغالباً ما قضوا في ساحات القتال أو بسبب شدة البرد وقلة العناية.

وكانت مدة التجنيد قبل الحرب الفرنسية ــ الألمانية عام ١٨٧٠ خمس سنوات، وإذا هرب المجند تضاعفت الخدمة ويرسل ليسجن في الجزيرة العربية. ولكن بعد هذه الحرب طَبّق التجنيد الإجباري على الجميع، باستثناء غير المسلمين والبدو الذين يعيشون في بيوت الشعر. ونظم الجيش إلى عسكر شاهاني، أي قوات ضاربة مدة الخدمة فيها من ثلاث إلى خمس سنوات؛ وقوات احتياط (رديف) مدتها من عشر إلى اثنتي عشرة سنة، يُدعى المكلّف خلالها، من وقت إلى آخر، للخدمة مدة أربعة أسابيع؛ وقوات محافظة تدعى للخدمة لمدة عشرة أيام أو اثني عشر يوماً؛ وقوات رديفة محافظة لم تدع للخدمة في السنوات الأخيرة من القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين لأسباب اقتصادية. وإذا ذهب الجندي إلى مكة أثناء خدمته العسكرية فلا يستحق لقب حاج من قبل الأهلين لأنه يجب أن يذهب خصيصاً لأداء هذه الفريضة(٥٨).

وإذا كان الفلاحون قد قاوموا التجنيد لمآسيه وليس لجبن فيهم، فإنهم قد أبدوا شجاعة وبأساً في القتال فيما بينهم تحت امرة زعمائهم المتنافسين. وكان الفلاحون مشاة في الغالب في حين يمتطي زعماؤهم وأبناء زعمائهم الجياد. وقد كان لنسائهم دورٌ هام في أوقات القتال بتشجيع المحاربين أو بتحقيرهم إذا ما تقاعسوا. وكنّ يقمن بحمل المؤن لهم وبالعناية بجرحاهم. كما كنّ يعتنين بالممتلكات وسَوْق الماشية إلى الأماكن الآمنة في أوقات القتال. وكنّ يستقبلن رجالهن المنتصرين بالزغاريد عند عودتهم. وكانت المرأة في الريف تمنح الحماية لمن يلتجىء إليها تماماً كما هو الحال في المجتمع البدوي. وفي حالات أخذ الأسرى كان بعضهم يُقتل لأن الواحد منهم يعتقد أنه إذا كان رجلاً حقاً يجب ألا يطلب الرحمة. وقد يأتي من يتوسط لهم لقاء مبلغ من المال. ولم يسقط كثير من القتلى في المعارك بين الفلاحين واعتقدوا أنه لا يجوز التسديد على شيخ الفلاحين المعادي. ويظهر هذا هيبة للشيخ وحظوة متأصلة في نفوسهم له. وإذا لم يحرز أي فريق النصر يستمر القتال على مدى أسابيع، وأحياناً أشهر، وحتى من فصل إلى آخر مع فواصل زمنية لجمع المحاصيل(٥٩).

وشاعت عادة دفع دية القتيل بين الفلاحين. واختلفت قيمة الدية بالنسبة للرجل والمرأة وبالنسبة للسلطة التي تنظر فيها. واختلف تقدير سلطات المدينة للدية عن تقدير سلطات الريف، ومن هنا القول الشائع لدى الفلاحين: «في فرق بين حساب السرايا وحساب القرايا». وأمكن للقاتل أن يحتمي بجامع أو مقام أو امرأة أو بأحد المتنفذين، ويعرف عندئذ بالدخيل، أي الذي دخل في حمى آخر. ووفق تقاليد الحماية في الريف كان من حق الحامي إذا ما قُتِلَ الداخل بحمايته أن يقتل قاتله دون أن يخشى رد فعل ضده(٦٠).

وقد طوّر الفلاحون، وفق عاداتهم وتقاليدهم المكتسبة عبر قرون، قوانينهم الخاصة بهم والتي تعود، في كثير من الأحيان، إلى أصولهم البدوية. وعرفت هذه القوانين التي تحكمهم بشريعة خليل، نسبة إلى النبي إبراهيم خليل الله. وكثيراً ما اختلفت هذه القوانين عن الشريعة المبنية على الإسلام والمطبقة في المدن. وتطبق شريعة خليل بين الفلاحين من قبل شيخ القرية واختياريتها، وغالباً ما اعترف بحكمهم قضاة شريعة محمد ﷺ في المدن بسبب احترام المتقاضين لها. وهناك أمثلة عن دعم الدولة تطبيق شريعة خليل في بعض الحالات، كما حدث في العام ١٨٥٨ عندما طالب بعض أُسر قرى حلحول ونوبا وبيت أُومَّر، في منطقة الخليل، اعتماد الشريعة في قضايا عقارية لأنها أكثر فائدة لهم فألزمتهم السلطات باعتماد شريعة خليل لإرضاء القرويين المطالبين بذلك.

ولعل أحسن وصف لبؤس الفلاحين في فلسطين قول أحد المراقبين الأوروبيين في العام ١٨٧٠ بأنهم منذ عهد الطفولة يعيشون في جهل مطبق وكأنهم لا يمرون بسن الطفولة، وهم لا يعيشون حياة الطفولة التي يعرفها الأوروبيون. فعندما يبلغون

سن الثالثة يصبحون رجالاً ونساء صغاراً، وقلما يسمع الإنسان ضحكة حقيقية من واحد منهم لأن الصراع من أجل الوجود بدّد الشعور بالفرح لديهم(٦١).

والفئة الاجتماعية الثالثة، إلى جانب سكان المدن والفلاحين، هي البدو، وهم، على غرار الفئتين الأوليين، من قبائل مسلمة، وهي الكثرة، وقبائل مسيحية مثل بدو السلط الذين ينتسبون إلى الكنيسة الأرثوذكسية، وبدو مادبا الذين وصلوا إليها من الكرك في العام ١٨٨١ وعملوا في الزراعة، وكانوا موزعين بين الكنيستين الأرثوذكسية واللاتينية(٦٢). ولا ندري إلى أي مدى التزم البدو بقواعد الشريعة ولكن الذين سكنوا منهم قرب المدن سجل بعضهم عقود زواجه في محكمة المدينة، كما تدل على ذلك سجلات المحكمة الشرعية في غزة. وقد شخصوا إلى هذه المحكمة لحل المنازعات بينهم أو مع غيرهم. وغالباً ما دارت هذه المنازعات حول الحيوانات وسرقتها، أو لإبراء ذمتهم تجاه مالية الدولة(٦٣). أما البدو غير المستقرين فقد أهملوا التقيد بالشعائر الدينية.

ويميز عادة بين نوعين من البدو: بدو الصحراء الذين لا يعملون في الزراعة مثل قبائل التياهة والترابين في جنوب فلسطين، وبنو صقر في شرق الأردن وإلى الشرق منهم قبائل العنزة في البادية السورية، ويمتلك هؤلاء الجمال والخيول بكميات أكبر من الماشية، والبدو شبه المستقرين الذين يتعاطون الزراعة وتربية المواشي بالدرجة الأولى مثل القبائل التي تجوب المنطقة بين غزة ويافا. ومعظم قبائل فلسطين من هذا النوع الأخير، ونذكر منها الوحيدات وهي قبيلة رئيسية لها حلفاؤها من القبائل الصغيرة، وكذلك العدوان في وادي الأردن التي امتلكت الأراضي التي تعيش عليها بصفتها مشاعاً لكل أفرادها. ولم تقم هذه القبائل بزراعة الأرض بنفسها وإنما شاركت الفلاحين في استغلالها. ويقدم البدو الأرض والحماية مقابل ثلث المحصول، ويقدم الفلاح العمل والبذار ويتلقى مقابل ذلك ثلثي المحصول.

وكانت أكثر القبائل نزاعاً فيما بينها قبيلتا التياهة والترابين. وحين نشب نزاع حاد في العام ١٨٧٥ بين قبيلتي التياهة والعزازمة حول أراضي الرعي شرقي غزة استغلّت قبيلة الترابين الأمر وهاجمت التياهة ولكن دون أن تظفر بشيء. ونشب القتال من جديد بين الترابين والتياهة في الأعوام ١٨٧٩ و١٨٨٢ و١٨٨٧ دون انتصار لأي منها. واستغلت الدولة النزاع في العام الأخير وألقت القبض على بعض شيوخهم، ويدل هذا على محاولة الحكومة فرض سيطرتها على القبائل(٦٤).

وقد امتلك البدوُ العبيدَ على غرار الفلاحين وسكان المدن. ولمّا أُعلن تحرير العبيد في العام ١٨٧٨ التحق المحرَّرون منهم بأبناء جنسهم في يافا أو بالبدو السودان شمالي أريحا. وكانوا يعملون في نقل الخضار إلى سوق القدس من السهول المجاورة(٦٥).

وانقسم البدو، مثل الفلاحين، إلى يمنية وقيسية. ولكن البدوي، لأي حزب من هذين الحزبين انتسب، كان بإمكانه رفع قضية أمام قاضي الحزب الآخر لأن المفروض في القاضي أن يكون حيادياً. وحصر حق القضاء لدى البدو في بعض الأسر مثل أسرة المناسرة بين بدو بني نعيم (في منطقة جبل الخليل)، وأسرة أبو أرم في قرية يطا (الخليل)، وأسرة المحامدة في قرية السموع (الخليل)، ودار عريقات في منطقة الوادية (إلى الشرق والجنوب الشرقي من القدس)، وأسرة عرابي في قباطية (منطقة جنين).

وكان القضاء وراثياً في هذه الأسر، وللقاضي أن يزيد أو ينقص العقوبة آخذاً بعين الاعتبار المصلحة العامة ومدى نفوذ الحزبين المعنيين، كما نظر أيضاً في الوضع الاجتماعي للمتهم ولأسرته. ويُسمى أجر القاضي في القضايا الجزائية رزقة وفي القضايا العقارية وغيرها جعلة(٦٦).

وكان الثأر من أبرز صفات البداوة الاجتماعية، والبدوي الصحيح يجب ألا يلجأ إلى محكمة المدينة للنظر في خصومة له، وعليه أن يأخذ بثأره بيده. وحتى لو عُرض الأمر على محكمة المدينة وكان الحكم قاسياً فالثأر لا بد أن يتم ما لم يتم الصلح ويرضى أهل القتيل. وإذا هاجم أهل القتيل عشيرة القاتل وسرقوا ممتلكاتها قبل الصلح فإن هذه الممتلكات تبقى لهم حتى بعد إجراء الصلح دون أن يقتطع ثمنها من الدية. ويُمنع تعرض أي من الطرفين لشرف النساء. ويبقى لأسرة القتيل الحق بمهاجمة ممتلكات عشيرة القاتل لمدة أربعة أيام والاستيلاء عليها. ويتوقفون عن ذلك إذا ما قتلوا شخصاً من عشيرة القاتل. وتضطر هذه العشيرة إلى الهرب ما لم تَطْلب عطوة وعندها يتوقف الهجوم لأنها تصبح بحماية أحد وجوه عشيرة محايدة. وتفقد عشيرة القاتل الأول حقّها في التعويض إذا خرقت العطوة (وذلك من أجل الهدنة تمهيداً للصلح)، وتقوم ضدها عشيرة الحامي لها لأن ذلك يلحق العار بها. وإذا لم يتوصل الطرفان إلى اتفاق في مدة العطوة تواصل عشيرة القتيل مهاجمة عشيرة القاتل بعد مضي أربعة أيام، ولكن في هذه الحالة تقتطع قيمة المسروقات بنصف أثمانها فقط من المبلغ الذي يتفقون عليه.

ولا يمكن للصلح أن يتم مباشرة لأن عشيرة القتيل تعتبر الهدنة ضرورية خشية أن يقال إنها قبلت مال الصلح بسرعة. وهناك أصول وشروط للهدنة ونفقات طعام يتحملها أهل القاتل. وإذا أراد أهل القاتل تفادي الانتقام من أحد أفرادهم فإنهم يدفعون ما عُرف بـ «تسعة نوم» إلى عشيرة القتيل، وهي ما يعادل تسعمائة غرش قبل الهدنة أو بعدها، ولكن ما زال عليها أن تمتنع عن إيواء القاتل ريثما يُبت بأمر الصلح. ويكلف الصلح مبالغ كبيرة من المال ويتضمن أيضاً أخذ خيول وجمال وماشية من أهل القاتل، وإذا لم يتوفر ذلك حالاً يكفل بعضهم أسرة القاتل حتى تدفعها[٦٧].

ويعتدّ البدوي بحصانه اعتداده بسلاحه وكان أهمه الرمح، ومن هنا قول البدو: «فارس بلا سلاح كطير بلا جناح». وهناك نوعان رئيسيان من الخيل: ذو الدم الصافي ويُعرف بالنجيب أو الأصيل أو الكريم، وذو الدم المختلط وهو الكديش الذي قلما يستخدمه البدو. وللحصان الأصيل نسب، وإذا كان بدون نسب فيعرف عندئذ بالمسمار، ويكون سعره أدنى. ويقدر البدو المهر كذلك حسب مواصفاته. والإهانة الكبرى للبدوي أن يستخدم حصانه أو مهره في الفلاحة التي يخصص لها في العادة الثيران والكدش[٦٨].

ويبقى الجمل المرافق الدائم للبدو، فبدونه لا يمكنهم نقل خيامهم وأثاثهم في الطرق الرملية حيث يتحمل الجمل العطش والجوع لمدة طويلة. ويختلف جمل بدو الصحراء عن جمل الفلاحين في أن الأول ليس قوياً جداً، ولا يمكنه حمل أحمال ثقيلة كما تفعل جمال الفلاحين ذات التغذية الأحسن. ولكن جمل الصحراء يتميز بقوة المراس وبالاكتفاء بالأعشاب حين الضرورة. وإذا أطعم بانتظام فإنه يتحمل الأسفار البعيدة بجلد. وتوصف جمال قبائل العرايشية (حول منطقة العريش) التي تحمل البضائع بين مصر ويافا ثم بين يافا والقدس بأنها قليلة التغذية وضعيفة البنية في حين أن جمال حوران التي تنقل القمح من البلقاء وحوران إلى نابلس وعكا قوية جداً[٦٩].

الفصل الخامس
الحياة الثقافية في فلسطين

اشتهرت القدس بخاصة، ومدن فلسطين بعامة، بكثرة المؤسسات الدينية ــ الثقافية فيها من مدارس وجوامع ومساجد وزوايا وتكايا وغيرها. ووجود هذه المؤسسات بكثرة دليل على وجود الكتب والمكتبات فيها، وبالتالي العلماء الذين يقومون بتأليفها أو تدريسها أو إجازة الطلاب بعلومها. وقد جاء في كتاب **معاهد العلم في بيت المقدس**[١] ذكر تسع وستين مدرسة وأربعين زاوية، بعضها استمر ناشطاً في القرن التاسع عشر وبعضها أصابه الإهمال والخراب. وقُدّر عدد ما بقي من هذه المدارس في نهاية القرن الثامن عشر بخمس وثلاثين مدرسة[٢]. ويتفق الباحثون أن من بين العصور الإسلامية المختلفة كان العهد العثماني في فلسطين أضعفها في الحركة العلمية، وبخاصة ابتداء من القرن الثامن عشر، حين فقد عدد من المدارس أهميته، وأخذ معظم علماء فلسطين يتجهون إلى مصر، فمنهم من عاد إلى فلسطين ليدرّس في المسجد الأقصى في القدس الذي لم ينقطع التدريس فيه عبر العصور، ومنهم من ذهب إلى الشام ليدرس ويستزيد علماً[٣]. ومما يلفت النظر أن كتاب **تراجم أهل القدس في القرن الثاني عشر الهجري**، لمؤلفه حسن بن عبد اللطيف الحسيني قد ترجم لثمانية وثلاثين عالماً فقط اشتهروا في القدس في ذلك القرن، وبعضهم جاء من الخليل أو الرملة أو من دمشق ومصر والمغرب.

وإذا ما نظرنا إلى أعداد علماء فلسطين الذين اشتهروا فيها أو أمّوا دمشق للتدريس والدراسة والمجاورة، كما ذكرتهم كتب التراجم الدمشقية، خلال القرون الأربعة التي حكم فيها العثمانيون بلاد الشام وجدنا أن أعداد من تذكرهم كتب التراجم هذه في القرون الثلاثة الأولى من الحكم العثماني، أي من القرن العاشر إلى نهاية القرن الثاني عشر الهجري / السادس عشر إلى نهاية القرن الثامن عشر الميلادي، هي أكثر بكثير، بالنسبة لكل قرن من هذه القرون الثلاثة، مما تذكره بالنسبة للقرن الثالث عشر الهجري / التاسع عشر الميلادي. وتفسّر قلة أعداد العلماء في القدس، في القرن الثاني عشر الذين وردت أسماؤهم في مؤلف **تراجم أهل القدس في القرن الثاني عشر الهجري** بتدني العلوم آنذاك وهذا ما ذهب إليه الباحثان العسلي والنعيمات من ضعف الحركة العلمية في فلسطين بدءاً من القرن الثاني عشر الهجري.

ومما تجدر ملاحظته أيضاً أن عدداً من علماء فلسطين قد اشتهروا في العهد العثماني المبكر، من هؤلاء العلماء الحسن بن

محمد البوريني (توفي عام ١٦١٥م) صاحب **تراجم الأعيان من أبناء الزمان**[٤]، والأخباري أحمد بن محمد الخالدي الصفدي (توفي عام ١٦٢٥م)، مؤلف **تاريخ الأمير فخر الدين المعني**[٥]، والصوفي محمد بن عمر العلمي (١٥٥٦ ــ ١٦٢٩م)[٦]، والفقيه خير الدين الرملي (١٥٨٥ ــ ١٦٧١م)، صاحب المؤلف المشهور: **الفتاوى الخيرية لنفع البرية**[٧].

وفي حين أن كتب التراجم الدمشقية في القرون العاشر والحادي عشر والثاني عشر الهجرية تكثر فيها تراجم علماء فلسطين الذين اشتهروا فيها أو في دمشق[٨]، نجد كتاب تراجم علماء القرن الثالث عشر للهجرة / التاسع عشر للميلاد، **حلية البشر في تراجم القرن الثالث عشر**، لمؤلفه الشيخ عبد الرزاق البيطار[٩] يذكر عشرة علماء فقط من فلسطين، ستة منهم من يافا، ونصف هؤلاء من آل الدجاني، وثلاثة من نابلس وواحد من الخليل.

ويلاحظ أن يافا التي تبرز بعلمائها في القرن التاسع عشر كانت المحطة الأولى والرئيسية في فلسطين آنذاك لتلاقي العلماء المسلمين الذين يفدون إلى فلسطين بحراً أو عن الطريق الساحلي الأكثر أمناً من الطريق الداخلية بين مصر والشام. ومن يافا ينطلقون إلى القدس عبر الرملة. وكمثال على هؤلاء العلماء نذكر الشيخ محمد عبد الجواد القاياتي الأزهري المصري، صاحب **نفحة البشام في رحلة الشام**[١٠] الذي وصل يافا بحراً من بيروت في جمادى الثانية من العام ١٣٠٢هـ / آذار/مارس ــ نيسان/أبريل ١٨٨٥م، ومنها اتجه إلى القدس عبر الرملة. ويلاحظ أيضاً أن خمسة على الأقل من العلماء العشرة الذين تذكرهم **الحلية**، وهم الشيخ (علي) أبو المواهب بن حسين الدجاني مفتي يافا[١١]، والشيخ أبو رباح السيد عبد القادر الدجاني اليافي الدردير[١٢]، والسيد الشيخ حسن أفندي بن السيد سليم الدجاني اليافي[١٣]، والشيخ حسين بن الشيخ سليم الدجاني اليافي[١٤]، والشيخ خليل التميمي مفتي الخليل[١٥] قد درسوا في الأزهر أو جاوروا فيه. وطبيعي أنّ في سفرهم إلى هناك استمراراً لتقاليد قديمة، ولكن تسهيلات السفر البحرية في البواخر في القرن التاسع عشر من شأنها أن تشجع على ذلك أيضاً. كما أن فترة الحكم المصري في بلاد الشام (١٨٣١ ــ ١٨٤٠م) لا بد أن تكون قد نشطت فيها حركة السفر بين بلاد الشام ومصر وانتقال العلماء بين البلدين. ولا أدل على هذه العلاقة الوثيقة بين فلسطين ومصر من تعرّف الشيخ القاياتي في فلسطين على عدد من زملائه القدامى في الأزهر، كما أن الشيخ خليل التميمي الذي عينته استانبول مفتياً في مدينة الخليل في حوالي عام ١٢٦٣هـ / ١٨٤٨م قد تمّ له ذلك بوساطة عمه الشيخ التميمي مفتي الديار المصرية آنذاك[١٦]، كما أن شيخ الحنابلة في مصر كان من نابلس.

ومن العلماء العشرة الذين يذكرهم صاحب **الحلية**، جاور أو توطن منهم في دمشق أربعة هم: الشيخ صالح اليافي الخَلْوَتي الذي جاور في المدرسة الباذرائية[١٧]، والشيخ مصطفى بن سليمان البرقاوي مَولداً، النابلسي نشأةً، الذي تولى قضاء الحنابلة بدمشق مدة ثلاثين سنة[١٨]، والشيخ ياسين النابلسي الذي قدم دمشق واستوطنها[١٩]، والشيخ يوسف بن الشيخ عمر البشتاوي النابلسي الدمشقي النقشبندي[٢٠].

ويلاحظ أن علماء نابلس ومنطقتها كانوا أكثر اتصالاً بدمشق من غيرهم من علماء فلسطين. وقد شغل أحدهم في دمشق منصب قاضي الحنابلة مدة ثلاثين سنة، ولهذا الأمر دلالته لأنه استمرار لتقليد قديم. فمما يجدر ذكره أن معظم حنابلة دمشق في القرن الثامن عشر تعود أصولهم إلى نابلس أو بعلبك، أي إلى مناطق ريفية. وحين أتوا إلى دمشق انسجموا مع أصولهم هذه فسكنوا صالحية دمشق وليس مركز المدينة. وقد عُرف عن الحنابلة هؤلاء تبنيهم الطرق الصوفية، مثل الخلوتية والقادرية، وتعاطيهم التدخين وبذلك يكونون قد تأقلموا مع واقع المجتمع ولم يتمسكوا بقواعد المذهب[٢١].

وقد لفت نظر الشيخ القاياتي أثناء زيارته نابلس كثرة الحنابلة فيها وانتشارهم إلى مصر والشام. وقد قال: «فإن الحنابلة في نابلس وجبالها كثيرون جداً، دون غيرها من بلاد الشام، وشيخ الحنابلة الآن عندنا بمصر من تلك الجهة ويسمى الشيخ يوسف تعلم أيضاً في نابلس، ثم ثانياً في القدس، كما أخبرونا عنه بذلك»[٢٢].

وكان القاياتي قد سُجن في مصر ثم نُفي منها إلى بلاد الشام في ١١ ربيع الأول ١٣٠٠هـ / ٢٠ كانون الثاني/يناير ١٨٨٣م بسبب وقوفه إلى جانب العرابيين ضد الاحتلال الانكليزي. وقد بدأ القاياتي رحلته إلى فلسطين في جمادى الثانية ١٣٠٢هـ / آذار/مارس ــ نيسان/أبريل ١٨٨٥م لما وصل إلى يافا بحراً. ولا يذكر المدة التي أمضاها في فلسطين ولا تواريخ زياراته لمدنها ولكن ذلك لم يتجاوز بضعة أسابيع زار خلالها، إلى جانب يافا، الرملة والقدس وبيت لحم والخليل ونابلس وجنين والناصرة وطبرية[٢٣].

وقد التقى القاياتي في يافا بالشيخ إبراهيم أفندي أبي رباح، ويرجّح أنه هو الشيخ أبو رباح السيد عبد القادر الدجاني اليافي الدردير الذي التقاه أيضاً الشيخ عبد الرزاق البيطار

صاحب الحلية. ويذكر القاياتي عند وصوله إلى الرملة وجود شقيق الشيخ خير الدين الرملي صاحب الفتاوى الخيرية فيها، ولم يذكر اسمه وإنما قال إنه قاضي يافا، ولم يتمكن من رؤيته بسبب متابعة سفره إلى القدس، وإنما خرج للقائه بعض ذرية الشيخ خير الدين الذين كانوا مجاورين في الأزهر. ويبدو من هذا أن ذرية خير الدين الرملي لهم باع في العلم وأنهم درسوا في الأزهر كغيرهم من العلماء آنذاك.

والتقى القاياتي في القدس كلاً من الشيخ عبد الرؤوف الداودي، الذي عرفه في الأزهر، والشيخ حسن بن الحاج علي من المشتغلين بالطب، والشيخ عبد الله أفندي الدنف، رئيس الخدمة في قبة الصخرة، والشيخ يوسف أفندي الفاهوم، نجل الشيخ أمين أفندي الفاهوم مفتي الناصرة آنذاك، وقد رافق القاياتي في رحلته[٢٤]. وفي الخليل التقى القاياتي الشيخ يوسف علي ابن قاضي البلد الشيخ محمد أفندي علي، والشيخ خليل أفندي التميمي مفتي الخليل. وفي نابلس التقى أبناء الشيخ زيد من السادة القادرية، وجميعهم من الشيوخ، والشيخ أمين أفندي المفتي الأزهري. والتقى في الناصرة الشيخ أمين أفندي الفاهوم وولده الشيخ عباس خطيب مسجدها الذي يصفه القاياتي بقوله «وله إلمام بالعلم». وفي طبرية التقى القاياتي مفتيها الشيخ عبد السلام[٢٥].

وإذا كانت الحركة العلمية في المدن، على مستوى العلماء، في القرن التاسع عشر، ليست بالمستوى الذي كانت عليه في القرون الثلاثة السابقة، أو بالمستوى المتميز الذي كانت عليه قبل العهد العثماني، فإن مستوى الثقافة والتعلم على صعيد الشعب كان أكثر تدنياً، سواء في المدن أو في الأرياف. فقد وصف القساطلي الحالة الثقافية في جبل الخليل حين زيارته له في عام ١٨٧٤م بقوله:

> «وأما أحوال هذا الجبل الأدبية فمتأخرة جداً. فإنه مع كثرة قراه لا يوجد به مدرسة سوى بعض مدارس ابتدائية في مدينة الخليل لأجل تعليم القراءة البسيطة ومدرسة في قرية دورا التي هي أكبر قرى هذا الجبل قد تأسست منذ أربع سنين وهي لدرس القراءة البسيطة ولحد الآن لم يخرج من تلامذتها من يعرف غير الحروف الهجائية والحركات وأبجد هوّز، وخلاف ذلك لا يوجد تقدم سوى أن ابن أستاذها صار يعرف أن يتلو بعض آيات من الفرقان وأظن بأن هذه المدرسة مع ضعف الوسائط الموجودة بها لا تتأتى بفائدة ووجودها من العدم. ويا حبذا لو اعتنت حكومة البلاد وأرغمت الأهلية ليعلّموا أولادهم بعد أن تفتح لهم مدارس تتكفل بتقدمهم وإنهاضهم من حمأة الجهالة وإرجاعهم إلى جنان النور وحدايق المعارف ولكن لا بد من يأتي يوم به تغدو هذه البلاد بتقدم من هذا القبيل حيث ان أنوار المعارف قد أخذت بأن تدخل عموم أنحاء بلادنا»[٢٦].

ويتضح من كلام القساطلي مدى مسؤولية الحكومة العثمانية في إهمال التعليم وعدم فتح المدارس. وينبّه إلى أهمية ذلك في إزالة الجهالة من بين الأهلين وأن ذلك لا بد آت.

ويتابع القساطلي كلامه في وصف الحالة الراهنة للمبتدئين في التعليم في جبل الخليل فيقول:

> «إن عدد من يحسنون القراءة البسيطة في هذا الجبل لا يتجاوز الثلاثمائة وكلهم من الخليل ولولا ما يتعيشون منها بواسطة ترتيبهم خطباء على قرايا الجبل لما وجد عندهم اجتهاد لذلك غير أنه يوجد من أصل الثلاثمائة المذكورة نحو عشرين رجلاً من المصريين يحسنونها وهم خطباء في بعض القرايا لهم تعيينات سنوية في محلات خدماتهم، والخطيب عندهم (مرتبط) به كتابة الضيعة وتقسيم أموالها وجمعها وإعطاء الوصولات، وعلى الشيخ إنفاذ ذلك بين الفلاحين ودفع الأموال إلى الحكومة بمساعدة الخطيب، ولكل قرية شيخان وخطيب أو خطيبان ومجلس اختيارية»[٢٧].

ولم يجد القساطلي غزة أحسن حالاً من جبل الخليل من الناحية الثقافية، ووصف المعارف والآداب فيها بأنها متأخرة جداً بالرغم من وجود بعض أفراد بينهم رشفوا العلوم في الجامع الأزهر في مصر. ويضيف القساطلي أنه لقلة هؤلاء فإنه لا يُعتد بهم[٢٨].

ولكن تأسيس المدارس الحديثة ومساهماتها العلمية، وإن على نطاق ضيق، بدأ يلفت نظر المراقبين والرحالة. فقد ذكر القساطلي أثناء زيارته لبيت لحم في العام ١٨٧٤م وجود مدرسة للصبيان وأخرى للبنات لطائفة اللاتين تزيد أعداد طلابها عن الخمسين ومدرسة للروم وأخرى للبروتستانت، وتعلم في جميع هذه المدارس اللغة العربية البسيطة، وفي مدرسة اللاتين تعلم الفرنسية أيضاً[٢٩].

ويصف القساطلي مدارس غزة بأنها متأخرة ولا يوجد فيها سوى عدد قليل من المدارس الابتدائية للمسلمين ومدرسة لطائفة الروم الأرثوذكس كائنة في دائرة كنيستها. وقد أُقيم بها حديثاً مدرستان للبروتستانت واحدة للصبيان وأخرى للبنات، ويدرّس في مدرسة الصبيان الصرف والنحو والجغرافيا والحساب وبقية العلوم العربية والرياضية. ولكن القساطلي الذي كان يكتب في العام ١٨٧٥م يستدرك أنه نظراً لافتتاح مدرسة الصبيان هذه قبل سنة فلم يعلّم بها غير الصرف والحساب والجغرافيا. ومن شروطها ألّا تقبل أي تلميذ بدون أن يصلح للقراءة البسيطة[٣٠].

وإذا كان القساطلي في زيارته لفلسطين في عامي ١٨٧٤م أو ١٨٧٥م قد لاحظ بدايات إحداث المدارس الحديثة فيها من محلية وأجنبية فقد ذكر القاياتي بدوره، إبان زيارته نابلس، بعد عشر سنوات من زيارة القساطلي لفلسطين، وجود التعليم التقليدي والحديث فيها جنباً إلى جنب. وقد زار أحد مساجدها حيث العلماء المدرّسون وطلبة العلم المشتغلون من مذهب أبي حنيفة ومذهب الإمام أحمد بن حنبل. وقد زار ذلك الجامع الشيخ مصلح أفندي نائب رئيس شعبة المعارف في نابلس وكان في خلوة هناك معدّة لقراءة دروسه ومطالعتها وهو من خريجي الأزهر. ومما يلفت الانتباه مساهمة الشيخ مصلح أفندي هذا، ذي الثقافة التقليدية، في نشر طرق الدراسة الحديثة وإشغاله منصباً هاماً في شعبة المعارف في نابلس، وهذا يدل على عدم وجود معارضة بين أصحاب الثقافتين. وقد رافق الشيخ مصلح القاياتي في زيارته المدرسة البلدية في نابلس حيث

> «قابلنا الخواجات والمعلمون بالإكرام وعملت التلامذة لنا أناشيد بأنغام مطربة تحية للقدوم، وأجرت المعلمون معهم صورة الامتحان بين أيدينا لإبداء ما عندهم من المعارف في القراءة والنحو والصرف والحساب وغير ذلك فظهرت عليهم علامات النجابة والنجاح. وأخبرونا أن عدد تلامذة هذه المدارس نحو الستمئة تلميذ وكلهم في مدرسة واحدة إلا أن مواضيع التعليم متعددة فكل صنف منهم في محل خاص، وسررنا برؤية هؤلاء الأولاد وما أبدوه من المهارة، لا زالت بلاد الإسلام تتقدم في التمدن والعمارة»(٣١).

ويبدو من كلام القاياتي، وهو الشيخ الأزهري، ترحيبه بهذا النوع من المدارس الحديثة ومن التعليم ومن القائمين عليها من «الخواجات» في سبيل تقدم بلاد الإسلام.

وللتعرف على أنواع المدارس الحديثة، وأماكن وجودها، وأعداد طلابها وأساتذتها، وهوية مديريها، والعلوم التي تقوم بتدريسها تزودنا السالنامات وبخاصة تلك المتخصصة منها في شؤون التربية، بمعلومات هامة في هذا المجال. ومن الطبيعي أن يكون الاهتمام منصباً في البدء على المدارس الابتدائية لذا كثرت أعدادها وتوزعت على عدد كبير من القرى، أما المدارس الإعدادية والثانوية فكانت أقل عدداً، وانحصرت بمراكز المدن. ويرد في إحصاء السالنامات ذكر المدارس الإسلامية وغير الإسلامية التي افتتحها سكان محليون أو مرسلون تبشيريون من الغرب.

وتذكر أول سالنامه وردت فيها إحصاءات متنوعة عن فلسطين وهي سالنامه ولاية سوريا للعام ١٢٨٨هـ / ١٨٧١ – ١٨٧٢م معلومات عن عدد المكاتب (المدارس) الإسلامية وغير الإسلامية فيها وعدد طلابها في مراكز الألوية والأقضية والنواحي. ونأخذ كمثال ألوية (صناجق) القدس وعكا والبلقاء (قضاءي نابلس وجنين فقط) على ما يرى في الجدول رقم (٥ – ١):

الجدول رقم (٥ – ١)
(أ) لواء القدس

القضاء والنواحي	مكتب إسلامي	عدد الطلاب	مكتب غير إسلامي	عدد الطلاب	مكتب غير محدد	عدد الطلاب
قضاء القدس						
بلدة القدس	٧	٣٤١	١٩	١,٢٤٢	–	–
ناحية بني زيد	١١	١٥٦	–	–	–	–
ناحية بني مرة وبني سالم	–	–	–	–	١٤	٢١٤
ناحية بني مالك	–	–	–	–	٧	١٣٢
ناحية بني حسن	–	–	–	–	٥	٦٠
ناحية وادية	–	–	–	–	١١	٦٣٥
ناحية بني حارث						
القبالا والشمالا	–	–	–	–	١٨	٢٤٨
ناحية البيرة وجبل القدس	–	–	–	–	٢٣	١٨٣

القضاء والنواحي	مكتب إسلامي	عدد الطلاب	مكتب غير إسلامي	عدد الطلاب	مكتب غير محدد	عدد الطلاب
قضاء غزة						
قصبة غزة	—	—	—	—	٩	٢٢٥
ناحية خان يونس	—	—	—	—	—	—
ناحية مجدل	—	—	—	—	—	—
ناحية غزة	—	—	—	—	—	—
قضاء يافا						
قصبة يافا	٤	١٩٠	٤	١٦٤	—	—
			٣ إناث	١٣٣		
ناحية يافا	—	—	—	—	—	—
ناحية اللد	٣	٧٠	٢	١٥٠	—	—
ناحية الرملة	٣	١٢٠	٢	١١٣	—	—
قضاء خليل الرحمن						
قصبة خليل الرحمن	٦	٢٢٥	٣	٤٠	—	—
ناحية خليل الرحمن	—	—	—	—	—	—
ناحية عمامة	—	—	—	—	—	—
ناحية بيت جبرين	—	—	—	—	—	—
ناحية عرقوب	—	—	—	—	—	—
المجموع	٣٤	١,١٠٢	٣٣	١,٨٤٢	٨٧	١,٦٩٧

مجموع عدد المكاتب = ١٥٤، مجموع عدد الطلاب = ٤,٦٤١

(ب) لواء عكا

القضاء والنواحي	مكتب إسلامي	عدد الطلاب	مكتب غير إسلامي	عدد الطلاب	مكتب غير محدد	عدد الطلاب
قضاء عكا						
بلدة عكا	٥	٨٥	٦	١٨٥	—	—
				١٠٠ إناث		
ناحية الساحل	—	—	—	—	—	—
ناحية الشاغور	—	—	—	—	—	—
قضاء حيفا						
قصبة حيفا	٤	٦٥	٥	١٣١	—	—
			٢ إناث	٤٥		
ناحية روحة	٣	٤٠	—	—	—	—
ناحية الساحل	٢	٧٠	—	—	—	—
ناحية الجبل	—	—	—	—	—	—

القضاء والنواحي	مكتب إسلامي	عدد الطلاب	مكتب غير إسلامي	عدد الطلاب	مكتب غير محدد	عدد الطلاب
قضاء الناصرة						
قصبة الناصرة	١	٥٠	٣ ٢ إناث	٢٣٤ ١٢٥	—	—
ناحية الناصرة	٢	٤٥	١	١٥	—	—
ناحية شفاعمرو	—	—	—	—	١	٩٥ ٤٠ إناث
قضاء صفد					مكتب يهود	طلاب
قصبة صفد	٦	١١٥	١	١٠	١٦	١٩٥
ناحية جيرة	—	—	—	—	—	—
ناحية الجبل	—	—	—	—	—	—
قضاء طبرية					مكتب يهود	طلاب
قصبة طبرية	٢	١٥	١	٨	١٥	١١٥
ناحية شفا وغور (؟)	—	—	—	—	—	—
المجموع	٢٥	٤٨٥	٢١	٨٥٣	١ مكتب يهود ٣١	١٣٥ طلاب ٣١٠

مجموع عدد المكاتب = ٧٨، مجموع عدد الطلاب = ١,٧٨٣

(ج) لواء البلقاء

القضاء والنواحي	مكتب إسلامي	عدد الطلاب	مكتب غير إسلامي	عدد الطلاب	مكتب غير محدد	عدد الطلاب
قضاء نابلس						
بلدة نابلس	٩	٣٢٥	٥	٨٦	—	—
ناحية مشاريق نابلس	—	—	—	—	—	—
ناحية مشاريق الجرار	—	—	—	—	—	—
ناحية جماعين أول	—	—	—	—	—	—
ناحية جماعين ثاني	—	—	—	—	—	—
ناحية وادي الشعير	—	—	—	—	—	—
ناحية شعراوية الشرقية	—	—	—	—	—	—
ناحية شعراوية الغربية	—	—	—	—	—	—
ناحية بني صعب	—	—	—	—	—	—

القضاء والنواحي	مكتب إسلامي	عدد الطلاب	مكتب غير إسلامي	عدد الطلاب	مكتب غير محدد	عدد الطلاب
قضاء جنين						
قصبة جنين	٣	٣٣	–	–	–	–
ناحية شفا قبلي	–	–	–	–	–	–
ناحية شفا الشمالي	–	–	–	–	–	–
ناحية شفا الغربي	–	–	–	–	–	–
المجموع	١٢	٣٥٨	٥	٨٦	–	–
مجموع عدد المكاتب = ١٧، مجموع عدد الطلاب = ٤٤٤						
المجموع العام	٧١	١,٩٤٥	٥٩	٢,٧٨١	١١٩	٢,١٤٢
مجموع عدد المكاتب = ٢٤٩، مجموع عدد الطلاب = ٦,٨٦٨						

يلاحظ في الجدول رقم (٥ ـ ١) أن مكاتب تعليم الإناث في لواءي القدس وعكا هي في مراكز الأقضية وبعض النواحي كما في يافا وعكا وحيفا والناصرة وشفاعمرو. ولم تبين السالنامه هل كانت هناك مكاتب غير إسلامية خاصة بالإناث في بلدة عكا أم أن الطالبات فيها كن مع الذكور في مدارس واحدة؟ وكذلك الحال بالنسبة لشفاعمرو التي وجدت فيها مدرسة للذكور والإناث. وقد بلغ عدد الطالبات في لواء القدس ١٣٣ طالبة في حين بلغ عدد الطلاب الذكور ٤,٥٠٨ طلاب، أي أن نسبة الطالبات إلى الطلاب الذكور هي ٢,٩٥ ٪. أما في لواء عكا فقد بلغ عدد الطالبات ٣١٠ وعدد الطلاب الذكور ١,٤٧٣، أي أن نسبة الطالبات إلى الطلاب الذكور هي ٢١,٠٤ ٪. ويدل هذا على ازدياد الاهتمام بتعليم البنات في أقضية لواء عكا، وربما يفسر ذلك بانفتاح الموانىء فيها على المؤثرات الغربية وبالأخذ بروح التحرر في أقضية الناصرة وصفد وطبرية.

وبالنسبة للمكاتب غير المحددة الهوية فإن معظمها يقع في لواء القدس وفي النواحي فيه بصورة خاصة. ولا يمكن القول فيما إذا كانت إسلامية أو غير إسلامية لأن هذه النواحي تضم خليطاً من الطوائف.

وإذا نظرنا إلى الإحصاء كما هو، وجدنا أن وسطي نسبة الطلاب لكل مكتب من المكاتب الإسلامية في لواء القدس هو حوالي ٣٢ طالباً، وللمكاتب غير الإسلامية حوالي ٥٦ طالباً، وللمكاتب غير المحددة الهوية حوالي ١٨ طالباً. أما في لواء عكا فالنسب هي على التوالي: ١٩ طالباً، ٤٠ طالباً، ١٣٥ طالباً. وتبلغ النسبة في قضاءي نابلس وجنين من لواء البلقاء كما يلي: حوالي ٣٦ طالباً للمكتب الإسلامي، و ١٧ للمكتب غير الإسلامي في بلدة نابلس و ١١ للمكتب الإسلامي في قصبة جنين. وتبلغ النسبة في مكاتب اليهود حوالي ٧ طلاب. ولا تعني النسب العالية اكتظاظ الصفوف بالطلاب، بل تعني اتساع هذه المدارس وزيادة قدرتها على الاستيعاب.

وإذا اعتبرنا الإحصاءات السكانية والطلابية وغيرها الواردة في سالنامه ولاية سوريا للعام ١٢٨٨هـ / ١٨٧١ ـ ١٨٧٢م، التي استقينا منها هذه المعلومات بأنها متساوية في المصداقية، يمكننا إيجاد نسبة الطلاب إلى عدد السكان، ونظراً لأن هذه السالنامه تعطي أعداد السكان بالخانة، وقد سبق أن اعتمدنا رقم خمسة كوسطي لأفراد الخانة الواحدة، لذا سنحول الأعداد في الجداول التالية المبنية على السالنامه إلى أعداد السكان.

ويلاحظ في الجدول رقم (٥ ـ ٢) أن أعلى نسبة طلاب إلى مجموع السكان هي في القدس (١٣,٢٣ ٪)، ثم تليها نسبة ١١,١٠ ٪، وهي في ناحية وادية في قضاء القدس التي ضمت قرى سلوان والعيسوية والطور وأريحا والعيزرية و(أبو) ديس وصوبا وبيت ساحور وبيت لحم وبيت جالا. ويشكل غير المسلمين من سكانها نسبة ٦٦,٤٣ ٪ وربما كانوا أكثر انفتاحاً للتعليم.

الجدول رقم (٥ ـ ٢)

نسبة الطلاب إلى أعداد السكان في لواء القدس

في سالنامه العام ١٢٨٨هـ / ١٨٧١ ـ ١٨٧٢م

القضاء والنواحي	السكان: مسلمون	السكان: غير مسلمين	مجموع السكان	أعداد الطلاب	النسبة
قضاء القدس					
بلدة القدس	٥,١٢٥	٦,٨٤٠	١١,٩٦٥	١,٥٨٣	٪١٣,٢٣
ناحية بني زيد	٦,١٠٠	٣٣٠	٦,٤٣٠	١٥٦	٪٢,٤٢
ناحية بني مرة وبني سالم	٥,٦٣٥	٤٨٠	٦,١١٥	٢١٤	٪٣,٤٩
ناحية بني مالك	٥,٣٧٥	ـ	٥,٣٧٥	١٣٢	٪٢,٤٥
ناحية بني حسن	٢,٤٨٠	٦٠	٢,٥٤٠	٦٠	٪٢,٣٦
ناحية وادية	١,٩٢٠	٣,٨٠٠	٥,٧٢٠	٦٣٥	٪١١,١٠
ناحية بني حارث القبالا والشمالا	٣,٧٤٠	٧٤٠	٤,٤٨٠	٢٤٨	٪٥,٥٣
قضاء غزة					
قصبة غزة	١٣,٤٥٠	٣٩٠	١٣,٨٤٠	٢٢٥	٪١,٦٢
ناحية خان يونس	٩,٤٨٠	ـ	٩,٤٨٠	ـ	ـ
ناحية مجدل	٧,٣٧٠	ـ	٧,٣٧٠	ـ	ـ
ناحية غزة	١٥,٢٣٥	ـ	١٥,٢٣٥	ـ	ـ
قضاء يافا					
قصبة يافا	٤,٣٢٥	١,٣٣٠	٥,٦٥٥	٤٨٧	٪٨,٦١
ناحية يافا	٢,٤٩٠	ـ	٢,٤٩٠	ـ	ـ
ناحية اللد	١٠,٧٦٠	١,٢٥٠	١٢,٠١٠	٢٢٠	٪١,٨٣
قضاء خليل الرحمن					
قصبة خليل الرحمن	١٤,٠٠٠	١,٠٠٠	١٥,٠٠٠	٢٦٥	٪١,٧٦
ناحية خليل الرحمن	٥,٣٩٠	ـ	٥,٣٩٠	ـ	ـ
ناحية عمامة	١,٧٥٥	ـ	١,٧٥٥	ـ	ـ
ناحية بيت جبرين	٣,٣٦٠	ـ	٣,٣٦٠	ـ	ـ
ناحية العرقوب	٣,٥٩٥	ـ	٣,٥٩٥	ـ	ـ

وفي لواء عكا تتبين لدينا النسب التالية:

الجدول رقم (٥ ـ ٣)

نسبة الطلاب إلى أعداد السكان في لواء عكا في سالنامه العام ١٢٨٨هـ / ١٨٧١ ـ ١٨٧٢م

القضاء والنواحي	السكان: مسلمون	السكان: غير مسلمين	مجموع السكان	أعداد الطلاب	النسبة
قضاء عكا					
بلدة عكا	٢,٧٣٥	١,٠٨٠	٣,٨١٥	٣٧٠	٪٩,٦٩
ناحية الساحل	٣,٨٧٥	٢,٩٩٠	٦,٨٦٥	ـ	ـ
ناحية الشاغور	٤,٩٦٥	٢,١١٥	٧,٠٨٠	ـ	ـ

القضاء والنواحي	السكان		مجموع السكان	أعداد الطلاب	النسبة
	مسلمون	غير مسلمين			
قضاء حيفا					
قصبة حيفا	١,١٢٠	٢,٣٠٠	٣,٤٢٠	٢٤١	٪٧,٠٤
ناحية روحة	٤,٦٩٥	—	٤,٦٩٥	—	—
ناحية الساحل	٤,٤٨٠	—	٤,٤٨٠	—	—
ناحية الجبل	٨٨٠	٨٠٠	١,٦٨٠	—	—
قضاء الناصرة					
قصبة الناصرة	١,٣٧٥	٥,٣٦٥	٦,٧٤٠	٤٠٩	٪٦,٠٧
ناحية الناصرة	٤,٩٩٠	٩٢٥	٥,٩١٥	٦٠	٪١,٠١
ناحية شفاعمرو	٣,٠٤٠	١,٧٩٥	٤,٨٣٥	١٣٥	٪٢,٧٩
قضاء صفد					
قصبة صفد	٦,٩٧٥	٦,٠٠٠	١٢,٩٧٥	٣٢٠	٪٢,٤٦
ناحية جيرة	٢,٥٠٠	٥٧٥	٣,٠٧٥	—	—
ناحية الجبل	٣,٠٨٥	٢,٥٠٥	٥,٥٩٠	—	—
قضاء طبرية					
قصبة طبرية	٣٩٥	٢,٣٣٠	٢,٧٢٥	١٣٨	٪٤,٤١
ناحية شفا وغور (؟)	٩٣٥	—	٩٣٥	—	—

ويلاحظ في الجدول رقم (٥ ــ ٣) أن أعلى نسبة طلاب إلى مجموع السكان هي في بلدة عكا التي يشكل السكان المسلمون فيها نسبة ٧١,٧٩ ٪ من مجموع السكان. ويبدو أن موقعها على البحر وانفتاحها للمؤثرات الغربية لها دورٌ في هذه النسبة المرتفعة. وتليها قصبة حيفا ونسبتها ٧,٠٤ ٪، ثم الناصرة ونسبتها ٦,٠٧ ٪. وإذا قارنا هذا الجدول بالجدول السابق للواء القدس نجد أن بلدة القدس تأتي في مقدمة البلدان بنسبة قدرها ١٣,٢٣ ٪.

الجدول رقم (٥ ــ ٤)

نسبة الطلاب إلى أعداد السكان في لواء البلقاء (قضاءي نابلس وجنين) في سالنامه العام ١٢٨٨هـ / ١٨٧١ ــ ١٨٧٢م

القضاء والنواحي	السكان		مجموع السكان	أعداد الطلاب	النسبة
	مسلمون	غير مسلمين			
قضاء نابلس					
بلدة نابلس	٦,٧٨٠	٦١٠	٧,٣٩٠	٤١١	٪٥,٥٦
ناحية مشاريق نابلس	٥,٩٢٥	—	٥,٩٢٥	—	—
ناحية مشاريق الجرار	٩,٦٦٠	٣٠٠	٩,٩٦٠	—	—
ناحية جماعين أول	٧,٥٠٠	٣٠٠	٧,٨٠٠	—	—
ناحية جماعين ثاني	٦,٢٩٥	—	٦,٢٩٥	—	—
ناحية وادي الشعير	٨,٥٣٥	١٠٠	٨,٦٣٥	—	—
ناحية شعراوية الشرقية	٩,٩٨٥	٣٥٠	١٠,٣٣٥	—	—
ناحية شعراوية الغربية	٦,٧٩٠	—	٦,٧٩٠	—	—
ناحية بني صعب	١٠,٤٢٠	٦٠	١٠,٤٨٠	—	—

القضاء والنواحي	السكان		مجموع السكان	أعداد الطلاب	النسبة
	مسلمون	غير مسلمين			
قضاء جنين					
قصبة جنين	٣,٢٨٠	٨٠	٣,٣٦٠	٣٣	٠,٩٨٪
ناحية شفا قبلي	٢,٣٤٥	٣٥	٢,٣٨٠	–	–
ناحية شفا الشمالي	٢,٥٦٥	–	٢,٥٦٥	–	–
ناحية شفا الغربي	٥,٦٩٠	٥٠	٥,٧٤٠	–	–

يلاحظ في الجدول رقم (٥ ــ ٤) أن بلدة نابلس وقصبة جنين هما الوحيدتان اللتان توجد فيهما مدارس في قضاءي نابلس وجنين بالرغم من كثرة النواحي والسكان في هذين القضاءين. وبالمقارنة مع الإحصاءات المماثلة في لواءي القدس وعكا يتبين لنا أن قضاءي نابلس وجنين، في لواء البلقاء، هما أقل أقضية فلسطين من حيث نسبة أعداد الطلاب بموجب إحصاءات سالنامه العام ١٢٨٨هـ / ١٨٧١ ــ ١٨٧٢م.

وقد تطورت عملية التعليم بعد العام ١٢٨٨هـ / ١٨٧٢م فظهرت عدة مستويات من المدارس والتخصصات. فهناك المكاتب الرشدية التي تقسم إلى ملكية (مدنية) وعسكرية، ثم المكاتب العالية من إعدادية وسلطانية (ثانوية). وظهر هذا في السالنامات إذ زوّدتنا بمعلومات هامة في هذا المجال. وسنختار عينات منها تظهر ما طرأ على التعليم في فلسطين من تطور، وبخاصة منذ الربع الأخير من القرن التاسع عشر، أي بعد سالنامه ولاية سوريا للعام ١٢٨٨هـ / ١٨٧١ ــ ١٨٧٢م التي سبق استعراضها.

فقد ذكرت، مثلاً، سالنامه ولاية سوريا للعام ١٣٠٢هـ / ١٨٨٤ ــ ١٨٨٥م، تحت عنوان: «مكاتب ابتدائية» المكاتب القديمة والجديدة في الولاية نقتطف منها ما يخص أقضية فلسطين الواقعة ضمن هذه الولاية (الجدول رقم (٥ ــ ٥)).

يتبين من هذه الإحصاءات أن أعلى نسبة من المكاتب ومن الطلاب هي في قصبة عكا، إذ بلغ مجموع المكاتب القديمة

الجدول رقم (٥ ــ ٥)
مكاتب ابتدائية

المكان	مكاتب قديمة				مكاتب جديدة				المجموع	
	العدد	إناث	العدد	ذكور	العدد	إناث	العدد	ذكور	العدد	طلاب
صنجق عكا										
قصبة عكا	–	–	٤٣	١,١٧٢	١	٣٥	١	٥٠	٤٥	١,٢٥٧
ناحية شفاعمرو	–	–	–	–	–	–	١	٢٥	١	٢٥
قضاء حيفا	–	–	٥	١١٧	–	–	–	–	٥	١١٧
قضاء صفد	–	–	٩	٢١٢	–	–	١	٥٠	١٠	٢٦٢
قضاء الناصرة	–	–	٢	٤٠	–	–	–	–	٢	٤٠
قضاء طبرية	–	–	٤	١٢٠	–	–	–	–	٤	١٢٠
المجموع	–	–	٦٣	١,٦٦١	١	٣٥	٣	١٢٥	٦٧	١,٨٢١
صنجق البلقاء										
قصبة نابلس	–	–	٩	٩٠	١	١٠٠	١	٦٠٠	١١	٧٩٠
قضاء جنين	–	–	–	–	–	–	١	٦٥	١	٦٥
قضاء سلط	–	–	١	٢٠	–	–	–	–	١	٢٠
المجموع	–	–	١٠	١١٠	١	١٠٠	٢	٦٦٥	١٣	٨٧٥

والجديدة فيها ٤٥ ومجموع الطلاب ١,٢٥٧. وتليها في الأهمية قصبة نابلس التي يبلغ مجموع مكاتبها ١١ ومجموع طلابها ٧٩٠. وإذا نظرنا إلى مجموع المكاتب القديمة والجديدة وطلابها في صنجقي عكا والبلقاء معاً وجدنا أن عدد المكاتب القديمة ٧٣ مكتباً وعدد طلابها ١,٧٧١ طالباً، في حين أن عدد المكاتب الجديدة يبلغ ٧ مكاتب وطلابها ٦٦٥ طالباً، مما يُظهر أن احداث المكاتب الجديدة ما زال في بداياته. ولكن مما يلفت النظر أن مدارس الإناث تشكل ٢٨,٥٧ ٪ من المكاتب الجديدة المنشأ

غير المسلمة التي يقصد بها أن مؤسسيها هم من غير المسلمين (وقد ضمّ هؤلاء، كما تشير سالنامه نظارت معارف عمومية لعام ١٣١٨هـ / ١٩٠٠ ـ ١٩٠١م، المسيحيين واليهود المحليين، في حين ضمت المكاتب الأجنبية الأجانب بمن فيهم اليهود الأجانب) كانت تشكل نسبة عالية من ناحية عدد المكاتب وعدد الطلاب. وإذا اعتبرنا المكاتب العادية غير المسلمة معادلة للمكاتب الابتدائية المسلمة فإن النسب في الصنجقين تكون كالتالي: عدد المكاتب العادية غير المسلمة ٥٤ مكتباً، عدد طلابها ١,٩٧١ طالباً، في

الجدول رقم (٥ ـ ٦)

مكاتب عادية وعالية غير مسلمة

المكان	مكاتب عادية				مكاتب عالية				المجموع	
	العدد	إناث	العدد	ذكور	العدد	إناث	العدد	ذكور	العدد	طلاب
صنجق عكا										
قصبة عكا	ـ	ـ	٧	٤٦٤	ـ	ـ	ـ	ـ	٧	٤٦٤
قضاء صفد	ـ	ـ	١٠	٢٠٥	ـ	ـ	ـ	ـ	١٠	٢٠٥
قضاء الناصرة	١	٣٠	١٥	٥٨١	٣	٢٤٢	ـ	ـ	١٩	٨٥٣
قضاء حيفا	١	١٠١	٥	٨٩	ـ	ـ	١	١٨٠	٧	٣٧٠
المجموع	٢	١٣١	٣٧	١,٣٣٩	٣	٢٤٢	١	١٨٠	٤٣	١,٨٩٢
صنجق البلقاء										
قصبة نابلس	٤	١٢٧	٥	١١٣	ـ	ـ	ـ	ـ	٩	٢٤٠
قضاء السلط	١	١٥	٥	٢٤٦	ـ	ـ	ـ	ـ	٦	٢٦١
المجموع	٥	١٤٢	١٠	٣٥٩	ـ	ـ	ـ	ـ	١٥	٥٠١

وتشكل طالباتها نسبة ١٤,٥٩ ٪ من مجموع طلاب المكاتب الجديدة.

ولم توجد في صنجقي عكا والبلقاء أية مكاتب عالية إعدادية أو سلطانية، بل كان فيها ثلاثة مكاتب رشدية ملكية: واحد في عكا عدد طلابه خمسة وأربعون وواحد في حيفا عدد طلابه ثلاثون وثالث في نابلس وعدد طلابه ثمانون.

وبالنسبة للمكاتب غير المسلمة فإننا نلاحظ في السالنامه ذاتها الأرقام المبيّنة في الجدول رقم (٥ ـ ٦).

وبالرغم من أنه يصعب إجراء مقارنة بين المكاتب المسلمة وغير المسلمة نظراً لاختلاف تسمياتها ودرجاتها فإنه يلاحظ أن المدارس

حين أن عدد المكاتب الابتدائية المسلمة، بنوعيها القديم والجديد، يبلغ ٨٠ مكتباً، وعدد طلابها ٢,٦٩٦ طالباً، أي أن المكاتب غير المسلمة تشكل ٤٠,٢٩ ٪ من مجموع المكاتب، وعدد طلابها ٣٨,٦٤ ٪ من مجموع الطلاب، وهما نسبتان هامتان.

وقد انتشر التعليم الابتدائي في الريف، وأصبح في عدد كبير من القرى في التسعينات من القرن التاسع عشر مكاتب تقتصر على الذكور في حين أن الإناث اقتصر تعليمهن على مراكز المدن. وتزودنا سالنامه ولاية بيروت للعام ١٣١١هـ / ١٨٩٣ ـ ١٨٩٤م بقوائم مفصلة عن أسماء القرى وأعداد طلاب المكاتب الابتدائية فيها. ويوضح ذلك الجدول رقم (٥ ـ ٧).

الجدول رقم (٥ ـ ٧)
المكاتب الابتدائية في صنجقي عكا والبلقاء في العام ١٣١١هـ / ١٨٩٣ ـ ١٨٩٤م

المكان	أعداد الطلاب الذكور
صنجق عكا	
قصبة عكا	٧٠
قصبة عكا	٦٣ إناث
قضاء عكـا	
قرية مجد الكروم	٤٠
قرية الزيب	٢٥
قرية بصة	٢٠
قرية غابسية	٣٥
قرية يركا	٤٠
قرية كويكات	٢٨
قرية عمقا	٣٥
قرية جديدة	١٦
قرية بروة	٤٦
قرية دامون	٣٨
قرية شعب	٣٠
قرية طمرة	٢٤
قرية شفاعمرو	٢٠
قرية عبلين (اعبلين)	١٢
قرية ميعار	٢٢
قرية سخنين	٥٠
قرية عرابة	٦٠
قرية نحف	١٨
قرية فراضية	١٥
قرية ديرحنا	٢٢
قضاء حيفا	
قصبة حيفا	٨٠
محلة غربية	٢٠
قرية طيرة	٤٠
قرية قيرة	٢٠
قرية سنديانة	١٥
قرية صرفند	١٠
قرية كفر قرع	٢٥
قرية صبارين	٤٠
محلة شرقية	٣٠
قرية إجزم	٣٠
قرية كفرلام	١٢
قرية عين غزال	١٥
قرية جبع	١٥
قرية فريديس	١١
قرية قيسارية	١٥
قرية عرعرة	٢٠
قرية أم الزينات	٢٥
قرية كفرين	٢٠
قرية ريحانية	١٥
قرية بلد الشيخ	٢٠
قرية كفرتة	٥
قرية أم الشوف	١٥
قرية جيزة	٥
قرية غابية	١٥
قرية طنطورة	٢٠
قرية عين حوض	٧
قرية عتليت	٥
قرية كريكة	٥
قرية باقة شرقية	٥
قرية دالية الكرمل	٥
قرية عقبا	١٥
قضاء صفد	
قصبة صفد	٥٤
قرية صفد	٧٠ + ٢٠ إناث
قرية ترشيحا	٣٠
قرية علما	٢٠
قرية حسن	١٧
قرية بيت جن	٢١
قرية جاعونة	١٢
قرية سحماتة	٢٠
قرية عين زيتون	١٨
قرية بقيعة	١٥
قرية دير العاشر	١٨
قرية سعسع	٣٠
قرية صفصاف	١٤

	أعداد الطلاب الذكور
قضاء طبرية	
قصبة طبرية	٥٠
قرية حطين	١٥
قرية كفركما	٥٠
قرية بورية	٦٥
جبيني زوقاغي (؟)	٢٠
المجموع	١,٧٨٥ ذكور + ٨٣ إناث = ١,٨٦٨

الجدول رقم (٥ ـ ٨)

وباختصار هذه الجداول نصل إلى ما يلي:

صنجق عكا	عدد القرى	عدد الطلاب
قضاء عكا	٢١	٦٦٦ ذكور + ٦٣ إناث
قضاء حيفا	٣١	٥٨٠ ذكور
قضاء صفد	١٣	٣٣٩ ذكور + ٢٠ إناث
قضاء طبرية	٦	٢٠٠
المجموع	٧١	١,٧٨٥ ذكور + ٨٣ إناث = ١,٨٦٨

ويتبين من هذا الجدول أن وسطي عدد الطلاب في القرية حوالي ٢٧ طالباً. وتزودنا سالنامه عام ١٣١١هـ أيضاً بأسماء القرى وأعداد الطلاب فيها في صنجق نابلس الذي انفصل عن البلقاء. وفيما يلي أسماء القرى وعدد الطلاب فيها:

الجدول رقم (٥ ـ ٩)

المكان	أعداد الطلاب الـذكـور
قضاء نابلس	
محلة حَبْلة	٧٥٠ + ١٢٠ إناث
قرية بيت فوريك	٣٠
قرية بيتا	٦٦
قرية عفرتا	٥٠
قرية عصرتا	٥٠
قرية سلفيت	٩٩
قرية قصرة	٦٩
قرية عصيرة	٦٣
قرية طلوزة	٤٥
قرية رفيدية	٧٠
قرية سالم	٥٨
قرية روجيب	٣٠
قرية سبسطية	٨٢
قرية بيت امرين	٥٨
قرية برقا	١١١
قرية بورين	١٢٥
قرية بيت دجن	٢٥
قرية دير شرف	٣٠
محلة قريون (نابلس)	٦٨
محلة حبلة (نابلس)	٤٥ (مكررة)
قرية تلفيت	٧٤
قضاء جماعين	
قرية جماعين	٧١
قرية تل	٥٧
قرية كفرقدوم	٧٤
قرية بديا	٥٧
قرية ديراستيا	٦١
قرية حوارة	٥٨
قرية حجة	٥١
قرية ساوية	٤١
قرية عزون	٥٧
قرية كفر الديك	٤٥
قرية رتيسي (لعلّها رنتيس)	٤٠
قرية مجدل صادق	٤٤
قرية كفر قاسم	٤٢
قضاء بني صعب	
قرية طيرة	٤٨
قرية كور	٣٧
قرية كفرسابا	٥٥
قرية عنتيا (لعلها عنبتا)	٧٩
قرية زيتا	٥٠
قرية عتيل	٤٥
قرية كفرزيباد	٦٤
قرية كفرصور	٣٠
قرية بني صعب طولكرم	١٥٠

المكان	أعداد الطلاب الـذكـور
قرية بلعا	٧٥
قرية طيبة	٥٠
قرية قلقيلية	١٢٤
قرية شويكة	٨٠
قرية قاقون	٣٤
قرية قلنسوة	٤٠
قرية باقة غربية	٦٠
قرية علار	٥٠
قرية دير الغصون	٤٢
قرية بيت ليد	٥٥
قضاء جنين	
قصبة جنين	١١٠
قرية عرابة	١٢٥
قرية طوباس	٦٠
قرية يامون	٥٠
قرية برقين	٤٠
قرية سيلة حارثية	١٠٦
قرية أم الفحم	٨٥
قرية تفنين	٤٥
قرية يعبد	٨٥
قرية جلمة	٦٠
قرية نورس	٥٥
قرية كفرراعي	٦٠
قرية سيلة الظهر	٦٥
قرية جبع	٧٥
قرية ميثلون	٤٠
قرية صانور (سانور)	٥٠
قرية سريس (سيريس)	٤٠
قرية عجة	٤٥
قرية رمانة	٤٠
قرية جنين طيبة	٤٠
قرية قباطية	١٢٥
قرية كفردان	٣٥
قرية رابا	٣٥
قرية عنزة	٣٠
قرية دير أبو ضعيف	٤٥
قرية كفرقود	٣٠
المجموع ٥,٤٤٠ ذكور + ١٢٠ إناث	= ٥,٥٦٠

الجدول رقم (٥ ــ ١٠)

وباختصار الجداول السابقة نصل إلى ما يلي:

صنجق نابلس	عدد القرى	عدد الطلاب
قضاء نابلس	٢١	٢,٦٩٦ ذكور + ١٢٠ إناث
قضاء **بني صعب**	١٩	١,١٦٨
قضاء جنين	٢٦	١,٥٧٦
المجموع	٦٦	٥,٤٤٠ ذكور + ١٢٠ إناث = ٥,٥٦٠

ويتبين من هذا الجدول أن وسطي عدد الطلاب في القرية حوالي ٨٤ طالباً. ويفوق هذا الوسطي عدد الطلاب الوسطي في صنجق عكا البالغ حوالي ٢٦ طالباً بما يزيد عن ثلاث مرات، مما يدل على أن نسبة التعلم في قرى صنجق نابلس تفوق تلك في صنجق عكا، أو أن حجم القرى في صنجق نابلس يفوق حجم القرى في سنجق عكا. وفي الحالتين تبرز حقيقة هامة وهي أن التعليم الابتدائي بدأ يدخل عدداً أكبر من القرى.

وتذكر أيضاً سالنامه ولاية بيروت للعام ١٣١١هـ / ١٨٩٣ ــ ١٨٩٤م أعداد المكاتب الابتدائية غير المسلمة التي تعمل برخصة رسمية وأماكن وجودها:

الجدول رقم (٥ ــ ١١)
المكاتب الابتدائية غير المسلمة

المكان	روم أرثوذكس		لاتيــــن	
	ذكور	إناث	ذكور	إناث
قرية رامة (عكا)	٨٠	ــ		
قرية كفرياسيف (عكا)	٤٠	ــ		
الناصرة	٣٣	ــ		
في الناصرة أيضاً	١٢٠	٨٠		
قرية مجيدل (الناصرة)	١٢	ــ		
قرية الرينة (الناصرة)	١٠	ــ		
قرية كفرياسيف (الناصرة)	ــ	٢٥		
قرية الرينة (الناصرة)			ــ	١٥
قصبة نابلس			ــ	١٣
قرية رفيديا (نابلس)			ــ	١٧
قرية زبارة (ربما زبده) (جنين)			٢٩	١٣
قرية شفاعمرو (حيفا)			٣٠	ــ

المكان	روم أرثوذكس		لاتيـن	
	ذكور	إناث	ذكور	إناث
قرية يافة (الناصرة)			٢٩	٢٠
قصبة نابلس			٢٨	ــ
قرية نصف جبيل (نابلس)			٢٧	ــ
قرية أم الفحم (جنين)			٢٨	ــ
	٢٩٥	١٠٥	١٧١	٧٨
المجموع	٤٠٠ ذكور	١٠٥ إناث	٢٤٩ ذكور	٧٨ إناث

يلاحظ في جدول المكاتب الابتدائية غير المسلمة في أعلاه أنها اقتصرت على مكاتب الروم الأرثوذكس واللاتين. ولم ترد فيها مكاتب للطوائف المسيحية الأخرى مثال الكاثوليك والبروتستانت، ولا مكاتب لليهود التي لا بد أنها كانت كثيرة العدد هي الأخرى. وقد يكون أن هذه المكاتب هي وحدها المرخَّصة كما جاء في وصفها في السالنامه أعلاه، وربما لم تكن السالنامه شاملة في هذا المجال.

وبمقارنة أعداد طلاب المكاتب الابتدائية المسلمة وغير المسلمة في الجداول السابقة يتبين كثرة أعداد الطالبات بالنسبة للطلاب في المدارس غير المسلمة عنها في المدارس المسلمة. فقد بلغ مجموع الطلبة الذكور في المكاتب الابتدائية المسلمة في لواءي عكا والبلقاء ٧,٢٢٥ طالباً، والإناث ٢٠٣ طالبات، أي أن نسبة الإناث إلى الذكور هي ٢,٨٠ ٪ في حين بلغ مجموع الطلاب الذكور في المكاتب الابتدائية غير المسلمة ٦٤٩ طالباً، وعدد الطالبات ١٨٣ طالبة، أي أن نسبة الإناث إلى الذكور هي ٢٨ ٪.

ويصعب القيام بأية مقارنات أخرى على أساس هذه العينات المحددة.

وقد أصبحت إحصاءات السالنامات أكثر تخصصاً ودقة فيما يختص بأمور المعارف كما نلاحظ في (سالنامه نظارت معارف عمومية) للعام ١٣١٨هـ / ١٩٠٠ ــ ١٩٠١م، إذ وردت تفاصيل دقيقة عن أنواع المدارس، وأماكنها، وسنوات تأسيسها، والجهات التي أسستها، سواء كانت مسلمة أو غير مسلمة أو أجنبية. وقد جاء في هذه السالنامه معلومات إجمالية وأخرى تفصيلية بالنسبة لمدارس كل فئة، وذلك من خلال ولاية بيروت التي التحق بها كل من لواءي عكا ونابلس في حين كانت القدس لواء مرتبطاً باستانبول مباشرة.

وقد أهملنا في الجدول رقم (٥ ــ ١٢) وفي الجداول التالية اسم المكتب واسم صاحب الرخصة، لأن قراءة السالنامه لهذه الأسماء مرتبكة. والهدف من إيراد هذه الجداول أساساً ليس شمولها، فهي قاصرة عن ذلك بالنسبة لجميع أنحاء فلسطين، وإنما لإعطاء نماذج مما يوجد من أنواع المدارس في لواء أو آخر، وأعداد الطلبة فيها، والجهات المهتمة بأمر افتتاحها.

ويلاحظ في جدول المكاتب رقم (٥ ــ ١٣) أن أقلها رشدي وأكثرها إعدادي. ومما يلفت النظر أن معظم هذه المكاتب قد بدأ عملها في الربع الأخير من القرن التاسع عشر، أي منذ مجيء السلطان عبد الحميد الثاني وإعلان الدستور والانفتاح أكثر نحو الغرب، وبالتالي الوقوع أكثر تحت تأثير الغرب وضغوطه، بدليل أن جميع هذه المكاتب كانت تعمل بدون رخصة مما يدل على أن نظام الامتيازات والنفوذ الأجنبي كانا في الأوج.

الجدول رقم (٥ ــ ١٢)
المكاتب غير المسلمة في لواء عكا حسب سالنامه معارف العام ١٣١٨هـ / ١٩٠٠ ــ ١٩٠١م

اللواء	القضاء	الطائفة المؤسسة	نوع المكتب	عدد الطلبة		تاريخ الافتتاح	تاريخ الترخيص
				ذكور	إناث		
عكا	عكا	روم أرثوذكس	رشدي	٧٢	ــ	١٢٩٥هـ	١٣٠٨هـ
عكا	صفد	مارونية	رشدي	٢٢	ــ	قديم	بلا رخصة
عكا	صفد	موسوية / يهودية	رشدي	٦٠	ــ	١٣٠٣هـ	بلا رخصة
عكا	حيفا	موسوية / يهودية	إعدادي	١٥٠	ــ	١٣٠٠هـ	بلا رخصة

الجدول رقم (٥ ـ ١٣)

المكاتب الأجنبية في لواء عكا حسب سالنامه معارف العام ١٣١٨هـ / ١٩٠٠ ـ ١٩٠١م

اللواء	القضاء	الدولة المؤسسة	نوع المكتب	عدد الطلبة		تاريخ الافتتاح	تاريخ الترخيص
				ذكور	إناث		
عكا	صفد	إنكلترا	إعدادي	٣٠	ـ	١٣٠٤هـ	بلا رخصة
عكا	الناصرة	روسيا(*)	رشدي	٣٠	ـ	١٣٠٤هـ	بلا رخصة
عكا	الناصرة	روسيا	إعدادي	٤٥	ـ	قديم	بلا رخصة
عكا	الناصرة	ألمانيا	رشدي	٣٠	٢٥	١٣٠١هـ	بلا رخصة
عكا	حيفا	ألمانيا	رشدي	غير معروف		بلا رخصة	
عكا	حيفا	ألمانيا	إعدادي	٥٥	١٢٠	قديم	بلا رخصة
عكا	حيفا	ألمانيا	إعدادي	غير معروف		قديم	بلا رخصة
عكا	حيفا	فرنسا (راهبات)	إعدادي	١٥٠	ـ	١٢٩٨هـ	بلا رخصة
عكا	حيفا	فرنسا (فرير)	إعدادي(*)	٧٠	ـ	١٢٨٣هـ	بلا رخصة

(*) والمعروف أيضاً وجود مدرسة إعدادية روسية في الناصرة لإعداد المعلمين، كما وجدت مدرسة لإعداد المعلمات في بيت جالا.

وتزودنا سالنامه (نظارت معارف عمومية) لعام ١٣١٨هـ / ١٩٠٠ ـ ١٩٠١م من جديد بأسماء الأماكن التي أُنشئت فيها المكاتب الابتدائية والرشدية والإعدادية في بعض ألوية فلسطين، وتواريخ إنشائها، ونوجز ذلك في الجدول رقم (٥ ـ ١٤).

يلاحظ في الجدول رقم (٥ ـ ١٤) أن عدد المكاتب الابتدائية للذكور في لواء عكا قد بلغ ٤٩ مكتباً في حين أن عددها في لواء نابلس قد بلغ ١٠١، وربما دلّ هذا على اتساع لواء نابلس بالمقارنة مع لواء عكا. ولكن أعداد المكاتب الرشدية للذكور في

الجدول رقم (٥ ـ ١٤)

اللواء	القضاء	نوع المكتب	أعداد الأماكن (أو المكاتب) (محلة ـ قصبة ـ قرية)	تاريخ التأسيس
عكا	عكا	ابتدائي	٢١	١٢٩٩هـ / ١٨٨٢م
عكا	حيفا	ابتدائي	٢٠	١٢٩٨هـ / ١٨٨١م
عكا	حيفا	رشدي	١	١٢٩٣هـ / ١٨٧٦م
عكا	الناصرة	رشدي	١	ـ
عكا	صفد	ابتدائي	٨	١٢٩٨هـ / ١٨٨١م
عكا	صفد	رشدي	١	١٣٠٧هـ / ١٨٩٠م
عكا	عكا	رشدي (إناث)	١	١٣١٤هـ / ١٨٩٦ ـ ١٨٩٧م
عكا	الناصرة	ابتدائي (إناث)	١	١٣١٢هـ / ١٨٩٤ ـ ١٨٩٥م
عكا	عكا	دار معلمين ابتدائية	١	١٣١٦هـ / ١٨٩٨ ـ ١٨٩٩م
نابلس	نابلس	ابتدائي	٣١	١٢٩٥هـ / ١٨٧٨م
نابلس	نابلس	رشدي	٢	١٢٩٧هـ / ١٨٨٠م
نابلس	جماعين	ابتدائي	٢١	١٣٠٠هـ / ١٨٨٣م
نابلس	بني صعب	ابتدائي	١٠	١٣٠٢هـ / ١٨٨٥م
نابلس	جنين	ابتدائي	٣٩	١٢٩٩هـ / ١٨٨٢م
نابلس	جنين	رشدي	١	١٣٠٥هـ / ١٨٨٨م

اللواءين متساوية بمعدل ثلاثة مكاتب في كل منها مما يدل على ارتفاع نسبتها في لواء عكا قياساً على ارتفاع أعداد المكاتب الابتدائية في لواء نابلس. كما أن في لواء عكا مكتبين للإناث، أحدهما ابتدائي والآخر رشدي، في حين لا يوجد في لواء نابلس أي مكتب. وتتميز عكا كذلك بوجود دار معلمين ابتدائية فيها. وبالنسبة لتاريخ تأسيس هذه المكاتب فإن أقدم مكتب ابتدائي هو في لواء عكا، ويعود تأسيسه إلى ٨ تشرين الأول/أكتوبر ١٨٧٦م (١٢٩٣هـ) في حين أن أقدم مكتب في لواء نابلس يعود إلى تاريخ حزيران/يونيو ١٨٧٨م (١٢٩٥هـ).

وتزودنا سالنامه (نظارت معارف عمومية) للعام ١٣١٨هـ / ١٩٠٠ ـ ١٩٠١م بمعلومات هامة ومفصلة عن المكاتب غير المسلمة والأجنبية في لواء القدس منذ نشأة هذه المكاتب، وسنجملها في الجدول رقم (٥ ـ ١٥).

هي من أولى الطوائف التي حصلت على الترخيص لكامل مدارسها في هذا التاريخ المبكر. ويدل ارتفاع أعداد المكاتب وأعداد الطلاب في الطائفة اليهودية على ازدياد أعدادها من ناحية، وعلى اهتمامها بتعليم أبنائها في مدارسها الخاصة بها وربما على ارتفاع نسبة التعليم بين أبنائها من ناحية أخرى. ولم توجد لديها مكاتب ما بعد التعليم الابتدائي كما وجد لدى الطوائف الأخرى. وبالنسبة للروم فلا ندري هل كانت السالنامه تشير إلى الروم الأرثوذكس فقط أم إليهم وإلى الروم الكاثوليك معاً نظراً لغياب هؤلاء من القائمة؟

ويلاحظ في الجدول رقم (٥ ـ ١٦) أن اليهود قد تفوقوا على سواهم من المبشرين الأجانب في عدد المدارس التي افتتحوها. وهم، دون الآخرين، افتتحوا مدرسة رشدية وأخرى عالية فضلاً عن المدارس الابتدائية. ويلاحظ كذلك أن أقدم مدرسة ابتدائية

الجدول رقم (٥ ـ ١٥)
المكاتب غير المسلمة في لواء القدس

الطائفة المؤسسة	نوع المكتب	أعداد المكاتب (أو الأماكن) ذكور	إناث	عدد الطلبة ذكور	إناث	تاريخ التأسيس	تاريخ الترخيص
روم	إعدادي	١	ـ	٥٠	ـ	١٢٧٦هـ / ١٨٥٩ ـ ١٨٦٠م	١٣١٣هـ / ١٨٩٥م
روم	رشدي	٤	ـ	٤٥٠	ـ	١١٢٠هـ / ١٧٠٨ ـ ١٧٠٩م	١٣١٣هـ ١٨٩٥م
روم	ابتدائي	١١	٣	٦٦٢	٢٤٥	١١٦٠هـ / ١٧٤٧ ـ ١٧٤٨م	١٣١٣هـ / ١٨٩٥م
لاتين	ابتدائي	٨	٥	١٤٧	٢١٠	١١٧٠هـ / ١٧٥٦ ـ ١٧٥٧م	١٣١٣هـ / ١٨٩٥م
						وأيضاً	١٣٠٩هـ / ١٨٩٢م
أرمن	إعدادي	١	ـ	٣٠	ـ	١١١٠هـ / ١٦٩٨ ـ ١٦٩٩م	١٣١٤هـ / ١٨٩٧م
أرمن	رشدي	١	ـ	٥٠	ـ	١١١٠هـ / ١٦٩٨ ـ ١٦٩٩م	١٣١٤هـ / ١٨٩٧م
أرمن	ابتدائي	٢	١	١٩	٤٠	١١١٠هـ / ١٦٩٨ ـ ١٦٩٩م	١٣١٤هـ / ١٨٩٧م
موسوية / يهودية	ابتدائي	٣٧	١٢	١,٤٠٧	٣٤٩	١٠٢٠هـ / ١٦١١ ـ ١٦١٢م	١٣٠٩هـ / ١٨٩١م

يلاحظ في الجدول رقم (٥ ـ ١٥) أن الطائفة اليهودية أسست أكبر عدد من المكاتب الابتدائية للذكور والإناث في لواء القدس، ويبلغ مجموع هذه المكاتب ٤٩ مكتباً وأعداد طلابها ١,٧٥٦ طالباً وطالبة. وبالرغم من أن أول مكتب أسس عام ١٠٢٠هـ / ١٦١١ ـ ١٦١٢م (ما لم يكن هناك خطأ في السالنامه) فإن أوضاع مكاتبها التي يعود معظمها إلى ما قبل العام ١٣٠٩هـ / ١٨٩١ ـ ١٨٩٢م قد سويت وحصلت على ترخيص بها جميعاً بتاريخ ٢٢ كانون الأول/ديسمبر ١٨٩١م (١٣٠٩هـ). والطائفة اليهودية

أُسست من قبل اللاتين في العام ٩١٠هـ / ١٥٠٤ ـ ١٥٠٥م في حين أن أقدم مدرسة يهودية أجنبية أُسست عام ١٠٠٥هـ / ١٥٩٦ ـ ١٥٩٧م.

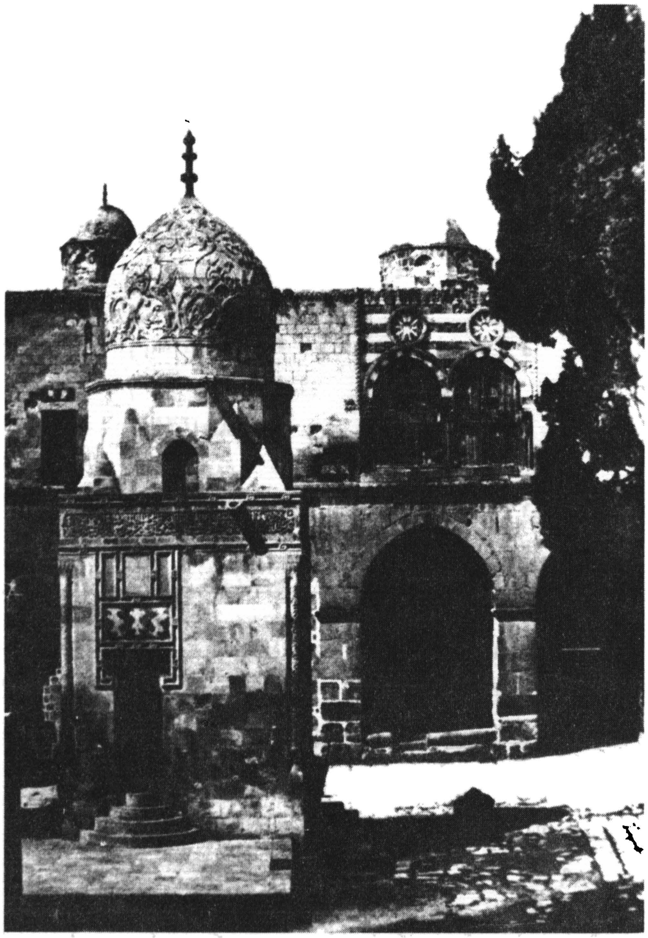
وبالرغم من أن هذه الإحصاءات غير شاملة، وتبقى في حدود ألوية معينة في فلسطين، فإنها هامة بدلالاتها وبالاهتمامات التي أبدتها مختلف الطوائف، وكذلك الدول، في افتتاح هذه المدارس بصورة شرعية ومرخصة أو بصورة غير شرعية.

الجدول رقم (٥ ـ ١٦)
المكاتب الأجنبية في لواء القدس

الطائفة المؤسسة	نوع المكتب	أعداد المكاتب (أو الأماكن) ذكور	إناث	عدد الطلبة ذكور	إناث	تاريخ التأسيس	تاريخ الترخيص
موسوية / يهودية	ابتدائي	١٦	٣	٥٧٣	٣٥٠	١٠٠٥هـ / ١٥٩٦ ـ ١٥٩٧م	١٣٠٩هـ / ١٨٩٢م
موسوية / يهودية	رشدي	١	ـ	٨٠	ـ	١٢٧٤هـ / ١٨٥٧ ـ ١٨٥٨م	ـ
موسوية / يهودية	إعدادي	١	ـ	٨٠	ـ	١٣٠٠هـ / ١٨٨٢ ـ ١٨٨٣م	ـ
بروتستانت	ابتدائي	١٠	٣	٥١٦	١٢٢	١٢٠٦هـ / ١٧٩١ ـ ١٧٩٢م	١٣٠٩هـ / ١٨٩١م
رهبان لاتين	؟	١١	٧	١,١٦١	٦٢٥	٩١٠هـ / ١٥٠٤ ـ ١٥٠٥م	١٣٠٩هـ / ١٨٩٢م
ألمان	ابتدائي	٢	(مختلط)	٦٤	٥٠	١٢٦١هـ / ١٨٤٥م	؟
أفراد أجانب	ابتدائي	٦	٨	٢٧٩	٣٩١	١٢٦٠هـ / ١٨٤٤ ـ ١٨٤٥م	١٣٠٩هـ / ١٨٩١م
		(منها مختلط ٤)		(منهم مختلط ٢٧٤)			

ويمكننا تكوين فكرة عن الاهتمام بالتعليم الذي أولته الحكومة العثمانية للمدارس الرسمية في فلسطين من نسبة ما رصدته في الموازنة تحت بند المعارف في كل من صنجقي عكا والبلقاء، ومقارنة ذلك بالصناجق الأخرى في ولاية سوريا خلال ثلاث سنوات متفرقة مأخوذة من ثلاث سالنامات لولاية سوريا كما يبين أرقامها بالقروش الجدول رقم (٥ ـ ١٧).

يلاحظ في الجدول رقم (٥ ـ ١٧) أن نسبة ما خصصته الدولة في الموازنة العامة للمعارف بوجه عام لم يتجاوز وسطياً ٤ ٪. وقد ازدادت نسبة ما أنفقته الدولة على المعارف في صنجق البلقاء عما أنفقته في صنجق عكا، وربما سبب ذلك الاختلاف في حجم سكان كل منهما. ويلاحظ كذلك الازدياد المطرد في نسبة ما خصص للمعارف في الموازنة في صنجق عكا. ولكن صنجق البلقاء يبين تراجعاً في النسبة في سالنامه ١٣٠١هـ / ١٨٨٢ ـ ١٨٨٣م. ويبرز صنجقا بيروت وحماة من بين الصناجق كافة في الارتفاع النسبي لمخصصات المعارف في الموازنة. ويدل هذا دون شك على ازدياد اهتمام الأهلين بتعليم أولادهم فيهما، في حين تتضاءل نسبة موازنة المعارف في الشام تجاه ضخامة الميزانية فيها والتي تفسر بكثرة ما أنفق على المصالح العثمانية والخدمات فيها.



المدرسة العثمانية في الحرم القدسي الشريف

الجدول رقم (٥ ـ ١٧)

الصنجق	سالنامه ١٢٩٧هـ / ١٨٧٩ ـ ١٨٨٠م			سالنامه ١٢٩٩هـ / ١٨٨١ ـ ١٨٨٢م			سالنامه ١٣٠١هـ / ١٨٨٢ ـ ١٨٨٣م		
	مجموع الموازنة	المعارف	النسبة	مجموع الموازنة	المعارف	النسبة	مجموع الموازنة	المعارف	النسبة
عكا	٧٦٣,٨٤٨	١٨,٢٨٨	٪ ٢,٣٩	٨٢٨,٧٠٢	٢٠,٩٠٤	٪ ٢,٥٢	٨٩٢,٦٤٢	١٩,٣٤٤	٪ ٢,٨٦
البلقاء	٤٨٢,٦٧١	١٣,٠٤٠	٪ ٢,٧٠	٥٦٧,٨٣٣	١٧,٨٤٠	٪ ٣,١٤	٦٠٣,٤٩١	١٧,٨٤٠	٪ ٢,٩٥
الشام	٢١,٤٩٢,٨٤٠	٤٠,٢٩٩	٪ ٠,١٨	٢٠,٥٧٢,٨٢٦	٨٦,٢٨٣	٪ ٠,٤١	٢٣,٣٨٠,٥١٥	٩٣,٢٤٣	٪ ٠,٣٩
حوران	٣٩٦,١٩١	٤,٥٩٢	٪ ١,١٥	١٦٢,٧٩٥	٤,٥٩٢	٪ ٢,٨٢	٦٤٦,٩٦٧	٤,٥٩٢	٪ ٧,٠٩
حماه	٧٠٠,١٣٤	٢٤,٠٦٢	٪ ٣,٤٣	٧٥٦,٣١٤	٢٥,٨١٦	٪ ٣,٤١	٧٥١,٧٧١	٢٥,٨١٦	٪ ٣,٤٣
بيروت	٩٨٥,٧٦٣	٣٦,٧٩٢	٪ ٣,٧٣	١,١٠٠,٦٣٣	٤١,٥٩٢	٪ ٣,٧٧	١,٠٥٨,٥٤١	٤٣,١٧٦	٪ ٤,٠٧
طرابلس	٨٨١,٥٦٧	٢٤,٩٣١	٪ ٢,٨٢	٨٩٣,٠١٦	١٧,٥٩٥	٪ ١,٩٧	٩٢٩,٤٧٠	١٧,٥٩٥	٪ ١,٨٩
اللاذقية	٥٦٦,٦٩١	١٥,٦٧٠	٪ ٢,٧٦	٥٧٩,٥٤٢	١٥,٦٧٠	٪ ٢,٦٩	٩٨٠,٢٥٧	١٠,٣٩٠	٪ ١,٠٥

الفصل السادس
مظاهر من الحياة الاقتصادية في فلسطين

تميزت الحياة الاقتصادية في فلسطين في القرن التاسع عشر بطابعها المحلي الذي بدا في طرق الزراعة والصناعة التقليدية، وشهدت أيضاً بدايات سيطرة الرأسمالية الأوروبية عليها في أعقاب الثورة الصناعية والتوسع الأوروبي الامبريالي. وظهرت هذه السيطرة في مجال التجارة التي استفادت من استخدام البواخر الكبيرة في نقل البضائع الأجنبية والمواد الخام، ومن تمديد شبكات الطرق البرية والحديدية بين موانىء فلسطين ومدنها الداخلية وما وراءها. فتغلغلت البضائع الأوروبية في كل مكان، وسيطرت على السوق المحلية تماماً كما حدث في المناطق الأخرى من بلاد الشام وفي غيرها. واستخدمت المواد الخام المستخرجة محلياً في الصناعة الأوروبية. ومنذ حكم محمد علي باشا في بلاد الشام فُتحت الأسواق المحلية على مصراعيها لهذه الصناعة فأضَرّتْ بالصناعة الحرفية المحلية وبالحرفيين الذين يشكّلون نسبة كبيرة من السكان، فأفقروا وهاجر بعضهم إلى الخارج وبخاصة إلى أمريكا. وسنعالج فيما يلي الأوضاع الزراعية والصناعية والتجارية التقليدية منها والمستحدثة، في فلسطين ومدى انعكاس سياسة الدولة العثمانية والأوضاع العالمية عليها.

الزراعة:

تشكل ملكية الأرض والتصرف بها القاعدة الأساسية في الزراعة. وقد وجدت أنواع من ملكية الأرض في فلسطين كغيرها من الأقطار العربية والإسلامية، فهناك أولاً الملك الخاص ويشتمل على ممتلكات سكنية أو تجارية أو زراعية. ويكثر الملك في المدينة أو القرية وبجوارهما المباشر، مثل العقارات والبساتين والكروم، التي يسهل استثمارها على ساكن المدينة أو القرية. وقلما امتدت الملكية الفردية بعيداً، وبخاصة في فترات عدم الاستقرار والأمن لتعذر استغلال الأرض. أما الملكيات الكبيرة في الأرياف فهي ناتجة بصورة رئيسية من الاستيلاء، بصورة شرعية أو غير شرعية، على الأراضي الأميرية (أراضي الدولة).

وإلى جانب الملك هناك الوقف وهو نوعان: خيري وذُرِّي (أهلي)، فالأول يُرصد لمؤسسات ذات نفع خيري، مثل جامع أو مدرسة أو زاوية أو سبيل، والثاني يُرصد على الذرية أو أهل الواقف حسب الشروط التي يضعها الواقف، وقد يقتصر على الذرية من الذكور دون الإناث وقد يشملهم معاً، ومن ثم على الفقراء في مكة والمدينة أو غيرهما. وقد كثر الوقف الذري بدءاً من القرن الثامن عشر، حين أكثرت الدولة العثمانية من مصادرة أملاك كبار الأغنياء فردَّ هؤلاء بتحويل بعض أملاكهم إلى وقف أهلي.

والوقف الخيري ذو أهمية خاصة في فلسطين نظراً لكثرة الأماكن الدينية في كل بلدة أو قرية فيها. وتشهد أعداد هذه الأماكن، العامر منها والخرب، على ماض ديني وثقافي هام. ويُعزى انهيار كثير من هذه الأبنية الدينية إلى الإهمال واختلاس

أموال الوقف العائدة إليها من قبل المتولين والناظرين عليها أو غيرهم. ففي مدينة غزة مثلاً وجدت عدة جوامع خربة في القرن التاسع عشر بسبب تلاشي أوقافها[١]. وفي الوقت الذي كانت تتعرّض فيه الأوقاف الخيرية في فلسطين وغيرها للعبث بعائداتها وما يترتّب عن ذلك من انهيار الأبنية التي رصدت تلك الأوقاف عليها نجد الأوقاف الذرية بازدياد لأنها كانت ضمانة أكيدة لواقفيها في إبقاء ثرواتهم ضمن أُسرهم وذرياتهم خشية مصادرة الدولة لهذه الثروات. وقد صادرت الدولة الثروات على نطاق واسع منذ القرن الثامن عشر بسبب حاجتها إلى المال. ولهذا فمما هو جدير بدراسة خاصة في فلسطين تبدل نسبة الأوقاف الخيرية إلى الأوقاف الذرية من فترة إلى أُخرى. وارتباط ذلك بعوامل سياسية واجتماعية واقتصادية.

والنوع الثالث من الأراضي هو الأميرية، أي الأراضي التي تعود إلى الأمير أو الدولة، وتُعرف اختصاراً بالميرية. والأراضي الأميرية التابعة لقرية ما تُعرف بأنها أراضٍ مشاع، أي أنها بتصرف القرية بكاملها، يخص كل فرد منها حصة مساوية لغيره. ولكن هذه الحصة في الأرض المشاع ليست ملكاً لأفراد لأنها تعود إلى الدولة، وللجماعة أو سكان القرية حق المزارعة فيها فقط. ولا يمكن أن تُبنى أية أبنية أو تزرع أية أشجار في هذه الأراضي بدون إذن الدولة. وإذا مُنح هذا الإذن يصبح البناء أو الشجر عندئذ ملكاً خاصاً في حين تبقى ملكية الأرض التي يقوم عليها هذا البناء أو الشجر للدولة. وينطبق هذا على أراضي الأوقاف أيضاً.

وفي كل سنة توزَّع الأراضي المشاع في القرية على أبنائها الراغبين بها والقادرين على استثمارها. ولكل فرد من القرية الحق الوراثي بفلاحة وزراعة الأرض المشاع بموجب حق المزارعة. وتُقسم هذه الأرض إلى أجزاء متساوية بحسب أعداد الأفدنة في القرية. والفدان هو ما يحرثه زوج من الثيران في اليوم الواحد. ولكن أعداد هذه الثيران التي يعمل كل زوج منها على حدة تختلف باختلاف نوعية الأرض، فالفدان في الأرض التلية أو الرقيقة التربة هو ما يحرثه زوج ثيران في يوم واحد. ولكن في الأرض المنخفضة أو السهلية حيث التربة عميقة والحراثة مجهدة وبطيئة فالفدان يعني عمل زوجين (أربعة) من الثيران في يوم واحد. وحين يقال «فدان وطاه»، فهذا يعني قطعة أرض تقتضي فلاحتها يوماً واحداً من قبل زوج من الثيران أو البقر، ويكون حجمها تقريباً واحداً في الأرض التلية كما في الأرض المنخفضة، فالتراب على الأرض التلية رقيق يمكن فلاحته بزوج من الثيران من طلوع الفجر حتى الغسق، في حين أن الأرض المنخفضة تكون سميكة، وتقتضي فلاحتها زوجين أو أربعة أزواج من الثيران للمدة ذاتها، بمعنى أن كل زوج يفلحها مدة ثم متى تعب حل مكانه زوج آخر وذلك لمدة يوم واحد. وتستخدم الثيران عادة في فلاحة السهول، والجواميس في الأراضي الغليظة التي تغمرها المياه، ولكن في الجبال غالباً ما استخدم عدد من الحيوانات مثل البقر والحمير والبغال والخيل بسبب رقة التربة. ويُطلق على المحراث بكامله اسم العود عندما يُستخدم لزوج من الثيران، وتُسمى أجزاؤه كالتالي: القُدّامانيّة وهي الخشبة التي تأتي ما بين الثورين وتوازنهما، والركبة التي تصل الخشبة بالرجل، وتنتهي الرجل بالسكة. وفي مؤخرة المحراث توجد اليد المرتفعة التي يمسك بها الحرّاث. وجميع الأخشاب هذه من السنديان[٢].

وقد وصف برغهايم Bergheim[٣] عملية اقتسام الأرض الأميرية المشاع وتوزيعها على الفلاحين أو الشدّادين قبل تطبيق قانون الأراضي العام ١٨٥٨م وصفاً دقيقاً نستعرض أهم نقاطه لأهميته، ولأنه يوضح كثيراً من العادات والتعابير الزراعية التي كانت مستخدمة آنذاك واستمرت بعد ذلك. وكان عدد من هذه العادات والتعابير الزراعية معروفاً آنذاك في مناطق أخرى من بلاد الشام[٤].

يُدعى من يقوم بزراعة الأرض المشاع بالشدّاد (جمعها شدّادون)، أي انه يشدّ العدّة ويتهيأ للفلاحة. وتعطى للشدّاد قطعة أرض تتناسب وعدد الأفدنة التي ينوي استخدامها. مثلاً شخص ما يُعطى قطعة أرض يكفي فدان واحد لفلاحتها، ويُعطى آخر قطعة أرض أُخرى يفلحها فدانان، وهكذا. وأحياناً تُقسم الأرض إلى نصف فدان تُعطى للشخص الذي يملك ثوراً واحداً فقط. وإذا كان هناك شخصان يملك كل منهما ثوراً واحداً فإنهما يعملان معاً على محراث واحد يُشد إلى زوج من الثيران يوماً على الأرض المعطاة لأحدهما ويوماً آخر على الأرض العائدة للشخص الآخر. وإذا كانت أراضي القرية أكبر أو أصغر من عدد فدادين الشدّادين فإنها تُقسم بالتساوي بينهم.

ولا يسمح للغريب بزراعة أراضي القرية أو استعمالها بدون موافقة سكانها أو ممثليهم. وتؤجّر له الأرض عندئذ لسنة أو لموسم، وتنفق الأجرة في سد التزامات السكان، مثل الضرائب. ولا يسمح لفرد من القرية أو لشدّاد بتأجير الأرض التي أُعطيت له إلى غريب. ولكن يمكنه إقامة شراكة مع من يزوده بالثيران أو البذار الضروريين لاستغلال الأرض. ويشترط أن تتم

هذه الشراكة قبل تخصيص الأرض للشدّاد. ويعامل هذا الغريب الشريك، في مدة شراكته، كواحد من سكان القرية ويشترك معهم بدفع الضرائب والرسوم والنفقات.

ويتمتع الشدّاد بقطعة الأرض المخصصة له لمدة سنة، وتقتصر حقوقه على محاصيلها فقط. فإذا ما جمعها انتهت حقوقه بالنسبة للتصرف بالأرض. وتُقسم الأرض من جديد وتوزع على شدّادي القرية بالقرعة، فإذا كانت الأرض تتألف من عشرين فداناً قُسمت أولاً إلى أربعة أقسام، يُدعى أولها بالقسم الجنوبي، يليه الشرقي فالشمالي والغربي. ويُقسم كل قسم بدوره إلى عشرين قسماً بواسطة حبل أو قصبة يبلغ طولها حوالي تسعة أقدام. ولكل حقل في أراضي القرية اسم خاص به أُطلق عليه إما بالمصادفة أو لسبب ما، مثلاً حقل فيه صخرة كبيرة يسمى حقل الصخرة، وآخر حقل التلة، وثالث حقل الطريق (لقربه منه) ورابع حقل القتال (لأنه حدث فيه قتال). وتُسمى الحصة أو القسم الذي قسم إليه الحقل أو الأرض، بالنسبة لعدد الأفدنة، بالمارس أو المارث (جمعها موارس أو موارث)، وربما التسمية بالنسبة إلى مَرَسَة، وتعني الحبل الذي تُقاس به الأرض. وهناك من يعتقد أن التسمية مارث مشتقة من ميراث، لأن الفلاحين يستخدمون الجمع موارث (موارس) في حين أن جمع مرسة العامي هو مَرَسَات، ولا ترد هذه الصيغة على لسان الفلاحين.

ويتم توزيع الحصص بالقرعة على الشكل التالي: تُكتب أسماء الحقول في كل قسم من الأقسام الأربعة على حصى صغيرة توضع في كيس. وتوجد عادة أربعة أكياس، واحد لكل قسم، ويضم الكيس الواحد عشرين حصاة تحمل كل منها اسم قسم من الحقل. ويقف الشدّادون على شكل نصف حلقة يتوسطهم إمام أو خطيب القرية وهو جالس. ويدعى صبيّان دون الخامسة من العمر، كضمانة لعدم تحيزهما، ويقفان على جانبي الإمام أو الخطيب. ويؤخذ أحد الأكياس ويضع أحد الصبيين يده بداخله ويخرج حصاة (تسمى جرل أو جرول) تحمل اسم أحد أقسام الحقل. ويسأل الإمام الصبي الآخر لمن ستُعطى هذه الحصة (أي القسم) من الأرض فيلفظ الصبي اسم أحد القرويين الحاضرين أو يشير إليه بإصبعه، وتُعطى له الحصة تبعاً لذلك. ولا يُقبل أي اعتراض على هذا التدبير. وعلى الشدّاد أن يقبل بهذه الحصة، أو بالأحرى بالحصص الأربع التي أُعطيت له، لأن هذه العملية تتكرر بالنسبة للأكياس الأربعة. وأثناء عملية سحب الحصى يردّد الشدّاد الذي ينتظر حصته «الله يقوم بجرلي» أي الله يرعى حصتي. وتجري عملية توزيع الحصص هذه كل سنة، لذا لا تبقى حصة الأرض بيد الشدّاد أكثر من سنة واحدة. وقد تكون من نصيبه في العام التالي أو بعده، وعلى هذا، فإن الذي يملك زوجاً من الثيران يأخذ أربع حصص من الأرض في أماكن متفرقة من الأرض المشاع الأميرية، وتسمى الحصة مارساً.

هذا ما كان عليه وضع التصرف بالأراضي الأميرية في فلسطين قبل تطبيق قانون الأراضي لعام ١٨٥٨م والأنظمة الأخرى المتعلقة بملكية الأرض، التي اقتضت سنوات عدة من تاريخ صدور هذا القانون لوضعها قيد التنفيذ. وبموجب هذه التنظيمات الجديدة التي طُبقت، كما يبدو، في حوالي العام ١٨٧٢م قسمت الدولة الأراضي الأميرية إلى حصص ووزعتها على الفلاحين، وأصبحت هذه ملكاً لهم، من حقهم بيعها لمن شاؤوا من أبناء قريتهم أو غيرهم. ويمكن للفلاح صاحب الأرض أن يبيع حق المزارعة في الأرض، أي حق استغلالها فقط، كما لو أنها ما زالت أرضاً أميرية. وهدفت الحكومة من هذه الإجراءات تفتيت الأرض المشاع القديمة. ولكنها لقيت مقاومة من بعض الفلاحين الذين اعتادوا على الإجراءات القديمة.

وقد تعرّض الفلاحون في فلسطين، وفي غيرها من بلاد الشام، إبان الحكم العثماني، وبخاصة في القرن التاسع عشر[٥]، إلى الابتزاز في عمليات جمع الضرائب، فأساء هذا العمل إلى الزراعة بوجه عام. والضرائب الرئيسية نوعان: ميري وعُشر. فالميري ضريبة مالية سنوية قدرها ٣ ـ ٥ ٪ من إنتاج الأرض سواء أنتجت فعلاً أم لم تنتج. وإذا ما زُرعت الأرض جُبيت ضريبة الميري من قبل خطيب القرية والمسنّين من الشدّادين بنسبة ما لهم من أفدنة. إما إذا تُركت بوراً، لسبب أو لآخر، فإن الضريبة تُجبى من جميع البالغين الذكور في القرية بالتساوي. وإذا زُرع قسم من الأرض وترك الآخر بوراً فإن الزارعين يدفعون قسماً، ويتحمل سكان القرية ومنهم هؤلاء الزارعون بقية الضريبة. وتُسلم أموال هذه الضريبة إلى خزانة الدولة.

أما بالنسبة إلى العشر على المحصول فإن الحكومة كانت تلزّمه لمن يلتزم بأكبر مبلغ. ويسمّى الملتزم بالعشّار. ويجمع العشّار عادة مبلغاً أكبر بكثير من المبلغ الذي التزم به ليعوض عما دفعه من رشاوى للحصول على الالتزام، وليؤمّن ربحاً كبيراً له. وهناك وصف دقيق وهام[٦] للأساليب التي يلجأ إليها العشّار لابتزاز المال من الفلاحين في فلسطين يجدر الاطلاع عليه ونوجزه فيما يلي لمعرفة أحد الأسباب الرئيسية في الإساءة إلى الفلاح. لم يكن يُسمح لأي مزارع بالبدء بالحصاد قبل أن يصل العشار أو ممثله إلى القرية. ويتأخر هذا عن القدوم عمداً ليجبر الفلاحين

المضطرين للحصاد ليتفقوا معه على كمية معينة من المحصول لقاء العشر. وعندما يصل إلى القرية مع جمع من المرافقين يستريح أربعة أو خمسة أيام بحجة عناء السفر أو التمارض، وتُقدم القرية له ولمرافقيه وخيولهم الطعام والعلف أثناء ذلك. ومن ثم يقوم العشار بإحصاء الشدّادين وأفدنة كل منهم. ويدور على الحقول مصطنعاً الدهشة من وفرة المحصول بغية الحصول على حصة أكبر. ومن ثم يعود إلى القرية ويدعو الشدّادين والخطيب والمسنّين للاجتماع به، ويخاطب أحدَ الشدّادين باسمه ممتدحاً خصب الموسم، ويذكّره بكرم الله الذي منّ عليه بذلك، ويضطر الشدّاد إلى الإجابة «الحمد لله»، فيشكره العشار لاتفاقه معه على أن هذه السنة سنة خير والموسم ممتاز ويسأله كم يعتقد أن محصوله من القمح والشعير وغيره، مقدّراً بالصاع، سيكون بعد عملية الدراس. وقبل أن يرد الشدّاد يجيب عنه العشار بأنه يعتقد أن المحصول سيكون كذا وكذا، والرقم الذي يعطيه يبلغ خمس أو ست مرات ما يمكن أن يكون عليه في أحسن الأحوال. ويتذمر الشدّادون ويقولون انه مهما أتاهم في الموسم فهو بركة ولكن لن يبلغ ذلك الرقم الذي ذكره. ويتكرر هذا المشهد عدة أيام إلى أن يمل الشدادون فيقبلون عندئذ بدفع كمية معينة من المحصول لقاء العشر. ويغادر العشار القرية مبقياً فيها ممثله ليتأكد من استلام حصته. وإذا ما رفض الشدادون طلب العشار وقسموا محصولهم الخام، قبل الدراس، إلى عشرة أقسام وعينوا له حصته فإن العشار يؤجل درس حصته، وبالتالي لا يمكن للشدادين درس حصصهم بدون حصته التي من واجبهم القيام بها. ثم يجمع العشار حصصه في مكان معين ويخرج بشيء جديد وهو أن أكثر من نصفها قد سُرق، وأنه سيبلغ الدولة عن ذلك. وعندها يُضطر الشدّادون إلى جمع حصة إضافية لتغطية «ما سُرق»، وعندها يسمح بدرس قمحه، ثم قمحهم. ويأتي الفلاحون بجمال على نفقتهم لنقل حصة العشار إلى المدينة التي يعينها لهم. وتكون النتيجة أن حصة العشّار لا تقل، إلا فيما ندر، عن ثلث المحصول في حين أنها محددة بعشره فقط. وهكذا تؤدي كثرة الضرائب وإرهاق الفلاحين بها إلى تعطيل فعالياتهم والإضرار باقتصادهم.

وبعد الحصاد يفد أُناس من المناطق الجبلية إلى السهول للبحث في الحقول عن بقايا ما خلفه الحصادون، ويعرف هؤلاء باللقاطة أو الصيّافة، لأنهم يلقطون البقايا في الصيف. ولكثرة هؤلاء، لأن ما يحصلون عليه هو أوفر مالاً مما لو عملوا كحصادين، فإن وجود الناطور يصبح ضرورياً لإبعادهم. وأغلب النواطير كانوا من المغاربة[٧]. وهناك عادة في بعض القرى أن يتركوا عن قصد قسماً من الموارس غير محصود، ويسميه العامة جروعة، وذلك للإنفاق على الأرامل والأغراب والمحتاجين[٨].

ويمكننا أخذ فكرة عن مقدار واردات ضريبة العُشر للدولة مقدّرة بالقروش من صنجقي عكا والبلقاء، ومقارنتها مع واردات العُشر في الصناجق الأخرى من بلاد الشام بالعودة إلى السالنامات. وسنأخذ عينتين من سالنامتي ولاية سوريا لعامي ١٢٧٩هـ / ١٨٦٢ ــ ١٨٦٣م و ١٣٠١هـ / ١٨٨٣ ــ ١٨٨٤م:

الجدول رقم (٦ ــ ١)

الصنجق	سالنامه ١٢٧٩هـ / ١٨٦٢ ــ ١٨٦٣م			سالنامه ١٣٠١هـ / ١٨٨٣ ــ ١٨٨٤م		
	مجموع الواردات	الأعشار	النسبة	مجموع الواردات	الأعشار	النسبة
عكا	٦,٥٤٢,١٨٨	٣,٩٢٠,٧١٧	٥٩,٩٢ ٪	٦,٤٢٧,٣٧٧	٣,٨٠٢,٠٠٠	٥٩,١٥ ٪
البلقاء ــ نابلس	٧,٩٩١,٠٢٥	٤,٧٨١,١٠٨	٥٩,٨٣ ٪	٩,٣٣٨,٢٩٥	٦,٠٧٤,٦١٧	٦٥,٠٥ ٪
الشام	١٥,٢٤٩,٠٤٣	٧,١٩١,٦٣٦	٤٧,١٦ ٪	١٥,٧٥١,٦٧٨	٧,٦١٥,٠٩٦	٤٨,٣٤ ٪
حوران	٥,٩١١,٤٩٧	١,٤٤٠,٩٧١	٢٤,٣٧ ٪	٥,٧٩٥,٦٠٩	١,٩٤٩,٨٨١	٣٣,٤٤ ٪
حماة	٨,٠٢٢,٢٧٩	٣,٩٧٨,٥٩٩	٤٩,٥٩ ٪	٦,٩٩٢,٦٥٣	٣,٦٢٤,٦٥٥	٥١,٨٣ ٪
بيروت	٦,٣٦٠,٨٠٩	٢,٤٩٦,٩٧٠	٣٩,٢٥ ٪	٥,٩٧٥,٢٦١	٢,٥٧٨,٦٧٥	٤٣,١٥ ٪
طرابلس	٥,٢٧٤,١٤٢	٢,٥٠٧,٨٠٨	٤٧,٥٤ ٪	٥,٠٣٦,٤٠٩	٢,٤٠٠,٠٠٠	٤٧,٦٥ ٪
اللاذقية	٣,٨٤٤,٨٩٩	٢,٠٧٦,٣٢٣	٥٤,٠٠ ٪	٣,٤٩٩,٠٤٤	١,٨٠٠,٠٠٠	٥١,٤٤ ٪
المجموع	٥٩,١٩٥,٨٨٢	٢٨,٣٩٤,١٣٢	٤٧,٩٦ ٪ الوسطي	٥٨,٨١٦,٣٢٦	٢٩,٨٤٤,٩٢٤	٥٠,٧٣ ٪ الوسطي

يلاحظ في الجدول رقم (٦ ـ ١) أن نسبة واردات الأعشار في صنجق عكا إلى مجموع الواردات منه هي ٥٩,٩٢ ٪، مما يدل على أهمية الإنتاج الزراعي في صنجق عكا وأهمية ضريبة العشر التي تشكل أكثر من نصف مجموع الواردات. ويتميز بالنسبة نفسها تقريباً صنجق البلقاء ـ نابلس في العام ١٢٧٩هـ / ١٨٦٢ ـ ١٨٦٣م ولكنه يتفوق على عكا في العام ١٣٠١هـ / ١٨٨٣ ـ ١٨٨٤م. وبالمقارنة مع الصناجق الأخرى فإن ضريبة العشر تكون أقل أهمية بالنسبة لمجموع الواردات، وبخاصة في صنجق حوران في العيّنتين. وربما سبب ذلك تعطل المواسم الزراعية فيه بسبب شح المياه.

وإلى جانب ضريبة الأعشار المرهقة عمدت الدولة في العام ١٨٨٤م إلى ابتزاز المال من الفلاحين بفرض ضريبة على كل حيوان يحمل منتجات الريف لدى دخوله إلى مدينة القدس. وأُقيم الحراس عند أبواب المدينة وتقاضوا ما يعادل أربعة سنتات أمريكية على كل جمل محمّل يدخل المدينة وسنتين على البغل وسنتا على الحمار. وكان المفروض أن تُنفق هذه العائدات على تحسين شوارع القدس، ولكن معظمها أُنفق على رواتب المهندسين المسؤولين عنها[٩].

وقد تنوعت وسائل توظيف المال في الأرض لاستغلالها، وكثيراً ما عمد الشدّادون أو الملاكون إلى الشراكة مع آخرين في الريف أو في المدينة لقاء حصة معينة من المحصول لكل فريق. كما أن اقتراض المال من قبل الفلاح من دائنين ريفيين أو مدنيين كان أمراً شائعاً في ريف فلسطين. وغالباً ما يكون المدينون في الريف جماعة والدائن فرداً من المدينة. ويلتزم المدينون بدفع الدين جماعياً[١٠].

كانت الفائدة على الدين كبيرة ومرهقة للفلاح، وبالتالي مضرة بالزراعة. ويذكر القساطلي أثناء زيارته قرية يبنة من بلاد غزة التي يصفها بأنها تبعد أربع ساعات عن يافا جنوباً بانحراف إلى الشرق وساعة ونصف الساعة عن بحر الروم، بأن «أراضي هذه القرية مخصبة وأهلها أصحاب نشاط في الزراعة غير أنه لاستغراقهم في مال الفايظ (أي الفائدة) الذي يدفعون عنه ٤٠ إلى ٥٠ بالمئة في السنة لا يتمتعون بأثمار أتعابهم»[١١]. وتزداد الفائدة في الديون القصيرة المدى، وتتناقص في الديون البعيدة المدى شريطة أن تتوفر فيها ضمانة جيدة وإلاّ فضّل أصحاب المال تخبئة مالهم على المخاطرة باستثماره في الديون[١٢]. والفائدة الدارجة بالنسبة للفلاحين كانت بحدود ٣٠ ٪، والضمانة للدين هي محاصيلهم. ولكن هذه النسب لم تكن مطبقة في كل مكان.

وقد تصل أحياناً إلى خمسين أو مائة بالمائة في السنة الزراعية. أما بالنسبة للذين قدموا الديون بفوائد كبيرة أشير إليها باسم «دين الفايظ»، فقد كانوا أنواعاً من الناس. وقد خص القساطلي يهود الخليل مثلاً بهذه المهنة حين قال عنهم: «وهم يتعاطون البيع والشراء ودين الفايظ ويوجد بينهم أغنياء بالنسبة للسكان»[١٣].

وحول العلاقات الزراعية وتوظيف المال لاستثمار الأرض يصف القساطلي استثمار أرض قرية رافات الغنية في منطقة القدس التي هي ملك دير اللاتين في القدس وذات المحاصيل والأبنية الحديثة فيقول:

«. . والفلاحين الذين يشتغلون في تلك الأراضي الواسعة المختصة بها يعطون لصاحبها الربع أو الخمس من المحاصيل بعد إعطاء الأعشار للحكومة، وهم يقدمون البقر للحراثة والبذار وهو يدفع الأموال الأميرية. وقد وجدت الفلاحين هناك مسرورين بذلك وأي سرور بنجاتهم من تعديات الضابطية (جنود غير نظاميين يرافقون جامعي الضرائب) التي يلحقونها بالفلاحين»[١٤].

وإلى جانب سوء تصرف هؤلاء الجنود غير النظاميين وإرهاق الفلاحين بالضرائب تضررت الزراعة كذلك من تجنيد شبان القرى في الجيش. وقد انتزع التجنيد العناصر المنتجة بين الفلاحين[١٥]. وقد ذُكر أن أشد سنوات التجنيد في فلسطين كانت في العام ١٨٨٦م، عندما أُرسل نحو خمسة آلاف مجند واحتياطي إلى استانبول. وعمدت الدولة آنذاك إلى أخذ شخص واحد من كل سبعة ذكور للتجنيد. وأمكن لغير المسلمين أن يدفعوا ضريبة إضافية لقاء عدم التجنيد. وطُبق ذلك حتى على المسلمين فكان على الواحد من هؤلاء أن يدفع خمسين ليرة تركية ذهب لقاء الإعفاء لمدة خمس سنوات. ويدفع مثل ذلك لقاء خمس سنوات تالية، وبعد ذلك يدعى للخدمة المحلية فقط. وكانت ضريبة عدم التجنيد المفروضة جماعياً على سكان القدس من غير المسلمين للعام ١٨٨٦م موزعة على النحو التالي: اليهود ما يعادل ٣,٠٤٣ دولاراً، الأرثوذكس ١,٢١٧ دولاراً، الكاثوليك ١٧ دولاراً، اللاتين ٨٢٦ دولاراً، الأرمن ٢٦٠ دولاراً، الأقباط ٥٦ دولاراً، والبروتستانت ٣٧ دولاراً[١٦]. ويدل ارتفاع ضريبة الإعفاء من التجنيد التي يدفعها اليهود في القدس والبالغة حوالي ٥٦ ٪ من مجموع الضريبة على ازدياد عدد اليهود في القدس. وقد شارك جنود فلسطين في صيف العام ١٨٨٩م في إخماد الثورات التي حدثت في جزيرة كريت ضد العثمانيين. فقد أُرسل في البدء ثمانمائة جندي من فلسطين، وكان نصفهم من القدس، إلى

كريت. ثم أُرسل جنود الاحتياط من فلسطين إلى كريت وتبعهم دعوة الرديف وإرسالهم إلى الصرب مما أضر بفعاليات فلسطين كثيراً(١٧).

وقاسى الفلاحون كذلك من الأوبئة التي أصابتهم وأصابت مواشيهم، وعطلت فعالياتهم الزراعية، كما حدث مثلاً في شتاء العام ١٨٧٩م في منطقة نابلس. وقد تم حجر صحي على المواشي مما يدل على تطور الخدمات الصحية(١٨). وقد وصف القساطلي أسباب الأمراض الوبائية بين سكان جبل الخليل فقال:

«ولو كان يوجد عند الأهلين ولو بعض الاعتناء في أمر النظافة لكانت أجسامهم أحسن بنية مما هي عليه الآن ومعدل أعمارهم أطول كثيراً... ويا حبذا لو انتبهوا لذلك لقطعت من بينهم أسباب الأمراض الوبائية التي توافيهم في سنين الأمطار الغزيرة فإنه عندما تكثر الأمطار كالسنة الحالية التي هي سنة ٧٤ مسيحية توافيهم عقبها بعض أمراض فتاكة تفعل بهم فعلاً مريعاً ومحزناً فإنها تسكر بيوت كثيرة وتقتل كل أهلها، وأكثر هذه الأمراض يكون ابتداء دخولها إلى الجهات الغربية من هذا الجبل حيثما يوجد مياه نبعية والذي يساعدها على الامتداد والفتك الأسباب التي تقدم ذكرها وعدم وجود أطباء لمنع سريانها»(١٩).

وتأثرت الزراعة كذلك من الجفاف الذي أضر بإنتاج الحبوب واستدعى استيرادها أحياناً، كما تضررت من الجراد الذي قضى مثلاً في صيف العام ١٨٧٨م على نصف المحصول(٢٠).

كما قاسى الفلاحون من عدم الحصول على سعر مناسب لمحاصيلهم. مثال ذلك أن فلاحاً يأتي بحمل جمل من الفحم ليبيعه في المدينة فيلتقي عند الباب الخارجي بأحد الوسطاء الذي يمسك بجمله إلى أن يبيعه الحمل بما يعادل دولاراً ونصف الدولار. وبعد دقائق يبيعه هذا الوسيط في المدينة بدولارين ونصف الدولار(٢١).

وقاست الزراعة أيضاً من تعديات زعماء الريف على أراضي القرى المجاورة وكذلك من غزوات بعض القبائل البدوية. فقبل أن يُطبّق قانون الأراضي للعام ١٨٥٨م في حوالي العام ١٨٧٢م ويصبح القرويون بموجبه ملاّكين للأراضي الأميرية التي يتصرفون بها، كانت أراضي القرى محددة تبعاً للأعراف والتقاليد. ولكن كثيراً ما هاجمت القرى الكبيرة القرى الصغيرة وأخذت أراضيها وثروات أهلها. وهذا أحد أسباب كثرة القرى الخربة في فلسطين. ويذكر في هذا المجال تعدّي زعماء قرية العنب (أبو غوش)، على قرية بيت محسير عندما حاول سكانها تأكيد ملكيتهم للأراضي الأميرية الزراعية التي ليس لها ملكية ثابتة خلافاً للبساتين والكروم في ضواحي المدن والقرى.

وكان بعض القبائل البدوية ناشطاً في تخريب الزراعة. وجاء في تقرير القنصل الأمريكي في القدس في ١٩ كانون الثاني/يناير ١٨٥٩م بأن الزراعة تتعرض للخسارة بسبب تعدّي البدو الذين يعبثون بالأمن على مسافات قصيرة من المدن. كما أن الفلاحين مرهقون بالضرائب، وهناك حاجة ماسة لحكومة قوية تردع هؤلاء(٢٢). ولم يكن تعدي البدو على الفلاحين بأقل وطأة بعد عقد من الزمن، ولكن قوات الحكومة آنذاك أخذت بملاحقتهم وبمصادرة مواشيهم وخيولهم لمصلحة الوالي العثماني وليس للتعويض عن الفلاحين المتضررين(٢٣). ومع ذلك استمرت الشكوى من تمرد البدو وتهديدهم الزراعة، وكذلك من سوء جامعي الضرائب ومن التجنيد الإجباري، مما عطّل الفعاليات الزراعية كما يجمل ذلك تقرير للقنصل الأمريكي في القدس بتاريخ ٣٠ أيلول/سبتمبر ١٨٧٠م(٢٤).

وبالرغم من سيطرة الدولة العثمانية على كثير من مناطق فلسطين في فترة التنظيمات فإن القساطلي يشير في العام ١٨٧٤ إلى استمرار تخريب بعض البدو للزراعة بقوله: «يا حبذا لو انتبهت الحكومة في هذه البلاد إلى الدمار الحالّ بها واجتهدت في إعمارها بواسطة إدخال العربان إلى دائرة الطاعة»(٢٥). وبالمقابل عملت بعض القبائل في الزراعة وأسهمت في زيادة الثروة الزراعية مثل عرب التعامرة والرشايدة في منطقة عين جدي في جبل الخليل، الذين زرعوا في منتصف شهر نيسان/ابريل الخيار في سهل عين جدي فأتى بالثمر بعد ثلاثة أشهر بسبب حماوة الأرض، وكذلك زرعوا الحنطة فأتت بموسم كبير(٢٦).

وحين طُبق قانون تملك الأراضي الأميرية في العام ١٨٧٢ خشي فقراء الفلاحين مغبة تسجيل الأراضي التي كانوا يتصرفون بها في ملكيتهم تحاشياً لدفع رسوم الملكية، وما يترتب على ذلك لاحقاً من ضرائب. وباع بعضهم أراضيهم فور تسجيلها باسمهم. ويذكر أن فلاحي قرية بيت دجن في منطقة يافا باعوا ثلث أراضيهم إلى أفندية يافا، وبقي الثلث باسم القرية مجتمعة. أما الثلث الثالث فكان ملكية خاصة.

وظهرت في هذه الأثناء، والفلاحون حائرون بين تسجيل الأرض باسمهم أو بيعها، صفقات لتملك أراضٍ واسعة من قبل بعض الأغراب، ظاهرها تحسين استغلال الأرض، وباطنها تجريد الأهالي من ملكيتها وجعلها وسيلة للربح فمكن ذلك المهاجرين اليهود في المدى البعيد من الحصول عليها. ومن هذه الصفقات شراء أسرة سرسق من بيروت في حوالي العام ١٨٧٢ النصف الشمالي من مرج ابن عامر. وذُكر أنهم حصلوا على سبعين ميلاً

مربعاً (١٧٩ كم٢) من الأرض تضم عشرين قرية مقابل عشرين ألف ليرة إنكليزية. وقُدرت الضرائب على هذه القرى بحوالي أربعة آلاف ليرة إنكليزية في السنة، ووسطي دخلها بما لا يقل عن اثني عشر ألف ليرة. أما كيف تمت هذه الصفقة فيقول تعليق معاصر لها «إن ذلك جزء من التاريخ السري التركي»(٢٧).

ويُعتقد أن أسرة سرسق الأرثوذكسية يونانية الأصل، وأنها سكنت مرسين قرب أضنة جنوبي تركيا، واستخدمها العثمانيون في التزام الضرائب في لبنان. ثم برز أفرادها كرجال مال، وأسسّوا شركة مالية ساهمت في مدّ طريق بيروت ـ دمشق البري (١٨٦٣م) وفي شق قناة السويس (١٨٦٩م)(٢٨).

أما الصفقة الأخرى فقامت بها شركة يهودية أسستها أسرة برغهايم Bergheim في القدس، في حوالي العام ١٨٧٢م، بشرائها مزرعة في أبوشوشة إلى الجنوب الشرقي من الرملة. ويقدر ما امتلكته هذه الأسرة بخمسة آلاف فدان، واستخدمت الفلاحين المقيمين في المزرعة باستثمارها فأدى ذلك إلى الاختلاف معها وقيام أحد الفلاحين بقتل أحد أفرادها(٢٩). ويبلغ من اتساع عملياتها الزراعية أنها امتلكت حصادتين إنكليزيتين وعرض عليها شراء حصادة ثالثة أمريكية. وكان أحد أفرادها، وهو سام برغهايم، نائب القنصل الأمريكي في القدس(٣٠).

وتجدر الإشارة إلى أن مئات الفدادين من الأراضي في منطقة القدس امتلكتها واستغلتها زراعياً أديرة اللاتين والروم الأرثوذكس والأرمن والكنيسة الانغليكانية في القدس. وكان ازدهارها لافتاً للأنظار بالنسبة للأراضي القاحلة المجاورة. ونظراً لكون هذه الأراضي جبلية فقد كانت ملائمة لزراعة الزيتون والكرمة(٣١).

وإذا انتقلنا إلى الغلال الزراعية في فلسطين وجدنا تنوعاً وغنى كبيرين وتخصصاً في الأنواع في معظم المناطق، فالقرى التي تحوي ينابيع ماء، مثل سلوان والولجة ولفتا وبتّير وأرطاس وسلواد وغيرها، تعنى بزراعة أراضيها وتنظيفها وتسميدها فتنتج موسمين من الخضار وتبيعها في سوق القدس. وتشتهر قريتا جورة وحمامة، قرب غزة، بأنها من أغنى المناطق بالخضار. ففيهما تنتج الخضار المبكرة، مثل البندورة والفاصوليا، في أوائل شباط/فبراير. وتشتهر قرية سلوان في منطقة القدس بالقرنبيط والسلق والبقدونس، وقرية بتّير بالباذنجان، وأرطاس بالبندورة والإجاص والدراق. وتُعد البساتين المروية في منطقة تنور، تحت بيت عطاب، بأنها الوحيدة في المنطقة الجبلية التي تنتج الحمضيات الجيدة. وتشتهر منطقة فطير عند قرية بيت جمال ببصلها، كما تشتهر به علّار قرب بيت عطاب. وتختص بساتين يافا بالبرتقال المشهور عالمياً. وبالقرب من قريتي يبنة وشحمة في منطقة الرملة مناطق زراعية مشهورة. وقد سكن اليهود المهتمون بالزراعة في قرية وادي حنين في منطقة الرملة منذ العام ١٨٨١م، ولكن مرض الحمى حلّ بهم، كما حلّ من قبلهم بالجاليات الروسية والألمانية، وذلك بسبب البرغش في المستنقعات في منطقة روبين. وينتج وادي حنين قصب السكر الذي يزود به يافا والرملة. ويكثر الملفوف في يافا، ويوجد قليل منه في أرطاس(٣٢).

ويمكن إجمال توزع المنتجات الزراعية في فلسطين، بعد الذي ذكرناه مفصلاً، في الأمور التالية: أولاً، من الشمال إلى الجنوب السهل الساحلي، ثم سلسلة الجبال الوسطى، ثم وادي الأردن، وبعدها بلاد شرقي الأردن. ويقطع السلسلة الجبلية مرج ابن عامر الممتد من المتوسط إلى الأردن. وتسمى المرتفعات إلى الشمال منه تلال الجليل، وفي الوسط تلال السامرة. ويختص السهل الساحلي بصورة رئيسية بإنتاج الحبوب على أنواعها وكذلك القطن والحمضيات. كما تُزرع الحبوب في الأودية. وتصلح المناطق الجبلية لزراعة أشجار الزيتون والتين والكرمة.

وتتوزع في جميع هذه المناطق أنواع الماشية. وكمثال على أعداد المواشي في منطقة محددة فقد ذكر القساطلي في العام ١٨٧٤م أن سكان قرية يطا في جبل الخليل يبلغون حوالي سبعمائة شخص يجتهدون في تربية المواشي، وذلك لخصب المراعي التي حولهم. وقد أخبره مشايخهم أن عدد المواشي من الماعز والغنم في هذه القرية يبلغ نحو عشرة آلاف رأس. ويوجد بها بعض الخيل والجمال والحمير(٣٣).

ويشكل القمح أحد المنتجات الزراعية الرئيسية في فلسطين. وهو على أنواع مثل النرسي (النورسي) القليل التبن، وصفره مفروطة الأحسن تبناً، وقطراوية وهو رقيق، وأبوحربة، وطوباسي، وحوراني، وغزاوي، ونابلسي، وعجلوني وغيرها. والشعير على أنواع منه الفرقدي والغزاوي والسبعيني والنوع الأخير سمي كذلك لأنه ينضج في سبعين يوماً. ولكل نوع من هذه الأنواع صفات معينة، فالقمح الغزاوي مثلاً كثير الزوان ويعطي خبزاً أسمر.

ويعطي القمح غلالاً تُقدّر بعشرين إلى ثلاثين ضعف مقدار البذار، وذلك بحسب نوع التربة ونوعية الفلاحة ووضع الأرض. ويعطي الشعير حتى مئة ضعف إذا ما توافرت له الشروط اللازمة

وهي: الزرع في تشرين الثاني/نوفمبر، وهطول المطر في الوقت المناسب، والحماية من الآفات والحشرات[٣٤].

وتشكل أشجار الزيتون أقدم الأشجار وأكثرها تقديراً من قبل السكان وأشملها انتشاراً في فلسطين نظراً لتنوع طبيعتها ومناخها. وتشتهر قرى بيت لحم وبيت جالا ورام الله وبيرزيت بكروم زيتونها الجيدة، كما تشتهر قرية عجور في منطقة الخليل بجودة زيتها، وكذلك قرية الطيرة بين عكا والناصرة. وتمتلك قرى الرملة واللد ونابلس كروم زيتون واسعة وتستمد منها معظم ثروتها[٣٥].

ويصف القساطلي زيتون أراضي قرى بيت جبرين وبيت نخاس وادنا وتفوح، في منطقة الخليل، بأن زيتونها قديم جداً، ويقول الفلاحون انه من زمان الرومان، ولهذا عرف هذا النوع بالزيتون الروماني. وذُكر أن الزيتون يعمر حتى سبعمائة أو ثمانمائة سنة. وفي الوادي، إلى الجنوب من بيت جبرين، أشجار زيتون يبلغ قطر الواحدة منها بين ٤,٥٠م و٥,٠٠م، وتكثر الأشجار التي يتجاوز قطرها ثلاثة أمتار ونصف المتر. ويزرع الأهالي بين أشجار الزيتون أشجار التين والكرمة[٣٦].

أما أشجار الزيتون في أراضي قرية يبنة، في منطقة غزة، فيقول القساطلي عنها انها إلى جانب بساتين التين وانها قديمة يبلغ محيط بعضها من أسفل ما ينوف عن ستة أمتار[٣٧]. ويلزم شجرة الزيتون بين سنتين وأربع عشرة سنة لتنتج، بينما يحتاج الزيتون البري إلى ست سنوات. وتنمو أشجار الزيتون في الأودية والسهول والجبال على حد سواء، ولا تحتاج إلى ري وإنْ كان الري يزيد من محصولها لأنه غالباً ما تزرع بينها أشجار أُخرى.

وبالرغم من أهمية محصول الزيتون فإن عدم العناية به بصورة علمية يقلل من وارده، فاللجوء إلى ضرب رؤوس أغصانه بالعصي لإسقاط حبوب الزيتون إلى الأرض عند جمعها، مثلاً، يؤدي إلى كسر هذه الرؤوس التي تحمل أزهار الزيتون. لذا فالموسم التالي يكون سيئاً لأن هذه الرؤوس لم تنمُ بعد ويقتضي ذلك عاماً آخر لنموها وبالتالي لحملها الزيتون. وقد كثرت البدود (مفردها بَدٌّ)، وهي المعاصر، في المناطق المنتجة للزيتون حيث يُجمع الزيتون في المسطاح، وهي الأرض المكشوفة، قبل عصره، ثم يُعصر، وتجفف بقاياه لتستخدم وقوداً[٣٨].

وعلى غرار الحبوب، وضع على الزيتون نوعان من الضرائب: الأول يتعلق بإنتاجه والثاني على أرضه. وكان يخرج موظفون لزيارة كروم الزيتون وتقدير إنتاجها مسبقاً، وكثيراً ما يبالغون في التقدير للحصول على المال لأنفسهم. وإذا قُدِّر مثلاً أن إنتاج عدد من الأشجار يبلغ ألف مقدار من الزيت، في حين أنه في الواقع لن يتجاوز ثمانمائة مقدار، فإن أصحاب الزيتون، وعن طريق الرشوة، يخفضون ذلك الإنتاج إلى خمسمائة مقدار. والنوع الثاني هو ضريبة ثابتة على أرض الزيتون بقطع النظر عما إذا كانت أشجار زيتونها كبيرة أو صغيرة[٣٩].

وتشتهر فلسطين بزراعة البرتقال، وبصورة رئيسية في منطقة يافا، ثم في غزة. وقد ذُكر في العام ١٨٧٠ وجود حوالي ٣٨٤ بستاناً من البرتقال في منطقة يافا تمتد في دائرة قطرها ميلان حول يافا. وقد أنتجت هذه البساتين في العام ١٨٦٩ حوالي ٣٨,٤٠٠,٠٠٠ برتقالة بيعت في يافا بما يعادل ٤٠,٠٠٠ ليرة إنكليزية. وبعد خمس عشرة سنة ذُكر أن عدد بساتين البرتقال، في منطقة يافا، أصبح في العام ١٨٨٤ حوالي خمسمائة بستان تضم حوالي ٨٠٠,٠٠٠ شجرة. ويوجد من هذه البساتين مائة وخمسون بستاناً متميزاً. وفي العام ١٨٨٦ قُدرت مساحة الأراضي المزروعة بالبرتقال حول يافا بما يعادل ألف فدان. وارتفع هذا الرقم بعد ثلاثة أعوام إلى ٣٠٠٠ فدان، وهو ثلث الأراضي الزراعية في منطقة يافا.

وتزرع أشجار البرتقال على بعد أربعة أمتار ونصف المتر الواحدة عن الأُخرى، وتحمل الشجرة الثمر في السنة الثالثة أو الرابعة، وتستمر في الحمل إلى عشرين أو ثلاثين سنة. وتُسقى أشجار البرتقال في الصيف مرة في الأسبوع أو الأسبوعين. وتُستخرج المياه الجوفية من عمق ستة إلى تسعة أمتار بواسطة دواليب تحركها الخيول أو البغال. وتُجمع المياه في برك مبنية لاستيعاب المياه، ثم توزَّع على الأراضي بأقنية خاصة. وتعرف دواليب الماء هذه بالبيارة نسبة إلى البئر أو البير الذي يُستخرج منه الماء. وبهذا تتشابه البيارة مع الساقية في منطقة غزة[٤١]، ومع الناعورة في مناطق أخرى. وقُدِّر عدد بيارات يافا في العام ١٨٨٩ بحوالي سبعمائة بيارة[٤١]. وقد استخدم القساطلي في رحلته في فلسطين في عامي ١٨٧٤ و١٨٧٥ كلمة بيارة بمعنى البئر في أكثر من مناسبة. فقد ذكر أن في قرية المجدل «في الجانب الشرقي بيارة تستقي منها البلدة ويوجد بيارة خلافها قد تعطلت»[٤٢]. وذكر القساطلي، أثناء زيارته قرية يبنة، بياراتها بقوله: «وفي هذه القرية بأسفل التل أكثر من عشرة بيارات يستقون منها»[٤٣]. وقال بمناسبة زيارته خربة المخيزن «وبها بيارة على الطريق (والشيخ عيسى الوحيدي شيخ قبيلة الجبارات)... أعاد تعمير تلك البيارة المذكورة وأسكن البعض من عربه هناك»[٤٤]. وأُطلقت كلمة

البيارة أيضاً على كامل الأرض التي تضم «البيارة» والأشجار التي تسقيها كما في المثال التالي عن شراء نصف البيارة «الكاينة بظاهر أسكلة يافا المشهورة ببيارة البحطيطي المشتملة على بئر ماء معين ودولاب وبركة معدة لجمع الماء وأشجار مختلفة الأعمار»(٤٥).

وتبلغ تكاليف سقاية البرتقال خُمس ثمن المحصول في البساتين من الدرجة الممتازة، وحوالي الثلث، أو النصف، في البساتين الأدنى، لأن ذلك مرتبط بعمق البئر وبجودة التربة. وقد ذُكر أن أشجار البرتقال في فلسطين قلما تصيبها الحشرات والأمراض بسبب جودة الطقس والتربة. وتُزرع أشجار مثمرة أُخرى متميزة، مثل الموز والتين والدراق والمشمش والرمان وغيرها، بين أشجار البرتقال، حيث الفسحة، شريطة ألا تتلامس أشجار البرتقال مع بعضها.

ونوعية برتقال يافا متميزة عالمياً، فالبرتقالة متطاولة يبلغ قطرها حول ستة وأربعين مم. وقد وزنت مئة برتقالة منها فبلغ متوسط وزن الواحدة بين ٤٥٤ و ٤٨١ غراماً. وقدرت نسبة أرباح البرتقال في العام ١٨٨٦ بحوالي ١٠ إلى ١٥ ٪ سنوياً من رأس المال الموظف فيه.

ويشتهر برتقال يافا في العالم من حيث حجمه وعصيره ومذاقه. وقد اقترح القنصل الأمريكي في القدس في العام ١٨٨٦ أن تُستخدم في فلوريدا طريقة زراعة البرتقال المستخدمة في فلسطين من الشتائل وليس البذور(٤٦). وقد وجد برتقال يافا سوقاً رائجة له في أوروبا. وكانت أحسن أسواقه في أوديسا بروسيا، كما أُرسلت آلاف الصناديق منه إلى لندن. ويتوقف تصديره على توفر الشحن وسرعته. واقترح القنصل الأمريكي في القدس شحن برتقال يافا إلى أمريكا لأن بلاده لا تنتج ما يماثله وأنه سيتفوق على برتقال صقلية وجزر الهند الغربية إذا ما شُحن مباشرة في بواخر سريعة(٤٧).

وقد بلغ ما صُدّر من البرتقال من فلسطين خلال الأيام الثمانية والعشرين الأولى من شهر تشرين الثاني/نوفمبر ١٨٨٩ ما يساوي ٤٠,٠٠٠ صندوق بسعر يتراوح بين ٨ و ٩ دولارات لكل ألف برتقالة. وقد أُخذ بعين الاعتبار فساد بعض البرتقال أو ضياعه، لذا تم تقاضي ثمن ألف برتقالة عن كل ألف وخمسمائة برتقالة مصدّرة(٤٨).

واشتهرت فلسطين كذلك بزراعة الكرمة على أطراف التلال وفي السهول والأودية وعلى الساحل. ولكن الكرمة على أطراف التلال تنتج العنب الأكثر حلاوة وملاءمة لصناعة الخمور بسبب الطبيعة الكلسية للتربة التلية. وتُفلَح الكروم مرتين في السنة وتُرفع الكرمة أثناء ذلك، وقد تُسند إلى حجارة أو ترفع على عصي فوق الأرض. وتعطي الكرمة الثمر خلال ثلاث سنوات، وأثناء ذلك يزرع الخيار في الأرض. وليس هناك من مدة لعمر الكرمة، كما أنها لا تحتاج إلى الري. وتفرض ضريبة العشر على الكرمة، وتقدَّر، كما في الزيتون، وتكون نقداً وليس عيناً كما في الحبوب.

ويُسمى أحسن العنب بالدابوقي، وهوجيد، ويليه في الجودة الحمداني. أما العنب الذي يُصنع خمراً فأحسن أنواعه الجندلي، وينضج في أيلول/سبتمبر وتشرين الأول/اكتوبر. وإذا كان منتجوه من المسلمين باعوه إلى المسيحيين واليهود لتحضير الخمر منه. وأحياناً يُجفف هذا العنب فيصبح زبيباً(٤٩).

واشتهرت جبال الخليل بزراعة الكرمة منذ القديم، ومما يدل على ذلك آثار معاصر الخمر الكثيرة الموجودة في كل مكان، وينوف عددها عن الألفين. وذكر القساطلي أن الأهلين في هذه الجبال يولون زراعة الكرمة عناية كبيرة(٥٠).

ويصف القساطلي نوعية الكرمة بقوله:

«لا يخفى على كل من نظر إلى جفن العنب في هذه البلاد بأن الجفن قصيرة ولا تكبر ولا تفرّع أغصاناً كبقية الدوالي من غير بلاد، ومن المعلوم بأن الأهلين هنا يرفعون الدالية عن الأرض بعصاة طولها من الذراع إلى ذراع ونصف وحملها يكون في جوفها على بعد ذراع من جذورها، وعند سنة الإقبال التي يصح أو بالحري يقبل بها الكرم يصير محمول الجفنة الواحدة نحو خمسة عشر أو عشرين رطلاً»(٥١).

وقد ذكر الرحالة فوغيه الذي زار الخليل في العام ١٨٧٢ كثرة الكرمة في منطقتها وإنتاج «الخمر الذهبي» منها(٥٢).

وينتج الزبيب الجيد للأكل في الخليل والسلط. ويصدّر الصغير منه الذي لا يحتوي على بذور إلى مصر وغيرها. وتُصدّر كمية كبيرة من الخمر من فلسطين. وقد قدّر أن قنطارين من العنب ينتجان قنطاراً من الخمر.

وإلى جانب العنب اشتهر التين، في اثني عشر نوعاً. وتعطي شجرته الثمر في السنة الثالثة، وتبلغ الأوج في السنة الخامسة عشرة، ولا تحتاج إلى ري. ونظراً لعدم إمكانية تصديره طازجاً يجفف قسم منه ويضم على شكل قلائد، ويصنّع قسم آخر لينتج العرق(٥٣).

وأنتجت فلسطين القطن الذي وجد أرضاً جيدة له في السهول حول يافا وفي منطقة البحر الميت. وتميز القطن بقوة أليافه

بالرغم من قصرها. وقد ازدهرت زراعة القطن في شمال فلسطين ووسطها بصورة خاصة في الخمسينات وأوائل الستينات من القرن التاسع عشر بسبب ازدياد شرائه من قبل إنكلترا وكثرة الطلب عليه في أعقاب الحرب الأهلية الأمريكية[٥٤]. وزُرع في مناطق يافا والبحر الميت قصب السكر أيضاً. وأنتجت فلسطين كميات كبيرة من السمسم والتبغ. واستُخرج زيت السمسم في معاصر خاصة وصُدّر إلى فرنسا[٥٥].

الصناعة:

وإلى جانب الزراعة عرفت فلسطين صناعات متعددة أكسبتها شهرة إقليمية وعالمية. واستمر عدد من هذه الصناعات ناشطاً ورائجاً حتى بعد أن جابهتها المنتجات الأوروبية الصناعية التي قوضت الكثير من صناعات فلسطين وبخاصة في مجال النسيج. واحتوت فلسطين على عدد من المعادن التي لم يتح استثمارها. وقد جاء ذكر ذلك في رسالة للقنصل الأمريكي في القدس إلى رؤسائه بتاريخ ١٨ تشرين الأول/اكتوبر ١٨٨٣م، وأورد فيها أن فرص الاستثمار في فلسطين محدودة جداً بسبب عدم تشجيع الحكومة لذلك ورفضها السماح للرأسماليين الأجانب بدخول البلاد لاستثمار ثروتها. وأشار القنصل كذلك إلى وجود مخزون كبير من الفحم والحديد والنحاس والكبريت والغاز والملح، وربما البترول، وأنه إذا ما استخرجت بصورة جيدة أتت بنتائج مرضية جداً[٥٦].

ومن الصناعات التي تفخر بها فلسطين صناعة الصابون في القدس ويافا ونابلس وغزة، وصناعة الأدوات من خشب الزيتون، ثم صناعة الصدف وتشتهر بها القدس وبيت لحم. وقد ذكرت **سالنامه ولاية سورية** للعام ١٢٨٨هـ / ١٨٧١ - ١٨٧٢م وجود عشرين صابونخانة (مصبنة) في القدس، وست عشرة في غزة، وإحدى عشرة في يافا، وواحدة في الخليل. وقُدر عدد المصابن في فلسطين في العام ١٨٨٧ بأربع وخمسين: خمس منها في القدس، وحوالي أربعين في يافا ونابلس، بعضها صغير، وثلاث في غزة، وخمس في اللد، ومصبنة واحدة في الخليل. ويُلاحظ أن عدد مصابن غزة هبط من ست عشرة إلى ثلاث خلال خمسة عشر عاماً. ويتميز صابون فلسطين بجودة نوعيته بسبب استخدام زيت الزيتون في صناعته[٥٧].

واشتهرت صناعة الأدوات والتحف، وبخاصة الدينية منها، من خشب الزيتون. وقد وجد في القدس في العام ١٨٨٦ مثلاً تسعون دكاناً تبيع هذه الأدوات. ووجد مثل هذا العدد من الدكاكين لتصنيع الأدوات الصدفية وبيعها[٥٨]. واشتهرت بيت لحم أيضاً بصناعة هذه الأدوات الخشبية والصدفية. ويشيد القساطلي الذي زار هذه البلدة في العام ١٨٧٤ بحذق أهلها «في شغل الصدف ونقشه الأمر الذي فاقوا به جميع من سواهم (كذا) إنْ في أوروبا أو آسيا، ولهم نشاط في الأسفار فإنه قلّما تجد مملكة من ممالك أوروبا ولا تجد بها ولو نفراً واحداً منهم سار إليها برسم التجارة في صدفه المنقوش بأجمل النقوش وأدقها وفي مسابحه المختلفة الأجناس والأشكال وفي كاساته المتنوعة المشغولة من حجر موسى». ويفسّر القساطلي حجر موسى هذا بأنه نوع من الحجارة أسود اللون يشبه الحجارة التي يصنعون منها ألواحاً لكتابة الأرقام الهندية في المدارس[٥٩]. ويضيف القساطلي «أنه يوجد في هذه المدينة نحو خمسة عشر دكان (كذا) لبيع البضائع ودكاكين خلافها لشغل الكنادر والسرامي (كذا) وبيع بعض الأشياء العطرة»[٦٠].

واشتهرت القدس بصناعة الأحذية، فقد وجِد فيها في العام ١٨٨٧ ثمانون دكاناً لشغل الأحذية الأوروبية (الكنادر) وخمسة عشر دكاناً لشغل الأحذية الحمراء المعروفة بالشامية بالصرامي، وعشرون دكاناً لشغل أحذية البدو والفلاحين. ونستدل من تباين أسعار هذه الأحذية اختلاف المستويات الاقتصادية بين الفئات الاجتماعية التي استخدمتها. فزوج الكنادر بيع في العام ١٨٨٧ بما يعادل دولاراً وستين سنتاً إلى أربعة دولارات، والصرامي بين أربعين وستين سنتاً، والجزمة بين ستين وثمانين سنتاً. وصُنعت أحذية الفلاحين من جلد الجاموس المستورد من أفريقيا، والكنادر من جلد مستورد من إنكلترا وفرنسا وألمانيا واليونان[٦١].

ولتكوين فكرة عن القيمة الشرائية للدولار الذي قدرت به هذه الأسعار، وبالتالي لأسعار السلع المختلفة في العام ذاته (١٨٨٧م) في القدس فإن أجر المعلم الحرفي كان يراوح بين ١,٨٠ - ٢,٤٠ دولاراً في اليوم، وأجر الصانع العادي بين ٦٠ سنتاً ودولار واحد، وأجر العامل بين ٣٠ و ٦٠ سنتاً، وأجر العامل العادي بين ٢٠ و ٣٠ سنتاً. وبيع الكيل من الحنطة (حوالي ٢١,٧٩٢ كغ) بسعر راوح بين ٧٠ سنتاً ودولار واحد، والشعير ٤٠ - ٦٠ سنتاً، والذرة ٤٠ - ٦٠ سنتاً، والعدس ٦٠ - ٨٠ سنتاً، والسمسم ١,٦٠ - ١,٨٠ دولاراً[٦٢]. وبلغ سعر الرز الإنكليزي في حوالي هذه الفترة ٣,٥ سنتات للباوند (٤٥٤غ)، والرز المصري ٣ - ٤ سنتات. أما السكّر، سواء الخشن أم الناعم، فبلغ سعره ٥,٥ سنتات لسكر تريستا، و ٦ سنتات لسكر مرسيليا، و ٥ سنتات لسكر مصر الأسمر. وكانت الضريبة على الرز والسكر المستوردين ٨٪. وإذا ما صدّرا فالضريبة تتضاءل إلى ١٪[٦٣].

ووجِد في القدس في العام ١٨٨٥ مائة وثلاثون دكاناً تبيع الخمر والعرق، وكان تعاطي هـذه المشروبـات شائعـاً بدليـل استهلاك حوالي أربعة قناطير من الخمر يومياً في القدس، وهي تعـادل ١,٦٠٠ زجاجة. وقد أُنتج سبعون بالمائة من هذا الخمر محلياً واستورد الباقي من قبرص. واستُهلك من العرق يومياً ما يعادل الكمية المستهلكة من الخمر. وقد أُنتج في القدس ١٠ ٪ من العرق المستهلك فيها واستورد الباقي من قبـرص والجزر اليونانية. وفي حين أن زجاجة العرق العادي تكلّف مبلغ سبعة سنتات والأكثر جودة بين خمسة عشر وعشرين سنتاً فإن معظم الخمر المستهلك محلياً هو من النوع الرخيص، ولا تكلّف الزجاجة منه أكثر من خمسة إلى عشرة سنتات. واستُهلك في العام ١٨٨٤ عشرة آلاف زجاجة بيرة مستوردة بمعظمها من النمسا وأيضاً من ألمانيا وأوديسا. وكان يشترط في بائع الخمر الحصول على إذن من الدولة. وكان أكثر الفئات الاجتماعية تعاطياً للخمر، الضباط الأتراك ثم اليهود وأكثرية ضئيلة من المسيحيين وحوالي عشرة بالمائة من المسلمين(٦٤).

واشتهرت مدينـة الخليل بصنـع الأساور من الـزجاج. ويصف القساطلي ذلك بقوله: «وقد نجحوا بذلك نجاحاً خاصاً مكّنهم من أخذ الأسبقية الأولى بهذه الصنعة، وقد شاهـدت أعمالهم المتقنة بهذه الصناعة ويحق لهم الثناء عليها»(٦٥). وفي وصف آخر جاء أن مصنع الزجاج في الخليل ينتـج الأساور والخواتم والزجاجات الصغيرة(٦٦).

ويصف القساطلي الصناعات الأُخرى في الخليل، مثـل شغل الصرامي ودبغ الجلود وصنع الخزف. وقد اشتهرت كذلك بصنع القرب لحمل الماء «ويذهب في كل سنة منهم أناس للتجارة بها في الحجاز». ثم يتكلم القساطلي عن وجود خمسين نولاً ونيف لنسج العبي الزريقية في الخليل وأن «أشغالهم جيدة بهذه الصنعة كالدمشقيين وربما أحسن منها، وقد انسريت [كذا] عندما شاهدت تلك الأنوال لأنني لم أشاهد نولاً في كل هذه البلاد سوى نولين في مدينة القدس الشريف لنسج العبي أيضاً»(٦٧). ومثـل هذه الشهادة من القساطلي بجودة صناعة العبي في الخليل وتفوقها على صناعة دمشق تـأتي من خبير متمـرس لأن القساطـلي وصف صناعات دمشق في تلك الفترة بدقة(٦٨).

وكان يوجد في بلدة المجدل، من أعمال غزة، ما يزيد عن مـائة نـول لحيـاكـة الكتـان الـذي يستعمله أهلهـا لصنـاعـة الأثواب(٦٩). واشتهرت غزة بصناعة العبي، وذُكر أن بها نحو مئتي نول لنسجها، وبذلك تتفوق بهذه الصناعة على مدينة الخليل التي استقطبت معظم أنوال نسج العبي في بلاد الخليل. كما تُنسج في غزة ملايات مخططة لاستعمال النساء، وكذلك ينسج فيها الكتان الـذي يصنع منـه بعض الفلاحـين أثوابهم(٧٠). واختص بمهنة النسيج المسلمون إلى جانب بعض المسيحيين، ولكن هؤلاء الأخيرين اختصوا بمهنة الصياغة والنحاسة حصراً. وعمل المسيحيون أيضاً في البناء والنجارة. وفي غزة نجارون متخصصون يمدون الأنوال بما تحتاج إليه من أدوات، ويعدّون كذلك أدوات الفلاحة. وفيها أيضاً حدادون وبياطرة وصباغون. وقد تعددت المصابغ في غزة وتوزعت في أنحاء المدينة مما يدل على حاجة المواطنين لها سواء في المدينة أو في الريف(٧١). واشتهرت غزة كذلك بصنع الفخّار، وقد وجد فيها أربعون معملاً (فاخورة) للفخار(٧٢). وتجمعت معظم هذه الفواخير في شارع واحد عُرف بخط الفواخير، وكان بمحلة البرجلية. كما وُجدت سوق خاصة لتسويق الفخار عُرفت بسوق الفخار. ونظراً لشهرة فخار غزة فقد صُدّر إلى القدس وغيرها(٧٣).

وكثرت معاصر الزيتـون (البدود) في غـزة نظراً لـوجود الـزيتون حـولها بكثـرة بدليـل تسمية إحـدى محـلاتهـا بمحلة الزيتون(٧٤). وعُرفت أماكن عصر العنب بالمعاصر، واستُخدمت هذه الكلمة لأماكن عصر السمسم لاستخراج السيرج منـه. ويُستخدم السيرج محلياً في الطبخ، كما انه يُصدّر إلى فرنسا، حيث يستخدم في تزييت الآلات(٧٥). ومما يدل على أهمية غزة الصناعية والتجارية كسوق للريفيين والبدو بجوارها أن محلة الشجاعية، وهي من أكبر محلات غزة، وكان أكثر سكانها من الفلاحين، ضمت في العام ١٨٧٥ نحو مئة وخمسين دكاناً(٧٦)، في حين أن مدينة القدس ضمت في العام ١٨٨٧ نحو خمسمائة دكان(٧٧).

ومثلما برز المسيحيون في غزة في مهنة البناء فقد برزوا في القدس أيضاً(٧٨). وقد راجت هذه المهنة في القدس بسبب كثرة المهاجرين إليها واستقرارهم فيها. وانتشر البناء على نطاق واسع خارج السور، وكان معظمه حجرياً. وشُرع في تبليط شوارع القدس وبناء المجارير تحتها. وقد ذكر في العام ١٨٨٦ أن حوالي كيلومتر ونصف من شوارع القدس قد رُصف بالبلاط(٧٩).

وبالرغم من وجود القدس في منطقة حجرية فإن حجرها قاس ولا تستقيم زواياه عند كسرها لذا يؤتى بالحجر الجيد من مقالع حول بيت لحم، ومن وادي أرطاس باتجاه تقوع، ثم من شمالي القدس. وقد برع في صنعة البناء وقطع الحجارة سكان بيت لحم وبيت جالا. وقد استُخدم مئات منهم في البناء في القدس، وعرفوا بالمعلمين بسبب إجادتهم هذه الحرفة(٨٠).

وترتبط بصناعة البناء صناعة الكلس في أفران يُسمى واحدها أتوناً. ويشترك في العادة ثمانية أو عشرة فلاحين لمدة شهر في قطع الأغصان والشوك وجمعها في حزم، وعندما تجف يُدفع بها إلى فرن الكلس، حيث توضع أحجار خاصة وتُشوى إلى أن تزول رطوبتها ويبيض لونها فتُسمى كلساً. وتبقى النار متقدة في الأتون لمدة سبعة أو ثمانية أيام يبرّد من بعدها الكلس لعدة أيام أُخرى، ثم يُحمل على الجمال ويباع بالوزن أو بالحِمْل لتبييض البيوت أو لاستعماله في البناء. ويسمى الكلس في فلسطين «الشيد» وفي مصر «الجير»[٨١].

ويحضّر الفحم في فلسطين بحرق أشجار معينة في الغابات، وبخاصة في جبال القدس والخليل، حيث تزود به القدس وغيرها من المدن للطبخ والتدفئة. وبما أن صناعته تضر بالغابات فقد صدرت الأوامر بحظرها في العام ١٨٨٥ ولكنها استمرت بالرغم من ذلك. وتأخذ عملية إعداد الفحم وقتاً طويلاً، وتحتاج إلى إتقان وإلا صعب بيع الفحم. وتوضع أعواد الشجر في حفر وتُحرق، وعندما يصل الحرق إلى مقدار نصفه تُغطى الأعواد بالتراب والحجارة والأعشاب حتى تبرد وتكون قد تحولت إلى فحم[٨٢]. ويُنقل الفحم إلى المدن على ظهور الجمال أو البغال، حيث يباع الحِمل الذي يزن خمسين رطلاً، أي ما يعادل ١٣٦,٢٠٠ كغ بمجيديين ونصف المجيدي أو ما يعادل ٢,٣٠ دولاراً.

ومن الصناعات الأُخرى التي اشتهرت صناعة الحصر والقُفف والأطباق، وذلك في أبو ديس، شرقي القدس، وفي بيت دجن واليهودية. وسكان قرية أبو ديس يصنعونها من الديس (القصب) الذي يحصلون عليه من وادي الأردن، وسعرها يكون أغلى من تلك التي تصنع من سَعَف النخيل في بيت دجن. وتستعمل هذه الحصر في كل بيت، ومن هنا أهمية صناعتها. كما أن القفف ضرورية لأصحاب الزراعة، وتختلف أسماؤها حسب أحجامها والغاية من استعمالها[٨٣].

واشتهر أهل قرية صور باهر، بين القدس وبيت لحم، بجمع الفخّار المكسور (الشقف) وجلبه إلى بركة السلطان القريبة من باب يافا في القدس حيث يسحق على الصخر. ويأخذون ترابه الأحمر ويستعملونه لطلي خزّانات الماء التي تكثر في الأماكن الخالية من ينابيع المياه[٨٤] كالقدس مثلاً.

أما أوضاع العمل والعمال في فلسطين فقد وصفها تقرير للقنصل الأمريكي في القدس بتاريخ ٥ تموز/يوليو ١٨٨٤م بشيء من التفصيل[٨٥]. وجاء في التقرير أن الاستخدام لا يتم على أساس أسبوعي، بل يومي، وأحياناً على أساس إنهاء عمل معين. وليس هناك من عطلة بالنسبة لرب العمل المسلم، في حين يعطل اليهودي أو المسيحي عماله، ومنهم المسلمون، لمدة يوم واحد. ولا توجد ساعات محددة للعمل، والعادة أن يبدأ العمل من الفجر حتى الغسق. وقلما استمر العمل طيلة السنة بحيث كان ذلك يؤثر على مستوى حياة الناس وعاداتهم بشكل ملحوظ. ولا توجد قواعد ثابتة حول أجور العمل. فالعامل يطلب أولاً أعلى أجرة ثم ينتهي بقبول ما يستطيع الحصول عليه. ويذكر التقرير أنه لا توجد أسعار محددة لما يباع في الدكاكين أو لما يُنتج في الريف ويباع في المدينة. فالبائع يطلب ضعف ما يحصل عليه. وبالنسبة للعمال اليهود فإن جميعهم تقريباً يتلقون الصدقات وثلثيهم يعتمدون على المال الوارد من إنكلترا. ويعلق التقرير على ذلك بقوله بأن الصدقة لعنة أكثر منها بركة لأنها تقلل من الاعتماد على النفس وتنمي البطالة. وينتهي التقرير بإعطاء قائمة مفصّلة بالأجور الدنيا والعليا في كل حرفة نثبتها فيما يلي نظراً لأهميتها في التعريف بالقدرة الشرائية لشريحة كبيرة من السكان.

الجدول رقم (٦ ــ ٢)

قائمة بالأجور الأسبوعية
(مقدّرة بالدولار) للعاملين اثنتي عشرة ساعة يومياً

المهنة	الأجر الأدنى	الأجر الأعلى
العاملون في البناء		
ــ حاملو مواد البناء	٠,٧٢(*)	٠,٩٦
	٠,٧٢	١,٢٠
ــ المعماريون	٢,٤٠	٣,٦٠
	٢,٨٨	٧,٢٠
ــ بناة الأسوار	٠,٧٢	١,٢٠
ــ المطيّنون	٢,٤٠	٣,٦٠
	٢,٨٨	٥,٥٢
النجّارون	١,٩٢	٣,٦٠
	١,٩٢	٧,٢٠
الخبّازون	١,٢٠	٢,٤٠
	١,٢٠	٢,٤٠
الحدّادون	١,٩٢	٢,٤٠
	٢,٤٠	٣,٦٠

(*) يفسر التقرير وجود رقمين في الأجر الأدنى وآخرين في الأجر الأعلى بأن المكتوب بالأسود منها هو ما يُعطى للسكان المحليين والمكتوب بالأحمر هو ما يعطى لليهود والأوروبيين. ونظراً لأن فيلم الوثائق هذا لا يظهر الألوان المختلفة فإننا نذكر الأرقام كلها بدون تمييز.

المهنة	الأجر الأدنى	الأجر الأعلى
مجلّدو الكتب	١,٩٢	٤,٨٠
	٢,٤٠	٧,٢٠
اللحّامون	–	٢,٨٨
	–	٢,٨٨
سائقو العربات	٢,٤٠	٣,٦٠
	٢,٤٠	٣,٦٠
الصبّاغون	–	٢,٨٨
	–	٢,٨٨
البياطرة	٢,٤٠	٣,٦٠
الصاغة	٢,٤٠	٤,٨٠
	٢,٤٠	٤,٨٠
الحمّالون	١,٩٢	٣,٦٠
	١,٩٢	٣,٦٠
الطبّاعون	١,٤٤	٢,٤٠
	١,٩٢	٣,٦٠
المعلّمون في مدارس الدولة	١,٢٠	٤,٨٠
	١,٢٠	٤,٨٠
السرّاجون	١,٩٢	٣,٦٠
	١,٩٢	٣,٦٠
الدبّاغون	٢,٤٠	٣,٦٠
الخيّاطون	١,٤٤	٤,٨٠
العاملون بالبرق	١,٥٠	١٥,٠٠
التنكجية (السنكرية)	١,٤٤	٤,٨٠
	١,٤٤	٤,٨٠
النسّاجون	١,٩٢	٢,٨٨
الحلّاقون	١,٢٠	١,٩٢
	١,٢٠	٢,٤٠
العاملون في القوارب	١,٢٠	٤,٨٠
الطبّاخون	٩,٠٠	٣٠,٠٠
التراجمة لدى القناصل	١٢,٠٠	٢٤,٠٠
القوّاصون مرافقو القناصل	٢,٠٠	٤,٥٠
الزيّاتون	١,٩٢	٣,٦٠
	١,٩٢	٣,٦٠
الحذّاؤون	١,٢٠	٣,٦٠
	١,٩٢	٣,٦٠
الحجّارون	١,٤٤	١,٩٢
	٢,٤٠	٤,٣٢
النُدُل	٦,٠٠	١٢,٠٠
الطرّاشون (الكلّاسون)	٢,٤٠	٣,٦٠
	٢,٤٠	٣,٦٠
عمال المزارع	١,٢٠	٢,٤٠
	١,٤٤	٤,٨٠
موظفو البريد	١,٥٠	٧,٥٠
الشرطة	٠,٧٥	١٠,٠٠
المستخدمون في الدكاكين	٠,٥٠	٥,٠٠
	٠,٥٠	١٠,٠٠

يلاحظ في الجدول رقم (٦ ــ ٢) أن هناك فارقاً يبلغ الضعف أو ثلاثة أضعاف، وأحياناً أكثر من ذلك، بين العامل العادي والعامل الماهر أو المعلم في الحرفة الواحدة. وتزداد الفروق في المهن الحديثة أو ذات الرتب، مثل العاملين في البرق وفي الشرطة. وبالرغم من اننا لا نعرف لمن أعطي أحد الأجرين في المهنة الواحدة ــ للعربي أم لليهودي والأوروبي ــ نظراً لأن تصوير الوثيقة يلغي تمييز الرقم الأسود من الرقم الأحمر ــ فإننا نلاحظ أن معظم المهن التي تذكر أجرين يتساوى فيها الأجران هذان في قائمة الأجور الدنيا ويختلفان في قائمة الأجور العليا بصورة عامة. وإذا كان الأجر يُعطى على أساس الخبرة فقط فإنه ليس هناك من ضرورة للتمييز بين أجور السكان المحليين وأجور اليهود والأوروبيين. وربما كان هناك فارق في الأجور بين اليهود أنفسهم، أي بين السفارديم (وهم اليهود الشرقيون) والاشكنازيم (وهم اليهود الأوروبيون) الأكثر خبرة من الشرقيين. وهذا ربما يفسر تساوي الأجور الدنيا بالنسبة للسكان المحليين واليهود الشرقيين على الأرجح واختلاف الأجور العليا بين الفنيين ربما بسبب وجود اليهود والأوروبيين بينهم.

ولكي تصبح هذه الأجور بمجملها أكثر معنى ودلالة على القيمة الشرائية لدخول مختلف العاملين تجب مقارنتها بأسعار بعض السلع في تلك الفترة. فقد بلغت أسعار بعض السلع في القدس، كما جاء في رسالة القنصل الأمريكي إلى رؤسائه، بتاريخ ١٠ تشرين الثاني/نوفمبر ١٨٨٢، كما يلي: سعر رطل القمح (ويبلغ حوالي ٢,٧٢٤ كغ) ما بين عشرة واثني عشر سنتاً. والأسرة المؤلفة من خمسة أشخاص تحتاج يومياً إلى رطل من الطحين وتدفع أجرة طحنه سنتين وأجرة خبزه سنتين، فيصبح ما تنفقه يومياً على الخبز ما بين أربعة عشر وستة عشر سنتاً. ويكلف قنطار الحطب (يزن حوالي ٢٧٢ كغ) بين ١,٢٠ و ١,٤٠ دولاراً. ويكلف جمل جمل من الفحم (أي ما يعادل ١٣٦,٢٠٠ كغ) حوالي ٢,٣٠ دولاراً. ويبلغ ثمن صفيحة من البترول تستوعب خمسة غالونات حوالي ٩٠ سنتاً. وتكلّف زجاجة العرق العادي سبعة سنتات والأكثر جودة حوالي ١٥ ــ ٢٠ سنتاً.

وإذا اعتبرنا ثمن ما تحتاجه الأسرة المؤلفة من خمسة

أشخاص من خبز في الأسبوع الواحد، وهو ما يعادل ما بين ٩٨ و١٠٢ سنتاً في الأسبوع، فإن الأجور الدنيا الأسبوعية لعدد كبير من العمال، بدلالة القوائم في أعلاه، تقصر عن معيشة الأسرة بأدنى المستويات ما لم يعمل أكثر من واحد من أفرادها.

وعلى غرار ما أصاب الصناعات الحرفية في دمشق وغيرها من ارتباك، ثم انهيار لكثير منها أمام تحدي الصناعات الأوروبية الناشطة في أعقاب الثورة الصناعية[٨٦]، فإن صناعات فلسطين، وبخاصة النسيجية منها، قد تأثرت بنتيجة المنافسة غير المتكافئة مع المنتجات الأوروبية. فقد استوردت البضائع من ألمانيا وإيطاليا وفرنسا وسويسرا وانكلترا، وأخذت تنافس البضائع المحلية في الجودة والأسعار في عقر دارها. وقلدت الصناعات السويسرية، مثلاً، المنتجات المحلية ونافستها لأن تكاليفها كانت قليلة فمكنها ذلك من تخفيض أسعارها. وأضرت كذلك بالمنتجات المشابهة في لبنان والتي كانت تصدّر إلى فلسطين، فأخذت هذه بالانكماش بعد ازدهارها السابق. ولم تقم السلطات العثمانية الحاكمة بحماية الصناعة المحلية عن طريق زيادة الرسوم الجمركية على البضائع المستوردة خوفاً من احتجاج الدول الأوروبية على ذلك[٨٧].

التجـــارة:

يظهر أثر الاقتصاد الأوروبي على الاقتصاد المحلي في فلسطين أوضح ما يكون في ميدان التجارة والتطورات التي طرأت عليها في القرن التاسع عشر من ناحية الحجم والنوعية ووسائل النقل. فقد تميز الاقتصاد المحلي في فلسطين بنوع من الاكتفاء الذاتي، كما قام بتصدير الفائض من منتجاته إلى البلدان المجاورة. وسوِّقت المنتجات المحلية بين مختلف فئات السكان من مدنيين وريفيين وبدو في مراكز المدن أو في أسواق أسبوعية أو موسمية خارجها، حيث عُرضت المنتجات الزراعية والصناعية والحيوانات للبيع. فهناك مثلاً سوق للحيوانات في القدس تُعقد بعد ظهر كل يوم جمعة. وفي الرملة سوق أسبوعية يوم الأربعاء تعرض فيها الحيوانات والألبان ومشتقاتها وغيرها. وفي اللد تقام سوق أسبوعية يوم الاثنين تُعرض فيها الحصر والمنتجات القروية[٨٨].

وقد لاحظ بوركهاردت أثناء زيارته إلى صفد وطبرية في العام ١٨١٢م أن سوقاً (يذكرها باسم بازار) قد بُنِيَتْ في طبرية تضم حوالي اثني عشر دكاناً للبيع بالمفرق، وذلك لتلبية حاجات بدو منطقة الغور وصفد. وفضلاً عن ذلك كانت تُعقد سوق أسبوعية يوم الاثنين في الخان الموجود عند سفح جبل طابور، وتُعرف هذه السوق تبعاً لذلك باسم سوق الخان، وتتم فيها مبادلة بضائع المدينة بالمواشي[٨٩]. ولاحظ بوركهاردت، أثناء وجوده في الناصرة، وصول تاجرين من السلط للتزود بالبضائع وبيعها في السلط لحساب مموليهم من كبار التجار في الناصرة[٩٠]. وليس هناك من تفاصيل عن نوعية العلاقة بين هؤلاء التجار الكبار والصغار ونسبة المساهمة في الرأسمال أو اقتسام الأرباح بينهم.

وبعد أكثر من نصف قرن من وصف بوركهاردت لسوق الخان، عند سفح جبل طابور، لاحظ الرحالة نيهولت الذي زار سوق الخان هذه في أيار/مايو من عام ١٨٦٨ أن الخان يتألف من طابقين محصنين وأنه قد بني في أواخر القرن السادس عشر على طريق القوافل بين دمشق ومصر وأن سوقاً أسبوعية تعقد فيه يوم الاثنين لتبادل المنتجات مع البدو الذين يأتون إليه أيضاً يومياً لسقي خيولهم من بركة فيه يغذيها نبع عذب الماء[٩١]. ولكن بعد اثني عشر عاماً من ذلك ذكر الرحالة الفرنسي شارم، الذي زار سوق الخان هذه في العام ١٨٨٠م ـ ويسميها أيضاً سوق التجار ـ أن الخان متهدم وأشبه بحصن قديم وأن السهل من حوله يسكنه الشراكسة الذين أقامتهم الحكومة التركية فيه بعد طرد روسيا لهم من بلادها[٩٢]. ويبدو أن خان التجار هذا لم يكن الخان الوحيد المتهدم في المنطقة، فقد ذكر نيهولت، عند مروره بقرية لوبية في العام ١٨٦٨، في طريقه من طبرية إلى الناصرة، وجود خان قربها أشار إليها باسم خان لوبية[٩٣]. وبعد أربع سنوات من ذلك (١٨٧٢م) زار الرحالة الفرنسي فوغيه المنطقة وذكر وجود خان متهدم عند قرية لوبية على الطريق بين طبرية والناصرة، وقال ان هذا الخان قد بُني في القرن السادس عشر لإيواء القوافل المسافرة بين مصر ودمشق[٩٤]. ووجود الخانات في المنطقة يدل على أهميتها على طريق القوافل الدولية بين مصر والشام، كما يدل على عدم توفر الأمن في المنطقة بدليل تهدم الخانات ربما بسبب تعديات البدو، وقد أُسكنت جماعات شركسية مهاجرة فيها فيما بعد.

وكانت مدينة الخليل، بحكم موقعها، نقطة استقطاب القوافل القادمة من مصر والبتراء ونجد، حيث تفرغ الجمال حمولتها وتخزن فيها أحمال القطن والقهوة. وقد شبّه الرحالة فوغيه مدينة الخليل بميناء يطل على الصحراء، ولهذا أُقيم عند مدخلها محجر صحي كبير تتوقف فيه قافلة الحج العائدة من الحجاز لفحص أفرادها خوفاً من خطر الأوبئة[٩٥].

وفي الجنوب الغربي من فلسطين وجدت سوق هامة في بلدة المجدل، في منطقة غزة، التي وصفت بأنها «مركز تجاري لأعظم تجارة بهذه البلاد وهي الحبوب فإن بها مراكز تجارية لتجار

الحبوب من أهالي يافا»[٩٦]. وتقام هذه السوق كل يوم جمعة، ويرد إليها الناس من غزة لبيع بضائعهم، وكذلك الفلاحون من قرى غزة وبعض جبال الخليل لشراء ما يلزمهم ولبيع محاصيلهم، وكذلك البدو. هذا فضلاً عن السوق المركزية في ساحة بلدة المجدل التي تضم أكثر من ثلاثين دكاناً[٩٧].

وقد وصِفت تجارة غزة بأنها هامة، وبخاصة بالنسبة للحبوب، بسبب مركزها التجاري وانتشار البدو بكثرة من حولها، ووقوعها عند التقاء بلاد الشام بمصر، وغنى أراضيها الذي يفوق منطقة حوران. ويصل غزة ما تستورده من الشام عن طريق يافا، كما أنها تتاجر بالبضائع الأوروبية، وبخاصة الخام، لكثرة حاجة الفلاحين والبدو له[٩٨]. ومما يدل على أهمية غزة التجارية وجود عدد من الخانات المتخصصة فيها، مثل خان الزيت، وخان الكتان، وخان الجمّالة، وخان القهوة. ونظراً لاستقطاب التجارة البعيدة المدى في غزة لأنواع متعددة من الأقوام، فقد وجدت فيها زاوية للهنود بمحلة البرجلية وزاوية سيد أحمد البدوي (وهو من أولياء طنطا بمصر)، وزاوية للمغاربة[٩٩].

وكانت تقام في اللد سوق أسبوعية للماشية، وتعد من أكبر أسواق فلسطين في هذا الميدان. ويرد إليها الناس من كافة أنحاء فلسطين، وهي أشبه بمعرض للماشية. وقد خشي في العام ١٩٠٢م من انتقال الكوليرا إليها نظراً لاستقطابها أعداداً كبيرة من السكان[١٠٠].

واشتهرت في يافا سوق الخضار والفواكه، من مختلف الأنواع، وتقام خارج سورها، وتباع فيها محاصيل المناطق المجاورة[١٠١]. وكانت يافا قد قاست في السابق من احتلال قوات نابليون بونابرت لها في العام ١٧٩٩م، واحتلال الإنكليز لها في العام ١٨٤٠م، واشتراكهم في طرد قوات محمد علي باشا المصري منها. كما أُصيبت في العام ١٨٣٧ بالزلازل التي سببت، كما ذُكر، مقتل خمسة آلاف من سكانها[١٠٢]. ولم يكن ميناؤها صالحاً لرسو السفن، وبخاصة في فصل الشتاء. ومع ذلك كان الميناء الرئيسي لاستقبال الزائرين لفلسطين. وقد وصف تقرير قنصلي هذا الميناء في العام ١٨٥٩م بأنه غير آمن للملاحة بين شهري تشرين الثاني/نوفمبر وأيار/مايو وأن تجارته غير هامة. وبعد ثماني سنوات وصف تقرير آخر ميناء يافا بأنه في حالة سيئة أشبه بالطريق السيىء الذي يربط يافا بالقدس، وأن تجارة يافا مقتصرة على البلدان المطلة على المتوسط[١٠٣]. وأكّد الرحالة نيهولت في العام التالي، تدني النشاط التجاري لميناء يافا بحيث اقتصر على استقبال منتجات مصر المصدّرة إلى بلاد الشام وعلى تصدير الحبوب والحرير والقطن وغيرها إلى الخارج[١٠٤]. ويذكر أن أحد المنفيين من مصر إثر ثورة أحمد عرابي في العام ١٨٨٢م، وهو مصطفى أفندي الأرنؤوطي من دمياط، أقام في يافا وعمل في التجارة بينها وبين دمياط وبخاصة استيراد المنتجات المصرية إلى يافا مثل الأرزّ وغيره[١٠٥].

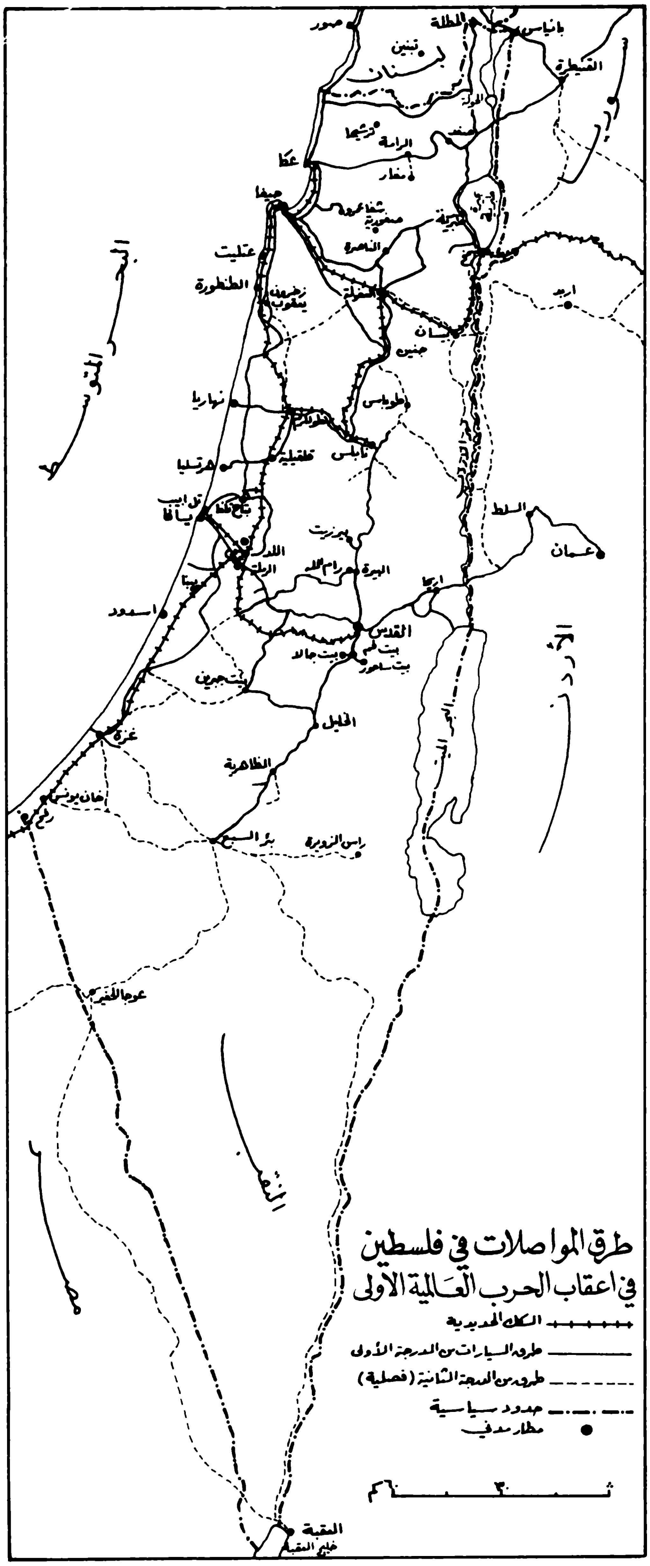
وبازدياد اهتمام أوروبا الصناعية بالمتاجرة مع بلاد الشام، ازداد الاهتمام بميناء يافا وبالطريق التي تصل يافا بالقدس بواسطة الرملة، وذلك لتصريف المنتجات الأوروبية داخل البلاد. وتجلى هذا الاهتمام بإقامة كل دولة أجنبية ممثلة في القدس قنصلاً أو نائب قنصل لها في يافا[١٠٦].

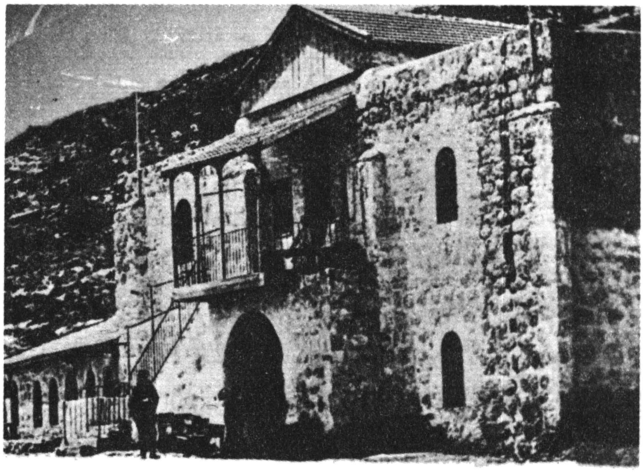
وقد تمّ بناء طريق للعربات بين يافا والقدس في العام ١٨٦٨م بمبادرة من الحكومة العثمانية وبطلب من شركات فرنسية وإنكليزية، وذلك بعد أن برهن طريق بيروت ــ دمشق الذي دُشّن في العام ١٨٦٣م على نجاحه[١٠٧]. وقد طلبت السلطات العثمانية من كل قرية تقع ضمن قطر يبلغ حوالي خمسين كيلومتراً عن الطريق بأن تقدم مجموعة من الرجال للعمل فيه مدة خمسة أيام لكل منهم، وإذا تعذر ذلك فعلى المكلّف أن يدفع غرامة قدرها ثلاثون غرشاً. وبالرغم من دفع هؤلاء للغرامة فقد أُجبروا على القيام بما ترتب عليهم من العمل. وعُين لكل قرية ما يتوجب عليها من بناء الطريق، وسُيّر رجالها للعمل فيه بالقوة، وكان عليهم إطعام أنفسهم، وكان ذلك أشبه بالسخرة. وعمل في الطريق أناس من الخليل ونابلس. واقتضى رصف الطريق بناء طبقة سفلية من الحجارة المسطحة تعلوها طبقة من الرمل. ولم يكن بإمكان هذا البناء مقاومة أمطار الشتاء الغزيرة[١٠٨]. وكانت أول عربة سارت على هذه الطريق يملكها أمريكي، وقد حصل على امتياز تشغيلها من القدس وإليها. ومما يدل على أهمية بناء هذه الطريق كثافة حركة الحجاج المسافرين بين يافا والقدس. وقُدرت أعداد هؤلاء في العام ١٨٦٨م باثني عشر ألفاً يتوزعون كما يلي: من اليونان ٣,٠٠٠، ومن أمريكا ٢,٠٠٠، ومن روسيا ١,٠٠٠، ويهود ٢,٥٠٠، وسكان محليون ٢,٥٠٠، وأتراك ١,٠٠٠. وبلغت أعداد المسافرين من غير الحجاج ٥٠٠ منهم ٢٥٠ أمريكياً، و ١٥٠ إنكليزياً و ١٠٠ من جنسيات أخرى. ونستدل من هذه الأرقام أن طريق يافا ــ القدس يسلكه في العام الواحد ٢٥,٠٠٠ إنسان ذهاباً وجيئة. وتتبين الأرباح التي ستجنى من تعبيد هذه الطريق من حساب الأجور التي يدفعها المسافرون وكذلك أجور شحن البضائع[١٠٩].

وبعد عامين من بناء طريق يافا ــ القدس من قبل الحكومة

التركية لم يعد ممكناً استخدام العربات عليه بسبب الإهمال في بنائه. والسفر الوحيد عليه كان يتم على ظهور الخيل. وقد تقدمت شركة أوروبية إلى الباب العالي بطلب منحها امتياز تعمير الطريق ولكن طلبها رفض بسبب اشتراطها أن يكون حق التقاضي أمام قناصل دولها وليس لدى الباب العالي(١١٠). وقد ذُكر في العام ١٨٧٢ أن الطريق بين يافا والرملة مهملة جداً وأن وسيلة السفر الوحيدة عليها بواسطة الخيول لأن العربات التي بدأت بالسير عليها قبل بضع سنين قد تكسرت أو بيعت بسبب رداءة الطريق(١١١). وقد أُصلحت الطريق في العام ١٨٧٤م ومنح المستوطنون الألمان (المعبديون) امتياز تسيير خط يومي من العربات عليها في العام ١٨٧٥م، ثم نافسهم العرب واليهود على ذلك(١١٢).

وكانت الحاجة ملحة لهذه الطريق نظراً لنمو النشاط البحري في ميناء يافا. وقد انطلقت من هذا الميناء رحلات أسبوعية إلى مصر وآسيا الصغرى وروسيا والنمسا وفرنسا بواسطة بواخر شركات مساجيري أمبريال Messageries Impériales ولويد النمساوية Austrian Lloyd ولويد الروسية، ولويد المصرية، وشركة السبعة التجارية الإنكليزية الآسيوية(١١٣). وأُنشئت بعد ذلك شركة بواخر إيطالية باسم روباتينو Rubattino(١١٤). ولكن هذه الشركة علّقت رحلاتها في العام ١٨٧٩م بسبب انتشار الوباء في تساليا في اليونان وتطبيق الحجْر الصحي على البواخر القادمة من الموانىء اليونانية. كما أن الخطوط البحرية الروسية توقفت إبان الحرب الروسية ــ التركية في العامين ١٨٧٧ و ١٨٧٨م، ثم استأنفت نشاطها بعد ذلك. ولم يبق في العام ١٨٧٩م من شركات البواخر الأجنبية العاملة في يافا سوى النمساوية والفرنسية والروسية(١١٥).





خان الواد بين القدس وأريحا

وينسجم تخفيض النشاط البحري هذا في يافا مع الحالة السيئة التي ما زالت عليها، في عام ١٨٨٥م، الطريق التي تربط يافا بالقدس إلى درجة أن الشركة العاملة عليها قد أفلست بسبب تلف العربات وإرهاق الخيول وتجاوز الضرائب مقدار المدخول[١١٦]. وقد وصف القاياتي هذه الطريق التي سلكها بواسطة عربة (كروسة) في جمادى الثانية ١٣٠٢هـ / آذار/مارس ــ نيسان/أبريل ١٨٨٥م بقوله: «كنا خمسة أشخاص... فاستكرينا كروسة (عربة) مخصوصة بليرة إنكليزية يجرها ستة من الخيل وسادس ركابها سائق العربة ومدير سيرها... لم نزل سائرين في أرض سهلة إلى أن وصلنا إلى الرملة... ثم بعد ذلك توجهنا إلى القدس في الكروسة ترفعنا جبال وتخفضنا أودية ولم نر في عمرنا جبالاً مثل هذه... ومن شدة علوها لم نستطع في بعض الأحوال رقي تلك الجبال ونحن راكبون على الكروسة فكنا ننزل ونمشي حتى نقطع تلك القطع الشاهقة (ثم وصل القدس)... ونحن ملطخون بأوحالنا لنزول الأمطار»[١١٧].

وقد بدأ الاهتمام في الربع الأخير من القرن التاسع عشر بمد الخطوط الحديدية في فلسطين. وتأسست في العام ١٨٨٠م شركة أمريكية، في ولاية مساشوستس Massachusetts الأمريكية، أسمت نفسها شركة فلسطين للخطوط الحديدية هدفها الحصول على امتياز عثماني لبناء خط حديدي يربط مصر بدمشق وبوادي الفرات عن طريق فلسطين[١١٨]. وصدر في العام نفسه فرمان عثماني بإنشاء خط حديدي بين يافا والقدس، وفرمان آخر بإنشاء خط بحري على البحر الأحمر لنقل الملح والحبوب ولكن الفرمان نص على عدم ضمانة الحكومة هذه السلع من خطر البدو. وكان الفرنسيون ناشطين في الحصول على هذه الفرمانات.

ولم ينفَّذ خط حديد يافا ــ القدس حتى العام ١٨٨٩م حين أصدر السلطان فرماناً بهذا المعنى، وعُهد إلى مهندسين فرنسيين بوضع المخططات اللازمة علماً أن المسافة بين المدينتين هي ٥١ كم ولكنها تبلغ في الواقع نحو ٦٥ كم بسبب تعرجات الطريق ومرورها في التلال والأودية[١١٩]. واحتُفل ببدء العمل في تمديد الخط قرب يافا في ٣١ آذار/مارس ١٨٩٠م بحضور رشاد باشا والي القدس. وكانت الشركة المنفذة فرنسية تُسمى شركة الأشغال العامة والبناء في باريس Société des Travaux Publics et Constructions à Paris، وأُعطيت ثلاث سنوات لإنهاء العمل. ووصلت مواد العمل وثلاث قاطرات أُطلق عليها أسماء القدس والرملة ويافا، وكانت من صنع معامل بالدوين Baldwin للقاطرات في فيلادلفيا بأمريكا[١٢٠].

وقد وصل إلى القدس أول قطار يجر مقطورة واحدة على الطريق الحديدية بين يافا والقدس في الساعة العاشرة من صباح السبت في ٢٧ آب/أغسطس ١٨٩٢م، وتقرر أن تفتتح الطريق للجمهور في ٢٩ منه. ويتوقف القطار في طريقه من يافا إلى القدس بكل من اللد والرملة (حيث توجد محطة)، وسجد، ودير أبان، وبتير، ثم القدس[١٢١]. وساعد هذا الخط الحديدي على تدفق السياح، وكذلك المهاجرين، بأعداد كبيرة إلى القدس عبر يافا[١٢٢].

وللإفادة من الخط الحديدي بين يافا والقدس في الوصول إلى مناطق أُخرى في فلسطين بُدِىءَ العمل في العام ١٩٠٦ ببناء طريق برية بين القدس ونابلس بمبادرة تركية وإشراف مهندس أرمني أُرسل من استانبول لهذا الغرض. وقد تم تمهيد الطريق فعلاً بين القدس والبيرة ومنها تفرّع طريق إلى رام الله[١٢٣]. وقد أُنجز طريق القدس ــ نابلس فيما بعد ولكنه وصف في العام ١٩٠٨م بأن قسماً منه مغطى بمياه الأمطار. لهذا عُقدت النية على مد خط حديدي بين المدينتين على أن يستمر هذا الخط من نابلس باتجاه جنين ثم العفولة، حيث يمر الخط الحديدي الذي ينطلق من حيفا إلى بيسان ثم سَمَخ ومنها إلى المزيريب فدمشق. ويشكل القسم الأخير إحدى مراحل الخط الحديدي الحجازي. وقد افتتح خط حيفا ــ المزيريب في ١٥ تشرين الأول/أكتوبر ١٩٠٦م، وذلك قبل أن ينتهي العمل فيه، كبادرة لتكريم السلطان العثماني في عيد ميلاده في ذلك التاريخ. وكان العمل في بناء هذا الخط قد دُشن في ١٩ كانون الأول/ديسمبر ١٨٩٢م في وادي رشميا شرقي حيفا بحضور نحو خمسة آلاف من سكان حيفا[١٢٤]. وكان قد دُشن قبل ست سنوات من ذلك، أي في العام ١٨٨٦، افتتاح طريق للعربات بين حيفا وطبرية، وبين طبرية وجنين[١٢٥].

وكان الخط الحديدي بين دمشق والحجاز قد تم إنجاز القسم الممتد منه بين دمشق ومعان في العام ١٩٠٦م. وقد بدأ هذا الخط بمبادرة السلطات العسكرية التركية وتوخيت منه أغراض عسكرية وسياسية، وعُهد بحمايته بين وادي الأردن والصحراء السورية إلى المهاجرين الشراكسة الذين أُقيمت لهم مستوطنات في النقاط الرئيسية منه[١٢٦]. وقد تضررت نابلس من تمديد هذا الخط لأن البلقاء بدأت تستورد بضائعها من دمشق عوضاً عن نابلس[١٢٧].

وذُكر أن قوارب بخارية في بحيرة طبرية كانت تستقبل القطار القادم من حيفا إلى سمخ أيام الثلاثاء والخميس والسبت، وتنقل المسافرين منه إلى طبرية وإلى الطابغة في أقصى شمال

البحيرة، ومنها يتوجه المسافرون إلى صفد التي تبعد حوالي ثلاث ساعات. وخُطط لبناء طريق عربات بين الطابغة وصفد التي تبعد عنها مسافة ٢٥ كم[١٢٨]، وقد أقامت شركة سياحية ألمانية تابعة لشركة الخطوط البحرية هامبورغ ـ أمريكا عدة فنادق في جنين ونابلس والناصرة وطبرية لاستقبال المسافرين[١٢٩].

وأثار خط حيفا ـ دمشق الحديدي الذي تبنته شركة بريطانية ثم أسهم فيه الألمان والأتراك حفيظة الفرنسيين وخوفهم من أن يتضرر طريق بيروت ـ دمشق. وما إن بُدىء ببناء خط حديد دمشق ـ مزيريب في العام ١٨٩٤م كبداية لتمديده فيما بعد إلى حيفا حتى دشّن الفرنسيون في العام التالي الخط الحديدي بين بيروت ودمشق. وهكذا بدأ صراع الدول الكبرى من خلال الخطوط الحديدية وما تحمله هذه الخطوط من بضائع أوروبية[١٣٠]. وقد تم افتتاح خط حديد دمشق ـ حيفا، الذي يبلغ طوله ٢٨٩ كم، في ١٥ تشرين الأول/أكتوبر ١٩٠٥م[١٣١].

ولم يكن تمديد هذه الطرق البرية والخطوط الحديدية ونشاط الموانىء البحرية سوى مظهر من ارتباط اقتصاد فلسطين والمنطقة بالاقتصاد العالمي بكل ما يترتب على ذلك من نتائج سياسية واقتصادية واجتماعية. ويتجلى هذا الارتباط بحجم البضائع المستوردة إلى فلسطين والمصدرة منها، وبأعداد السفن التي ترتاد موانيها. وباستعراض جدولين يعودان لعامي ١٨٨١م و ١٨٨٢م (ينتهي كل عام منهما في ٣٠ أيلول/سبتمبر) ويضمان البضائع المستوردة إلى فلسطين عبر مرفأ يافا، الذي كان من أنشط مرافئها بالرغم من مساوىء الملاحة فيه، يتضح لنا حجم هذه البضائع ونوعيتها وأثمانها والبلدان المصدرة لها[١٣٢]:

الجدول رقم (٦ ـ ٣)

البضائع المستوردة إلى يافا (١٨٨١م)[١٣٣]

المادة	الكمية	الثمن بالدولار	البلد المصدِّر
معلبات أمريكية	ـ	٢٥٠	أمريكا
بترول (كيروسين)	٣٠,٠٠٠ صندوق (٦٠,٠٠٠ صفيحة)	٤٠,٠٠٠	أمريكا
فحم حجري	٣٠٠ طن	٣,٠٠٠	إنكلترا
بن	٢٠٠,٠٠٠ كغ	١٠٠,٠٠٠	فرنسا، الجزيرة العربية
أدوية	ـ	١٠,٠٠٠	فرنسا، الهند، النمسا
سمك مجفف	ـ	١٢,٠٠٠	مصر، تركيا
طحين	٢,٠٠٠ كيس	١٢,٠٠٠	النمسا، تركيا، روسيا
أثاث	ـ	١٠٠,٠٠٠	فرنسا، النمسا، ألمانيا، إنكلترا
زجاج	ـ	٥,٠٠٠	فرنسا، النمسا
حديد	١,٢٠٠ طن	٦٠,٠٠٠	إنكلترا، روسيا، بلجيكا
مجوهرات	ـ	١٤,٠٠٠	تركيا، فرنسا، سويسرا
جلود	٤٠٠ رطل	٣٠,٠٠٠	فرنسا، تركيا
نسيج قطني	٢,٠٠٠ بالة (كل منها ٢٠٠ كغ)	٣٠٠,٠٠٠	إنكلترا، تركيا
نسيج صوفي	٤٠٠ بالة	٩٦,٠٠٠	إنكلترا، فرنسا
نسيج حريري	١٠٠ بالة	٤٠,٠٠٠	فرنسا، تركيا
بصل	١٢٥ طناً	٣,٧٥٠	قبرص، تركيا
بطاطا	٤,٠٠٠ كيس (كل منها ١٠٠ كغ)	١٢,٠٠٠	فرنسا، تركيا
أرز	٢٥,٠٠٠ كيس	١٧٥,٠٠٠	مصر، إيطاليا
أكياس فارغة	٥٠٠ بالة	٢٠,٠٠٠	فرنسا، النمسا
ملح	١,٥٠٠ طن	٢٤,٠٠٠	قبرص، تركيا، روسيا
صودا (للصابون)	ـ	١٦,٠٠٠	تركيا، الجزيرة العربية
سكر	٥,٠٠٠ صندوق (كل منها ١٥٠ كغ)	١٢٥,٠٠٠	فرنسا، مصر
أخشاب	ـ	١٢٠,٠٠٠	تركيا، النمسا
خمرة وكحول	ـ	٢٠,٠٠٠	فرنسا، تركيا، قبرص
متفرقات	ـ	٥٠,٠٠٠	من مختلف البلدان
المجمـوع		١,٣٨٨,٠٠٠ دولار	

الجدول رقم (٦ ــ ٤)
البضائع المستوردة إلى يافا (١٨٨٢م)(١٣٤)

المادة	الكمية	الثمن بالدولار	البلد المصدِّر
معلبات أمريكية	ـ	٤٠٠	أمريكا
بترول	١٥,٠٠٠ صندوق	٢٥,٥٠٠	أمريكا
فحم	٥٠٠ طن	٤,٨٠٠	إنكلترا
بن	٣,٠٠٠ كيس	٤٨,٠٠٠	فرنسا، الجزيرة العربية
أدوية	ـ	٨,٠٠٠	النمسا، الهند، فرنسا
زجاج	ـ	٥,٥٠٠	النمسا، تركيا، فرنسا
حديد	٦٠٠ طن	٢٧,٠٠٠	إنكلترا، بلجيكا، روسيا
جلود	ـ	١٢,٠٠٠	فرنسا، تركيا
نسيج قطني وصوفي وحريري	ـ	٢٥,٠٠٠	إنكلترا، فرنسا، ألمانيا، النمسا، تركيا
بصل	١٥٠ طناً	٣,٦٠٠	تركيا
بطاطا	١,٥٠٠ كيس	٥,٢٥٠	فرنسا، تركيا
أرز	١٥,٠٠٠ كيس	١٠٥,٠٠٠	إيطاليا، مصر
ملح	ـ	٦,٠٠٠	الجزائر
سكر	٥,٥٠٠ صندوق	٩٤,٥٠٠	فرنسا، النمسا، مصر
قرميد	١٥٠,٠٠٠ قطعة	٦,٠٠٠	فرنسا
خمور وبيرة وكحول	ـ	١٢,٠٠٠	تركيا، فرنسا، النمسا
أخشاب	ـ	٨٥,٠٠٠	النمسا
متفرقات	ـ	٢٠,٠٠٠	من مختلف البلدان
المجمـوع		٧٣٨,٥٥٠(*) دولاراً	

(*) كذا في الأصل.

يتبين لنا من مقارنة الجدولين السابقين كيف أن قيمة الواردات في سنتين متتاليتين عبر مرفأ يافا قد هبطت من ١,٣٨٨,٠٠٠ دولار لعام ١٨٨١م إلى ٧٣٨,٥٥٠ دولاراً للعام ١٨٨٢. ويفسَّر ذلك بتضاؤل قدرة السكان المحليين على شراء البضائع الأجنبية بسبب ارتفاع الأسعار بعامة ومنها أجور السكن وثمن الأراضي الذي زاد بمقدار ٢٥ بالمئة عن العام السابق، وكذلك تدفق اليهود ومعظمهم من الفقراء. ويلاحظ أن استيراد البترول الأمريكي عن طريق يافا قد تضاءل بحوالي النصف، وانخفض كذلك سعره من ١,٧٠ دولاراً إلى ١,٣٣ دولاراً للصندوق الواحد. ويضم كل صندوق صفيحتين ويزن ٢٩,٥ كغ. وتضم الصفيحة خمسة غالونات أمريكية، ولا يعني هذا أن الحاجة للبترول بوجه عام قد تضاءلت بل العكس هو الصحيح لأنه شاع استعماله في البيوت وبخاصة في الإضاءة حتى ان البدو بدأوا باستخدامه. ولكن البترول الأمريكي وجد منافساً قوياً له في البترول الروسي الذي استورد آنذاك عن غير طريق مرفأ يافا(١٣٥). ثم بازدياد كمياته استورِد أيضاً عن طريق يافا وأصبح يذكر إلى جانب البترول الأمريكي(١٣٦). ومما حدّ بالمقابل من استيراد فلسطين للبضائع الأمريكية، بالرغم من الهجرة المتبادلة بين الطرفين، طول المواصلات ونقل البضائع عن طريق ليفربول في إنكلترا إلى الاسكندرية في مصر ومنها إلى بيروت ويافا بحيث كان ذلك يزيد في التكاليف. ويلاحظ كذلك أن الفحم الحجري قد ازداد استيراده بنسبة ستين بالمئة بسبب تنوع استخدامه. وقد استُخدم فيما بعد لتشغيل قاطرات الخطوط الحديدية.

ويلاحظ في جدول واردات العام ١٨٨١ أن المواد الغذائية تشكل حوالي ٣٤٪ من مجموع الواردات في حين أنها تشكل حوالي ٣٨٪ في جدول واردات عام ١٨٨٢. وإذا كانت هذه الزيادة في نسبة المواد الغذائية سببها ازدياد الهجرة فإننا نجد بالمقابل أن المواد النسيجية المستوردة، من قطنية وصوفية وحريرية،

قد ازدادت نسبتها هي الأخرى من حوالي ٣١٪ في العام ١٨٨١ إلى حوالي ٣٤٪ في العام ١٨٨٢ مع الأخذ بعين الاعتبار تدني قيمة الواردات في العام ١٨٨٢ بشكل عام.

وإذا كان هبوط الواردات أمراً صحياً للاقتصاد الوطني، شريطة ازدياد الصادرات بالمقابل، فإن ذلك أقلق أصحاب رؤوس الأموال الأجنبية فخططوا لتنمية الزراعة محلياً لتزداد بذلك قدرة السكان على شراء البضائع الأجنبية. كما أن تدني أسعار البضائع الأجنبية بسبب المنافسة بين المنتجين الأجانب أغرى السكان على شرائها. ومما شجع كذلك على إدخال البضائع الأجنبية إلى فلسطين ضآلة الضرائب الجمركية عليها إذ قُدرت بـ ٨٪ (باستثناء السيكار فقد بلغت ضريبته في العام ١٨٨١، ٧٥٪) في حين أن الضرائب على بعض الصادرات من فلسطين بلغت أضعاف ذلك، كما جاء مثلاً في شكوى شركة أمريكية ـ ألمانية في حيفا (أفرادها ألمان من التبعة الأمريكية) كانت تصدر شحنات الصابون الممتاز من فلسطين إلى نيويورك وبوسطن وبوفالو في أمريكا. فقد تضاءل ربحها لأن مجموع الضرائب على ما تصدره بلغ ٥٠٪[١٣٧]. وكانت الضريبة على الصادرات من فلسطين قبل العام ١٨٦١ تقدر بـ ١٢٪ ثم تناوبها النقصان أو الزيادة بحسب الأوضاع.

وباستعراض صادرات فلسطين، عبر مرفأ يافا، خلال عامي ١٨٨٢م و ١٨٨٥م (تنتهي كل سنة منها في ٣٠ أيلول/سبتمبر) نتبين حجم هذه الصادرات وأنواعها وأسعارها والدول المصدرة إليها:

الجدول رقم (٦ ــ ٥)

البضائع المصدرة من يافا (١٨٨٢م)[١٣٨]

المادة	الكمية	الثمن بالدولار	البلد المصدَّر إليه
شعير	٢٠٤,٠٠٠ صاع	١٠٢,٠٠٠	مصر، فرنسا
عظام	ـ	٢,٢٥٠	النمسا
حنظل	٥٥,٠٠٠ ليبرة	٤,٠٠٠	النمسا، إنكلترا
ذرة	٥١١,٠٠٠ صاع	٢٥٥,٥٠٠	مصر، فرنسا
خيول	٧١	٥,٦٨٠	مصر، فرنسا
فول	١٤,٠٠٠ صاع	٩,١٠٠	فرنسا
سبحات وأشغال من خشب وصدف	٢,٠٠٠ صندوق	١٢٠,٠٠٠	جميع البلدان
ترمس	١٢,٥٠٠ صاع	٥,٠٠٠	فرنسا، مصر
زيت زيتون	١٥٠,٠٠٠ أوقة	٣٠,٠٠٠	فرنسا
برتقال	١٠ ملايين برتقالة	١٥٠,٠٠٠	مصر، تركيا، روسيا
سجاد	٣,٥٠٠ بالة	٢٢,٠٠٠	انكلترا
بزور سمسم	٢,٠٠٠ طن	٢٠٠,٠٠٠	فرنسا
أغنام	٤,٠٠٠ رأس	١٦,٠٠٠	مصر
صابون	١٥,٠٠٠ بالة	٤٥٠,٠٠٠	مصر
فواكه وخضار	ـ	٧٥,٠٠٠	مصر
قمح	٢٠٣,٤٠٠ صاع	١٦٢,٧٢٠	فرنسا، إنكلترا
صوف	٤٠٠ بالة	٣٠,٠٠٠	فرنسا، إنكلترا
متفرقات	ـ	٦٠,٠٠٠	إلى مختلف البلدان
المجمــوع		١,٦٩٩,٢٥٠ دولاراً	

الجدول رقم (٦ ــ ٦)
البضائع المصدرة من يافا (١٨٨٥م)(١٣٩)

المادة	الكمية	الثمن بالدولار	البلد المصدَّر إليه
شعير	٢١,٨٦٠ طناً	٤٦٩,١٦٠	تركيا، إنكلترا، فرنسا
عظام	٢١٠ أطنان	٦,٩٦٠	إنكلترا، إيطاليا
حنظل	—	٥,٦٠٠	النمسا، إنكلترا، فرنسا
ذرة	٢,٦٥٥ طناً	٥١,٣٨٠	تركيا، فرنسا، إنكلترا
بذورات مملحة ومجففة	—	٣,٦٠٠	ألمانيا، النمسا
جلود	—	٧,٧٢٠	تركيا، مصر، النمسا
سبحات وأشغال من خشب وصدف	—	٤٦,٧٢٠	جميع البلدان
ترمس	٢,٢٨٠ طناً	٦١,٣٦٠	فرنسا، إنكلترا، النمسا
زيت زيتون	١,٨٩٠ طناً	٢٦٧,٥٢٠	تركيا، فرنسا، النمسا
زيت سمسم	٢٩,٠٠٠ أوقة	٥,٦٧٦	تركيا، فرنسا، النمسا
برتقال وليمون وفواكه أخرى	—	٣٣٥,٠٠٠	مصر، تركيا، أوروبا
بذور السمسم	٢,١٣٤ طناً	١٧١,٣٥٠	فرنسا، النمسا، تركيا
صابون	٩,٨٠٠ بالة	١٥٦,٩٠٠	فرنسا، النمسا، تركيا
خمور	—	٧,٦٠٠	جميع البلدان
قمح	٢,٢٦٠ طناً	٦٣,٢٨٠	تركيا، فرنسا، إيطاليا
صوف	—	٧,٤٠٠	فرنسا، إنكلترا، أمريكا
ماشية	—	٢٠,٠٠٠	جميع البلدان
المجمـوع		١,٦٨٧,٢٢٦ دولاراً	

ويتضح من الجدولين السابقين أن قيمة الصادرات من فلسطين متساوية تقريباً في عامي ١٨٨٢م و ١٨٨٥م، كما أن صادرات الحمضيات والفواكه بمجموعها ازدادت في العام ١٨٨٥م بنسبة حوالي ١٥ ٪، وهو ما يؤكد العناية بإنتاج الحمضيات وبالترحيب بها في الخارج. ويلاحظ كذلك أن تصدير الحبوب، مثل الشعير والذرة والقمح، التي بلغت مبيعاتها في العام ١٨٨٢م مقدار ٥٢٠,٢٢٠ دولاراً قد ازدادت في العام ١٨٨٥م إلى ٥٨٣,٨٢٠ دولاراً، ويدل هذا أيضاً على ازدياد الاهتمام في فلسطين وخارجها بهذا الإنتاج. وأهم استنتاج نتوصل إليه، إذا ما قارنا قيمة الواردات والصادرات في هذين الجدولين، هو أن الصادرات كانت أهم من الواردات بالرغم من الرسوم المنخفضة نسبياً على الواردات، وذلك يدل على أن التجارة الخارجية لفلسطين، على الأقل، عبر مرفأ يافا، كانت في صالحها عشية اشتداد الهجرة اليهودية إليها.

ويمكن التعرف على عدد البواخر والمراكب وأنواعها وجنسياتها التي شحنت عليها هذه البضائع من مرفأ يافا وإليه في الجدولين التاليين لعامي ١٨٨٢ و ١٨٨٥ (المنتهيين في ٣٠ أيلول/سبتمبر).

يلاحظ في الجدول رقم (٦ ــ ٧) أن أكثر البواخر الداخلة إلى ميناء يافا كانت ترفع علم دولة النمسا، تليها تلك التي ترفع علم فرنسا، ثم تلك التي ترفع علم روسيا. وينطبق هذا الترتيب على مجموع أعداد البواخر والمراكب العائدة لهذه الدول والداخلة إلى يافا. ولكن المراكب التي تحمل العلم العثماني فاقت بأعدادها بواخر ومراكب الدول الأخرى بحوالي ثلاث مرات، ومع ذلك لم يتجاوز مجموع حمولتها ٧,٩٨ ٪ من مجموع الأطنان. ونستدل من هذا أن استخدام العثمانيين المراكب فقط بهذه الكثرة وفي قطر محدود بين تركيا ومصر ويافا إنما يدل على دور ضئيل للعثمانيين في النشاط التجاري مع يافا إذا ما قارنا نسبة الأطنان التي حملتها المراكب العثمانية (٧,٩٨ ٪) مع نسبة حمولة المراكب التي ترفع علم النمسا (٣٦,٦٢ ٪)، وتلك التي ترفع علم فرنسا (٢٥,١٣ ٪)، وتلك التي ترفع العلم الروسي (٢٤,٤٣ ٪).

الجدول رقم (٦ ـ ٧)
البواخر والمراكب الداخلة إلى مرفأ يافا (١٨٨٢م)

علم الدولة	من وإلى	البواخر		المراكب		المجموع	
		العدد	الأطنان	العدد	الأطنان	العدد	الأطنان
النمسا	مصر والنمسا	٩٨	١١٠,٨٠٧	٣	٨٦٢	١٠١	١١١,٦٦٩
إنكلترا	إنكلترا	١٩	١٢,٠١٧	ـ	ـ	١٩	١٢,٠١٧
فرنسا	مصر وفرنسا	٥٩	٧٦,٢٠١	٩	٤٥٠	٦٨	٧٦,٦٥١
اليونان	اليونان وتركيا	ـ	ـ	٩	١,٠٤٢	٩	١,٠٤٢
إيطاليا	إيطاليا	١	٧٨٤	٨	١,٨٥٦	٩	٢,٦٤٠
الدولة العثمانية	تركيا ومصر	ـ	ـ	٧٧٠	٢٤,٣٤٦	٧٧٠	٢٤,٣٤٦
إسبانيا	إسبانيا	٢	٢,٠٥٤	ـ	ـ	٢	٢,٠٥٤
روسيا	مصر وروسيا	٥٢	٧٤,٥١٦	ـ	ـ	٥٢	٧٤,٥١٦
المجموع		٢٣١	٢٧٦,٣٧٩	٧٩٩	٢٨,٥٥٦	١,٠٣٠	٣٠٤,٩٣٥

الجدول رقم (٦ ـ ٨)
البواخر والمراكب الداخلة إلى مرفأ يافا (١٨٨٥م)

علم الدولة	من وإلى	البواخر		المراكب		المجموع	
		العدد	الأطنان	العدد	الأطنان	العدد	الأطنان
النمسا	مصر	٩١	٩٩,٢٠٥	٢	٥٤١	٩٣	٩٩,٧٤٦
إنكلترا	إنكلترا	٢٨	١٨,٦٦٢	ـ	ـ	٢٨	١٨,٦٦٢
فرنسا	مصر	٦٠	٧٢,٩٦٦	٤	٢٠٠	٦٤	٧٣,١٦٦
ألمانيا	ألمانيا	ـ	ـ	١	١٣٥	١	١٣٥
اليونان	تركيا	١	٦٤٥	٤	٦٣٧	٥	١,٢٨٢
إيطاليا	إيطاليا	ـ	ـ	٥	٩٤٣	٥	٩٤٣
الدولة العثمانية	تركيا	٣٧	٣٦,٦٦٢	٦٥٧	١٩,٠٣٠	٦٩٤	٥٥,٦٩٢
إيران	تركيا	ـ	ـ	٧	١٦١	٧	١٦١
روسيا	مصر وروسيا	٥٢	٧٧,٧٩٢	ـ	ـ	٥٢	٧٧,٧٩٢
المجموع		٢٦٩	٣٠٥,٩٣٢	٦٨٠	٢١,٦٤٧	٩٤٩	٣٢٧,٥٧٩

وبالمقارنة مع الجدول رقم (٦ ـ ٨) نجد أن البواخر التي تحمل العلم النمساوي بقيت لها الأولوية في العدد بين البواخر الأخرى، تتلوها فرنسا وروسيا. ولكن المراكب التي تحمل العلم العثماني كانت لها، كالسابق، الأولوية في العدد، ولكن ليس في نسبة مجموع الأطنان التي بلغت ١٧ ٪، في حين بلغت نسبة الأطنان التي حملتها السفن التي ترفع العلم النمساوي ٣٠,٤٤ ٪، والسفن التي تحمل العلم الفرنسي ٢٢,٣٣ ٪، والسفن ذات العلم الروسي ٢٣,٧٤ ٪. وبذلك تقدمت السفن

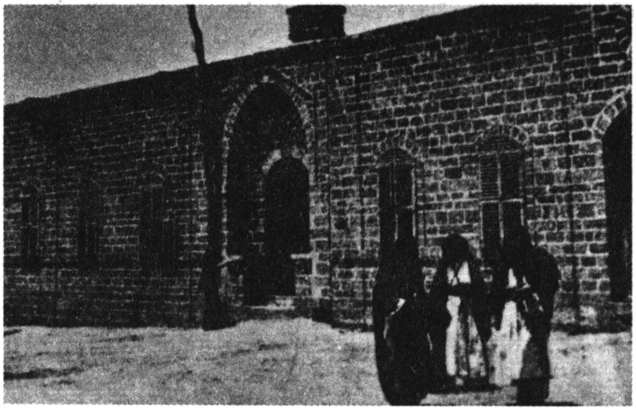
التي تحمل العلم الروسي على تلك التي ترفع العلم الفرنسي في مجموع الأطنان في الجدول الثاني خلافاً لوضعها في الجدول الأول.

ومما يلفت النظر في الجدولين كثرة ملاحة السفن التي تحمل العلم النمساوي في ميناء يافا. فالنمسا آنذاك كانت قلب الامبراطورية النمساوية الهنغارية (أُسست عام ١٨٦٧م) التي ورثت اهتمامات أسرة آل هابسبورغ بالامبراطورية العثمانية وبلاد المشرق، ومن هنا تكتسب زيارة امبراطور النمسا لفلسطين أهمية خاصة، فقد وصل القدس في ٩ تشرين الثاني/نوفمبر ١٨٦٩م قادماً من يافا، وزار بيت لحم ثم غادر فلسطين في الثالث عشر منه إلى بور سعيد لحضور احتفال افتتاح قناة السويس المقرر في ١٧ تشرين الثاني/نوفمبر. وقبل وصول الامبراطور إلى فلسطين بأيام زارها ولي عهد بروسيا الذي وصل يافا في ٣ تشرين الأول/أكتوبر، وزار في يافا المستوطنة الألمانية، وأهداه السلطان قطعة أرض قرب بيت المقدس لبناء كنيسة ومستشفى وقنصلية. وقيل ان قطعة مماثلة أُهديت إلى امبراطور النمسا(١٤٠). وكانت زيارة ولي عهد بروسيا مقدمة لزيارة الامبراطور الألماني للقدس وبلاد الشام في العام ١٨٩٨، وذلك يدل على ازدياد الاهتمام الألماني بالدولة العثمانية(١٤١).

وإذا نظرنا إلى مجموع الأطنان التي حملتها البواخر والمراكب إلى ميناء يافا في العام ١٨٨٥ نجد أنها لم تزد عن مجموع الأطنان في العام ١٨٨٢م إلا بنسبة ضئيلة تعادل ٧٪، وذلك يدل على أن احتلال الانكليز لمصر في أيلول/سبتمبر ١٨٨٢م، وهو الاحتلال الذي زاد في الطلب على الحبوب من فلسطين وأوجد إرباكاً في السياسة الدولية وفي الملاحة في المتوسط، لم يؤثر في عملية الملاحة في مرفأ يافا. كما أن حركة ملاحة البواخر التي تحمل العلم الانكليزي قد ازدادت بالنسبة لأعدادها وحمولتها في العام ١٨٨٥م عما كانت عليه في العام ١٨٨٢م.

وبمقارنة جداول الصادرات والواردات في مرفأ يافا في عامي ١٨٨٢م و ١٨٨٥م نجد أن الصادرات قد حافظت على أرقام متقاربة بلغت ١,٦٩٩,٢٥٠ دولاراً في العام ١٨٨٢م مقابل ١,٦٨٧,٢٢٦ دولاراً في العام ١٨٨٥م. ولكن الواردات ازدادت بشكل كبير، فقد بلغت في العام ١٨٨٢م مقدار ٧٣٨,٥٥٠ دولاراً ثم ارتفعت في العام ١٨٨٥م إلى ٩,٦٢٤,٤١٥ دولاراً، أي بزيادة قدرها ثلاثة عشر ضعفاً، مما يدل على تنشيط الاستهلاك المحلي وبالتالي زيادة قدرة السكان على شراء السلع الأوروبية. ويعود ذلك إلى ثلاثة عوامل: نمو الإنتاج الزراعي في فلسطين حسب تخطيط الرأسماليين الأوروبيين، كما سبقت الإشارة، لزيادة قدرة الناس على الشراء، وتخفيض سعر السلع الأوروبية لجعلها قادرة على المنافسة مع المنتجات المحلية، ثم انتشار استخدام هذه السلع بين السكان المحليين بشكل كبير.

وقد اعتمد الأوروبيون في تجارتهم مع فلسطين على خدماتهم الخاصة التي سهلت لهم أمر الاتصال بين الشركات أو الفروع التي أنشأوها في فلسطين ومراكزها الرئيسية في البلد الأم. ومن هذه الخدمات البرق (التلغراف) الذي ذُكر في العام ١٨٦٥ أنه يربط بين القدس وإستانبول والاسكندرية وغيرها من البلدان(١٤٢). ولكن أهم الخدمات وأكثرها استعمالاً البريد. ويصل البريد إلى يافا بواسطة بواخر خاصة وينقل منها إلى القدس التي يصلها في اليوم التالي. ووجدت في البدء مصلحتان للبريد، تركية ونمساوية. وتختلف المصلحتان من حيث تنظيمهما ودقتهما، وبالتالي مقدار الثقة بكل منهما. فالبريد النمساوي يوزَّع في القدس بين الساعة السادسة والنصف والسابعة صباحاً، أي بعد حوالي



مبنى البريد في غزة



نقود فلسطينية

١٨ ـ ٢٠ ساعة من وصوله إلى يافا. ويتأخر البريد التركي من عشر ساعات إلى يوم وقد لا يصل أو يُهمل أو يضيع[١٤٣]. ونظراً لأهمية البريد في المعاملات التجارية وغيرها فقد أوجدت كل من روسيا وفرنسا وألمانيا بريداً خاصاً بها في مطلع القرن العشرين[١٤٤].

وكان للعملة دور هام في المعاملات التجارية. وكان انتشار العملة الأوروبية في فلسطين، وغيرها من بلاد الشام، في القرن التاسع عشر دليلاً على سيطرة الرأسمال الأوروبي على الاقتصاد العثماني بمجمله. وهناك أمثلة على اضطراب قيمة العملة المستخدمة في فلسطين في وقت مبكر من القرن التاسع عشر، مثال ذلك إبلاغ متسلم لواء غزة في ٦ جمادى الثانية ١٢٤١هـ / ١٦ كانون الثاني/يناير ١٨٢٦م الأوامر العثمانية التي تبطل التعامل بجميع أنواع العملات باستثناء ثلاثة: الذهب العادلي وقيمته ١٢ غرشاً، ومشتقاته النصف والربع، والريال الألتمشلك Altmişlik الفضي وسعره ستون بارة فضة، ثم الفرط (القطع الفضية الصغيرة) كل أربعين فضة (قطعة) بقرش[١٤٥]. وقد أُدخلت أنواع جديدة من العملة زمن الحكم المصري وأصابها بدورها كثير من الاضطراب في القيمة[١٤٦]. وازدادت فوضى العملة بعد عودة الحكم العثماني لأنها أصبحت تضم عملات عثمانية ومصرية ومحلية وأوروبية. وإزاء هذه الفوضى وتفاوت قيمة العملة أصبحت النقود الأوروبية هي الأكثر ثباتاً في القيمة، لهذا تهافت الناس على اقتنائها والتعامل بها كما تدل حجج شراء العقارات وقوائم الديون وسجلات التركات[١٤٧]. وبلغ الأمر في النصف الثاني من القرن التاسع عشر أن أصبح لبعض مدن فلسطين عملة خاصة بها إلى جانب العملات الأخرى المتداولة فيها، مثال ذلك ما ذكر في إحدى القضايا التي نظرت فيها محكمة الخليل بتاريخ ٥ ذي الحجة ١٢٩٢هـ / ٢ كانون الثاني/يناير ١٨٧٦م عن مبلغ من المال في شركة قدره «ستة وخمسون ألف غرش ومايتين وعشرين غرش عملة القدس سعر الليرا ماية وعشرة غروش»[١٤٨]. كما أشير إلى شراء دار في نابلس بثمن قدره سبعة آلاف وخمسمائة غرش عملة نابلس يومئذ[١٤٩].

وبسيطرة الاقتصاد الأوروبي أصبحت عملاته الذهبية، مثل الليرات الفرنسية والانكليزية والمسكوفية (الروسية)، أساس التعامل في فلسطين وغيرها. واختلفت أسعار صرفها بالنسبة للقرش العثماني الصاغ الصحيح الميري، المعروف بالأسدي، من مدينة إلى أخرى في الوقت نفسه حسب عملة تلك المدينة[١٥٠]. وأدى عدم استقرار العملة العثمانية، وبخاصة منها النحاسية التي يتعامل بها الفلاحون، إلى الإضرار بهؤلاء لفائدة تجار العملة[١٥١]. وفي العام ١٨٨٢ خفضت الدولة العثمانية قيمة الليرة الذهبية من ١٢٢,٥ غرشاً إلى مائة غرش، وتأثرت بذلك القيمة الاسمية للعملات الأجنبية مما أوجد ذعراً في الدوائر المالية وخسارة للسياح والحجاج الأجانب. وقد أملت الدولة من ذلك زيادة عائداتها بنسبة ٢٢,٥ ٪[١٥٢].

ومما يدل على عدم الاستقرار المالي في فلسطين تبدل قيمة العملات الأجنبية في مدى فترة زمنية محددة. ففي تاريخ ٣١ آذار/مارس ١٨٦٠ كان سعر الليرة الانكليزية الذهب في القدس ١٢٢ غرشاً، والفرنسية ٩٦ غرشاً، والدولار الأميركي ٢٥ غرشاً[١٥٣]، فأصبح سعر هذه العملات في القدس في ٢٤ تموز/يوليو ١٨٦٨ كالتالي: الليرة الانكليزية ١١٢ غرشاً، والفرنسية ٩١ غرشاً، والدولار الأمريكي ٢٣ غرشاً[١٥٤]، ثم ارتفعت الليرة الانكليزية إلى ١٣٤,٥ غرشاً، والفرنسية إلى ١٠٧,٥ غروش. ولكن تخفيض سعر الليرة العثمانية في العام ١٨٨٢ من ١٢٢,٥ غرشاً إلى مائة غرش، كما سبق القول، أدى إلى خفض قيمة الليرة الانكليزية اسمياً الى ١٠٩,٥ غروش، والفرنسية إلى ٨٦,٥ غرشاً. وقد أدى هذا التخفيض إلى عدم الثقة بالعملة العثمانية وإلى ارتفاع سعر الفائدة وإقبال الناس على اقتناء الليرات الذهبية. وقد جاء في تقرير القنصل الأمريكي في القدس في ٨ كانون الثاني/يناير ١٩٠٠م أن الليرة الذهبية العثمانية فقدت تماماً في سوق النقد في القدس، ولم تعد أساس التعامل النقدي، وأصبحت الليرة الذهبية الفرنسية (النابوليونية) أساس هذا التعامل بالنسبة للمصارف والتجار والقناصل والمبشرين وحتى الموظفين العثمانيين بمن فيهم والي القدس. أما عن سبب اعتماد الليرة الفرنسية دون غيرها فيفسره القنصل الأمريكي بسيطرة المصالح الفرنسية في القدس إلى درجة أن راتبه يحول له بالدولار ولكن المصرف يدفع له بالعملة الفرنسية على أساس أن الدولار الواحد يعادل ٥,١٨ فرنكات، ويعلّق على ذلك بقوله انه نظراً لاضطراب أسعار النقد فقد حدثت أربعة إفلاسات مصرفية في القدس منذ العام ١٨٩١م مما أدى إلى احتجاج أصحاب الودائع[١٥٥].

وهكذا يتبين لنا كيف أن الوضع المالي والاقتصادي في فلسطين، من خلال الوضع العثماني بعامة، أصبح خاضعاً للرأسمال العالمي، ومن خلاله للرأسمال اليهودي، الذي فرض نفسه لتسهيل عملية شراء الأراضي من ناحية، وللسيطرة على الموارد المحلية من ناحية أخرى. وترتب على ذلك آثار سياسية واقتصادية واجتماعية بعيدة المدى.

ملــحق

سكان لواء عكا (بحسب قوائم شوماخر في العام ١٨٨٦)[1]

(في أقضيته الخمسة)

١ ــ قضاء عكا

اسم المدينة أو القرية	عدد السكان الذكور (سن ١٦ ــ ٦٠) أو أعداد الخانة							المجموع × ٥ = عدد السكان	
	مسلمون	روم‌أرثوذكس[2]	كاثوليك	لاتين	موارنة	يهود	دروز (*)		
حارات عكا:									
حارة المبلطة	٣٣٧	ـ	ـ	ـ	ـ	ـ	ـ	٣٣٧	١,٦٨٥
حارة الشيخ عبد الله	١٨٨	٢٥٠	٤٢	٣٣	١٦	٢٨	ـ	٥٥٧	٢,٧٨٥
حارة القاسمية	١٤١	ـ	ـ	ـ	ـ	ـ	ـ	١٤١	٧٠٥
حارة الشخوص	٨٣	٤٧	ـ	ـ	ـ	ـ	ـ	١٣٠	٦٥٠
حارة الشراشحة	١١١	ـ	ـ	ـ	ـ	ـ	ـ	١١١	٥٥٥
حارة المجادلة	٢١٨	١٠٥	٦٩	ـ	ـ	ـ	ـ	٣٩٢	١,٩٦٠
حارة القلعة	١٥٠	ـ	ـ	ـ	ـ	ـ	ـ	١٥٠	٧٥٠
حارة عين الست	٤٣	ـ	ـ	ـ	ـ	ـ	ـ	٤٣	٢١٥
حارة البساتين	١٩	ـ	ـ	ـ	ـ	ـ	ـ	١٩	٩٥
حارة قرية المنشية	٨٠	ـ	ـ	ـ	ـ	ـ	ـ	٨٠	٤٠٠
مجموع سكان مدينة عكا								١,٩٦٠	٩,٨٠٠
قرايا ساحل عكا:									
قرية الزيب	١٤٦	ـ	ـ	ـ	ـ	ـ	ـ	١٤٦	٧٣٠
قرية عمقا	١٤٨	ـ	ـ	ـ	ـ	ـ	ـ	١٤٨	٧٤٠
قرية جديدة	٢٤	٢٥	ـ	ـ	ـ	ـ	ـ	٤٩	٢٤٥
قرية نهر التل	٥٥	ـ	ـ	ـ	ـ	ـ	ـ	٥٥	٢٧٥
قرية الغابسية	٧٨	ـ	ـ	ـ	ـ	ـ	ـ	٧٨	٣٩٠
قرية المزرعة	٣٧	ـ	ـ	ـ	ـ	ـ	ـ	٣٧	١٨٥
قرية شيخ داود	٦٤	ـ	ـ	ـ	ـ	ـ	ـ	٦٤	٣٢٠
قرية كفر ياسيف	٣٧	١٤٥	ـ	ـ	ـ	ـ	ـ	١٨٢	٩١٠
قرية يركا	ـ	ـ	١	ـ	ـ	ـ	٢٥٦	٢٥٧	١,٢٨٥
قرية سميرية	٥٤	ـ	ـ	ـ	ـ	ـ	ـ	٥٤	٢٧٠
قرية مكر	٣٥	٣	١٨	ـ	ـ	ـ	ـ	٥٦	٢٨٠
قرية الكويكات	١١٣	ـ	ـ	ـ	ـ	ـ	ـ	١١٣	٥٦٥
قرية أبو سنان	ـ	٤٧	ـ	ـ	ـ	ـ	٦٦	١١٣	٥٦٥
قرية جت	ـ	ـ	ـ	ـ	ـ	ـ	٢١	٢١	١٠٥
قرية يانوح	ـ	ـ	ـ	ـ	ـ	ـ	٤٩	٤٩	٢٤٥

(*) يعتبر الدروز فئة منفصلة عن المسلمين في المصادر الأجنبية في تلك الفترة.

اسم المدينة أو القرية	عدد السكان الذكور (سن ١٦ ـ ٦٠) أو أعداد الخانة							المجموع × ٥ = عدد السكان	
	مسلمون	روم أرثوذكس	كاثوليك	لاتين	موارنة	يهود	دروز		
قرية القهوة	٧٤	—	—	—	—	—	—	٧٤	٣٧٠
قرية جولس	—	—	—	—	—	—	٧٢	٧٢	٣٦٠
قرية البصة	١١٤	٢٧٨	—	—	—	—	—	٣٩٢	١,٩٦٠
مجموع سكان قرى ساحل عكا								١,٩٦٠	٩,٨٠٠
قرايا ناحية الشاغور:									
قرية مجد الكروم	٢١٥	—	—	—	—	—	—	٢١٥	١,٠٧٥
قرية عرابي[3]	١٧٧	—	٣٧	—	—	—	—	١٩٤[3]	٩٧٠
قرية يقوق	٢١	—	—	—	—	—	—	٢١	١٠٥
قرية كفر عنان	١٦	—	—	—	—	—	—	١٦	٨٠
قرية بعنة	٦٨	٥٦	—	—	—	—	—	١٢٤	٦٢٠
قرية سيجور	—	—	—	—	—	—	٣٨	٣٨	١٩٠
قرية الرامي[4]	١١٥	٢٥	—	—	—	—	٨٥	٢٢٥	١,١٢٥
قرية دير حنا	٥٦	—	١٧	—	—	—	—	٧٣	٣٦٥
قرية مغار الحزور	٣٦	—	٨٤	—	—	—	١٢٥	٢٧٢[5]	١,٣٦٠
قرية نحف	٩٥	—	—	—	—	—	—	٩٥	٤٧٥
قرية الفراضة[6]	٩١	—	—	—	—	—	—	٩١	٤٥٥
قرية دير الأسد	١٤٥	—	—	—	—	—	—	١٤٥	٧٢٥
قرية سخنين	٣٢٨	٢٥	٣٠	—	—	—	—	٣٨٣	١,٩١٥
قرية كسرة	—	—	—	—	—	—	١٤	١٤	٧٠
قرية عيلبون	—	—	٤٢	—	—	—	—	٤٢	٢١٠
مجموع سكان قرى ناحية الشاغور								١,٩٤٨	٩,٧٤٠
قرايا ناحية شفاعمرو:									
نفس شفاعمرو	١٥٩	١٩	٢٢٠	٢٨	٣٥	٦	٨٨	٥٥٠[7]	٢,٧٥٠
						(بروتستانت)			
قرية الطمرة[8]	١٠٧	—	—	—	—	—	—	١٠٧	٥٣٥
قرية شيخ بريك	٧٩	—	—	—	—	—	—	٧٩	٣٩٥
قرية طبعون	١٨	—	—	—	—	—	—	١٨	٩٠
قرية مجدل	١٩	—	—	—	—	—	—	١٩	٩٥
قرية جيدا	٢٨	—	—	—	—	—	—	٢٨	١٤٠
قرية حارتية[9]	٢٤	—	—	—	—	—	—	٢٤	١٢٠
قرية جدرو	١٢	—	—	—	—	—	—	١٢	٦٠
قرية أم العمد	١١	—	—	—	—	—	—	١١	٥٥
قرية شعب	٢٦٩	١٧	—	—	—	—	—	٢٨٦	١,٤٣٠
قرية بيت لحم	١١	—	—	—	—	—	—	١١	٥٥
قرية قدمون	١٣٩	—	٢٣	—	—	—	—	١٦٢	٨١٠
قرية عبلين	٤٩	٨٠	١٤	٦	—	—	—	١٤٩	٧٤٥

اسم المدينة أو القرية	عدد السكان الذكور (سن ١٦ ـ ٦٠) أو أعداد الخانة								
	مسلمون	روم أرثوذكس	كاثوليك	لاتين	موارنة	يهود	دروز	المجموع	× ٥ = عدد السكان
قرية رويس	٣٨	—	—	—	—	—	—	٣٨	١٩٠
قرية ميعار	٩٦	—	—	—	—	—	—	٩٦	٤٨٠
قرية كابول	٨٣	—	—	—	—	—	—	٨٣	٤١٥
قرية البروة	١٣٠	٢١	—	—	—	—	—	١٥١	٧٥٥
غوارنة القرابصة	٣٣	—	—	—	—	—	—	٣٣	١٦٥
غوارنة الكوامل	٤٢	—	—	—	—	—	—	٤٢	٢١٠
قرية الدامون	١٤٥	—	—	—	—	—	—	١٤٥	٧٢٥
مجموع سكان قرى ناحية شفاعمرو								٢,٠٤٤	١٠,٢٢٠
مجموع سكان قضاء عكا									٣٩,٥٦٠

(١) هذا الإحصاء موجود في: G. Schumacher, «Population List of the Livā of Akka», *PEF, QS* (1887), pp. 169-191.

(٢) يبدو أن خطأ حدث في القائمة إذ ذكرت عنوان روم كاثوليك وبعده عنوان كاثوليك، ولعل الصحيح هو روم أرثوذكس ثم كاثوليك.

(٣) ذكرت هكذا، واللفظة عامية وتكتب عرابة. هناك خطأ في الجمع وقد ترك لتلافي تغيير المجموع العام.

(٤) ذكرت هكذا، وتكتب الرامة.

(٥) يبدو أن هناك خطأ في أعداد فئات السكان أو ربما في الجمع لأن مجموع خانات فئات السكان يساوي ٢٤٥. وقد أبقينا الجمع كما هو لتلافي تغيير المجموع العام.

(٦) ذكرت هكذا، وتكتب الفراضية.

(٧) يجب أن تكون ٥٥٥ أو أن خطأ حدث في أعداد فئات السكان.

(٨) تكتب أيضاً تمرة.

(٩) تكتب أيضاً حارثية.

٢ ـ قضاء حيفا

اسم المدينة أو القرية	عدد السكان الذكور (سن ١٦ ـ ٦٠) أو أعداد الخانة								
	مسلمون	روم أرثوذكس	كاثوليك	لاتين	موارنة	يهود	دروز	المجموع	× ٥ = عدد السكان
حيفا									
(أ) محليون	٦٠٥	١٢٩	٣٩٣	٤٢	٧٠	٣٥	٦ بروتستانت	١,٢٨٠	٦,٤٠٠
(ب) أجانب									
ألمان	—	—	—	—	—	—	—	٦٦	٣٣٠
أمريكان	—	—	—	—	—	—	—	١٠	٥٠
نمساويون	—	—	—	—	—	—	—	١٥	٧٥
هولانديون	—	—	—	—	—	—	—	٤	٢٠
اسبان	—	—	—	—	—	—	—	١٥	٧٥
فرنسيون	—	—	—	—	—	—	—	٣٥	١٧٥
انكليز	—	—	—	—	—	—	—	٨	٤٠
مجموع سكان مدينة حيفا								١,٤٣٣	٧,١٦٥

اسم المدينة أو القرية	عدد السكان الذكور (سن ١٦ ــ ٦٠) أو أعداد الخانة								
	مسلمون	روم أرثوذكس	كاثوليك	لاتين	موارنة	يهود	دروز	المجموع	× ٥ = عدد السكان
قرايا قضاء حيفا:									
قرية بلد الشيخ	٩٠	—	—	—	—	—	—	٩٠	٤٥٠
قرية الهريج	١٥	—	—	—	—	—	—	١٥	٧٥
قرية الياجور	٣٠	—	—	—	—	—	—	٣٠	١٥٠
قرية كفرتا	٥٧	—	—	—	—	—	—	٥٧	٢٨٥
قرية عسفيا	—	—	١٥	—	—	—	٩٦	١١١	٥٥٥
قرية دالية الكرمل	—	—	—	—	—	—	١٢٤	١٢٤	٦٢٠
قرية قيرة	١٣	—	—	—	—	—	—	١٣	٦٥
قرية أم الزينات	١٥٠	—	—	—	—	—	—	١٥٠	٧٥٠
قرية الطيرة	٥١١	—	—	—	—	—	—	٥١١	٢,٥٥٥
قرية برج الخيل	٢١	—	—	—	—	—	—	٢١	١٠٥
قرية الكبابير	٥	—	—	—	—	—	—	٥	٢٥
قرية صرفند	٥٤	—	—	—	—	—	—	٥٤	٢٧٠
قرية المزار	١٧	—	—	—	—	—	—	١٧	٨٥
قرية صبارين	٢٣٢	—	—	—	—	—	—	٢٣٢	١,١٦٠
قرية أم الدفوق[1]	١٨	—	—	—	—	—	—	١٨	٩٠
قرية اجزم	٣٤٢	—	—	—	—	—	—	٣٤٢	١,٧١٠
قرية أم العلق	١٧	—	—	—	—	—	—	١٧	٨٥
قرية سنديانة	١٠٤	—	—	—	—	—	—	١٠٤	٥٢٠
قرية جبع	٨٨	—	—	—	—	—	—	٨٨	٤٤٠
قرية الريحانية	٣٨	—	—	—	—	—	—	٣٨	١٩٠
قرية كركور	٢١	—	—	—	—	—	—	٢١	١٠٥
قرية عتليت	٣٦	—	—	—	—	—	—	٣٦	١٨٠
قرية عرعرة	١٢٠	—	—	—	—	—	—	١٢٠	٦٠٠
قرية المراح	٣٧	—	—	—	—	—	—	٣٧	١٨٥
قرية عيز[2] غزال	١٨٢	—	—	—	—	—	—	١٨٢	٩١٠
قرية كفر قرع	١٤١	—	—	—	—	—	—	١٤١	٧٠٥
قرية القنير	١٣٣	—	—	—	—	—	—	١٣٣	٦٦٥
قرية شفيا	٢٦	—	—	—	—	—	—	٢٦	١٣٠
قرية عين حوض	٣٩	—	—	—	—	—	—	٣٩	١٩٥
قرية كفرين	٩٧	—	—	—	—	—	—	٩٧	٤٨٥
قرية أم التوت	٨	—	—	—	—	—	—	٨	٤٠
قرية بريكة	٢٣	—	—	—	—	—	—	٢٣	١١٥
قرية الزرغانية	١٠	—	—	—	—	—	—	١٠	٥٠
قرية كفرلام	٣٦	—	—	—	—	—	—	٣٦	١٨٠
قرية دالية الروحة	٣٩	—	—	—	—	—	—	٣٩	١٩٥
قرية الفريديس	٦٠	—	—	—	—	—	—	٦٠	٣٠٠
قرية الطنطورة	١٥٤	—	—	—	—	—	—	١٥٤	٧٧٠
قرية الخبيزة	٦٣	—	—	—	—	—	—	٦٣	٣١٥
قرية باقة الشرقية	٣٦	—	—	—	—	—	—	٣٦	١٨٠

اسم المدينة أو القرية	عدد السكان الذكور (سن ١٦ ــ ٦٠) أو أعداد الخانة								المجموع × ٥ = عدد السكان
	مسلمون	روم أرثوذكس	كاثوليك	لاتين	موارنة	يهود	دروز		
قرية جعارة	٢٧	ـ	ـ	ـ	ـ	ـ	ـ	٢٧	١٣٥
قرية أم الشوف	٧٥	ـ	ـ	ـ	ـ	ـ	ـ	٧٥	٣٧٥
قرية زمارين	ـ	ـ	ـ	ـ	ـ	١٠٢	ـ	١٠٢	٥١٠
عرب قيسارية	١٣٤	ـ	ـ	ـ	ـ	ـ	ـ	١٣٤	٦٧٠
جراكس	٢٦	ـ	ـ	ـ	ـ	ـ	ـ	٢٦	١٣٠
بشناق	٥٣	ـ	ـ	ـ	ـ	ـ	ـ	٥٣	٢٦٥
غوارنة الزرقة	٤٧	ـ	ـ	ـ	ـ	ـ	ـ	٤٧	٢٣٥
قرية ميهاس[٣]	٢٢	ـ	ـ	ـ	١	ـ	ـ	٢٣	١١٥
مجموع سكان قرى قضاء حيفا								٣,٧٨٥	١٨,٩٢٥
مجموع سكان قضاءي عكا وحيفا									٦٥,٦٥٠

(١) الصحيح أم الدفوف كما ذكرت مقابلها بالأجنبية.
(٢) الصحيح عين غزال كما ذكرت مقابلها بالأجنبية.
(٣) ذكرت هكذا، وتكتب ميماس.

٣ ــ قضاء الناصرة

اسم المدينة أو القرية	عدد السكان الذكور (سن ١٦ ــ ٦٠) أو أعداد الخانة								المجموع × ٥ = عدد السكان
	مسلمون	روم أرثوذكس	كاثوليك	لاتين	موارنة	يهود	دروز		
نفس الناصرة	٣٢٤	٤٩٧	١٦٩	٢٢٣	٤٤	ـ	٥٨ (بروتستانت)	١,٣١٥	٦,٥٧٥
قرية الصفوري[١]	٥٨٨	ـ	ـ	ـ	ـ	ـ	ـ	٥٨٨	٢,٩٤٠
قرية الرينة	نصفها	مسلمون	ونصفها	مسيحيون	ـ	ـ	ـ	٢٣٠	١,١٥٠
قرية معلول	(يذكر	المجموع	فقط)	ـ	ـ	ـ	ـ	١٣٠	٦٥٠
قرية يافة	نصفها	مسلمون	ونصفها	مسيحيون	ـ	ـ	ـ	١٨٠	٩٠٠
قرية المجيدل	معظمها	مسلمون	ـ	ـ	ـ	ـ	ـ	٢٠٠	١,٠٠٠
قرية المشهد	٩٠	ـ	ـ	ـ	ـ	ـ	ـ	٩٠	٤٥٠
قرية الدبوري[٢]	٦٠	ـ	ـ	ـ	ـ	ـ	ـ	٦٠	٣٠٠
قرية العفولة	١٣٠	ـ	ـ	ـ	ـ	ـ	ـ	١٣٠	٦٥٠
قرية الفولة	٦٠	ـ	ـ	ـ	ـ	ـ	ـ	٦٠	٣٠٠
قرية جباتا[٣]	٤٠	ـ	ـ	ـ	ـ	ـ	ـ	٤٠	٢٠٠
قرية جنجار	٢٥	ـ	ـ	ـ	ـ	ـ	ـ	٢٥	١٢٥
قرية تل الشمام	٣٠	ـ	ـ	ـ	ـ	ـ	ـ	٣٠	١٥٠
قرية سموني[٤]	٢٠	ـ	ـ	ـ	ـ	ـ	ـ	٢٠	١٠٠
قرية عين البيضا[٥]	٦	ـ	ـ	ـ	ـ	ـ	ـ	٦	٣٠
قرية طرعان	مسلمون	ومسيحيون	ـ	ـ	ـ	ـ	ـ	١٢٠	٦٠٠

	عدد السكان الذكور (سن ١٦ ــ ٦٠) أو أعداد الخانة							المجموع × ٥ = عدد السكان	
	مسلمون	روم أرثوذكس	كاثوليك	لاتين	موارنة	يهود	دروز		
قرية كفركنا	معظمهم	مسيحيون	ــ	ــ	ــ	ــ	ــ	١٦٦	٨٣٠
قرية عين ماهل	٣٩	ــ	ــ	ــ	ــ	ــ	ــ	٣٩	١٩٥
قرية كفرمندا	٥٠	ــ	ــ	ــ	ــ	ــ	ــ	٥٠	٢٥٠
قرية كوكب	٢٢	ــ	ــ	ــ	ــ	ــ	ــ	٢٢	١١٠
قرية كسال(٦)	١٢٠	ــ	ــ	ــ	ــ	ــ	ــ	١٢٠	٦٠٠
قرية خنيفس	٨	ــ	ــ	ــ	ــ	ــ	ــ	٨	٤٠
قرية البعينة	٢٧	ــ	ــ	ــ	ــ	ــ	ــ	٢٧	١٣٥
قرية الرمانة	٨	ــ	ــ	ــ	ــ	ــ	ــ	٨	٤٠
قرية العزر(٧)	٩	ــ	ــ	ــ	ــ	ــ	ــ	٩	٤٥
قرية عيلوط	٧٠	ــ	ــ	ــ	ــ	ــ	ــ	٧٠	٣٥٠
مجموع سكان قضاء الناصرة								٣,٧٤٣	١٨,٧١٥
مجموع سكان أقضية عكا وحيفا والناصرة									٨٤,٣٦٥

(١) ذكرت هكذا، وتكتب صفورية.

(٢) ذكرت هكذا، وتكتب دبورية.

(٣) يذكر شوماخر أن السكان المحليين يكتبونها جباتة.

(٤) ذكرت هكذا، وتكتب سمونية.

(٥) يذكر شوماخر أنها مذكورة في قوائم النفوس باسم البيصة.

(٦) تكتب أيضاً اكسال.

(٧) تكتب أيضاً العزير.

٤ ــ قضاء طبرية

اسم المدينة أو القرية	عدد السكان الذكور (سن ١٦ ــ ٦٠) أو أعداد الخانة							المجموع × ٥ = مجموع السكان	
	مسلمون	روم أرثوذكس	كاثوليك	لاتين	موارنة	يهود	دروز		
نفس طبرية	٢٧١	٣	٤٣	٦	ــ	١٠٥	ــ	٧٢٨(*)	٣,٦٤٠
قرية حطين	٢٥٠	ــ	ــ	ــ	ــ	٢٠	ــ	٢٧٠	١,٣٥٠
قرية المجدل	٣٤	ــ	ــ	ــ	ــ	ــ	ــ	٣٤	١٧٠
قرية غرين	٦٠	ــ	ــ	ــ	ــ	ــ	ــ	٦٠	٣٠٠
قرية اللوبية	٥٤٦	ــ	ــ	ــ	ــ	ــ	ــ	٥٤٦	٢,٧٣٠
قرية الشجرة	١٣٦	ــ	ــ	ــ	ــ	ــ	ــ	١٣٦	٦٨٠
قرية سارونا	٦٠	ــ	ــ	ــ	ــ	ــ	ــ	٦٠	٣٠٠
قرية الحدسة(١)	٢٢٠	ــ	ــ	ــ	ــ	ــ	ــ	٢٢٠	١,١٠٠
قرية كفركما	٢٣٠ (شراكسة)	ــ	ــ	ــ	ــ	ــ	ــ	٢٣٠	١,١٥٠
قرية العديسية	٥٥	ــ	ــ	ــ	ــ	ــ	ــ	٥٥	٢٧٥

اسم المدينة أو القرية	عدد السكان الذكور (سن ١٦ ـ ٦٠) أو أعداد الخانة							المجموع × ٥ = عدد السكان	
	مسلمون	روم أرثوذكس	كاثوليك	لاتين	موارنة	يهود	دروز		
قرية كفرسبت	٨٢ (جزائريون)	–	–	–	–	–	–	٨٢	٤١٠
قرية عولم	١١٥	–	–	–	–	–	–	١١٥	٥٧٥
قرية شعارة	٤٠	–	–	–	–	–	–	٤٠	٢٠٠
قرية معدر (معذر)	١٩٥	–	–	–	–	–	–	١٩٥	٩٧٥
قرية الدلهمية وعرب الهنادة	١٣٠	–	–	–	–	–	–	١٣٠	٦٥٠
قرية السمرا (السمره)	٣٢	–	–	–	–	–	٤ (فرس)	٣٦	١٨٠
قرية نقيب	١٨	–	–	–	–	–	–	١٨	٩٠
قرية أم جونة	٦٦	–	–	–	–	–	–	٦٦	٣٣٠
قرية معاد	٣٦	–	–	–	–	–	–	٣٦	١٨٠
قرية العبدية	٦٢	–	–	–	–	–	–	٦٢	٣١٠
عرب صخور الغور	١٢٠	–	–	–	–	–	–	١٢٠	٦٠٠
عرب الدلايكة	٥٩	–	–	–	–	–	–	٥٩	٢٩٥
عرب الدلايكة العيسى	٨٠	–	–	–	–	–	–	٨٠	٤٠٠
عرب الصبيح	٩٠	–	–	–	–	–	–	٩٠	٤٥٠
مجموع سكان قضاء طبرية								٣،٤٦٨	١٧،٣٤٠
مجموع سكان أقضية عكا وحيفا والناصرة وطبرية									١٠١،٧٠٥
قرية سمخ[٢]	تضم ٩٠ جزائرياً أو ٤٥٠ نفساً يستخدمهم السلطان في أملاكه ويُعفون من التكاليف.								

(*) خطأ لم يصحح لتلافي تغيير المجموع العام.

(١) تكتب أيضاً حدثة.

(٢) يجعل شوماخر قرية سمخ في عداد قرى قضاء طبرية ولكنه لا يجمع أعداد سكانها مع أعداد سكان القضاء.

٥ ـ قضاء صفد

اسم المدينة أو القرية	عدد السكان الذكور (سن ١٦ ـ ٦٠) أو أعداد الخانة							المجموع × ٥ = مجموع السكان	
	مسلمون	روم أرثوذكس	كاثوليك	لاتين	موارنة	يهود	دروز		
نفس صفد									
حارة الصواوين	١،١٣٨	–	–	–	–	–	–	١،١٣٨	٥،٦٩٠[١]
حارة الوطا	٩٩١	–	١٤٤	–	–	–		١،١٣٥	٥،٦٧٥
حارة الغربية	–	–	–	–		حوالي ٢،٦٥٠	–	٢،٦٥٠	١٣،٢٥٠
مجموع سكان مدينة صفد								٤،٩٢٣	٢٤،٦١٥
قرية عكبرة	٤٧	–	–	–	–	–	–	٤٧	٢٣٥
قرية الضاهرية	٦٧	–	–	–	–	–	–	٦٧	٣٣٥
قرية قديتا	٦٣	–	–	–	–	–	–	٦٣	٣١٥

اسم المدينة أو القرية	عدد السكان الذكور (سن ١٦ ـ ٦٠) أو أعداد الخانة: مسلمون	روم أرثوذكس	كاثوليك	لاتين	موارنة	يهود	دروز	المجموع	× ٥ = عدد السكان
قرية طيطبا	٩١	—	—	—	—	—	—	٩١	٤٥٥
قرية دلاتا	٧١	—	—	—	—	—	—	٧١	٣٥٥
قرية علما	٢٢١	—	—	—	—	—	—	٢٢١	١,١٠٥
قرية فاره	٧٧	—	—	—	—	—	—	٧٧	٣٨٥
قرية بيريا	٧١	—	—	—	—	—	—	٧١	٣٥٥
قرية جاعوني	١١١	—	—	—	—	—	٧٥	١٨٦	٩٣٠
قرية فرعم	١٥٣	—	—	—	—	—	—	١٥٣	٧٦٥
قرية المغار	٩٢	—	—	—	—	—	—	٩٢	٤٦٠
قرية قباعه	٧٧	—	—	—	—	—	—	٧٧	٣٨٥
قرية رأس الأحمر	١٣٨	—	—	—	—	—	—	١٣٨	٦٩٠
قرية الجيش	١٩٢	١٩٥	مسيحيون	—	—	—	—	٣٨٧	١,٩٣٥
قرية ميرون	٣٥	—	—	—	—	—	—	٣٥	١٧٥
قرية صفصاف	١٤٨	—	—	—	—	—	—	١٤٨	٧٤٠
قرية سموعي[2]	٦٣	—	—	—	—	—	—	٦٣	٣١٥
قرية عين الزيتون	١٥٥	—	—	—	—	—	—	١٥٥	٧٧٥
قرية الريحانية	٨٩	—	—	—	—	—	—	٨٩	٤٤٥
	(شراكسة)								
قرية كفر برعم	—	٢٥٧		مسيحيون	—	—	—	٢٥٧	١,٢٨٥
قرية ترشيحا	٨٠٠	١٧١		مسيحيون	—	—	—	٩٧١	٤,٨٥٥
قرية أم الفرج	١٣٨	—	—	—	—	—	—	١٣٨	٦٩٠
قرية الكابرة	١٣٨	—	—	—	—	—	—	١٣٨	٦٩٠
قرية دير القاسي	١٨٩	—	—	—	—	—	—	١٨٩	٩٤٥
قرية سحماتة	٢٨٠	٢٠		مسيحيون	—	—	—	٣٠٠	١,٥٠٠
قرية البقيعة	—	١٠٠		مسيحيون	—	٢٠	١٧٠	١٩٠[3]	٩٥٠
قرية كفر سميع	—	٦		مسيحيون	—	—	٥٠	٥٦	٢٨٠
قرية بين جن[4]	—	—	—	—	—	—	٢٤٣	٢٤٣	١,٢١٥
قرية بني أبو سبلان	٢٥	—	—	—	—	—	—	٢٥	١٢٥
قرية حُرفيش	١٠٦	٢٣		مسيحيون	—	—	—	١٢٩	٦٤٥
قرية سعسع	٣٤٨	—	—	—	—	—	—	٣٤٨	١,٧٤٠
قرية معليا	—	١٥٥		مسيحيون	—	—	—	١٥٥	٧٧٥
قرية فسوطة	١١٤	—	—	—	—	—	—	١١٤	٥٧٠
مجموع سكان قضاء صفد								**١٠,٤٠٧**	**٥٢,٠٣٥**

مجموع سكان لواء عكا ١٥٣,٧٤٠ نفساً باستثناء موظفي الحكومة والقوات العسكرية.

(ج. شوماخر، حيفا، في ٢٠ آذار ١٨٨٧)

(١) لا يذكر شوماخر حاصل عدد السكان هذا.

(٢) تُكتب أيضاً سموعية.

(٣) يجب أن يكون ٢٩٠ أو أن خطأ حدث في أعداد فئات السكان.

(٤) الصحيح بيت جن.

الحـواشي

الفصل الأول:

(١) انظر حول هذه الأسر: M. Adnan Bakhit, *The Province of Damascus in the Sixteenth Century;* Abdul-Rahim Abu-Husayn, *Provincial Leaderships in Syria, 1575-1650.*

وعبد الكريم رافق، **بلاد الشام ومصر من الفتح العثماني إلى حملة نابليون بونابرت (١٥١٦ ـ ١٧٩٨).**

(٢) انظر حول ظاهر العمر الدراسة المفصلة في: Abdul-Karim Rafeq, *The Province of Damascus, 1723-1783.*

(٣) فخري البارودي، **مذكرات البارودي**، ج ١، ص ٧ ـ ٩.

(٤) انظر حول مغزى ظهور هذه القوى الغربية وتوقيتها: عبد الكريم رافق، **العرب والعثمانيون ١٥١٦ ـ ١٩١٦**، ص ٣١٦ ـ ٣١٨، ص ٣٨٤ وما بعد.

(٥) انظر الدراسة التالية المفصلة للحملة الفرنسية على بلاد الشام: Colonel Sir C.M. Watson, «Bonaparte's Expedition to Palestine in 1799», *Palestine Exploration Fund (PEF), Quarterly Statement (QS)*, pp. 17-35.

وانظر بحثنا المفصّل حول الحملة في دراسة سابقة.

(٦) انظر كنموذج: المعلم إبراهيم العورة، **تاريخ ولاية سليمان باشا العادل**، ص ٣٥ ـ ٣٦.

(٧) انظر تفاصيل أحداث هذه الفترة في المصدر السابق، وكذلك في كتاب: **تاريخ حسن آغا العبد** (حوادث سنة ١١٨٦ إلى سنة ٤١ ١هـ)، ص ١٤٣، ١٤٩، ١٥٨، ١٦٤.

(٨) العورة، **تاريخ ولاية سليمان باشا**. . .، ص ٧٧ ـ ٨٨.

(٩) المصدر نفسه، ص ٨٦ ـ ٨٧.

(١٠) المصدر نفسه، ص ٨٨، ٨٩.

(١١) المصدر نفسه، ص ٩٨ ـ ١٠٣.

(١٢) انظر: **سجل المحكمة الشرعية في يافا**، رقم ٧، تاريخ المرسوم ٥ رجب ١٢٢٥ هـ / (٦ آب/أغسطس ١٨١٠).

(١٣) المصدر نفسه، مرسوم آخر بتاريخ ٥ رجب ١٢٢٦هـ / (٢٦ تموز/يوليو ١٨١١م)، وانظر أيضاً: **تاريخ حسن آغا العبد**، ص ١٥٠ ـ ١٥٣؛ وصلاح الدين المنجد، **ولاة دمشق في العهد العثماني**، ص ٩٠.

(١٤) العورة، **تاريخ ولاية سليمان باشا**. . .، ص ٢٢١ ـ ٢٢٤.

(١٥) انظر: **سجل المحكمة الشرعية في يافا**، رقم ٧، عدة مراسيم تحمل التواريخ التالية: ١٧ جمادى الأولى ١٢٢٦هـ / (١٩ حزيران/يونيو ١٨١١)، ٢٩ ربيع الثاني ١٢٢٩هـ / (٣٠ نيسان/ ابريل ١٨١٤م)، ١٩ صفر ١٢٣٩هـ / ٢٥ تشرين الأول/أكتوبر ١٨٢٣م).

(١٦) **سجل المحكمة الشرعية في يافا**، رقم ٧.

(١٧) انظر **سجل المحكمة الشرعية في يافا**، رقم ٧، جمادى الثانية ١٢٣٠هـ / (أيار/مايو ـ حزيران/يونيو ١٨١٥م.

(١٨) العورة، تاريخ ولاية سليمان باشا. . .، ص ٣٠٣ ـ ٣١٦.

(١٩) انظر حول حزبي القيسية واليمنية في فلسطين: E.N. Haddad, «Political Parties in Syria and Palestine (Qaisi and Yemeni)», *Journal of the Palestine Oriental Society,* Vol. 1, No. 4, pp. 209-214; R.A. Stewart Macalister and E.W.G. Masterman, «Occasional Papers on the Modern Inhabitants of Palestine». *PEF, QS,* (1905-1906). pp. 343ff. pp. 33-36.

(٢٠) العورة، **تاريخ ولاية سليمان باشا**. . .، ص ١٦٨.

(٢١) المصدر نفسه، ص ١٨٦ ـ ٢٠١.

(٢٢) المصدر نفسه، ص ٧٤، ٧٦، ٨٨، ١٥٢، ١٥٨.

(٢٣) المصدر نفسه، ص ١٥٢، ١٩١، ١٩٥، ٢٦٧ ـ ٢٦٨، ٢٩٢ ـ ٢٩٧، ٣٣٢.

(٢٤) انظر الهامشين ١٢ و ١٣ أعلاه، وكذلك المصدر السابق، ص ١٣١ ـ ١٣٢، ١٥٥. وانظر أيضاً أطروحة دكتوراه باللغة الانكليزية للسيد جورج خوري بعنوان: George Khoury, *The Province of Damascus, 1783-1832,* pp. 134-145.

(٢٥) انظر حول تطورات الأحداث في هذه الفترة في ولايتي الشام وصيدا: ميخائيل مشاقة، **مشهد العيان بحوادث سورية ولبنان**، ص ٧١ ـ ٩٦.

(٢٦) انظر تفاصيل إضافية عن هذه الثورة للراهب نيوفيطوس القبرصي في مذكراته التي نشرت تحت الاسم والعنوان التاليين: S.N. Spyridon, «Annals of Palestine, 1821-1841», *JPOS,* Vol. XVIII, pp. 74-83; Khoury, *The Province of Damascus,* pp. 187-188.

(٢٧) مشاقة، **مشهد العيان**. . .، ص ٩٦ ـ ٩٨.

(٢٨) إحسان النمر، **تاريخ جبل نابلس والبلقاء**، ج ٢، ص ٣٩٦ ـ ٣٩٧.

(٢٩) انظر حول ثورة دمشق هذه: مشاقة، **مشهد العيان**. . .، ص ٩٨؛ **مذكرات تاريخية**، لمجهول، عُني بنشرها الخوري قسطنطين الباشا المخلصي، حريصا (لبنان) ١٩٢٥، ص ٢ ـ ٣٦؛ عبد الرزاق البيطار، **حلية البشر في تاريخ القرن الثالث عشر**، ج ٣، ص ١٢٤٣ ـ ١٢١٦؛ أحمد الرباط، **مجموعة أزجال ومواويل عن دمشق**، مخطوط في المكتبة الظاهرية بدمشق، رقم ٨٧٤٩؛ وانظر: Khoury, *The Province of Damascus,* p. 189ff.

(٣٠) انظر الوصف الضافي لتحصينات عكا ومقاومتها لقوات محمد علي باشا في: Asad Rustum, «Akka (Acre) and its Defences», *PEF, QS* (1926), pp. 143-157.

(٣١) انظر حول احتلال قوات إبراهيم باشا فلسطين وبقية بلاد الشام: مذكرات تاريخية، ص ٣٦ ــ ٧٣؛ مشاقة، مشهد العيان. . .، ص ٩٩ ــ ١٠٩؛ رافق، العرب والعثمانيون، ص ٤٠٢ ــ ٤٠٦؛ فتوحات إبراهيم باشا المصري في فلسطين ولبنان وسوريا، نقلاً عن تقارير أنطون كتافاكو قنصل النمسا في عكا وصيدا ١٨٣١ ــ ١٨٤١، ص ١١ ــ ٢١، ٢٥ ــ ٢٦؛ اسكندر ابكاريوس، المناقب الإبراهيمية والمآثر الخديوية، ص ٢٦ ــ ٧٩؛ وانظر: Spyridon, «Annals of Palestine», pp. 85-85; Macalister and Masterman, «Occasional Papers», *PEF, QS* (1906), p. 37; William Polk, *The Opening of South Lebanon, 1788-1840*, pp. 83-226.

(٣٢) انظر حول تفاصيل الإدارة المصرية: أسد رستم، الأصول العربية لتاريخ سورية في عهد محمد علي باشا؛ مشاقة، مشهد العيان. . .، ص ١١٠ ــ ١١١؛ وانظر: John Bowring, *Report on the Commercial Statistics of Syria*, pp. 126-127.

(٣٣) Asad Rustum, *The Royal Archives of Egypt and the Disturbances in Palestine 1834*, pp. 45-46; Bowring, *Report...*, pp. 4, 23, 112, 118, 121.

(٣٤) Rustum, *The Royal Archives...*, pp. 53-54.

(٣٥) Bowring, *Report...*, pp. 6, 26, 112, 117, 136.

(٣٦) انظر تفاصيل هذه الأحداث في: مذكرات تاريخية، ص ٩٥ ــ ١٢٠؛ رستم، الأصول العربية، ج ٢، ص ١٣١ ــ ١٣٨؛ مشاقة، مشهد العيان. . .، ص ١١٣ ــ ١١٥؛ بولس قرألي، فتوحات إبراهيم باشا المصري، ص ٤٢ ــ ٥٠؛ وانظر: Spyridon, «Annals of Palestine», pp. 80-120; Rustum, *The Royal Archives...*, pp. 54-82, Translation of a letter (dated Jerusalem 16th July 1834) in an old Welsh Magazine, Vol. XII (1835), by an unknown Welsh traveller, in *PEF, QS* (1918), pp. 142-143; Macalister and Masterman, «Occasional Papers», *PEF, QS* (1906), pp. 37-40; Bowring, *Report...*, p. 129; Mrs. Finn, «The Fellaheen of Palestine: Notes on their clans, warfare, religion and laws», *PEF, QS* (1879), pp. 35-37.

(٣٧) مشاقة، مشهد العيان. . .، ص ١٢٢.

(٣٨) انظر تفاصيل هذه الأحداث في: Spyridon, «Annals of Palestine», pp. 127-132.

(٣٩) انظر حول بروز هؤلاء الزعماء والعلاقات فيما بينهم ومع الدولة العثمانية، التفاصيل الدقيقة التي يوردها: Macalister and Masterman, «Occasional Papers», *PEF, QS* (1906), pp. 40-50.

(٤٠) المصدر نفسه.

(٤١) انظر: عبد الكريم رافق، غزة، ص ٦ ــ ٧.

(٤٢) انظر حول الوضع المضطرب آنذاك تقارير القنصل الأمريكي في القدس في المصدر التالي: National Archives, Washington *(NAW)*, *Dispatches from United States Consuls in Jerusalem, Palestine, 1856-1906*, M 453, Roll No. 1 (R1).

وسيشار إلى هذا المصدر باختصار كما يلي: *NAW*, M453, R1, Jerusalem, 19 July 1860.

(٤٣) انظر عبد العزيز عوض، الإدارة العثمانية في ولاية سورية ١٨٦٤ ــ ١٩١٤، ص ٦٤، ٦٦.

(٤٤) T.M. Chevalier Lycklama A. Nijeholt, *Voyage en Russie, au Caucase et en Perse, dans la Mésopotamie, le Kurdistan, la Syrie, la Palestine et la Turquie, exécuté pendant les années 1866, 1867 et 1868, tome 4, pp. 404-405.*

(٤٥) نعمان القساطلي، الروضة الغنّاء في دمشق الفيحاء، ص ٣.

(٤٦) المصدر نفسه، ص ١٨٩.

(٤٧) المصدر نفسه، ص ١٨٢.

(٤٨) سالنامه ولاية بيروت لعام ١٣١١هـ / ١٨٩٣ ــ ١٨٩٤م، ص ١٧٥ ــ ١٩٥.

(٤٩) سجل المحكمة الشرعية في غزة (يوجد في مديرية وثائق دمشق تحت رقم ٤٦١)، ص ١١٠، ٢ جمادى الثانية ١٢٧٥هـ / (٧ كانون الثاني ١٨٥٩م).

(٥٠) سجل المحكمة الشرعية في نابلس، رقم ١٩، ص ٣٩، ٢٥ محرم ١٢٩٢هـ / (٣ آذار ١٨٧٥م). وانظر قضية أخرى مشابهة في الصفحة نفسها بتاريخ ٢٧ محرم ١٢٩٢هـ / (٥ آذار ١٨٧٥).

(٥١) سجل المحكمة الشرعية في حيفا، رقم ١، ص ١٣٩.

(٥٢) المصدر نفسه، ص ١٣٩.

(٥٣) انظر مثلاً سجل المحكمة الشرعية في يافا، رقم ٣٥، ص ٣٩، ١٦ محرم ١٢٩٢هـ / (٢٢ شباط ١٨٧٤م)؛ سجل المحكمة الشرعية في الخليل، رقم ٢٧، ص ٤٠، ٤١، ٨٥.

(٥٤) سجل المحكمة الشرعية في الخليل، رقم ٧، ص ٨، ١٠ محرم ١٢٩١هـ / (١٦ شباط ١٨٧٥م).

(٥٥) انظر حول هذا التفسير: Finn, «The Fellahin of Palestine», *PEF, QS*. (1879), p. 42.

(٥٦) Nijeholt, *Voyage en Russie...*, t. 4, p. 521.

(٥٧) Philip J. Baldensperger, «The Immovable East», *PEF, QS* (1917), p. 160, (1918), p. 23

(٥٨) C.R. Conder, «The Present Condition of Palestine», *PEF, QS* (1879), pp. 8-9.

وانظر أيضاً: مصطفى مراد الدباغ، بلادنا فلسطين، الجزء الرابع، القسم الثاني، ص ٦١٥ ــ ٦١٦.

(٥٩) Neville Mandel, *The Arabs and Zionism before World War I*, pp. 2-5.

(٦٠) *NAW*, M453, R2, «Petition dated Jerusalem, 31 July 1870», Jerusalem, 5 August 1870.

(٦١) Conder, «The Present Condition of Palestine», *PEF, QS* (1879), pp. 8-9.

(٦٢) *NAW*, M453, R2, Jerusalem, 5 December 1878.

(٦٣) *NAW*, M453, R2, Jerusalem, 4 June 1879.

(٦٤) انظر تفاصيل أُخرى عن النزاعات بين اليهود في: *NAW*, M453, R2, Jerusalem, 15 March 1879.

(٦٥) *NAW*, M453, R3, Jerusalem, 8 October 1879; Mandel, *The Arabs and Zionism*, p. 2.

(٦٦) *NAW*, M453, R3, Jerusalem, 6 December 1881.

(٦٧) *NAW*, M453, R3, «Report for the year ending 30 September 1882», Jerusalem, 10 October 1882.

(٦٨) *NAW*, M453, R3, Jerusalem, 18 October 1883.

(٦٩) *NAW*, M453, R4, Jerusalem, 16 December 1886.

(٧٠) *NAW*, M453, R4, Jerusalem, 14 August 1890.

(٧١) *NAW*, M453, R4, «Report on the Jews and the Jewish Colonies in Palestine», Jerusalem, 3 October 1891.

(٧٢) انظر نماذج لهذه الطلبات في: *NAW*, M453, R5, Jerusalem, 8 May 1893.

(٧٣) *NAW*, M453, R5, Jerusalem, 18 August 1893.

(٧٤) *NAW*, M453, R5, Jerusalem, 9 September 1899.

(٧٥) *NAW*, M453, R5, Jerusalem, 24 March 1902.

(٧٦) Mandel, *The Arabs and Zionism*, pp. 10-11.

(٧٧) المصدر نفسه، ص ١٢ ــ ١٣.

(٧٨) المصدر نفسه، ص ٧٥، ٨٣، ١٢٩.

(٧٩) Roger Owen, *The Middle East in the World Economy 1800-1914*, pp. 270-271; Kenneth Stein, *The Land Question in Palestine*, pp. 226-239.

(٨٠) *PEF, QS* (1899), p. 214.

(٨١) عارف العارف، **تاريخ القدس**، ص ٢٣٦.

(٨٢) نعمان القساطلي، **الروضة النعمانية في سياحة فلسطين وبعض البلدان الشامية**، الجزء الثاني، ص ٥ (غير مرقمة) من المقدمة.

الفصل الثاني:

(١) عبد الكريم رافق، «قافلة الحج الشامي وأهميتها في الدولة العثمانية»، **مجلة دراسات تاريخية** (جامعة دمشق)، العدد السادس، (تشرين الأول ١٩٨١)، ص ٥ ــ ٢٨. أعيد نشر هذا المقال في: رافق، **بحوث في التاريخ الاقتصادي والاجتماعي لبلاد الشام في العصر الحديث**، ص ١٩٣ ــ ٢١٦.

(٢) *Cahiers Chateaubriand, Journal de Jérusalem*, notes inédites publiées par Georges Moulenier et Amédie Outrey.

(٣) المصدر نفسه، ص ٥٢ ــ ٦٥.

(٤) المصدر نفسه، ص ١٤٠ ــ ١٤٣.

(٥) المصدر نفسه، ص ١٥٦ ــ ١٦٢.

(٦) Burckhardt, J.L., *Travels in Syria and the Holy Land*, London, 1822.

(٧) المصدر نفسه، ص ٣١٦ ــ ٣١٧.

(٨) انظر تفاصيل أخرى في المصدر نفسه، ص ٣١٦ ــ ٣٢٠.

(٩) للاطلاع على تفاصيل ضافية أخرى، انظر: المصدر نفسه، ص ٣٢٠ ــ ٣٢٥.

(١٠) المصدر نفســه، ص ٣٣٥ ــ ٣٤٢. ولعل كتافاكو هذا هو نفسه أنطون كتافاكو قنصل النمسا في عكا وصيدا الذي خلف عدة تقارير من فترة ١٨٣١ ــ ١٨٤١، وقد عرّبها ونشرها الخوري بولس قرألي تحت عنوان: **فتوحات إبراهيم باشا في فلسطين ولبنان وسوريا**، حريصا (لبنان)، ١٩٣٧.

(١١) انظر تفاصيل أخرى في المصدر نفسه، ص ٣٤٢ ــ ٣٤٥.

(١٢) عنوان رحلته: *Voyage en Orient*, 2 tomes, Paris, 1855-1856.

(١٣) المصدر نفسه، ج ٢، ص ٢٧٧ ــ ٢٨٠.

(١٤) المصدر نفسه، ج ٢، ص ٢٨٤ ــ ٢٩٠، ٣٣٧، ٣٥٦، ٣٥٩، ٣٧٣.

(١٥) المصدر نفسه، ج ٢، ص ٣٣٥.

(١٦) المصدر نفسه، ج ٢، ص ٣٧٥.

(١٧) عنوان رحلته: *Voyage de Terre Sainte*, 8 ème édition, Paris, 1895.

(١٨) المصدر نفسه، ص ١٠٦ و ١٢٤.

(١٩) المصدر نفسه، ص ١٣٥ ــ ١٣٧.

(٢٠) المصدر نفسه، ص ١٤٩ ــ ١٥٠.

(٢١) المصدر نفسه، ص ١٤٩ ــ ١٥٠.

(٢٢) المصدر نفسه، ص ١٥١.

(٢٣) المصدر نفسه، ص ٣٢٧، ٣٣٠، ٣٣٧.

(٢٤) المصدر نفسه، ص ٣٣٩ ــ ٣٤٢.

(٢٥) المصدر نفسه، ص ٣٤٣، ٣٤٥.

(٢٦) المصدر نفسه، ص ٣٥٦.

(٢٧) المصدر نفسه، ص ٣٥٧ ــ ٣٥٨.

(٢٨) عنوان رحلته: *Voyage en Russie, au Caucase et en Perse, dans la Mésopotamie, le Kurdistan, la Syrie, la Palestine et la Turquie, executé pendant les années 1866, 1867 et 1868*, 4 tomes, Paris, Amsterdam, 1872-1875.

(٢٩) المصدر نفسه، ص ٣٧١، ٣٨٠، ٣٨٧ ــ ٣٨٨.

(٣٠) المصدر نفسه، ص ٣٩٤ ــ ٣٩٥.

(٣١) المصدر نفسه، ص ٤٠٨ ــ ٤٢١.

(٣٢) المصدر نفسه، ص ٤٢٨ ــ ٤٢٩.

(٣٣) المصدر نفسه، ص ٤٣٠ ــ ٤٣٨.

(٣٤) المصدر نفسه، ص ٤٣٨ ــ ٤٤٠.

(٣٥) المصدر نفسه، ص ٤٥٦، ٤٥٧.

(٣٦) العارف، **تاريخ القدس**، ص ١٧٣.

(٣٧) Nijehon, *Voyage en Russie*..., t. 4, pp. 456-458.

(٣٨) المصدر نفسه، ص ٤٥٩ ــ ٤٦١.

(٣٩) المصدر نفسه، ص ٥٢٠ ــ ٥٢٦.

(٤٠) المصدر نفسه، ص ٥٢٨ ــ ٥٢٩.

(٤١) عنوان الرحلة: *Syrie, Palestine, Mont Athos, Voyage aux pays du passe*, Paris, 1922.

(٤٢) المصدر نفسه، ص ١٠٣ ــ ١١٠.

(٤٣) المصدر نفسه، ص ١١٤.

(٤٤) المصدر نفسه، ص ١١٩ ــ ١٢٣.

(٤٥) المصدر نفسه، ص ١٣٣ ــ ١٤٠.

(٤٦) المصدر نفسه، ص ١٦٤ ــ ١٦٥.

(٤٧) المصدر نفسه، ص ٢١٠ ــ ٢١٣، ٢٣٢ ــ ٢٣٥.

(٤٨) المصدر نفسه، ص ٢٣٨ ــ ٢٤٨.

(٤٩) عنوان الرحلة: *Voyage en Palestine, Impressions et Souvenirs*, Paris, 1891.

(٥٠) المصدر نفسه، ص ٦، ١٩ ــ ٢٠، ٣٣.

(٥١) انظر بحث التجارة في فصل الحياة الاقتصادية الوارد لاحقاً.

(٥٢) انظر حول هذه الطريق: عبد الكريم رافق، «الاقتصاد الدمشقي في مواجهة الاقتصاد الأوروبي في القرن التاسع عشر»، **دراسات تاريخية**، العددان السابع عشر والثامن عشر، (آب ــ تشرين الثاني ١٩٨٤)، أعيد نشر هذا المقال في: رافق، **بحوث في التاريخ الاقتصادي والاجتماعي**، ص ٢٤١ ــ ٢٨٥.

(٥٣) Charmes, *Voyage en Palestine*, pp. 21-24.

(٥٤) المصدر نفسه، ص ١٠٤ ــ ١٠٥.
(٥٥) المصدر نفسه، ص ١٥١ ــ ١٥٣.
(٥٦) المصدر نفسه، ص ١٩٦ ــ ١٩٧.
(٥٧) المصدر نفسه، ص ٢١١ ــ ٢١٢.
(٥٨) المصدر نفسه، ص ٢٣١.
(٥٩) المصدر نفسه، ص ٢٤٩ ــ ٢٥٤.
(٦٠) المصدر نفسه، ص ٢٧٣ ــ ٢٧٤.
(٦١) المصدر نفسه، ص ٢٧٨ ــ ٣٢٧.
(٦٢) مخطوط في دفترين (جزءين) في المكتبة الظاهرية بدمشق، تحت رقمي ٤٩١٩ و ٤٩٢٠ (عام). يتألف الجزء الأول من ١٤٣ صفحة والثاني من ١١٢ صفحة ينقطع الكلام في نهايتها.
(٦٣) أشار إليها **فهرس مخطوطات دار الكتب الظاهرية ــ التاريخ وملحقاته**؛ خالد الريان، دمشق، ١٩٧٣، ص ٢٩٣، بأنها **الروضة النعمانية في سياحة فلسطين وبعض البلدان الشامية**، وأن المؤلف غير معروف والخط رديء.
(٦٤) القساطلي، **الروضة الغناء**...، ص ١٥٨.
(٦٥) ظهرت الطبعة الأولى منها في مصر، سنة ١٣١٩هـ / ١٩٠١ ــ ١٩٠٢م، وقد أعادت طباعتها بالتصوير دار الرائد العربي، بيروت ١٩٨١.
(٦٦) ليس من عنوان للرحلة، وهي مخطوط في المتحف البريطاني وقد نشرها مع ترجمة انكليزية لها جاكوب لاندو Jacob Landau في كتاب: *Economie et sociétés dans l'Empire Ottoman*, Bacqué-Grammont et Paul Dumont (eds.), Paris, 1983, pp. 61-107.
(٦٧) القساطلي، **الروضة النعمانية**...، ج ٢، ص ٩٢.
(٦٨) المصدر نفسه، ج ٢، المقدمة (بدون ترقيم).
(٦٩) المصدر نفسه، ج ١، ص ٤٣.
(٧٠) المصدر نفسه، ج ٢، ص ٩٠.
(٧١) المصدر نفسه، ج ٢، ص ٩٢.
(٧٢) المصدر نفسه، ج ١، ص ٦، ٢٣، ٢٥، ٢٧، ٤٥، ٤٨.
(٧٣) المصدر نفسه، ج ١، ص ١٠٨.
(٧٤) المصدر نفسه، ج ١، ص ١٠٩.
(٧٥) نقل هنا ما ذكره توفيق معمر في كتابه: **ظاهر العمر**، الناصرة، ١٩٧٩، ص ٢٨٨، الهامش ٢.
(٧٦) القساطلي، **الروضة النعمانية**...، ج ٢، ص ٩٢.
(٧٧) المصدر نفسه، ج ١، ص ٤٥.
(٧٨) المصدر نفسه، ج ١، ص ٤.
(٧٩) المصدر نفسه، ج ١، ص ٢ ــ ٨.
(٨٠) المصدر نفسه، ج ١، ص ١٠.
(٨١) المصدر نفسه، ج ١، ص ٩ ــ ١٨.
(٨٢) المصدر نفسه، ج ١، ص ٤٥ ــ ٥٠.
(٨٣) H.H. Kitchener's Reports, «Camp at Jerusalem, 2 October 1877», *PEF, QS* (1878), pp. 11-12.
(٨٤) القساطلي، **الروضة النعمانية**...، ج ١، ص ٥٢ ــ ٦٠.
(٨٥) انظر القائمة في ج١ (ص ١ ــ ٤) وهي توازي ص ٨٠ ــ ٨٣ من المخطوط.
(٨٦) المصدر نفسه، ج ١، ص ٨٥ ــ ٩٥.
(٨٧) المصدر نفسه، ج ١، ص ٩٦ ــ ١٠١.
(٨٨) المصدر نفسه، ج ١، ص ١٠٩ ــ ١٢٢.
(٨٩) المصدر نفسه، ج ١، ص ١٢٢ ــ ١٢٩.
(٩٠) المصدر نفسه، ج ١، ص ١٣٠ ــ ١٤٣.
(٩١) المصدر نفسه، ج ٢، من أوّله حتى ص ١٢.
(٩٢) المصدر نفسه، ج ٢، ص ٩ ــ ٢٢.
(٩٣) المصدر نفسه، ج ٢، ص ٢٥ ــ ٢٧.
(٩٤) للمزيد من المعلومات حول جوامع غزة انظر: رافق، **غزة**، ص ١٧ ــ ٢٧، وانظر حول غزة عموماً: عارف العارف، **تاريخ غزة**، القدس، ١٣٦٢هـ / ١٩٤٣م.
(٩٥) C.R. Conder, «Gaza, April 20, 1875», *PEF, QS* (1875), p. 161.
(٩٦) انظر تفاصيل ضافية عن غزة في القساطلي، **الروضة النعمانية**...، ج ٢، ص ٢٧ ــ ٤٢.
(٩٧) المصدر نفسه، ج ٢، ص ٤٣ ــ ٥١.
(٩٨) انظر: رافق، **غزة، دراسة عمرانية واجتماعية واقتصادية من خلال الوثائق الشرعية ١٢٧٣ ــ ١٢٧٧هـ / ١٨٥٧ ــ ١٨٦١م**، ص ٥٠؛ عارف العارف، **بئر السبع وقبائلها**، القدس، ١٩٣٤، ص ١٤٤.
(٩٩) انظر تفاصيل أخرى عن الأماكن السابقة وغيرها في: القساطلي، **الروضة النعمانية**...، ج ٢، ص ٥٢ ــ ٥٩.
(١٠٠) المصدر نفسه، ج ٢، ص ٦١ ــ ٦٩.
(١٠١) المصدر نفسه، ج ٢، ص ٧٠ ــ ٧٧.
(١٠٢) المصدر نفسه، ج ٢، ص ٨٠. ولكن الكسندر شولش الذي استخدم سالنامه ١٢٨٨هـ يذكر أن المجموع هو ١,٤٧٨، والفارق أنه يجعل عدد بيوت السمرة ١٢ في حين يجعلها القساطلي ١٣. انظر: Alexander Schölch, «The Demographic Development of Palestine, 1850-1882», *International Journal of Middle Eastern Studies (IJMES)*, 17 (1985), pp. 485-505, see p. 461, Table 1.
(١٠٣) القساطلي، **الروضة النعمانية**...، ج ٢، ص ٨٠ ــ ٨٩.
(١٠٤) المصدر نفسه، ص ٩٤ ــ ١٠٠.

الفصل الثالث:

(١) انظر: Alexander Schölch, «The Decline of local power in Palestine after 1856, the case of ʿAqil Aga», *Die Welt des Islams*, XXIII and XXIV (1984), pp. 458-475, see p. 461.
(٢) Haddad, «Political Parties», pp. 210-213.
(٣) المصدر نفسه، ص ٢١٣ ــ ٢١٤.
(٤) القساطلي، **الروضة النعمانية**...، ج ١، ص ٦١ ــ ٦٢.
(٥) المصدر نفسه، ج ١، ص ٦٢ ــ ٦٣، ٦٧.
(٦) المصدر نفسه، ج ١، ص ١٦ ــ ١٧.
(٧) المصدر نفسه، ج ١، ص ١٢٤، يقول القساطلي ان أهالي قرية بيت جبرين يبلغ عددهم الآن (١٨٧٤) ١٢٠٠ نفس، «خلافاً لما ذكرنا قبلاً»، وقد مات من سكانها في الصيف والخريف وبداية الشتاء الماضين ٤٥٠ شخصاً بالحمى التيفوسية.

(٨) إن هـذه الاحصـاءات مبنيـة عـلى مخـطوط القسـاطـلي، **الـروضـة النعمانية**. . .، ج ١، ص ٦٧ ــ ٧١، وكذلك على: Macalister and Masterman, «Occasional Papers», Part II (Former Divisions and Local Government of the Fellahin of Judaea and the District of Nablus), *PEF, QS* (1905), pp. 352-353.

(٩) القساطلي، **الروضة النعمانية**. . .، ج ١، ص ٧١ ــ ٧٢.

(١٠) المصدر نفسه، ج ١، ص ١٢٢ ــ ١٢٤.

(١١) Macalister and Masterman, «Occasional Papers», Part II (Former Divisions), *PEF, QS* (1905), p. 355.

(١٢) انظر تفاصيل أخرى في المصدر نفسه، ص ٣٥٣ ــ ٣٥٥.

(١٣) انظر تفاصيل أخرى حول زعامة هذه الأسر في المناطق والقرى التابعة لها في: المصدر نفسه، ص ٣٥٢ ــ ٣٥٦؛ وانظر أيضاً: إحسان النمر، **تاريخ جبل نابلس والبلقاء**، الجزء الثاني، ص ٣٨٣ ــ ٤٢٠؛ محمد عزة دروزة، **العرب والعروبة**، الجزء الثاني، ص ١٤٣ ــ ٢٩١؛ وانظر أيضا: Schölch, «The Decline of Local Power in Palestine», p. 460.

(١٤) Burckhardt, *Travels in Syria*, p. 342.

(١٥) انظر تفاصيل أخرى عن هذه التحالفات والمنازعات في: Macalister and Masterman, «Occasional Papers», *PEF, QS* (1905), pp. 33ff.

(١٦) M. V. J. Seetzen, «Mémoire pour arriver à la connaissance des tribus arabes en Syrie», *Annales des Voyages de la Géographie et de l'Histoire*, VIII (Paris, 1809), p. 287.

(١٧) Burckhardt, *Travels in Syria*, pp. 355, 368.

(١٨) Seetzen, «Mémoire», p. 296.

(١٩) A.E. Northley, «Expedition to the east of the Jordan», *PEF, QS* (1872), pp. 58-60.

(٢٠) Seetzen, «Mémoire», p. 288.

(٢١) Kitchener's Reports, Jerusalem 7 September 1877, *PEF, QS* (1878), p. 11.

(٢٢) Kitchener's Reports, «Journal of the Survey of Jerusalem, 23 November 1877», *PEF, QS* (1878), p. 63.

(٢٣) Seetzen, «Mémoire», p. 291; Burckhardt, *Travels in Syria*, pp. 381-385, 289, 413-415.

(٢٤) Seetzen, «Mémoire», pp. 293-295.

(٢٥) انظر حول أصول هؤلاء البدو وفروعهم وتحالفاتهم وأماكن إقامتهم: عارف العارف، **بئر السبع وقبائلها**، وانظر ملاحظات بالانكليزية حول هذه القبائل مبنية على كتاب العارف في: S. Hillelson, «Notes on the Bedouin Tribes of Beersheba District», *Palestine Exploration Quarterly*, (1937), pp. 242-252.

وانظر كذلك: رافق، **غزة**. . .، ص ٥٠ ــ ٥١؛ القساطلي، **الروضة النعمانية**. . .، ج ٢، ص ٤٧.

(٢٦) **سجل المحكمة الشرعية في غزة**، رقم ٤٦١، ص ٣٥، ٢٢ شوال ١٢٧٣هـ / (١٥ حزيران ١٨٥٧م)، ص ١٣٠، ٢٠ شوال ١٢٧٤هـ / (٣ حزيران ١٨٥٨)، ص ٢٢١، ٢٥ شوال ١٢٧٥هـ / (٢٨ أيار ١٨٥٩م).

(٢٧) العارف، **بئر السبع وقبائلها**، ص ١٤٤.

(٢٨) رافق، **غزة**. . .، ص ٧٧.

(٢٩) المصدر نفسه، ص ٥١ ــ ٥٢.

(٣٠) **سجل المحكمة الشرعية في غزة**، رقم ٤٦١، ص ١٢٩، ١٩ شوال ١٢٧٤هـ / (٢ تموز ١٨٥٨م).

(٣١) Conder's Reports, Beit Jibrin, 20 March 1875, *PEF, QS* (1875), pp. 131-132.

(٣٢) رافق، **غزة**. . .، ص ٥٠.

(٣٣) Macalister and Masterman, «Occasional Papers», *PEF, QS* (1906), pp. 33-34.

(٣٤) Haddad, «Political Parties», pp. 209-214.

(٣٥) المصدر نفسه، ص ٢٢٢.

(٣٦) انظر حول انتشار هؤلاء البدو في بلاد الشام: أحمد وصفي زكريا، **عشائر الشام**، ج ١، و ٢ في مجلد واحد، ص ٥٥٣ ــ ٥٥٥.

(٣٧) Schölch, «The Decline of Local Power in Palestine», pp. 458-475; Macalister and Masterman, «Occasional Papers», *PEF, QS* (1906), pp. 221-225, 286-291.

الفصل الرابع:

(١) Schölch, «The Demographic Development of Palestine», pp. 485-505.

(٢) انظر مثلاً: **سالنامه ولاية سورية لعام ١٣٠٠هـ/ (١٨٨٢ ــ ١٨٨٣م)**، ص ٢٢٠ ــ ٢٢١.

(٣) **القساطلي، الروضة النعمانية**. . .، ج ١، ص ١٠.

(٤) Tyrwhitt Drake's Report, Umm el Fahm, October, 1872, *PEF, QS* (1873), p. 28.

(٥) عبد الكريم رافق، «مظاهر سكانية من دمشق في العهد العثماني»، **دراسات تاريخية**، العددان ١٥ و ١٦ كانون الثاني ــ أيار ١٩٨٤، ص ٥ ــ ٢٨. (أعيد نشره في: رافق، **بحوث في التاريخ الاقتصادي والاجتماعي**، ص ٢١٧ ــ ٢٤٠).

(٦) G. Schumacher, «Population list of the Livā of ʿAkka», *PEF, QS* (1887), pp. 169-191, see p. 185.

(٧) محمد رفيق بك التميمي ومحمد بهجت بك، **ولاية بيروت**، جزءان، (القسم الجنوبي والقسم الشمالي)، انظر: **القسم الجنوبي**، ج ٢، ص ٣٧١.

(٨) جميل البحري، **تاريخ حيفا**، ص ١٦.

(٩) Bovet, *Voyage de Terre Sainte*, p. 15.

(١٠) القساطلي، **الروضة النعمانية**. . .، ج ١، ص ٧٣.

(١١) *NAW*, M453, R1, Jerusalem, 25 September, 1865, 14 November 1865. (ويقدّر القنصل سكان القدس في رسالته الأولى بـ ٢٨,٠٠٠ نسمة، وبعد سنتين يقدّرهم في رسالة أخرى (Jerusalem, 3 April 1867) بحوالي ٢٠,٣٣٠ نسمة، ثم يقدّرهم بعد عام ونصف العام (Jerusalem, 30 September 1868) بأنهم يراوحون بين ١٥ و ٢٠ ألفاً يتوزعـون كالتالي: ٩,٠٠٠ يهـودي، ٤,٥٠٠ مسيحي، ٤,٥٠٠ مسلم. ويدل هذا على التخبط في التقديرات السكانية).

(١٢) Vogüé, *Syrie, Palestine*, pp. 210-213.

(١٣) القساطلي، **الروضة النعمانية**. . .، ص ٥ (بدون ترقيم) من مطلع الجزء الثاني.

(١٤) المصدر نفسه، ص ٥ (بدون ترقيم) من مطلع الجزء الثاني.

(١٥) يضم قضاء عجلون: ٧ نواح، ٩٧ قرية، ويضم ٧٩٩٥ مسلماً، ٦٨٥ من غير المسلمين، المجموع ٨,٦٨٠.

يضم قضاء السلط: ١٢ قرية يسكن فيها ٥٩٢٥ مسلماً، ١,٢٥٠ من غير المسلمين، المجموع ٧,١٧٥.

(١٦) Schumacher, «Population List of the Livā of ʿAkka», pp. 168-191.

ويلاحظ في إحصاء شوماخر هذا حدوث عدة أخطاء في أرقام خانات السكان، مثال ذلك، ص ١٧٥ حيث يجب أن يكون مجموع الخانات في السطر الأول ٥٥٥ خانة لا ٥٥٠ خانة كما هو مذكور ويترتب على ذلك أخطاء متتالية ناتجة عن هذا المثال وغيره فيجب الانتباه إليها.

(١٧) نشرت نتائج الإحصاء في: Kemal H. Karpat, «Ottoman Population Records and the Census of 1881/82-1893», *IJMES*, 9(1978), pp. 237-274, see pp. 262, 271.

(١٨) Burckhardt, *Travels in Syria*, pp. 317, 321/322.

(١٩) انظر حول المغاربة في بلاد الشام كقوات عسكرية: عبد الكريم رافق، «مظاهر من الحياة العسكرية العثمانية في بلاد الشام من القرن السادس عشر حتى مطلع القرن التاسع عشر»، دراسات تاريخية، العدد الأول (آذار ١٩٨٠)، ص ٧٨ ـ ٧٩، (أعيد نشره في: رافق، بحوث في التاريخ الاقتصادي والاجتماعي، ص ١٤٢ ـ ١٤٣).

(٢٠) Baldensperger,«The Immovable East», *PEF, QS* (1917), p. 107.

(٢١) Vogüé, *Syrie, Palestine*, p. 107.

(٢٢) E.W.G. Masterman, «Safad», *PEF, QS* (1914), p. 170.

(٢٣) Baldensperger, «The Immovable East», *PEF, QS* (1917), pp. 15-16.

(٢٤) سجل المحكمة الشرعية في غزة، رقم ٤٦١، ص ٢٢، ٣ رمضان ١٢٧٣هـ / (٢٧ نيسان ١٨٥٧م)، وانظر أيضاً: رافق، غزة. . .، ص ٤٧.

(٢٥) Baldensperger, «The Immovable East», *PEF, QS* (1917), p. 161.

(٢٦) Conder, «The Present Condition», *PEF, QS* (1879), p. 8.

(٢٧) Baldensperger, «The Immovable East», *PEF, QS* (1917), pp. 14-16.

(٢٨) المصدر نفسه، ص ١٣ ـ ١٤.

(٢٩) انظر تفاصيل ضافية عن ذلك في: رافق، غزة. . .، ص ١٧ ـ ٢٧.

(٣٠) Baldensperger, «The Immovable East», *PEF, QS* (1917), p. 161.

(٣١) انظر: رافق، غزة. . .، ص ٤٨ ـ ٦٩.

(٣٢) انظر تفاصيل أخرى عنهم في: Baldensperger, «The Immovable East», *PEF, QS* (1917), pp. 14-15.

(٣٣) Charmes, *Voyage en Palestine*, pp. 273-274.

(٣٤) Nijeholt, *Voyage en Russie*, p. 108.

(٣٥) للحصول على تفاصيل ضافية عن أفراد هذه الجالية وأعمارهم وأعمالهم وطموحاتهم، ومعارضة العثمانيين لهم، ثم الخلاف بينهم وبين القنصل الأمريكي، انظر: *NAW*, M453, R1, Jerusalem, 2 October 1866, 19 November, 1866, 24 November, 1866, 28 January 1867.

(٣٦) للحصول على معلومات مفصلة انظر: Alexander Schölch, «European Penetration and the Economic Development of Palestine, 1856-82», in *Studies in the Economic and Social History of Palestine in the Nineteenth and Twentieth Centuries*, ed. Roger Owen, Oxford, 1982, p. 44.

(٣٧) *NAW*, M453, R2, Jerusalem, 8 August 1871.

(٣٨) انظر حول تفاصيل هذه الزيارة: إبراهيم الأسود، الرحلة الامبراطورية في الممالك العثمانية، بيروت، ١٨٩٨، ص ٩٧ ـ ١٣٦.

(٣٩) Drake's letter, near Jaffa, 15 April, 1872, *PEF, QS* (1872), pp. 78-81; Conder, «The Present Condition of Palestine», *PEF, QS* (1879), p. 9; Masterman, «Cana of Galilee», *PEF, QS* (1914), pp. 189, 191.

(٤٠) *NAW*, M453, R4, «Report on the Jews and the Jewish Colonies in Palestine», Jerusalem, 3 October 1891.

(٤١) انظر حول فشل معظم التجارب الاستيطانية قبل حوالي العام ١٨٨٠: *NAW*, M453, R3, Jerusalem, 8 October 1880.

(٤٢) سجل المحكمة الشرعية في غزة، رقم ٤٦١، ص ٥١، ١٣ محرم ١٢٧٤هـ / (٣ أيلول ١٨٥٧م).

(٤٣) المصدر نفسه، ص ٢٦، ٥ شعبان ١٢٧٣هـ / (٣١ آذار ١٨٥٧م).

(٤٤) سجل المحكمة الشرعية في نابلس، رقم ١٩، ص ٢٣٩، ٢٥ محرم ١٢٩٢هـ / (٣ آذار ١٨٧٥م).

(٤٥) Bovet, *Voyage de Terre Sainte*, p. 150.

(٤٦) Vogüé, *Syrie, Palestine*, pp. 108-109.

(٤٧) Baldensperger, «The Immovable East», *PEF, QS* (1904), p. 260.

(٤٨) انظر حول بناء بيوت الفلاحين ومواقعها ووظائفها: F.A. Klein, «Life, habits and customs of the Fellahin of Palestine», *PEF, QS* (1881), pp. 112-118.

(٤٩) Drake's Report, Umm el Fahm, October 1871, *PEF, QS* (1873), p. 128.

(٥٠) القساطلي، الروضة النعمانية. . .، ج ١، ص ٧٤.

(٥١) المصدر نفسه، ج ١، ص ٧٤ و ٧٧.

(٥٢) المصدر نفسه، ج ١، ص ٧٤.

(٥٣) E.N. Haddad, «The Guest house in Palestine», *JPOS*, Vol. II, No. 4 (December 1922), pp. 279-283.

(٥٤) القساطلي، الروضة النعمانية. . .، ج ١، ص ٧٧.

(٥٥) Finn, «The Fellaheen of Palestine», *PEF, QS* (1879), pp. 35-44.

(٥٦) H.H. Kitchener, «Journal of the Survey of Jerusalem, 23 November 1877», *PEF, QS* (1878), pp. 62-63.

(٥٧) *NAW*, M453, R2, Jerusalem, 30 September, 1870.

(٥٨) Baldensperger, «The Immovable East», *PEF, QS* (1906), pp. 18-20.

(٥٩) Finn, «The Fellaheen of Palestine», *PEF, QS* (1879), pp. 35-44.

(٦٠) المصدر نفسه.

(٦١) Drake's Report, *PEF, QS* (1870), p. 83.

(٦٢) Baldensperger, «The Immovable East», *PEF, QS* (1926), pp. 96-97.

(٦٣) المصدر نفسه، ص ٦٧؛ رافق، غزة. . .، ص ٥١.

(٦٤) Baldensperger, «The Immovable East», *PEF, QS* (1925), pp. 89-90.

(٦٥) المصدر نفسه، ص ٦٦ ـ ٦٧.

(٦٦) انظر تفاصيل ذلك في: Omar Effendi El-Barghuthi, «Judicial Courts among the Bedouin in Palestine», *JPOS*, Vol. II, No. 1 (January, 1922), pp. 34-65.

(٦٧) E.N. Haddad, «Blood Revenge among the Arabs», *JPOS*, Vol. I, Nos. 2-3 (June, 1921), pp. 103-112; Baldensperger, «The Immovable East», *PEF, QS* (1922), pp. 167-171.

(٦٨) انظر معلومات ضافية أخرى حول خيول البدو في: Baldensperger, «The Immovable East», *PEF, QS* (1929), pp. 183-189.

(٦٩) Baldensperger, «The Immovable East», *PEF, QS* (1922), pp. 163-167.

الفصل الخامس:

(١) كامل جميل العسلي، **معاهد العلم في بيت المقدس**، ص ٥٤ ـ ٢٩٣، ص ٣٤٢ ـ ٣٦٨.

(٢) حسن بن عبد اللطيف الحسيني، **تراجم أهل القدس في القرن الثاني عشر الهجري**، ص ١١، ١٤ ـ ١٦.

(٣) المصدر نفسه، ص ٦٧، ٧٨ ـ ٨١؛ العسلي، **معاهد العلم...**، ص ٤١.

(٤) يُنسب البوريني إلى قرية بورين جنوبي نابلس، ويُعنى مؤلفه بتراجم أعيان القرن السادس عشر ومطلع السابع عشر. وقد صدر منه جزءان، تحقيق صلاح الدين المنجد، دمشق، ١٩٥١ و ١٩٦٣. ولم يصدر الجزء الثالث بعد.

(٥) حققه أسد رستم وفؤاد أفرام البستاني تحت عنوان: **لبنان في عهد الأمير فخر الدين المعني الثاني**، بيروت، ١٩٣٦.

(٦) انظر الدراسة التقويمية للعلمي والرملي والصفدي وغيرهم التي قام بها إحسان عباس في مقاله: «الحياة العمرانية والثقافية في فلسطين أثناء القرن السابع عشر (١٠١٠ ـ ١١١٢هـ)»، الحلقة الثانية، **مجلة قضايا عربية**، بيروت، السنة السادسة، العدد ٣ (تموز/يوليو ١٩٧٩)، ص ٤٩ ـ ٧١. أما الحلقة الأولى من هذه الدراسة فقد ظهرت تحت العنوان نفسه في **مجلة المستقبل العربي**، بيروت، السنة الثالثة، العدد ٦ (١٩٧٩)، ص ١٣٣ ـ ١٤٧.

(٧) طبع في بولاق ١٣٠٠هـ، ثم أعيد تصويره، بيروت، دار المعرفة، ١٩٧٤.

(٨) أبرز هذه الكتب هي: نجم الدين الغزي، **الكواكب السائرة بأعيان المئة العاشرة**، ٣ أجزاء، تحقيق جبرائيل جبور، بيروت، ١٩٤٥ ـ ١٩٥٩؛ الحسن بن محمد البوريني، **تراجم الأعيان من أبناء الزمان**؛ محمد الأمين المحبي، **خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر**، ٤ أجزاء، القاهرة، ١٢٨٤هـ / ١٨٦٩م؛ محمد خليل المرادي، **سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر**، ٤ أجزاء، بولاق، ١٣٠١. وانظر كذلك كتاب أحمد سامح الخالدي، **أهل العلم والحكم في ريف فلسطين**، عمان، ١٩٦٨.

(٩) ٣ أجزاء، تحقيق محمد بهجة البيطار، دمشق، ١٩٦١ ـ ١٩٦٣.

(١٠) طبعة أولى ـ مصر ١٣١٩هـ (طبعة جديدة بالأوفست، دار الرائد العربي، بيروت، ١٩٨١).

(١١) البيطار، **حلية البشر**، ج ١، ص ٦٩.

(١٢) المصدر نفسه، ج ١، ص ٧١.

(١٣) المصدر نفسه، ج ١، ص ٥٢١.

(١٤) المصدر نفسه، ج ١، ص ٥٣٧.

(١٥) المصدر نفسه، ج ١، ص ٥٩٤.

(١٦) المصدر نفسه، ج ١، ص ٥٩٤.

(١٧) المصدر نفسه، ج ٢، ص ٧١٦.

(١٨) المصدر نفسه، ج ٣، ص ١٥٥٧.

(١٩) المصدر نفسه، ج ٣، ص ١٥٨١.

(٢٠) المصدر نفسه، ج ٣، ص ١٦٠٩.

(٢١) انظر حول حنابلة دمشق في القرن الثامن عشر وأصولهم النابلسية:
John Voll, «The non-Wahhabi Hanbalis of Eighteenth Century Damascus», *Der Islam*, Vol. 49, No. 2 (November 1972), pp. 277-291.

(٢٢) محمد عبد الجواد القاياتي، **نفحة البشام في رحلة الشام**، ص ١٠٣.

(٢٣) انظر وصفه المقتضب لهذه الأماكن في: المصدر نفسه، ص ٨٤ ـ ١١١.

(٢٤) المصد رنفسه، ص ٨٩ ـ ٩٨.

(٢٥) المصدر نفسه، ص ٩٩ ـ ١٠٦.

(٢٦) القساطلي، **الروضة النعمانية...**، ج ١، ص ٧٣ ـ ٧٤.

(٢٧) المصدر نفسه، ج ١، ص ٧٤.

(٢٨) المصدر نفسه، ج ٢، ص ٢٨.

(٢٩) المصدر نفسه، ج ١، ص ٣٤.

(٣٠) المصدر نفسه، ج ١، ص ٩١.

(٣١) القاياتي، **نفحة البشام...**، ص ١٠٤.

الفصل السادس:

(١) رافق، **غزة...**، ص ٢٥ ـ ٢٦.

(٢) انظر تفاصيل أخرى عن ذلك في: Baldensperger, «The Immovable East», *PEF, QS* (1907), pp. 11-14.

(٣) S. Bergheim, «Land Tenure in Palestine», *PEF, QS* (1894), pp. 191-199.

(٤) انظر مثلاً، **قاموس الصناعات الشامية**، جزءان، الجزء الأول من تأليف محمد سعيد القاسمي، الجزء الثاني من تأليف جمال الدين القاسمي وخليل العظم، تحقيق وتقديم ظافر القاسمي، باريس ـ لاهاي، ١٩٦٠؛ انظر: حراث، ص ٩٥؛ شداد، ص ٢٥٥. وانظر أيضاً:
Abdul-Karim Rafeq, «Land Tenure Problems and their Social Impact in Syria around the middle of the Nineteenth Century», *Land Tenure and Social Transformation in the Middle East*, ed. Tarif Khalidi, pp. 371-396.

(٥) انظر: المصدر نفسه، ص ٣٧١ ـ ٣٩٦.

(٦) Bergheim, «Land Tenure...», pp. 197-199.

(٧) Baldensperger, «The Immovable East», *PEF, QS* (1907), p. 19.

(٨) Bergheim, «Land Tenure...», pp. 197-199.

(٩) *NAW*, M453, R3, Jerusalem, 10 November 1885.

(١٠) انظر أمثلة عن الديون في غزة في حوالي منتصف القرن التاسع عشر: رافق، **غزة...**، ص ٦٠ ـ ٦١، ٦٦ ـ ٧٠.

(١١) القساطلي، **الروضة النعمانية...**، ج ٢، ص ٤٤.

(١٢) *NAW*, M453, R 3, Jerusalem, 18 October 1883.

(١٣) القساطلي، **الروضة النعمانية...**، ج ١، ص ١٠٩.

(١٤) المصدر نفسه، ج ٢، ص ٥٦، ٥٧.

(١٥) *NAW*, M453, R2, Jerusalem, 5 October 1878.

(١٦) *NAW*, M453, R4, «Annual Report for the year ending 30 September 1886», attached to dispatch from Jerusalem, 16 December 1886.

(١٧) NAW, M453, R4, Jerusalem, 22 July 1889, 12 August 1889.

(١٨) NAW, M453, R2, Jerusalem, 15 Feburary 1879.

(١٩) القساطلي، الروضة النعمانية. . .، ج ١، ص ٧٢ — ٧٣.

(٢٠) انظر مثلاً: NAW, M453, R2, Jerusalem, 15 January 1879.

(٢١) NAW, M453, R3, Jerusalem, 18 October 1883.

(٢٢) NAW, M453, R1, Jerusalem, 19 January 1859.

(٢٣) NAW, M453, R1, Jerusalem, 30 September 1868.

(٢٤) NAW, M453, R2, «Annual Report», Jerusalem, 30 September 1870.

(٢٥) القساطلي، الروضة النعمانية. . .، ج ١، ص ١٠١.

(٢٦) المصدر نفسه، ج ١، ص ١٠٠. وانظر أيضاً: Baldensperger, «The Immovable East», PEF, QS (1906), p. 272.

(٢٧) Conder, «The Present Condition of Palestine», PEF, QS (1879), p. 10.

(٢٨) انظر حول أصل هذه الأسرة ونشاطاتها الاقتصادية المتنوعة:
Leila Fawaz, *Merchants and Migrants in Nineteenth Century Beirut*, pp. 91-94; Schölch, «European Penetration», pp. 24-25; Owen, *The Middle East in the World Economy*, p. 175.

(٢٩) Conder, «The Present Condition of Palestine», PEF, QS (1879), p. 10; Schölch, «European Penetration», pp. 25-26.

(٣٠) NAW, M453, R2, Jerusalem, 10 May 1879.

(٣١) NAW, M453, R2, «Annual Report», Jerusalem, 30 September 1870, R3, «Report on Palestine», Jerusalem, 7 October 1881.

(٣٢) Baldensperger, «The Immovable East», PEF, QS (1907), pp. 272-273.

(٣٣) القساطلي، الروضة النعمانية. . .، ج ١، ص ١٦.

(٣٤) انظر تفاصيل أخرى في: Baldensperger, «The Immovable East», PEF, QS (1907), pp. 15-18.

(٣٥) Baldensperger, «The Immovable East», PEF, QS (1908), pp. 295-297.

(٣٦) القساطلي، الروضة النعمانية. . .، ج ١، ص ١٢٤، ١٢٥.

(٣٧) المصدر نفسه، ج ٢، ص ٢٤.

(٣٨) انظر حول كثرة البدو في منطقة غزة: رافق، غزة. . .، ص ٥٨ — ٥٩.

(٣٩) انظر تفاصيل ضافية عن أنواع الزيتون وقطفه وعصره في التقرير التالي:
NAW, M453, R4, «Report on the Culture of Olives, Oranges, Grapes and Figs in Palestine», Jerusalem, 14 July 1884.

(٤٠) رافق، غزة. . .، ص ٧٥ — ٧٦.

(٤١) NAW, M453, R4, «Irrigation as practiced in Palestine», Jerusalem, 29 August 1889.

(٤٢) القساطلي، الروضة النعمانية. . .، ج ٢، ص ٥٢.

(٤٣) المصدر نفسه، ج ٢، ص ٤٤.

(٤٤) المصدر نفسه، ج ٢، ص ٥٢.

(٤٥) سجل المحكمة الشرعية في يافا، رقم ٥، قضية رقم ٢٥٠، تاريخ ٨ شعبان ١٢٤١هـ / ١٨ آذار ١٨٢٦م.

(٤٦) NAW, M453, R4, «Annual Report for the Year ending 30 September 1886», Jerusalem, 16 December 1886.

(٤٧) انظر التقارير التالية للقنصل الأمريكي في القدس: NAW, M453, R3, «Annual Report for the Year ending 30 September 1870», Jaffa (?), «Report on the Culture of Olives», Jerusalem, 14 July 1884, Jerusalem, 16 December 1886, «Irrigation as practiced in Palestine», Jerusalem, 29 August 1889.

(٤٨) NAW, M453, R4, «Report on the Agriculture and Horticulture of Palestine for the month of November 1889», Jerusalem, 5 December 1889.

(٤٩) Baldensperger, «The Immovable East», PEF, QS (1908), pp. 292-293.

(٥٠) القساطلي، الروضة النعمانية. . .، ج ١، ص ٦٣ — ٦٥.

(٥١) المصدر نفسه، ج ١، ص ٦٤ — ٦٥.

(٥٢) Vogüé, *Syrie, Palestine*, p. 164.

(٥٣) NAW, M453, R4, «Report on the Culture of Olives», Jerusalem, 14 July 1884; Baldensperger, «The Immovable East», PEF, QS (1908), pp. 294-295.

(٥٤) انظر الدراسة الدقيقة حول هذا الموضوع في: Schölch, «European Penetration», pp. 14-15, 50.

(٥٥) انظر حول عملية عصر السمسم: NAW, M453, R4, «Annual Report for the Year Ending 30 September 1870», Jaffa (?).

(٥٦) NAW, M453, R4, Jerusalem, 18 October 1883.

(٥٧) NAW, M453, R4, «Annual Report for the Year ending 30 September 1887», Jerusalem, 21 November 1887.

(٥٨) NAW, M453, R4, Jerusalem, 16 December 1886; see also: Bowring, *Report*, pp. 21, 52.

(٥٩) القساطلي، الروضة النعمانية، ج ١، ص ٨٥.

(٦٠) المصدر نفسه، ج ١، ص ٨٧.

(٦١) NAW, M453, R4, «Annual Report», Jerusalem, 21 November 1885.

(٦٢) المصدر نفسه.

(٦٣) NAW, M453, R4, Jerusalem, 26 April 1888.

(٦٤) NAW, M453, R4, Jerusalem, 10 November 1885.

(٦٥) القساطلي، الروضة النعمانية. . .، ج ١، ص ١١٠.

(٦٦) NAW, M453, R4, «Annual Report for the Year ending 30 September 1887», Jerusalem, 21 November 1887.

(٦٧) القساطلي، الروضة النعمانية. . .، ج ١، ص ١١٠.

(٦٨) القساطلي، الروضة الغناء في دمشق الفيحاء، ص ١٢١ — ١٢٢.

(٦٩) القساطلي، الروضة النعمانية. . .، ج ٢، ص ٢٠.

(٧٠) المصدر نفسه، ج ٢، ص ٣٢.

(٧١) رافق، غزة. . .، ص ٥٧.

(٧٢) القساطلي، الروضة النعمانية. . .، ج ٢، ص ٣٤.

(٧٣) رافق، غزة. . .، ص ٥٥.

(٧٤) المصدر نفسه، ص ٥٨.

(٧٥) NAW, M453, R2, «Annual Report for the Year ending 30 September 1870», Jaffa (?).

(٧٦) القساطلي، الروضة النعمانية. . .، ج ٢، ص ٣٢.

(٧٧) NAW, M453, R4, «Annual Report for the Year ending 30 September 1877», Jerusalem, 21 November 1887.

(٧٨) القساطلي، الروضة النعمانية. . .، ج ٢ (المقدمة بدون ترقيم).

(٧٩) NAW, M453, R4, Jerusalem, 16 December 1886.

(٨٠) Baldensperger, «The Immovable East», *PEF, QS* (1904), pp. 133-134.

(٨١) المصدر نفسه، ص ١٣٢.

(٨٢) المصدر نفسه، ص ١٣٢ ـ ١٣٣. وانظر أيضاً: *NAW*, M453, R4, Jerusalem, 10 November 1885.

(٨٣) Baldensperger, «The Immovable East», *PEF, QS* (1904), pp. 135-136.

(٨٤) المصدر نفسه، ص ١٣٦ ـ ١٣٧.

(٨٥) *NAW*, M453, R4, «Report on the Condition of Labor and the Laboring Classes in Palestine», Jerusalem, 5 July 1884.

(٨٦) انظر حول هذه الأوضاع: رافق، «الاقتصاد الدمشقي في مواجهة الاقتصاد الأوروبي»، ص ١١٥ ـ ١٥٩؛ (رافق، **بحوث في التاريخ الاقتصادي والاجتماعي**، ص ٢٤١ ـ ٢٨٥).

(٨٧) *NAW*, M453, R4, Jerusalem, 18 June 1879.

(٨٨) Baldensperger, «The Immovable East», *PEF, QS* (1912), p. 12.

(٨٩) Burckhardt, *Travels in Syria*, p. 323.

(٩٠) المصدر نفسه، ص ٣٤٢.

(٩١) Nijeholt, *Voyage en Russie*..., t. 4, p. 408.

(٩٢) Charmes, *Voyage en Palestine*, pp. 273-274.

(٩٣) Nijeholt, *Voyage en Russie*..., t. 4, pp. 428-429.

(٩٤) Vogüé, *Syrie, Palestine*, p. 119.

(٩٥) المصدر نفسه، ص ١٦٥.

(٩٦) القساطلي، **الروضة النعمانية**...، ج ٢، ص ١٩.

(٩٧) المصدر نفسه، ج ٢، ص ١٩ ـ ٢٠.

(٩٨) المصدر نفسه، ج ٢، ص ٣٣.

(٩٩) رافق، **غزة**...، ص ٥٢ ـ ٦٠؛ وانظر أيضاً، ص ٢٦ ـ ٢٧.

(١٠٠) *NAW*, M453, R5, Jerusalem, 18 October 1902.

(١٠١) Nijeholt, *Voyage en Russie*..., t. 4, p. 528.

(١٠٢) المصدر نفسه، ص ٥٢٨.

(١٠٣) *NAW*, M453, R1, Jerusalem, 3 June 1867.

(١٠٤) Nijeholt, *Voyage en Russie*..., t. 4, p. 528.

(١٠٥) القاياتي، **نفحة البشام**...، ص ١٨٥.

(١٠٦) *NAW*, M453, R1, Jerusalem, 9 November 1860.
وانظر السالنامات حول أسماء القناصل الأجانب أو نوابهم في يافا وفي غيرها من المدن الفلسطينية. ويلفت النظر أن معظم هؤلاء كانوا من السكان المحليين.

(١٠٧) انظر حول هذه الطريق: رافق، «الاقتصاد الدمشقي في مواجهة الاقتصاد الأوروبي»، ص ١٢٢ ـ ١٢٣، (**بحوث في التاريخ الاقتصادي والاجتماعي**، ص ٢٤٨ ـ ٢٤٩).

(١٠٨) *NAW*, M453, R1, Jerusalem, 2 June 1868.

(١٠٩) *NAW*, M453, R1, Jerusalem, 30 September 1868.

(١١٠) *NAW*, M453, R1, «Annual Report», Jerusalem, 30 September 1870.

(١١١) Conder's letter, *PEF, QS* (1872), p. 153.

(١١٢) Schölch, «European Penetration», p. 36.

(١١٣) *NAW*, M453, R1, «Annual Report», Jerusalem, 30 September 1870.

(١١٤) *NAW*, M453, R2, Jerusalem, 15 February 1879.

(١١٥) *NAW*, M453, R2, Jerusalem, 4 October 1879.

(١١٦) *NAW*, M453, R3, Jerusalem, 10 November 1885.

(١١٧) القاياتي، **نفحة البشام**...، ص ٨٤ ـ ٨٧.

(١١٨) *NAW*, M453, R3, Jerusalem, 8 October 1880.

(١١٩) *NAW*, M453, R4, Jerusalem, 21 August 1889.

(١٢٠) انظر تفاصيل أخرى في التقارير التالية: *NAW*, M453, R4, Jerusalem, 4 April 1890, 14 August 1890, 23 September 1890.

(١٢١) *NAW*, M453, R4, Jerusalem, 5 September 1892, 24 October 1892.
وتراجع حول مصور الطريق ووصفه النشرة الفرنسية الواردة مع التقرير في أعلاه وعنوانها: *Chemin de Fer de Jaffe à Jerusalem, Profil Itinéraire.*

(١٢٢) انظر مثلاً: *NAW*, M453, R5, Jerusalem, 17 March 1902.

(١٢٣) *PEF, QS* (1901), p. 2.

(١٢٤) Masterman, «Cana of Galilee», *PEF, QS* (1914), p. 190.

(١٢٥) المصدر نفسه، ص ١٩٠.

(١٢٦) *PEF, QS* (1905), p. 5.

(١٢٧) النمر، **تاريخ جبل نابلس**...، ج ٤، ص ٢٠٨.

(١٢٨) Masterman, «Safad», *PEF, QS* (1914), pp. 173-174.

(١٢٩) *PEF, QS* (1904), p. 188, (1906), pp. 4-5, 89-90, (1908), pp. 153-154.

(١٣٠) Fawaz, *Merchants and Migrants*, pp. 69-71.

(١٣١) Masterman, «Cana of Galilee», *PEF, QS* (1914), p. 191.

(١٣٢) نعتمد هنا إحصاءات وثائق القنصلية الأمريكية في القدس التي إما أنها لم تعتمد إطلاقاً في السابق أو اعتُمدت بشكل هامشي جداً حتى في أحدث الدراسات عن فلسطين باللغات الأجنبية. وقد اعتمدت هذه الدراسات بصورة رئيسية الوثائق الأوروبية من بريطانية، بالدرجة الأولى، وفرنسية. وكما يشير الباحث شولش (Schölch) واوين (Owen) في دراساتها التي سبقت الإشارة إليها فإن إحصاءات الوثائق الأوروبية تختلف الواحدة منها عن الأخرى بسبب اختلاف الأسس التي تعتمدها كل قنصلية (انظر: Schölch, «European Penetration»,, pp. 11-12; Owen, *The Middle East in the World Economy*, p. 175).
ولم يبد لنا ضرورياً في دراستنا هذه أن نبرز إحصاءات القنصليات البريطانية والفرنسية، من خلال دراسات شولش واوين، لأن الهدف إعطاء نماذج اقتصادية تدل على حجم المبادلات الاقتصادية ونوعية المواد المستوردة والمصدرة. ونظراً لأن الممثلين القنصليين للولايات المتحدة في فلسطين في فترة دراستنا لم تكن لهم مصالح هامة سياسية أو اقتصادية، بالنسبة لهم أو لدولتهم، تقتضي منهم إخفاء أو إبراز الوقائع فإن كتاباتهم يمكن أن تفوق في تجردها وشمولية إحصاءاتها كتابات ممثلي الدول الأخرى ذات المصالح الكبيرة. ولا تطمح هذه الدراسة إلى الحلول محل الدراسات الأخرى المتخصصة وإنما تحاول أن تتكامل معها، بالاعتماد أيضاً على مصادر محلية غير منشورة مثل رحلة القساطلي الهامة، وذلك للمساهمة معاً في إلقاء المزيد من الضوء على نواحي الحياة الاقتصادية والاجتماعية في فلسطين والتي لن تكتمل

ما لم تدرس البنى التحتية للاقتصاد والمجتمع الفلسطينيين على أساس المصادر المحلية وأهمها وثائق المحاكم الشرعية.

(١٣٣) *NAW*, M453, R3, Jaffa. 6 October 1881 (attached to the dispatch from Jerusalem, 8 October 1881).

(١٣٤) *NAW*, M453, R3, «Return of Imports for the Year ending 30 September 1882», Jerusalem, 10 October 1882.

(١٣٥) *NAW*, M453, R3, Jerusalem, 10 November 1885.

(١٣٦) *NAW*, M453, R3, «Return of Imports», Jaffa, 30 September 1885.

(١٣٧) *NAW*, M453, R3, Jerusalem, 5 October 1878, 6 May 1879.

(١٣٨) *NAW*, M453, R3, «Return of Exports», Jaffa, 38 September 1882 (attached to the dispatch from Jerusalem, 13 February 1884).

(١٣٩) *NAW*, M453, R3, «Return of Exports», Jaffa, 30 September 1885.

(١٤٠) *NAW*, M453, R1, Jerusalem, 13 November 1860.

(١٤١) انظر وصف هذه الزيارة في: إبراهيم الأسود، الرحلة الامبراطورية في الممالك العثمانية، ص ٩٧ ــ ١٣٦.

(١٤٢) *NAW*, M453, R1, Jerusalem, 14 December 1865.

(١٤٣) *NAW*, M453, R4, «Management of the Turkish Postal Service in the Consular District», Jerusalem, 30 August 1884.

(١٤٤) *NAW*. M453, R5, Jerusalem, 7 August 1903, 24 September 1903.

(١٤٥) سجل محكمة يافا الشرعية، رقم ٥، رقم القضية ١٥٤، تاريخ ٦ جمادى الثانية ١٢٤١هـ / (٦ كانون الثاني ١٨٢٦م).

(١٤٦) Bowring, *Report*, pp. 56-67.

(١٤٧) انظر أنواع العملة وقيمتها في غزة مثلاً، في حوالي منتصف القرن التاسع عشر، في: رافق، غزة...، ص ٨٥ ــ ٩١.

(١٤٨) سجل محكمة الخليل الشرعية، رقم ٨، ص ٦٤.

(١٤٩) سجل محكمة نابلس الشرعية، رقم ١٩، ص ٢٣٩، تاريخ ٢٥ محرم ١٢٩٢هـ / (٣ آذار ١٨٧٥م).

(١٥٠) *NAW*, M453, R1, Jerusalem, 24 July 1867.

(١٥١) *NAW*, M453, R3, Jerusalem, 7 October 1881.

(١٥٢) *NAA*, M453, R4, Jerusalem, 28 March 1882.

(١٥٣) *NAW*, M453, R1, Jerusalem, 31 March 1860.

(١٥٤) *NAW*, M453, R1, Jerusalem, 14 July 1868.

(١٥٥) *NAW*, M453, R5, Jerusalem, 8 January 1900.

المــراجع

١ ـ الوثائق(*):

(أ) سجلات المحاكم الشرعية (العينات التالية من سجلات المحاكم الشرعية في فلسطين):

١ ـ سجلات المحاكم الشرعية في حيفا:
- سجل رقم ١، السنوات ١٢٩٠ ـ ١٢٩١هـ / (١٨٧٣ ـ ١٨٧٥م).
- سجل رقم ١٠، السنوات ١٣٣٠ ـ ١٣٣١هـ / (١٩١١ ـ ١٩١٤م).

٢ ـ سجلات المحاكم الشرعية في الخليل:
- سجل رقم ٧، السنة ١٢٩١هـ / (١٨٧٤ ـ ١٨٧٥م).
- سجل رقم ٢٥، السنة ١٣٣٦هـ / ١٩١٨م.
- سجل رقم ٢٦، السنة ١٣٣٦هـ / ١٩١٨م.

٣ ـ سجلات المحكمة الشرعية في عكا:
- سجل رقم ٧، السنة ١٩١٩.

٤ ـ سجلات المحكمة الشرعية في غزة:
- سجل رقم ٤٦١ (بدمشق) ١٢٧٣ ـ ١٢٧٧هـ / (١٨٥٧ ـ ١٨٦١م).

٥ ـ سجلات المحكمة الشرعية في نابلس:
- سجل رقم ٧، السنوات ١٢٢٣ ـ ١٢٢٤هـ / (١٨٠٨ ـ ١٨١٠م).
- سجل رقم ١٩، السنوات ١٢٩١ ـ ١٢٩٢هـ / (١٨٧٤ ـ ١٨٧٦م).
- سجل رقم ٢٠، السنوات ١٢٩٢ ـ ١٢٩٤هـ / (١٨٧٥ ـ ١٨٧٨م).
- سجل رقم ٥٠، السنوات ١٣٣٦ ـ ١٣٣٧هـ / (١٩١٧ ـ ١٩١٩م).

٦ ـ سجلات المحكمة الشرعية في يافا:
- سجل رقم ٥، السنة ١٢٤١هـ / (١٨٢٥م).
- سجل رقم ٣٥، السنة ١٢٩٢هـ / (١٨٧٥ ـ ١٨٧٦م).

(ب) السالنامات:

١ ـ سالنامه ولايت سورية لعام ١٢٨٨هـ / (١٨٧١ ـ ١٨٧٢م).
٢ ـ سالنامه ولايت سورية لعام ١٢٩٧هـ / (١٨٧٩ ـ ١٨٨٠م).
٣ ـ سالنامه ولايت سورية لعام ١٢٩٨هـ / (١٨٨٠ ـ ١٨٨١م).
٤ ـ سالنامه ولايت سورية لعام ١٢٩٩هـ / (١٨٨١ ـ ١٨٨٢م).
٥ ـ سالنامه ولايت سورية لعام ١٣٠٠ / (١٨٨٢ ـ ١٨٨٣م).
٦ ـ سالنامه ولايت سورية لعام ١٣٠٢هـ / (١٨٨٤ ـ ١٨٨٥م).
٧ ـ سالنامه ولايت سورية لعام ١٣٠٤هـ / (١٨٨٦ ـ ١٨٨٧م).
٨ ـ سالنامه ولايت سورية لعام ١٣٠٥هـ / (١٨٨٧ ـ ١٨٨٨م).
٩ ـ سالنامه ولايت سورية لعام ١٣١٣هـ / (١٨٩٥ ـ ١٨٩٦م).
١٠ ـ سالنامه ولايت بيروت لعام ١٣١١هـ / (١٨٩٣ ـ ١٨٩٤م).
١١ ـ سالنامه دولت علية عثمانية لعام ١٣٠٤هـ / (١٨٨٦ ـ ١٨٨٧م).
١٢ ـ سالنامه دولت علية عثمانية لعام ١٣٠٩هـ / (١٨٩١ ـ ١٨٩٢م).
١٣ ـ سالنامه دولت علية عثمانية لعام ١٣١٠هـ / (١٨٩٢ ـ ١٨٩٣م).
١٤ ـ سالنامه دولت علية عثمانية لعام ١٣١٢هـ / (١٨٩٤ ـ ١٨٩٥م).
١٥ ـ سالنامه دولت علية عثمانية لعام ١٣١٤هـ / (١٨٩٦ ـ ١٨٩٧م).
١٦ ـ سالنامه دولت علية عثمانية لعام ١٣١٥هـ / (١٨٩٧ ـ ١٨٩٨م).
١٧ ـ سالنامه دولت علية عثمانية لعام ١٣١٧هـ / (١٨٩٩ ـ ١٩٠٠م).
١٨ ـ سالنامه دولت علية عثمانية لعام ١٣١٩هـ / (١٩٠١ ـ ١٩٠٢م).
١٩ ـ سالنامه دولت علية عثمانية لعام ١٣٢٢هـ / (١٩٠٤ ـ ١٩٠٥م).
٢٠ ـ سالنامه دولت علية عثمانية لعام ١٣٢٣هـ / (١٩٠٥ ـ ١٩٠٦م).
٢١ ـ سالنامه دولت علية عثمانية لعام ١٣٢٤هـ / (١٩٠٦ ـ ١٩٠٧م).
٢٢ ـ سالنامه دولت علية عثمانية لعام ١٣٢٦هـ / (١٩٠٨ ـ ١٩٠٩م).

(*) أتوجه بالشكر إلى أستاذي الدكتور عبد الكريم غرايبة وإلى الزميل الدكتور محمد عدنان البخيت من الجامعة الأردنية لاتاحتهما المجال لي للاطلاع على وثائق مخطوطة أساسية، بالعربية والأجنبية، من مكتبتيهما أو من مركز الوثائق، وشكري أيضاً للموظفين الذين ساعدوني في ذلك.

٢٣ ــ سالنامه دولت علية عثمانية لعام ١٣٢٩هـ / (١٩١١م).
٢٤ ــ سالنامه نظارت معارف عمومية لعام ١٣١٨هـ / (١٩٠٠ ــ ١٩٠١م).

٢ ــ الكتب والمقالات المطبوعة أو المخطوطة:

إبراهيم الأسود، **الرحلة الامبراطورية في الممالك الشامية**، بعبدا (لبنان)، ١٨٩٨.

إبراهيم العورة، **تاريخ ولاية سليمان باشا العادل**، دير المخلص (لبنان)، ١٩٣٦.

إحسان عباس، «الحياة العمرانية والثقافية في فلسطين في القرن السابع عشر (١٠١٠ ــ ١١١٢هـ)»، الحلقة الأولى، **المستقبل العربي**، العدد العدد ٦، السنة ٣، ١٩٧٩، الحلقة الثانية، **قضايا عربية**، العدد ٣، السنة ٦، تموز/يوليو ١٩٧٩.

إحسان النمر، **تاريخ جبل نابلس والبلقاء**، ٤ أجزاء، نابلس، مطبعة النصر، ١٩٦١ ــ ١٩٧٥.

أحمد سامح الخالدي، **أهل العلم والحكم في ريف فلسطين**، عمان، جمعية عمال المطابع التعاونية، ١٩٦٨.

أحمد وصفي زكريا، **عشائر الشام**، جزءان في مجلد واحد، الطبعة الثانية، دمشق، دار الفكر، ١٩٨٣.

أسد رستم، **الأصول العربية لتاريخ سورية في عهد محمد علي باشا**، ٥ أجزاء، بيروت، المطبعة الأميركية، ١٩٣٠ ــ ١٩٣٤.

إسكندر ابكاريوس، **المناقب الابراهيمية والمآثر الخديوية**، حمص، مطبعة حمص، ١٩١٠.

أكرم الراميني، **نابلس في القرن التاسع عشر**، عمان، ١٩٧٩.

بولس قرألي، **فتوحات إبراهيم باشا المصري في فلسطين ولبنان وسوريا**، نقلها وعرّبها عن مذكرات أنطوان كتافاكو قنصل النمسا في عكا وصيدا (١٨٣٠ ــ ١٨٤٠)، حريصا (لبنان)، ١٩٣٧.

توفيق معمر، **ظاهر العمر**، الناصرة، مطبعة وأوفست الحكيم، ١٩٧٩.

جمال الدين القاسمي وخليل العظم، **قاموس الصناعات الشامية**، الجزء الثاني، نشره ظافر القاسمي، باريس ــ لاهاي، موتون، ١٩٦٠.

جميل البحري، **تاريخ حيفا**، حيفا، المكتبة الوطنية، ١٩٢٢.

حسن بن عبد اللطيف الحسيني، **تراجم أهل القدس في القرن الثاني عشر الهجري**، دراسة وتحقيق وتقديم سلامة صالح النعيمات، عمان، مطبعة كتابكم، ١٩٨٥.

حسن آغا العبد، **تاريخ حسن آغا العبد ١١٨٦ ــ ١٢٤١**، تحقيق يوسف جميل نعيسة، دمشق، مطبعة وزارة الثقافة والإرشاد القومي، ١٩٧٩.

حسين عمر حمادة، **تاريخ الناصرة وقضاها**، عمان، دار منارات للنشر، ١٩٨٢.

حيدر أحمد شهاب، **تاريخ أحمد باشا الجزار**، نشره الأب أنطونيوس شبلي والأب أغناطيوس عبده خليفة، بيروت، مكتبة أنطوان، ١٩٥٥.

خالد الريان، **فهرس مخطوطات دار الكتب الظاهرية ــ التاريخ وملحقاته**، دمشق، مطبعة خالد بن الوليد، ١٩٧٣.

خيرية قاسمية، **النشاط الصهيوني في الشرق العربي وصداه**، بيروت، ١٩٧٣.

عارف العارف، **بئر السبع وقبائلها**، القدس، ١٩٣٤.

ـــــ، **تاريخ غزة**، مطبعة دار الأيتام الإسلامية في بيت المقدس، ١٣٦٢هـ / ١٩٤٣م.

ـــــ، **المفصل في تاريخ القدس**، ج ١، القدس، مطبعة المعارف، ١٩٦١.

ـــــ، **تاريخ القدس**، مصر، دار المعارف، ١٩٥١.

عبد الرزاق البيطار، **حلية البشر في تاريخ القرن الثالث عشر**، ٣ أجزاء، تحقيق محمد بهجة البيطار، دمشق، مطبعة الترقي، ١٩٦١ ــ ١٩٦٣.

عبد العزيز عوض، **الإدارة العثمانية في ولاية سورية ١٨٦٤ ــ ١٩١٤**، مصر، دار المعارف، ١٩٦٩.

عبد الكريم رافق، **بحوث في التاريخ الاقتصادي والاجتماعي لبلاد الشام في العصر الحديث**، دمشق، مكتبة أطلس، ١٩٨٥.

ـــــ، **بلاد الشام ومصر من الفتح العثماني إلى حملة نابليون بونابرت ١٥١٦ ــ ١٧٩٨**، الطبعة الثانية، دمشق، مكتبة أطلس، ١٩٦٨.

ـــــ، **العرب والعثمانيون ١٥١٦ ــ ١٩١٦**، دمشق، مكتبة أطلس، ١٩٧٤.

ـــــ، **غزة، دراسة عمرانية واجتماعية واقتصادية من خلال الوثائق الشرعية ١٢٧٣ ــ ١٢٧٧هـ/١٨٥٧ ــ ١٨٦١م**، دمشق، مكتبة أطلس، ١٩٨٠.

ـــــ، «الاقتصاد الدمشقي في مواجهة الاقتصاد الأوروبي في القرن التاسع عشر»، **دراسات تاريخية**، العددان ١٧ و ١٨، آب ــ تشرين الثاني (أغسطس ــ نوفمبر)، ١٩٨٤.

ـــــ، «مظاهر سكانية من دمشق في العهد العثماني»، **دراسات تاريخية**، العددان ١٥ و ١٦، كانون الثاني ــ أيار (يناير ــ مايو) ١٩٨٤.

ـــــ، «مظاهر من الحياة العسكرية العثمانية في بلاد الشام من القرن السادس عشر وحتى مطلع القرن التاسع عشر»، **دراسات تاريخية**، العدد الأول، آذار (مارس) ١٩٨٠.

عبد الكريم غرايبة، **سورية في القرن التاسع عشر ١٨٤٠ ــ ١٨٧٦**، القاهرة، معهد الدراسات العربية، ١٩٦٢.

عمر رضا كحالة، **معجم قبائل العرب القديمة والحديثة**، ٣ أجزاء، دمشق، المطبعة الهاشمية، ١٣٦٨هـ / ١٩٤٩م.

قسطنطين خمار، **أسماء المواقع والمعالم الطبيعية والبشرية والجغرافية المعروفة في فلسطين حتى العام ١٩٤٨**، بيروت، مركز الأبحاث الفلسطينية، ١٩٧٣.

كامل جميل العسلي، **معاهد العلم في بيت المقدس**، عمان، جمعية عمال المطابع التعاونية، ١٩٨١.

ـــــ، **من آثارنا في بيت المقدس**، عمان، ١٩٨٢.

ـــــ، **وثائق مقدسية تاريخية**، المجلد الثاني، عمان، مؤسسة عبد الحميد شومان، ١٩٨٥.

(مجهول)، **مذكرات تاريخية**، نشرها الخوري قسطنطين الباشا المخلصي، حريصا (لبنان)، ١٩٢٥.

محمد بهجت بك ومحمد رفيق بك التميمي، **ولاية بيروت**، جزءان، بيروت، ج ١، مطبعة الإقبال، ١٣٣٣هـ، و ج ٢، مطبعة الولاية، ١٣٣٥هـ (طبعة جديدة، بيروت، ١٩٧٩).

محمد جميل الشطي، أعيان دمشق في القرن الثالث عشر ونصف القرن الرابع عشر ١٢٠٠ ـ ١٣٥٠هـ، الطبعة الثانية، دمشق، المكتب الإسلامي، ١٩٧١.

محمد سعيد القاسمي، قاموس الصناعات الشامية، الجزء الأول، نشره ظافر القاسمي، باريس ـ لاهاي، موتون، ١٩٦٠.

محمد عبد الجواد القاياتي، نفحة البشام في رحلة الشام، مصر، مطبعة جريدة الإسلام، ١٣١٩هـ (طبعة جديدة بالأوفست، بيروت، دار الرائد العربي، ١٩٨١).

محمد عدنان البخيت، «من تاريخ حيفا العثمانية، دراسة في أحوال عمران الساحل السوري»، مجلة مجمع اللغة العربية الأردني، مج ١، عدد ٢، عمان، ١٩٧٨.

محمد عزة دروزة، العرب والعروبة، ٣ أجزاء، دمشق، دار اليقظة العربية، ١٩٥٩ ـ ١٩٦٠.

مصطفى مراد الدباغ، بلادنا فلسطين، ٨ أجزاء، بيروت، دار الطليعة، ١٩٦٥ ـ ١٩٧٤.

ـــــ، الموجز في تاريخ الدول الإسلامية وعهودها في بلادنا فلسطين، جزءان، بيروت، دار الطليعة، ١٩٨١ ـ ١٩٨٢.

ميخائيل الدمشقي، تاريخ حوادث الشام ولبنان ١١٩٧ ـ ١٢٥٧هـ / ١٧٨٢ ـ ١٨٤١م، نشره الأب لويس معلوف، بيروت، ١٩١٢.

ميخائيل مشاقة، مشهد العيان بحوادث سورية ولبنان، نشره ملحم خليل عبده وأندراوس حنا شخاشيري، مصر، ١٩٠٨.

نعمان القساطلي، الروضة الغناء في دمشق الفيحاء، بيروت، ١٨٧٦ (نسخة مصورة بالأوفست، طرابلس، مكتبة السائح، لا.ت.، نسخة أخرى، بيروت، دار الرائد العربي، ١٩٨٢).

ـــــ، الروضة النعمانية في سياحة فلسطين وبعض البلدان الشامية، (مخطوط) جزءان، المكتبة الظاهرية بدمشق، أرقامها، ٤٩١٩ عام، ٤٩٢٠ عام.

يعقوب العودات، من أعلام الفكر والأدب في فلسطين، عمان، جمعية عمال المطابع التعاونية، ١٩٧٦.

٣ ـ المراجع الأجنبية:

Archives and Contemporary Journals

National Archives, Washington, *Dispatches from United States Consuls in Jerusalem, Palestine, 1856-1906,* M453, 5 rolls.

Palestine Exploration Fund, Quarterly Statement.

Journal of the Palestine Oriental Society. (See footnotes for details).

Books and Articles

Abu-Husayn, Abdul-Rahim, *Provincial Leaderships in Syria, 1575-1650,* Beirut, American University of Beirut, 1985.

Bakhit, M. Adnan, *The Province of Damascus in the Sixteenth Century,* Beirut, Librairie du Liban, 1982.

Baldensperger, Philip J., «The Immovable East», *Palestine Exploration Fund, Quarterly Statement* (see footnotes for details), 1917, 1918.

———, *The Immovable East, Studies of the people and customs of Palestine,* edited by Frederic Lees, London, Isaac Pitman, 1913.

El-Barghuthi, Omar Effendi, «Judicial Courts among the Bedouin in Palestine», *Journal of the Palestine Oriental Society,* Vol. II, No. 1 (January, 1922), pp. 34-65.

Bergheim, Samuel, «Land Tenure in Palestine», *Palestine Exploration Fund, Quarterly Statement,* (1894).

Bovet, Félix, *Voyage de Terre Sainte,* 8ème edition, Paris, Calmann Levy, 1895.

Bowring, John, *Report on the Commercial Statistics of Syria,* London, William Clowes and Sons, 1840 (reprinted New York, Arno Press, 1973).

Burckhardt, John Lewis, *Travels in Syria and the Holy Land,* London, Murray, 1822.

Charmes, Gabriel, *Voyage en Palestine, Impressions et Souvenirs,* Paris, Calmann Levy, 1891.

Chateaubriand, François, Vicomte de, *Cahiers Chateaubriand, Journal de Jérusalem,* notes inédites publiées par Georges Moulinier et Amédie Outrey, Paris, Librairie Classique Eugène Belin, 1950.

Conder, Claude R., «The Present Condition of Palestine», *Palestine Exploration Fund, Quarterly Statement* (1879).

Fawaz, Leila, *Merchants and Migrants in Nineteenth Century Beirut,* Harvard University Press, 1983.

Finn, E., «The Fellaheen of Palestine: Notes on their clans, warfare, religion and laws», *Palestine Exploration Fund, Quarterly Statement* (1879).

Finn, James, *Stirring Times,* 2 vols., London, 1878.

Haddad, E.N., «Blood Revenge among the Arabs», *Journal of the Palestine Oriental Society,* Vol. I, No. 2-3 (June 1921).

———, «Political Parties in Syria and Palestine (Qaisi and Yemeni)». *Journal of the Palestine Oriental Society,* Vol. I, No. 4 (September 1921).

———, «The Guest house in Palestine», *Journal of the Palestine Oriental Society,* Vol. II, No. 4 (December 1922).

Hillelson, S., «Notes on the Bedouin Tribes of Beersheba District», *Palestine Exploration Quarterly,* (1937).

Karpat, Kemal H., «Ottoman Population Records and the Census of 1881/82-1893, *International Journal of Middle Eastern Studies,* 9 (1978).

Khoury, George, *The Province of Damascus, 1783-1832,* Ph.D. Dissertation, University of Michigan, 1970 (unpublished).

Kitchener, H.H., «Journal of the Survey of Jerusalem, 23 November 1877», *Palestine Exploration Fund, Quarterly Statement,* (1878).

Klein, F.A., «Life, habits and customs of the Fellahin of Palestine», *Palestine Exploration Fund, Quarterly Statement* (1881).

Lamartine, Alphonse de, *Voyage en Orient,* 2 tomes, Paris, Hachette, 1855-1856.

Landau, J., «An Arabic Source for Late Ottoman History», *Economie et Sociétés dans l'Empire Ottoman (fin du XVIIIe-début du XXe Siècle),* eds., J-L. Bacqué-Grammont et Paul Dumont, Paris, 1983.

Lynch, W.F., *Narrative of the U.S. Expedition to the River Jordan and the Dead Sea,* Philadelphia, 1849.

Macalister, R.A.S., and Masterman, E.W.G., «Occasional Papers on the Modern Inhabitants of Palestine», *Palestine Exploration Fund, Quarterly Statement,* (1905-1906).

Mandel, Neville, *The Arabs and Zionism before World War I,* California, University of California Press, 1980.

Nijeholt, T.M. Chevalier Lycklama A., *Voyage en Russie, au Caucase et en Perse, dans la Mésopotamie, le Kurdistan, la Syrie, la Palestine et la Turquie, exécuté pendant les années 1866, 1867 et 1868,* 4 tomes, Paris, Amsterdam, van Langenhuysen, 1872-1875.

Northley, A.E., «Expedition to the east of the Jordan», *Palestine Exploration Fund, Quarterly Statement,* (1872).

Owen, Roger, *The Middle East in the World Economy, 1800-1914,* London, Methuen, 1981.

———, (editor), *Studies in the Economic and Social History of Palestine in the Nineteenth and Twentieth Centuries,* Oxford, St. Antony's / Macmillan Series, 1982.

Polk, William, *The Opening of South Lebanon, 1788-1840,* Harvard. University Press, 1963.

Rafeq, Abdul-Karim, «Changes in the relationship between the Ottoman central administration and the Syrian Provinces», *Studies in Eighteenth Century Islamic History,* eds. T. Naff and R. Owen, Southern Illinois University Press, 1977.

———, «The Impact of Europe on a traditional economy: the case of Damascus, 1840-1870», *Economie et Sociétés dans l'Empire Ottoman (fin du XVIIIe-début du XXe Siècle),* eds. J-L Bacqué-Grammont et Paul Dumont, Paris, CNRS, 1983.

———, «Land Tenure problems and their social impact in Syria around the middle of the nineteenth century», *Land Tenure and Social Transformation in the Middle East,* ed. Tarif Khalidi, Beirut, American University of Beirut, 1984.

———, *The Province of Damascus, 1723-1783,* Beirut, Khayat's, 1970.

Rustum, Asad, «Akka (Acre) and its Defences», *Palestine Exploration Fund, Quarterly Statement* (1926).

———, *The Royal Archives of Egypt and the Disturbances in Palestine 1834,* Beirut, American Press, 1938.

Schölch, Alexander, «European Penetration and the Economic Development of Palestine, 1856-82», *Studies in the Economic and Social History of Palestine in the Nineteenth and Twentieth Centuries,* ed. Roger Owen, Oxford, St. Antony's/Macmillan Series, 1982.

———, «The Decline of Local Power in Palestine after 1856, the Case of ᶜAqil Aga», *Die Welt des Islam,* XXIII and XXIV (1984).

———, «The Demographic Development of Palestine, 1850-1882», *International Journal of Middle Eastern Studies,* 17 (1985).

Schumacher, G., «Population List in the Livā of ᶜAkkā», *Palestine Exploration Fund, Quarterly Statement* (1887).

Seetzen, M.V.J., «Mémoire pour arriver à la connaissance des tribus arabes en Syrie», *Annales des Voyages de la Géographie et de l'Histoire,* VIII (Paris, 1809).

Spyridon, S.N., «Annals of Palestine, 1821-1841», *Journal of the Palestine Oriental Society,* Vol. XVIII (1938).

Stein, Kenneth, *The Land Question in Palestine,* North Carolina, University of North Carolina Press, 1984.

Vogüé, le Vicomte Eugène-Melchior de, *Syrie, Palestine, Mont Athos, Voyage aux pays du passé,* Paris, Plon, 1922.

Voll, John, «The Non-Wahhabi Hanbalis of Eighteenth Century Damascus», *Der Islam,* Vol. 49, No. 2 (November 1972).

Watson, Colonel Sir C.M., «Bonaparte's Expedition to Palestine in 1799», *Palestine Exploration Fund, Quarterly Statement* (1917).